بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

ح مكتبة التوبة، ١٤١٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الأندلسي، أحمد محمد عبد ربّه
المنتقى المفيد من العقد الفريد تحقيق صالح علي الربع السلمي التميمي ـ الرياض
... ص؛ ... سم
ردمك ١ ـ ٧ ـ ٩٠٤٥ ـ ٩٩٦٠
١ ـ الأدب العربي ـ موسوعات ٢ ـ الأدب العربي ـ مجموعات
أ ـ التميمي، صالح علي الربع السلمي (محقق) ب ـ العنوان
ديوي ٨١٠,٧ ١٦/٣٢١٤
رقم الإيداع: ١٦/٣٢١٤
ردمك: ١ ـ ٧ ـ ٩٠٤٥ ـ ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

obeikandl.com

المنتقى المفيد

من

العقد الفريد

الجزء الأول

لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

ت/ ٣٢٨ هـ

خرج أحاديثه وانتقاه وعلق عليه

أبو الوليد صالح بن علي بن محمد الربع السليمي التميمي

مكتبة

التوبة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى التي كانت لي خير معين - بعد الله عز وجل - في تهذيب هذا الكتاب، إلى أم الوليد.. أهدي هذا الجهد المتواضع، سائلاً الله عز وجل أن يجعله في ميزان أعمالنا، وأن ينفع به الجميع.

أبو الوليد

obeikandl.com

obeikandl.com

تقديـــم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم.

أما بعـــد:

فـإن تراثنا العربي يزخر بأنواع من جواهر الآداب وجوامع البيان مابين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة، وحكمة بليغة، وخبر طريف.

جمـع فيها مصنفوها لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، والمتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء، وسير الملوك، وآثار السلف.. واجتهد كل مؤلف في تحلية كتـابـه بما اختـاره من الجواهر الحسان وتوشيحه بما انتقاه من الدرر اللوامع، فاخرجوا لنا كماً هائلاً من كتب الأدب والشعر والبلاغة والحكمة.. أفاد منها طلاب العلم ودارسوا اللغة العربية على مر العصور وتتابع الأزمنة.

وهـذه الأعـمال العلمية الجليلة إنـما هي نتـاج أفكـار وثمرة جهود ونتيجة اجتهـاد.. ومن تلك الكتب التي أخـذت حظها من الشهرة كتاب (العقد) للفقيه الأديب الشاعر/ أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة (٣٢٨هـ) الـذي جمعه مؤلفه ـ رحمه الله ـ من كلام السابقين واختار جواهره من ألفاظ السـابقـين واختصره من بديع معـاني المتقـدمـين.. وليس له فيه إلا تأليف الاختيار، وحسن الاختصار.

وماسـواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور الحكماء والأدباء..

وكمـا يقول ابن عبد ربه فإن اختيار الكلام أصعب من تأليفه.. وقد قالوا اختيار الرجل وافد عقله.

وقـد يحتـاج المختصر إلى اختصـار والمتخـير إلى اختيار كما يؤكد على ذلك صاحب العقد في مقدمة كتابه ومن هنا جاءت فكرة اختيار الأستاذ/ أبي الوليد

obeikandl.com

صالح بن علي بن محمد الربع السلمي التميمي وفقه الله في الانتقاء من هذا الكتاب التراثي القيم. . ولعل هذا الانتقاء يتفق مع ماأورده المؤلف في مقدمة العقد من كلام جميل لابن سيرين حيث يقول: [وقال ابن سيرين: (العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه، وفيما بين ذلك سقطات الرأي وزلل القول ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوة)].

وقد عمد المنتقي ـ وفقه الله ـ إلى تلك السقطات وذلك الزلل فحذفه، كالقصص التي فيها إساءة للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أو القصص التي فيها مجافاة للأخلاق الفاضلة أو الأشعار الماجنة التي تدعوا إلى الرذيلة أو فيها هجاء مقذع أو طعن في الأنساب وما إلى ذلك. . ولعل صاحبنا بصنيعه هذا قد حقق رغبة مؤلف الكتاب الذي تاب في آخر حياته وحرص على معارضة كل قصيدة قالها في اللهو والغزل بقصائد في الزهد على نفس الوزن والقافية وسماها (الممحصات).

كما أن المنتقي ـ وفقه الله ـ قد قدم للكتاب خدمة جليلة حيث خَرَّج أحاديثه وبين صحيحها وضعيفها وهو بعمله هذا يقدم خدمة كبيرة لمحبي الأدب ودارسي العربية مع بقاء الكتاب الأصلي بصورته التي وضعها عليها مؤلفه في رفوف المكتبات لمن يرغب في الرجوع إليه من الباحثين والدارسين.

وصاحبنا أبو الوليد ليس أول من قام بمثل هذا الانتقاء فهذا المنهج معروف لعلمائنا ولهم فيه مؤلفات ومصنفات تعرف بالاختيار أو المختارات والانتقاء والتهذيب والاختصار وهو منهج علمي مطروق. .

ولقد اطلعت على عمل أبي الوليد فألفيته جهداً طيباً وعملاً مباركاً وصنيعاً حسناً آمل أن يواصل عمله في كتب تراثية أخرى، سائلاً المولى ـ عز وجل ـ أن يجزيه خير الجزاء وأن يبارك في جهوده ويجعل أعمالنا جميعاً خالصة لوجهه ـ إنه سميع مجيب ـ.

كتبه

د. إبراهيم بن محمد أبو عباة

obeikandi.com

تقديم

الحمد لله القائل: «ولا تعملون من عمل إلاّ كُنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه..» والصلاة والسلام على من أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

وبعد، فإن الأدب العربي تراث زاخر، أفاض عليه الإسلام من عالميته والتزامه لباس خلود لم يزل منه في تفرد وجِدَّة بين الآداب، قديمها ومحدثها.

ولا تكاد ترى بين آداب العالم تلك اللمسات الإنسانية التي صقلها وحي السماء، فانسابت سحراً حلالاً من الشعر والنثر على أفواه قائليها في كل مناسبة وموقف، تصف الشيء وضدّه، وتحصي حتى خلجات النفس ومستتراتها قوةً وضعفا.

وخلال مدّة وجيزة في عمر الآداب، رأينا تلك الصبغة تجوب الآفاق في المشرق والمغرب، مع الفاتحين أو الداخلين الإسلام من أهل القرى، لتصبغ أدب تلك البلاد بهذه الصبغة الخالدة.

ورأينا أيضاً في أقطار الإسلام المعمورة شعراء وأدباء، كانوا بمثابة العيون المتدفقة، التي راحت تصب جداولها في بحر الأدب العربي، حتى طغى وأزبد، واحتاج معه إلى مصنفات تجمع سواحله وأقطاره، وتصف مجاهله وأغواره.

وكتاب العقد الفريد، لأحمد بن عبد ربه الأندلسي، واحد من تلك المصنفات التي تمتع قارئها بتلك الجواهر الفريدة التي تشهد بأصالة هذا الأدب وخلوده.

ولا ينكر أن جامعي شوارد الأدب ونوادره في كل عصوره كانوا مبهورين بما هم عليه من تراث زاخر، وكمٍّ هائل من صنوف الشعر والنثر، في كل لون وفن، ويمكن تشبيهه بما شَبَّه به رسول الله ـ ﷺ ـ الدنيا وأهلها في حديثه الذي ذهب مذهب المثل: «إن مِمّا ينبت الربيع ما يقْتُل حَبَطاً أو يُلِمّ». فهو كنبات الربيع المتخلف عن مطر وابل، لكن الماشية حين تروح ترعاه لا تميز بين طيّب النبات وخبيثه، فهي تأكله

جميعاً، وربما أصابها من جرّاء ذلك الحَبَطُ أو الحابط، وهو انتفاخ بطنها وفساد ما في أمعائها جميعاً.

ومن هنا يجيء واجب الانتقاء والاختيار لمصنفات ذلك التراث العظيم، لأسباب كثيرة، لعل من أهمها إزالة ما شاب هذا التراث من شوائب العصبيات والملل والنحل والنزغات والأهواء، والتثبت فيه من رواية حديث النبي ـ ﷺ ـ إذ يلاحظ عدم التثبت من ذلك في معظم مصادر الأدب إن لم يكن جميعها.

إن ذلك الاختيار والانتقاء يجنِّبنا ما يكون في حطب الليل أو نبت الربيع من قرائن قد يكون ضرُّها أقربُ من نفعها، وفسادها أكبر من صلاحها، ونكون بذلك قد أحسَنّا وراثة هذا التراث لنقدمه للناشئة عذباً زلالاً منتقى، ولا ضير في ذلك فقد انتقى أسلافنا ـ في هذا اللون من المؤلفات ـ مصنفاتهم ومختاراتهم.

ولعل أخي أبالوليد قد أحسن بما فعله من انتقاءٍ لمواد هذا العقد الفريد، وبما حققه فيه من أحاديث النبي ـ ﷺ ـ سائلاً الله أن ينفع بجهده، وأن يجعله في ميزان حسناته إنه سميع قريب مجيب.

دكتور
أحمد أحمد غريب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـد:

فإن فكرة انتقاء كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ـ رحمه الله ـ قد بدأت منذ دراستي الجامعية، وبالتحديد عند التحاقي بكلية الآداب عام ١٤٠٠هـ، حيث تناولت هذا الكتاب وقتها بالقراءة. وعند قراءتي له لاحظت أنه ـ رغم أهميته في موضوعه ومادته، وشهرته بين كتب الأدب ـ يحتوي على الكثير من الأحاديث التي تحتاج إلى تخريج لبيان الصحيح منها والضعيف، كما يحتوي على بعض القصص والمختارات التي تسيء إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وخاصة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. فضلاً عن احتوائه على كثير من القصص والأشعار الماجنة التي تعتبر قراءتها مضيعة للوقت مفسدة للأخلاق.

وقد رأيت أن حذف مثل هذه القصص والأشعار الماجنة يكون بمثابة عملية تنقية لهذا العقد الفريد من المعادن الرديئة، وتصفية له من الشوائب التي تحجب بعضاً من لمعانه وتطفيء جوانب من بريقه، وذلك حتى يمكن إعادة تقديمه بلآلئه وياقوته وزمرده، كما تمناه صاحبه ـ رحمه الله ـ، ولعلي بهذا الفعل أكون قد حققت لابن عبدربه ـ رحمه الله ـ أمنية كانت في نفسه، حيث أخبر من أرَّخُوا عنه ـ كما سيأتي ـ أنه كان يشتغل في حداثته بالشعر ويجري في مضمار اللهو والطرب، ثم أقلع في كبره عن صبوته، وأخلص لله في توبته، فاعتَدَّ أشعاره التي قالها في الغزل واللهو عملاً باطلاً وعمل على أعاريضها وقوافيها قصائد في الزهد يعارضها بها وسماها «الممحصات» ولعله فعل ذلك حين أصيب في كبره بالفالج، ومن يدري فلربما كان قد فعل ذلك أيضاً بعقده الفريد لو امتد به الأجل، فرفع عنه ما رَفَعْتُه، وانتقى منه ما انتقَيْتُه.

لقد تصدى لهذا الكتاب أساتذة كبار قاموا بتحقيقه وبذلوا جهدهم ووقتهم لدراسته وتصحيحه ومن أوائل هؤلاء الأستاذ محمد شفيع أستاذ العربية في جامعة البنجاب بالهند.

ولعل أول من قام بإخراج هذا الكتاب إخراجاً علمياً متقناً في تحقيق لا ينقصه إلا تخريج الأحاديث النبوية وبيان صحيحها وضعيفها هم الأساتذة: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ وجاء من بعدهم الدكتور مُفيد محمد قميحة ثم الأستاذ علي شيري ثم الأستاذ محمد سعيد العريان.

وقد استفدت من أعمال هؤلاء الأساتذة ولم آت بجديد إلا في تخريج الأحاديث وحذف الشوائب التي سبق ذكرها، فلم أرجع إلى المخطوطات حيث رأيت أنه يكفي ما قاموا به، لما وقفت عليه من دقتهم في التثبت والتحقيق والمقابلة، والشرح والتعليق.

لقد بدأت في العمل بهذه المهمة في شهر ذي القعدة من عام ١٤١٢هـ، وكانت خطة العمل فيه ترتكز على تخريج الأحاديث الشريفة التي أوردها المؤلف رحمه الله وبيان الصحيح منها والضعيف، وحذف بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، التي لم تنتشر بين عامة الناس، وأما ما كان منتشراً منها بين العامة فقد أبقيت عليه وعلقت عليه لأجل الفائدة.

كما عملت على حذف ما يسيء إلى الصحابة رضوان الله عليهم، والخلفاء، خاصة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، والخليفة العباسي هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ وكذلك ما يسيء إلى بعض العلماء والسلف الصالح. كما قمت بحذف الأشعار والقصص الماجنة التي تعد أحد أسباب فساد الأخلاق وشيوع الفاحشة بين الناس، مثلها مثل ما عليه أهل جيلنا اليوم من مشاهدة الأفلام الهابطة التي تهدم الأخلاق وتربي الأجيال على الخلاعة والمجون، فهي في نظري بمثابة السُّم في هذه الوجبة الدسمة التي لا يفطن إلى مكانها كل متناول لها.

كذلك قمت بحذف بعض الأشعار التي تحمل هجاءً لبعض القبائل أو الأفراد

وتطعن في الأنساب وهو من أمور الجاهلية التي حرمها الإسلام.

وقد حرصت جهدي أن يظهر هذا الكتاب بهذه الصورة، ليستفيد منه هذا الجيل والأجيال القادمة ـ إن شاء الله ـ بعيدين كل البعد عن الشوائب التي تكدر صفو أدبنا العربي الإسلامي الرائع.

وأتمنى أن يكون ذلك منهج اللاحقين في التعامل مع أدبنا وتاريخنا فيكون جُلُّ همهم أن يعملوا على تنقيته مما علق به من الشوائب والعوالق الكريهة، خاصة في مجال الأدب، وبهذا العمل سيصبح لدينا إن شاء الله مكتبة مليئة بكنوز الأدب غالية الثمن تكون مرجعاً لدارسي الأدب ومحبيه من أساتذة وطلاب علم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنني لست بأول من تعرض لكتاب العقد بالانتقاء أو الاختصار، فهناك مختصرات للعقد ومختارات منه كما ذكر ذلك بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي حيث ذكر أنه يوجد مختصر العقد لأبي إسحاق إبراهيم بن عبدالرحمن الرياشي المتوفى سنة ٥٧٠هـ كما يوجد مختصر للعقد مصنفه مجهول، وكذلك مختار العقد الفريد، تصنيف: عبدالحكم محمد وعبدالخالق عمر وعبدالعزيز خليل ومحمد الخضري، وهناك أيضاً اختيارات من العقد الفريد لفؤاد أفرام البستاني[1]. إذاً فإن اختصار الكتب وانتقاءها ليس بحديث عهد، بل لقد بدأه الأولون من علماء السلف الصالح فهناك كتاب المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري[2]، كذلك كتاب المنتقى الثمين من كتاب مدارج السالكين، وكان ابن القَيِّم رحمه الله قد اختصر كتاب منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي وأسماه مدارج السالكين، وهذا الشيخ محمد بن الموصلي اختصر كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، وهذا ابن واصل الحموي اختصر كتاب الأغاني

---

(١) انظر كارل بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي» ٣/١٤١.

(٢) مختصر الترغيب والترهيب ـ انتقاه الحافظ ابن حجر والكتاب مطبوع بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

لأبي فرج الأصفهاني وأسماه تجريد الأغاني (١).

وهذا الحافظ الذهبي رحمه الله انتقى من كتاب منهاج السُنَّة النبوية وأسماه المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال. وهناك العديد من المختصرات لتفسير الكشاف للإمام الزمخشري ولعل سيد هذه المختصرات هو تفسير أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي وللشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله مختصر زاد المعاد ومختصر السيرة النبوية وغير ذلك كثير.

وفي عصرنا الحاضر اختصر الشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح أحمد رضا تفسير الطبري كما اختصر الصابوني تفسير ابن كثير، وللشيخ محمد بن صالح العثيمين مختارات من زاد المعاد، واختصر الاستاذ عبدالسلام هارون السيرة النبوية لابن هشام «تهذيب سيرة ابن هشام».

لقد اختصرت كتباً في علوم الشريعة أو انتقي منها وكثير منها لا يوجد بها عيوب أو شوائب مخلة كما هو موجود في كثير من كتب الأدب.

وأخيراً أشكر كل من أعانني على هذا العمل من علماء وأساتذة وطلاب علم داعياً الله عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يجعله في موازين أعمالهم يوم القيامة وأخص بالشكر منهم الأخ العزيز الدكتور أحمد غريب الذي قام بمراجعة ومتابعة هذا الكتاب، كما أسأله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به الجميع والله ولي التوفيق.

أبو الوليد

الاثنين ٢٧/ ٦/ ١٤١٦هـ

الرياض

---

(١) كذلك كتاب مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ـ اختيار ابن منظور محمد بن مكرم ـ حققه إبراهيم الابياري.

ترجمة
ابن عبد ربه الأندلسي

نسبه :

هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدَيْر بن سالم القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي . ويذكر الذهبي أن جَدَّه الثالث حُدَيْر بن سالم كان مولى لهشام .

وكنية ابن عبد ربه (أبو عمر)، وهو من أهل العلم والأدب والشعر، وقد ترجم له عدد من المؤرخين والأدباء[1] .

---

(١) انظر الحميدي : «جذوة المقتبس» ص١٠١ ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م . وانظر ابن خاقان : «مطمح الأنفس» ص٢٧٠ ـ ٢٧٥ مؤسسة الرسالة . وانظر الثعالبي : «يتيمة الدهر» ج٢ ص٥ـ١٠ وص٧٥ـ١٠٢ تحقيق محمد عبد الحميد . وانظر ابن حيان : «المقتبس» . وانظر ابن الفرضي : «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» ج١ ص٤٩ طبعة ١٣٧٣هـ . وانظر ياقوت الرومي : «أرشاد الأريب» ج٢ ص٦٧ . وانظر ابن خلكان : «وفيات الأعيان» ج١ ص١١٠ـ١١٢، دار الثقافة ـ بيروت، وانظر الضبي : «بغية الملتمس» ص١٤٨، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ . وانظر جلال الدين السيوطي : «بغية الوعاة» دار المعرفة ـ بيروت . وانظر المقريّ التلمساني : «نفح الطيب» ج٩ ص٢٦٠ دار الكتاب العربي ـ بيروت . وانظر اليافعي : «مرآة الجنان» ج٢ ص٢٩٥ . وانظر الذهبي : «سير أعلام النبلاء» ج١٥، ص٢٨٣، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، وللذهبي : «العِبَر في خبر من غبر» ج٢ ص٢٩ دار الكتب العلمية ـ بيروت . وانظر ابن تغري بردي : «النجوم الزاهرة» ج٣ ص٣٢٨، مطابع كوستاتسوماس ـ القاهرة . وانظر ابن العماد الحنبلي : «شذرات الذهب» ج٢ ص٣١٢، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . وانظر ياقوت الحموي : «معجم الأدباء» ج٤ ص٢١١، دار إحياء التراث العربي بيروت . وانظر ابن كثير: «البداية والنهاية» ج١١ ص٢٠٦، دار الريان للتراث القاهرة ١٤٠٨هـ . وانظر صلاح الدين الصفدي : «الوافي بالوفيات» ج٨ ص١٠، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ . وانظر الزركلي : «الأعلام» ج١ ص٢٠٧ دار العلم للملايين . وانظر كارل بروكلمان : «تاريخ الأدب العربي» ج٣ ص١٣٩، الطبعة الثالثة ـ جامعة الدول =

مولده ونشأته :

ولد ابن عبد ربه في العاشر من شهر رمضان سنة ٢٤٦ هـ الموافق للتاسع والعشرين من نوفمبر عام ٨٦٠م، ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس مختلف العلوم من فقه وتفسير وحديث ونحو وعروض على أيدي علمائها، كما قرأ رسائل المحدثين من المشارقة، وكان من المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس وكان شاعراً مطبوعاً وقد وصفه المتنبي بمليح الأندلس، وقال فيه عندما سمع شيئاً من شعره: «ياابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً». وكان لابن عبد ربه مكانة عالية عند خلفاء بني أمية في الأندلس حيث لازم الأمير عبد الله ومدحه بمدائح، وبعد وفاة الأمير عبدالله سنة ٣٠٠هـ تولى بعده الأمير عبد الرحمن الناصر فلازمه ابن عبد ربه ومدحه كما وضع أرجوزة في مغازيه وذكر بها أحداث كل سنة حتى سنة ٣٢٢هـ.

وقد تلقى تعليمه على أيدي علماء بلاده، وأشهر شيوخه أربعة هم: الخشني وابن وضَّاح وبَقِيّ بن مخلد وعثمان بن المثنى.

يقول الحميدي: «وكان لأبي عمر بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانته وصيانته، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فَسَادَ بعد خمول، وأثرى بعد فقر، وأُشير بالتفضيل إليه، إلا أنه غلب الشعر عليه»(١).

ويقول ابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة في ابن عبد ربه: «كان أديب الأندلس وفصيحها، مدح ملوك الأندلس، وكان صدوقاً ثقة»(٢).

= العربية. وانظر كارل بروكلمان: «دائرة المعارف الإسلامية» ج١ ص٢٢٣. وانظر عمر فروخ: «تاريخ الأدب العربي» ج٤ ص٢١٠، دار العلم للملايين. وانظر أحمد حسن الزيات: «تاريخ الأدب العربي» ص٢٣٤ دار المعرفة ـ بيروت وانظر الهاشمي: «جواهر الأدب» ج٢ ص١٧٥ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر. وانظر جبرائيل سليمان جبور: «ابن عبد ربه والعقد». وانظر أفرام البستاني: «سلسلة الروائع: ابن عبدربه وكتابه». وانظر د. محمد رضوان الراية: «ديوان ابن عبدربه».

(١) الحميدي: المصدر السابق ص١٠١.

(٢) ابن تغري بردي: «النجوم الزاهرة» ج٣ ص ٣٢٨.

وفاتــه :

أصيب ابن عبد ربه في آخر حياته بالفالج «الشلل» ثم توفي في الثامن عشر من جمادي الأولى سنة ٣٢٨هـ الموافق للثالث مارس من عام ٩٤٠م. ويذكر الحميدي أن ابن عبد ربه قال أبياتاً قبل موته بأحد عشر يوماً وهو آخر شعر قاله، وفيه بيان عمره:

كلانـي لما بي عاذلـيَّ كفـانـي ... طويـت زمـاني برهـة وطـواني
بليتُ وأبلتني الليـالي وكـرُّهَـا ... وصَرْفَـان للأيـام مُعْتَـورَان
ومـالي لا أبـلى لسبعـين حِجَّـة ... وعشر أتـت من بعـدهـا سنتـان
فلا تسـألاني عن تبـاريـح علتي ... ودونـكـما مني الـذي تَرَيَـان
وإني بحـمـد الله راجٍ لفـضـله ... ولي من ضمان الله خير ضمان
ولست أبـالي عن تبـاريـح علتي ... إذا كان عقـلي باقـيـاً ولـسـاني
هما ما هما في كل حال تلم بي ... فذا صارمي فيهـا وذاك سنـاني[1]

ويلاحظ في هذه الأبيات أن ابن عبد ربه رحمه كان صابراً على قضاء الله وقدره بالمرض الذي أصابه، كما يلاحظ إيمانه وثقته بالله عز وجل وعدم يأسه من رحمة الله. رحم الله أبا عمر رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

توبتــه :

عرف عن ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ حُبَّه للغناء والطرب، وميله لأشعار الغزل والمجون، وقد حوى كتابه العقد الفريد أمثلة على ذلك. ويذكر الحميدي وغيره[2] أن ابن عبد ربه قال شعراً في فتى كان يألفه عزم على الرحيل فمنعه المطر من السفر فكتب إليه ابن عبد ربه:

هلا ابتكـرتَ لبَيْـن أنت مبتكـر ... هيهـات يأبى عليـك الله والقَـدَرُ

---

(١) الحميدي: المصدر السابق ص١٠٣، وص١٠٤.

(٢) انظر الحميدي: «جذوة المقتبس» ص١٠١. والضبي: «بغية الملتمس» ص١٤٨. وانظر المقري: «نفح الطيب» ج٩ ص٢٦١. وياقوت الحموي: «معجم الأدباء» ج٤ ص٢١٥.

مازلت أبكي حذار البين ملتهفاً ... حتى رثى لِيَ فيك الرِّيحُ والمطر
يا بردة من حَيَا مُزْنٍ على كبد ... نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت أن لا أرى شمساً ولا قمراً ... حتى أراك فأنت الشمس والقمر

لكنه في آخر عمره تاب إلى الله وترك ما هو عليه من حياة اللهو والتفريط، ونَقَضَ أشعاره وقصائده التي قالها في الغزل واللهو بأشعار وقصائد في الزهد سماها بالمَمَحِّصَات، ولعل أصابته بالفالج كانت سبباً في توبته.

يقول المقرِّي صاحب نفح الطيب: «وفي أيام إقلاعه عن صبوته، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوبته، وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته، محَّصَ أشعاره في الغزل بما ينافيها، ونصل من قوادمها وخوافيها، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها، منها القطعة التي أولها: هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر؛ محصَّهَا بقوله:

ياراقد العين يغفو حين يقتدر ... ما الذي بعد شيب الرأس ينتظر
عاين بقلبك إن العين غافلة ... عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تَزْفُر من غيظ إذا سَفَرت ... للظالمين فلا تُبْقِي ولا تَذَرُ
لو لم يكن لك غير الموت موعظة ... لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئاً ... هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر[1]

وله أبيات في أخريات أيامه أظهر فيها ندمه ورجوعه عن غَيِّه وإسرافه، وطلب العفو من الله:

ياويلتا من موقف ما به ... أخوف من أن يعدل الحاكم
أبَارزُ الله بعصيانه ... وليس لي من دونه رَاحِمُ
يارب عفواً منك عن مذنب ... أسرف إلا أنه نادم

شعره ونماذج منه:

عُدَّ ابن عبد ربه من الشعراء، يقول ابن الفرضي «هو شاعر الأندلس وأديبها»[2]

---

(١) المقري: المصدر السابق ج٩ ص٢٦٣.

(٢) ابن الفرضي: «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» ج١ ص٥٠.

ويقول الحميدي: «شعره كثير مجموع، رأيت منه نيفاً وعشرين جزءاً»[١]. ويصف الثعالبي شعر ابن عبد ربه فيقول: «شعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة»[٢].

وكان أغلب شعر ابن عبد ربه في المدح والغزل، حيث كان يمدح أمراء بني أمية، حكام الأندلس، ويعاب على شعره في المدح أن فيه بعض التكلف والمبالغة وأما شعره في الرثاء فهو رقيق صادق، وقد قال أكثره في أهله.

وأما هجاؤه ففيه فكاهة ودعابة وشيء من الإقذاع أحياناً. كما أن له شعراً في وصف الطبيعة لكنه لا يرقى إلى مستوى شعراء الأندلس.

وفي آخر حياته أكثر من شعر الزهد، حيث عارض أشعاره التي قالها في اللهو والغزل بقصائد في الزهد على نفس الوزن والقافية وسماها الممحِّصَات. كما له أرجوزة في غزوات عبد الرحمن الناصر وأبياتها أربعمائة وخمسة وأربعون بيتاً[٣].

ويصف عمر فروخ شعر ابن عبد ربه فيقول: «يغلب على شعره منطق العلماء، ومع ذلك فنحن نجد على شعره شيئاً من الطلاوة، وليس في شعره من الصناعة إلا ما جاء عفواً، مع وجود شيء من التكلف المعنوي فيه».

ثم يقول: «شعر ابن عبد ربه قصيد ورجز»[٤] وتذكر المصادر أن المتنبي عندما التقى بأبي الوليد بن عسال قال له: أنشدني لمليح الأندلسي يعني ابن عبد ربه، فأنشده أبو الوليد: «يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً» فلما أكمل إنشادها استعارها منه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً[٥].

وقد تفرق شعر ابن عبد ربه في كثير من الكتب الأندلسية وبعضه أورده ابن

---

(١) الحميدي: المصدر السابق ص١٠١، وانظر الضبي: «بغية الملتمس» ص ١٤٨.

(٢) الثعالبي: «يتيمة الدهر» ج٢ ص٧٥.

(٣) انظر عمر فروخ: «تاريخ الأدب العربي» ج٤، ص٢١١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) انظر المقري: «نفح الطيب» ج٩ ص٢٦١. وانظر ياقوت: «معجم الأدباء» ج٤ ص٢٢٢.

عبد ربه في كتابه العقد الفريد، وكثير منه مفقود كما فقد غيره من الآثار والمصادر الأندلسية.

ويذكر الحميدي أنه اطَّلَع على نيفٍ وعشرين جزءاً من جملة ما جُمِعَ للحكم بن عبد الرحمن الناصر[١].

وقد جمع الثعالبي الكثير من شعر ابن عبد ربه في كتابه يتيمة الدهر[٢].

وفي عصرنا الحاضر ظهر ديوان ابن عبد ربه مجموعاً ومحققاً بشرح الدكتور محمد رضوان الداية. وقد ذكر في مقدمته أن ديوان ابن عبد ربه كان في القرن الخامس الهجري بين يدي مؤرخ الأندلس الشهير ابن حيان في كتابه المقتبس[٣].

ومن شعره في الزهد :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا أخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جَانبُ
هي الدار ماالآمال إلَّا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب
وكم سخنت بالأمس عينٌ قريرةٌ ... وقَرَّت عيونٌ دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك فيها بعَبْرةٍ ... على ذاهب منها فإنَّك ذاهبُ

وله في الزهد :

أتلهو بين باطِيَةٍ وزِيْر ... وأنت من الهلاك على شفير[٤]
فيا من غَرَّهُ أمل طويل ... به يردي إلى أجل قصير
أتفْرَحُ والمنية كل يوم ... تريك مكان قبرك في القبور
هي الدنيا وإن سَرَّتْكَ يوماً ... فإن الحزن عاقبة السرور
ستسلب كل ما جَمَّعْتَ فيها ... بعارية تُرَدُّ إلى مُعِير
وتعتاض اليقين من التظَنِّي ... ودار الحق من دار الغرور[٥]

---

(١) الحميدي: المصدر السابق.

(٢) الثعالبي: المصدر السابق.

(٣) د. محمد رضوان الداية: «ديوان ابن عبد ربه» ص٧ ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٧هـ.

(٤) الباطية: الخمر وأوانيها، والزير: إناء الخمر وهو أيضاً نوع من الأوتار.

(٥) انظر الثعالبي: المصدر السابق ج٢ ص٨٠.

وقوله يرثي ولده:

واكبدا قد تقطعت كبدي ... وأحرقته لو اعج الكمد
ما مات حي لميت أسفاً ... أعذر من والد علي ولد
يارحمة الله جاوري جدثاً ... دفنت فيه حشاشتي بيدي[1]
ونوِّري ظلمة القبور على ... من لم يل ظلمه إلى أحد
أي حسام أخذت رونقه ... وأي روح نزعت من جسدي
يا لوعة لا يزال لاعجها ... يقدح نار الأسى على كبدي

وقال يرثيه:

لا بيت يسكن إلا فارق السكنا ... ولا امتلا[2] فرحاً إلا امتلا[2] حَزَنَا
لهفاً على ميت مات السرور به ... لو كان حياً لأحيا الدين والسننا
يا أطيب الناس روحاً ضمَّه بدن ... أستودع الله زاك الروح والبدنا
لو كنت أُعْطَى به الدنيا معاوضة ... منه لما كانت الدنيا له ثمناً

وله أشعار حسنة في وصف الحرب والسيف وكذلك في وصف الشيب والشباب سيأتي ذكرها في كتابه.

كتاب العقد الفريد:

يعد العقد الفريد من أشهر كتب المختارات أو المحاضرات، وهو من أمهات كتب الأدب، وهو مجموعة كبيرة من الاختيارات في الأخبار والأشعار والقصص مطعمة بأشعار لمصنفه. واسم الكتاب كما سماه مؤلفه ابن عبد ربه «العقد» وأما لفظ الفريد فقد أضافه النساخ المتأخرين، وعليه فإن أكثر المصادر التي تحدثت عن ابن عبد ربه تعرفه بصاحب العقد بدون ذكر لفظ الفريد عدا الأبشيهي صاحب المستظرف. وقد اعتمد ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ في تصنيف كتابه على كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة فقد سار على ترتيبه وتبويبه ونقل كثيراً من مضمونه دون عزو ذلك

---

(١) الجَدَث: القبر. الحشاشة: بقية الحياة (كناية عن ولده).

(٢) امتلا: أصله امتلأ ـ بالهمز ـ فخفف الهمزة بقلبها ألفاً لانفتاح ما قبلها.

إليه، وهذا ما يؤخذ عليه. يقول الأستاذ أحمد أمين: «تأثر ابن عبد ربه كثيراً بكتاب ابن قتيبة «عيون الأخبار» واستغله أعظم استغلال سواء في ترتيبه وتبويبه أو في مشتملات أبوابه، ولكنه غمطه حقه في التصريح بما أخذ عنه إلا في القليل النادر»[١] ويقول بروكلمان: «حاكى ابن عبد ربه كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وسطا على كثير من مضمونه دون ذكر المصدر»[٢] وكذلك استفاد ابن عبد ربه في تصنيف كتابه من كتاب البيان والتبيين للجاحظ ومن كتاب الكامل للمبرد، ومن كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع إضافة إلى دواوين الشعراء.

وقد اعترف ابن عبد ربه في مقدمة كتابه العقد الفريد أنه ليس له من تأليف كتابه إلا الاختيار وحسن الاختصار والتمهيد لكل كتاب مما اشتمل عليه العقد وهذا اعتراف صريح منه لكن كان لابُدّ من ذكر من أخذ منهم.

ويعد كتاب العقد الفريد من الكتب الجامعة التي اشتملت على كل فن، وقد قال عنه ابن خلكان: «هو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء»[٣] وبالغ صاحب نفح الطيب في وصف العقد، وذلك عند كلامه عن ابن عبد ربه حيث يقول: «له التأليف المشهور الذي سماه بالعقد، وحماه عن عثرات النقد لأنه أبرزه مُثَقَّف القناة[٤] مرهف الشباة[٥] تقصر عنه ثواقب الألباب وتبصر السحر منه في كل باب»[٦].

وتذكر بعض المصادر أن الصاحب ابن عباد لم يعجبه كتاب العقد عندما أطلع عليه، لأنه كان يظنه مشتملاً على تاريخ وأخبار الأندلس وأهلها. ويذكر ياقوت الحموي أن الصاحب ابن عباد سمع بكتاب العقد فحرص على اقتنائه فلما تأمله

---

(١) انظر مقدمة العقد تحقيق أحمد أمين وزملائه.

(٢) بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي» ج٣ ص١٤٠ الطبعة الثالثة.

(٣) ابن خلكان: «وفيات الأعيان» ج١ ص١١٠، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت.

(٤) القناة: الرمح، ومثقفها: معدلها ومُقَومها.

(٥) الشباة ـ بفتح الشين ـ طرف السنان، ومرهفها: محددها.

(٦) المقري التلمساني: «نفح الطيب» ج٩ ص٢٦٠.

قال: «هذه بضاعتنا رُدت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه فردَّه»[١]. ويرى الأستاذ أحمد أمين أن هذا ليس عيباً على الكتاب لأنه توجد بالأندلس مدرستان؛ واحدة تعني بأدب الأندلس وتدوينه ونشره. ويمثل هذه المدرسة الفتح ابن خاقان في كتابه مطمح الأنفس، وابن بسّام في كتابه الذخيرة، والمقري في نفح الطِّيْب. والمدرسة الثانية وتعني بنقل أدب المشرق لأهل الأندلس ويمثل هذه المدرسة أبو علي القالي ـ نزيل الأندلس.

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن كلا المذهبين يكمل بعضه بعضاً[٢]. والمتامل في كتاب العقد الفريد يجد أنه يضُمُّ أدباً أندلسياً من خلال شعر ابن عبد ربه الذي عارض به كثيراً من شعر أهل المشرق، كذلك تحدث عن تاريخ خلفاء بني أمية في الأندلس بدءاً بعبد الرحمن بن معاوية بن هاشم حتى عبد الرحمن بن محمد.

وله أرجوزة نظمها في مغازي عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٠٠هـ حتى سنة ٣٢٢هـ.

ويقيّم الأستاذ عمر فروخ كتاب العقد الفريد بقوله: «كتاب متعة يقرأ الإنسان فيه أخباراً طريفة حتى بلغت الحال بالمؤلف إلى أن روى أشياء من باب الخرافة. ثم إن المؤلف جمع موضوعات مختلفة في كتاب واحد ولكن أحسن تصنيف هذه الموضوعات وترتيبها وعرضها. وفي الكتاب نماذج جميلة من الشعر والنثر والأقوال. ثم إن المؤلف قصد العبرة الحسنة والتهذيب الخلقي، وإن كان قد أتى أحياناً بأشياء خارجة عن المألوف، والكتاب أيضاً مرجع بمثابة مصدر أي إن ابن عبد ربه أخذ أخباراً وأشعاراً من كتب ضاعت فأصبحنا لا نوف هذه الأخبار إلا من كتابه»[٣]. في كتابه الأمالي، وأتى بعده من تلاميذ هذه المدرسة ابن عبد ربه.

---

(١) ياقوت الحموي: «معجم الأدباء» ٤/٢١٥.

(٢) انظر مقدمة العقد الفريد ـ تحقيق أحمد أمين وزملائه.

(٣) عمر فروخ: «تاريخ الأدب العربي» ج٤ ص٢١٢.

وأهم العيوب التي تؤخذ على كتاب العقد الفريد هو ما ذكرناه في بداية المقدمة وملخصها: احتواؤه على كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ـ والإساءة إلى بعض الصحابة والخلفاء ـ بالإضافة إلى القصص والأشعار الماجنة.

نشر وطبع الكتاب:

نشر كتاب العقد الفريد في بولاق بالقاهرة عام **١٢٩٣**هـ وطبع في القاهرة في عام **١٣٠٢**هـ و**١٣٠٥**هـ، **١٣١٤**هـ، **١٣٢١**هـ، الموافق لعام **١٩١٣**م، **١٩٢٨**م، **١٩٣٥**م وتمتاز هذه الطبعات بكثرة الأخطاء من تحريف وتصحيف ونقص أو زيادة. ثم عني بنشره سنة **١٣٢٦**هـ ـ **١٩٤٠**م الأستاذ أحمد أمين وزملاؤه أحمد الزين وإبراهيم الإبياري في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة[1]. والحق يقال أنهم قاموا بعمل رائع نحو هذا الكتاب، فقد أخرجوه إخراجاً علميا متقناً مصححين أغلاطه ومعارضين نسخه المختلفة بعضها على بعض، مثبتين أصحها ذاكرين في هوامش الكتاب ما ورد في النسخ الأخرى، المخطوطة منها والمطبوعة، مكملين ما نقص من عباراته، مفسرين ما أبهم من كلماته، ضابطين ألفاظه، متحرين أصح الأقوال في نسبة المقطوعات الشعرية والنثرية والأخبار إلى أصحابها معنونين كل خبر وكل مقطوعة بعنوان خاص يدل عليه ويجمع ما فيه مع الإيجاز. وقد استفادوا من عمل الأستاذ محمد شفيع أستاذ العربية في جامعة بنجاب بالهند، والذي بذل مجهوداً كبيراً في إخراج وطباعة كتاب العقد الفريد، حيث قام بإخراجه في جزئين كبيرين أحدهما فهرس للنسخ المطبوعة، والثاني تعليقات ومقارنات وتصحيحات. كما استفادوا من المستشرق الألماني ريتر حيث كتب لهم وصفاً مطولاً عن نسخ الكتاب في مكتبات الأستانة، ومن ثم اختاروا أحسنها بالإضافة إلى جميع نسخ العقد الفريد الموجودة في دار الكتب المصرية المخطوطة منها والمطبوعة. ولا ينقص هذا العمل الرائع إلا تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، وبيان صحيحها وضعيفها.

---

(١) انظر بروكلمان: المصدر السابق ص١٤٠.

وجاء من بعدهم الدكتور مفيد محمد قميحة محققاً لكتاب العقد الفريد، حيث طبع عدة مرات كانت الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ، ثم حقق كتاب العقد الأستاذ علي شيري كما قام بتحقيق العقد الفريد الأستاذ محمد سعيد العريان.

منهج ابن عبد ربه في تصنيف العقد الفريد:

قَسَّم ابن عبد ربه رحمه الله كتابه إلى خمسة وعشرين كتاباً، وشبهه بعقد يضُمَّ خمسة وعشرين حجراً كريماً، وأطلق على الباب الثالث عشر «الواسطة» وهي أكبر حبات العقد، كما سمى كل كتابين متقابلين على جانبي الواسطة باسم حجر واحد إلا أنه أضاف إلى اسم كل كتاب بعد كتاب الواسطة لفظ «الثانية» فسمى اللؤلؤة، والفريدة، والزبرجدة، والجمانة، والمرجانة، والياقوتة، والجوهرة، والزمرّدة، والدُرَّة، واليتيمة والعسجدة، والمجنَّبة ثم تأتي الواسطة في الوسط وهي الثالثة عشرة وبعدها تأتي في الجانب الآخر اللؤلؤة الثانية والفريدة الثانية والزبرجدة الثانية وهكذا.

يقول أحمد أمين: «عقده منظوم في جواهر كريمة، فيه من كل صنف جوهرتان إلا الواسطة، وهو خيال شاعر لطيف لا أعرف أحداً سبقه إليه»[1].

وقد أوضح ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ منهجه في تصنيف كتابه في المقدمة حيث يقول: «ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهرة الجواهر ولُباب اللباب، وإن ما لي فيه هو تأليف الاختيار، وحسن الاختصار وفرشٌ لدُرَر كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء». كما حذف ابن عبد ربه أسانيد أكثر الأخبار معللاً ذلك بقوله: «طلباً للاستخفاف والإيجاز، وهرباً من التثقيل والتطويل» لقد اجتهد ابن عبدربه أن يكون كتابه كافياً، جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، كما جزَّأ مصنفه إلى خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة

---

(١) مقدمة أحمد أمين في كتاب العقد الفريد.

من جواهر العقد. وعمل ابن عبد ربه على تزيين كل كتاب بأشعار مختلف الشعراء وأورد بعض أشعاره وذكر ذلك بقوله: «وحَلَّيْتُ كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري، وبعض الكتب كان يُقَدِّم لها بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

وقد بَيَّن ابن عبد ربه سبب تسمية كتابه بالعقد بقوله: «لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة المسلك وحُسْن النظام».

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

قال أبو عمر أحمدُ بن عَبدِ ربِّه الأندلسيُّ، رحمه الله:

الحمـد لله الأول بلا ابتـداء، الآخـر بلا انتهـاء؛ المُنفـرِد بقُدرته، المُتعالي في سُلطانه؛ الذي لا تَحويه الجهات ولا تنعتَه الصّفات؛ ولا تُدركه العُيون، ولا تَبلُغه الـظُّنـون؛ البادِيء بالإحسان، العائد بالامتنان؛ الدال على بَقائه بعَفوه، وجَهل المُسيء بحلمه؛ الذي جَعل معرفَته اضطرارا، وعبادتَه اختيارا؛ وخَلق الخلق من بين ناطِق معترف بوحدانيته، وصَامت مُتخشِّع لرُبوبيّته؛ لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يَعزُب عن رؤيته؛ الذي قرن بالفضل رحمتَه، وبالعَدل عَذابَه؛ فالناسُ مَدينُون بين فضله وعدله، آذنون بالزوال، آخذون في الانتقال؛ من دار بلاء، إلى دار جزاء.

أحمَـده على حِلمـه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قُدرته؛ فإنّه رضي الحمد ثمنًا لجزيل نعمائه، وجليل آلائه؛ وجعله مِفتاح رحمته، وكفاءَ نِعمته، وآخِرَ دعوى أهل جَنّته، بقوله جل وعز: ﴿**وآخِرُ دعواهُم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين**﴾[1] وصلّى الله على سيدنا محمد النبي المُكرم، الشافع المقرب، الذي بُعث آخراً واصطفى أولاً، وجَعَلنا من أهل طاعته، وعُتقاء شفاعته.

وبعد: فإنَّ أهل كل طبقة، وجهابذة كل أمَّة؛ قد تكلّموا في الأدَب وتَفَلسَفوا في العلوم على كل لِسان، ومع كل زمان؛ وإنّ كل متكلم منهم قد استفرغ غايتَه وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين؛ وأكثروا في ذلك حتى احتاج المُختصر منها إلى اختصار، والمُتخيَّر إلى اختِيار.

ثم إني رأيتُ آخـر كلِّ طَبقة، وواضِعي كلِّ حكمة ومؤلفي كل أدب، أعذبَ

---

(١) آية رقم ١٠ سورة يونس.

ألفاظًا وأسهل بنيةً وأحكم مذهبًا وأوضح طريقة من الأوَّل، لأنه ناكِصٌ مُتعقِّب، والأول باديءٌ مُتقدِّم.

فليَنظُر الناظرُ إلى الأوضاع المُحكمة والكُتب المُترجمة بعَين إنصاف، ثم يجعَل عقلَه حكمًا عادِلا وفَيصلا قاطِعا؛ فعِند ذلك يعلم أنها شَجَرة باسِقة الفرع، طَيبَة المَنبت، زَكية التربة، يانِعة الثمرةَ. فمن أخذ بنَصيبه منها كان على إرثٍ من النبوة، ومِنهاج من الحكمة؛ لا يَستوحِش صاحبه، ولا يَضل من تَمسك به.

وقد ألّفتُ هذا الكتاب وتخيرت جواهره من مُتخير جواهِر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهَر ولُباب اللُّباب؛ وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحُسن الاختصار، وفَرْش[1] في صدر كل كتاب؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العُلماء، ومأثُور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعبُ من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافِد[2] عَقله. وقال الشاعر:

قد عَرَفناك باختيارك إذ كا ... نَ دليلاً على اللَّبيب اختِيارُه

وقال أفلاَطون: عُقُول الناس مُدوَّنة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حُسن اختيارهم.

فتطلَّبتُ نظائر الكلام وأشكال المَعاني وجواهر الحكم وضُروب الأدب ونوادر الأمثال، ثم قَرنت كلَّ جِنس منها إلى جنسه، فجعلته بابًا على حدته؛ ليستدل الطالبُ للخبر على موضعه من الكتاب، ونظيره في كلِّ باب.

وقصدتُ من جُملة الأخبار وفُنون الآثار أشرفَها جوهراً، وأظهرها رونقاً، وألطفها معنىً، وأجزلها لَفظاً، وأحسنها ديباجة، وأكثرها طلاوةً وحلاوة؛ آخذاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنَه**﴾[3].

وقال يحيى بن خالد: الناس يَكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون.

---

(١) فرش: تمهيد.

(٢) وافد عقله، أي صادر عنه ومنبعث منه.

(٣) سورة الزمر آية رقم ١٨.

وقال ابن سيرين: العلم أكثر من أن يُحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه.

وفيما بين ذلك سَقَط الرأي، وزلل القول؛ ولكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة.

وفي بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يبرأ أحدٌ من النقصان.

وقيل للعتابي: هل تعلم أحداًلا عيب فيه؟ قال: إن الذي لا عيب فيه لا يموت أبداً، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة.

وقال العَتابي: من قَرَض شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن، إلا عند من نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى، وقليلٌ ما هم.

وحذفتُ الأسانيدَ من أكثر الأخبار طَلبا للاستِخفاف والإيجاز، وهربا من التّثقيل والتطويل؛ لأنها أخبارٌ مُمتِعة وحِكمٌ ونَوادر، لا ينفعها الإسناد باتّصاله، ولا يَضرها ما حُذف منها.

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنةٍ مُتبعة، وشريعةٍ مفروضة؛ فكيف لا نحذفه من نادرة شاردة، ومثل سائر، وخبر مستطرف، وحديث يذهب نورُه إذا طال وكثُر.

سأل حفصُ بن غِياث الأعمش عن إسناد حديث فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال: هذا إسنادُه!

وحدث ابنُ السماك بحديث، فقيل له: ما إسنادُه؟ فقال: هو من المُرسَلات عُرفا.

وروى الأصمعي خبراً، فسُئل عن إسناده. فقال: هو من الآيات المُحكمات التي لا تحتاج إلى دليل وحُجَّة.

وحدّث الحسنُ البصري بحديث، فقيل له: يا أبا سعيد، عَمن؟ قال: وما تصنع بعمّن ياابن أخي؟ أمّا أنت فنَالتك موعظتُه، وقامت عليك حُجَّته[1].

---

(١) أورد الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ باباً في صحيحه عنوانه: باب في أن الإسناد من الدين، وروى عن محمد بن سيرين أنه قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. وروى أيضاً عن ابن =

وقد نظرتُ في بعض الكُتُب الموضوعة فوجدتها غَير متصرفة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار؛ فجعلتُ هذا الكتاب كافيًا شافيا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة. وتدور على ألسِنة المُلوك والسُّوقة. وحَليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تُجانِس الأخبار في معانيها، وتوافِقها في مذاهبها؛ وقَرنت بها غرائب من شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لِمَغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه، حظاً من المنظوم والمنثور.

وسميته كتاب «**العقد الفريد**» لِما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السَّلك وحُسن النِّظام؛ وجزأته على خمسة وعشرين كتابا، كل كتاب منها جُزآن، فتلك خمسون جزءًا في خمسة وعشرين كتاباً وقد انفرد كلُّ كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقِد، فأوّلها:

كتاب اللؤلؤة في السلطان.

ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها.

ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد.

ثم كتاب الجُمَانة في الوُفود.

ثم كتاب المَرجانة في مُخاطبة الملوك.

ثم كتاب الياقوتة في العِلم والأدب.

ثم كتاب الجوهرة في الأمثال.

ثم كتاب الزُّمرُّدة في المواعظ والزهد.

ثم كتاب الدُّرة في التعازي والمراثي.

ثم كتاب اليَتيمة في النسب وفضائل العرب.

ثم كتاب العَسجَدة في كلام الأعراب.

= سيرين أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم. وروي عن عبدالله بن المبارك أنه قال: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء.

ثم كتاب المُجنِّبة في الأجوبة.
ثم كتاب الواسطة في الخُطَب.
ثم كتاب المُجنِّبة الثانية في التوقيعات والفُصول والصُّدور وأخبار الكتَبة.
ثم كتاب العسجدة الثانية في الخُلفاء وتواريخهم وأيامهم.
ثم كتاب اليتيمـة الثانية في أخبار زياد والحجّاج والطالبيِّين والبرامكة.
ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم.
ثم كتاب الزُّمرّدة الثانية في فضائل الشِّعر ومقاطعه ومخارجه.
ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشِّعر وعِلل القوافي.
ثم كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه.
ثم كتاب المَرجانة الثانية في النِّساء وصفاتهنّ.
ثم كتاب الجُمانة الثانية في المُتنبِّئين والمَمرورين والبُخَلاء والطُّفيليّين.
ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان.
ثم كتاب الفريدة الثانية في الطَّعام والشراب.
ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في النُّتف والهدايا والفُكاهات والمُلَح.

obeikandl.com

obeikandl.com

فرش كتاب اللؤلؤة في السلطان

السلطان زِمام الأمور، ونِظام الحقوق، وقِوام الحدود، والقطب الذي عليه مَدار الدنيا؛ وهو حمى الله في بلاده، وظله الممدود على عباده؛ به يَمتنع حَريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمِع ظالمهم، ويأمَن خائفهم.

قالت الحكماء: إمام عادِل، خير من مطر وابل؛ وإمام غشُوم، خير من فتنة تدُوم؛ ولما يَزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن.

وقال وهب بن منبِّه: فيما أنزل الله على نبيِّه داود عليه السلام: إنّي أنا الله مالِك الملوك، قلوبُ الملوك بيدي، فمن كان لي على طاعة. جعلتُ الملوك عليهم نِعمة، ومن كان لي على معصية جعلتُ الملوك عليهم نقمة.

فحقٌّ على من قلَّده الله أزمة حُكمه، وملَّكه أمور خلقه؛ واختصَّه بإحسانه، ومَكَّن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته؛ حيث وضعه الله ـ عزّ وجل ـ من الكرامة، وأجرى له من أسباب السعادة. قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿**الذين إن مكَّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾[1].

وقال حذيفة بن اليمان: ما مشى قوم قطُّ إلى سلطان الله في الأرض ليذِلُّوه إلا أذلَّهُم الله قبل موتهم[2].

وقال النبي ﷺ: «**عدلُ ساعة في حكومة** خير من عبادة ستين سنة»[3].

---

(١) سورة الحج آية ٤١.

(٢) ويوافق هذا ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي بكرة مرفوعا عن النبي ـ ﷺ ـ: «**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله**». حَسَّنه الألباني في صحيح الجامع ٥٩٨٧.

(٣) روى الديلمي عن أبي هريرة بلفظ: «**عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة**» وأسنده من طريق أبي نعيم انظر كشف الخفا ٢/٧٥، ونصب الراية ٤/٦٧. وروى مسلم في حديث زهير قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل**. =

وقال ـ ﷺ ـ: «كلُّكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيَّته»[١].

وقال الشاعر:

فكُلكم راع ونحن رَعيَّةٌ وكلُّ سيلقَى ربَّه فيَحاسبُه

ومن شأن الرعيّة قلَّة الرضا عن الأئمة، وتَحجُّر[٢] العُذر عليهم، وإلزام اللائمة لهم؛ ورُبَّ ملومٍ لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة، إذ كان رضا جُملتها، وموافقة جماعتها؛ من المعجز الذي لا يُدرك، والممتنع الذي لا يملك؛ ولكلٍ حصته من العدل، ومنزلته من الحكم.

فمن حق الإمام على رعيته أن تَقضِيَ عليه بالأغلب من فعله، والأعمِّ من حكمه. ومن حق الرعية على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها، وإضرابه صفحا عن مكاشفتها، كما قال زياد لمَّا قدم العراق واليا عليها: أيها الناس، قد كانت بيني وبينكم إحَن، فجعلتُ ذلك دبر أذني، وتحت قَدمي، فمن كان محسناً فليزِد في إحسانه، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إنّي والله لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السِّلُ من بُغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له سترًا، حتى يبدي صفحته لي.

وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائرًا فعليه الوِزر وعليك الصبر.

وقال كعب الأحبار: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفُسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفُسطاط الإسلام؛ والعمود السلطان؛ والأطناب والأوتاد الناس. ولا يَصلُح بعضها إلا ببعض.

= وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا». انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر. . . . .

(١) حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) التحجر: والتضييق؛ يقال: تحجر على ما وسعه الله، أي ضيقه. يريد أن الرعية تُضيِّق العذر على أئمتهم فلا تقبل منهم معذرة.

وقال الأفوَه الأودِي:

لا يصْلحُ الناس فوضَى لاسَراة لهم ... ولا سَراة إذا جُهَّالهم سادُوا
والبيت لا يُبتنى إلا له عَمَد ... ولا عِماد إذا لم تُرس أوتادُ
فإن تَجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ ... يوما فقد بَلغوا الأمر الذي كادُوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسُولَ وأُولي الأمرِ منكم﴾[١].

وقال أبو هُريرة: لمّا نزلت هذه الآية أُمِرنا بطاعة الأئمة؛ وطاعتهم من طاعة الله، وعِصيانهم من عصيان الله[٢].

وقال النبي ـ ﷺ ـ: «من فارق الجماعة، أو خلع يداً من طاعة، مات مِيتةً جاهلية»[٣].

قال ـ ﷺ ـ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأولي الأمر منكم»[٤].

فَنصحُ الإمام ولزوم طاعته واتِّباع أمره ونهيه في السر والجهر فَرضٌ واجب، وأمرٌ لازم، ولا يتم إيمانٌ إلا به، ولا يثبُت إسلامٌ إلا عليه.

روى الشعبِي عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال لي أبي: أرى هذا الرجل ـ يعني عمر بن الخطاب ـ يستفهمك ويُقدِّمك على الأكابر من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ،

---

(١) سورة النساء (٥٩).

(٢) وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أُولي الأمر من الأمراء والعلماء» تفسير القرآن العظيم ١/٥١٨ دار الفكر.

(٣) رواه مسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة بلفظ: «مَنْ خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتةً جاهلية» وفي لفظ آخر: «من خلع يدًا من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» أخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) رواه مسلم بنحوه عن تميم الداري.

وإني موصيك بخلال أربعَ: لا تُفشينَّ له سرّاً، ولا يُجرِّبنَّ عليك كذباً، ولا تطوِ عنه نصيحة، ولا تغتابنَّ عنده أحداً.

قال الشعبي: فقلت لابن عبّاس: كُلُّ واحدٍ خيرٌ من ألف؟ قال: إي والله، ومِن عشرة آلاف.

وفي كتاب الهِند[1]: أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم، فقال: أيها الملك، إن نصيحتَك واجبة في الصغير الحقير، والكبير الخطير. ولولا الثقة بفضيلة رأيك، واحتمالك ما يسوء موقِعه من الأسماع والقلوب في جَنب صلاح العامّة وتَألُّف الخاصة، لكان خرقا مني أن أقول. ولكنا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك، وأنفُسَنا متعلِّقةٌ بنفسك؛ لم نجد بُداً من أداء الحق إليك، وإن أنت لم تسلني ذلك؛ فإنه يُقال: من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بثَّه، فقد أخلَّ بنفسه. وأنا أعلم أنَّ كُلَّ ما كان من كلام يكرهه سامعه لا يتشجع عليه قائلهُ، إلا أن يثق بعقل المقول له ذلك. فإنه إذا كان عاقلا احتمل ذلك، لأنه ما كان فيه من نفع فهو للسامع دون القائل. وإنك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، وتصرف في العلم، ويشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقاً بمعرفتك نصيحتي لك وإيثاري إياك على نفسي.

وقال عمرو بن عُتبة للوليد[2]، حين تغيّر الناس عليه: يا أمير المؤمنين، إنه يُنطقني الأُنسُ بك، وتسكتني الهَيبةُ لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك؛ أفأسكُت مُطيعاً أم أقول مُشفقاً؟ قال: كلٌّ مَقبولٌ منك، ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. فقُتل بعد ذلك بأيام.

وقال خالد بن صفوان: مَنْ صَحِبَ السلطان بالصحة والنصيحة كان أكثر عدوًا ممن صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يجتمع على الناصح عدوُّ السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فصديق السلطان ينافسه في مرتبته، وعدوه يُبغضه لنصيحته.

---

(١) كتاب الهند هو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.

(٢) عمرو بن عتبة: كان يكتب للوليد بن يزيد على خاص أمره ويلزم حضرته، وليس هو عمرو بن عتبة بن أبي سفيان؛ لأن هذا قُتل في فتنة ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ والوليد قتل سنة ١٢٦هـ.

ما يصحب به السلطان

قال ابن المُقفع: ينبغي لِمن خدم السلطان أن لا يغترَّ به إذا رضي، ولا يتغير له إذا سخط، ولا يستثقل ما حمله، ولا يُلحف في مسألته.

وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القَدح في المَلِك، وإفشاء السرّ، والتعرض للحرم.

وقال ابن المقفع: إذا نزلتَ من السلطان بمنزلةِ الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة، فإنَّ ذلك يوجب الوحشة ويُلزم الانقباض.

ولما قدم مُعاوية من الشام ـ وكان عمر قد استعمله عليها ـ دخَل على أمه هند، فقالت له: يابُنيَّ، إنَّه قلَّما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يابني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فَرفعهم سَبقهم وقصَّر بنا تأخرنا، فصِرنا أتباعا وصاروا قادة. وقد قلدوك جَسيما من أمرهم، فلا تخالفنَّ أمرهم؛ فإنَّك تجري إلى أمدٍ لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه.

قال معاوية: فعَجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ.

وقال أبرويز لصاحب بيت المال: إني لا أعذِرك في خيانة درهم ولا أحمدَك على صيانة ألف ألف؛ لأنَّك إنَّما تَحقِن بذلك دمك وتقيم أمانتك، فإن خُنت قليلاً خُنتَ كثيراً؛ واحترس من خصلتين: النُّقصان فيما تأخذ، والزيادة فيما تعطي. واعلم أني لم أجعلك على ذخائر الملك وعِمارة المملكة والقوة على العدو، إلا وأنت عندي آمنُ من موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليه، فحقِّق ظني باختياري إياك أحقق ظنك في رجائك إياي، ولا تتعوض بخير شرا، ولا برفعه ضعة، ولا بسلامة ندامة، ولا بأمانة خيانة.

ولما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد خُراسان، قال له: إن أباك كفى أخاه عظيما، وقد استكفيتُك صغيراً، فلا تتَّكلنَّ على عُذرٍ مني، فقد اتكلت على كفاية

منك. وإياك مني قبل أن أقول إياي منك، فإن الظن إذا أُخلِفَ مني فيك أُخلِفَ منك فيَّ وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه وقد أتعبك أبوك فلا تُريحن نَفَسك.

وقال يزيد: حدثني أبي: أن عمر بن الخطاب لما قَدِم الشام قدِم على حِمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقَّاهما معاويةُ في موكب ثقيل، فجاوز عمر معاوية حتى أُخبرَ به، فرجع إليه، فلما قرُب منه نزل إليه، فأعرضَ عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلا. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عُمر، فقال: يا معاوية، أنت صاحب الموكب آنفًا مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنَّا في بلادٍ لا نمتنع فيها من جواسيس العدو، ولابد لهم مما يُرهِبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقا فإنه رأيُ أريبٍ، وإن كان باطلا إنها خدعةٌ أديبٍ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحَسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لحُسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه.

ومما يُصحب به السلطان: أن لا يُسلِّم على قادم بين يديه، وإنما استنَّ ذلك زياد، وذلك أن عبد الله بن عباس قَدِم على معاوية وعنده زياد، فرحب به مُعاوية وألطفه وقرَّب مجلسه، ولم يُكلمه زيادٌ شيئا فابتدأه ابنُ عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة؟ كأنك أردتَ أن تُحدِثَ بيننا وبينك هجرا! قال: لا، ولكنه لا يُسلِّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عباس: ما ترك الناسُ التحيةَ بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له مُعاوية: كُفَّ عنه يابن عبّاس فإنك لا تشاء أن تَغلب إلا غَلَبْتَ.

وقالوا: يَنبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتُم عنه نصيحةً وإن استثقلها وليكُن كلامه له كلام رفقٍ لا كلام خُرق؛ حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضرب له الأمثال ويخبره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه.

وقالوا: من تَعرَّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تخطَّاه، فشبَّهوا السلطان في ذلك بالريح الشديدة التي لا تضر بما لان لها وتمايل معها من الحشيش والشجر، وما

استهدف لها قصمته. قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدانَ نبعٍ ولا يعَبأن بالرتم[١]

وقال شبيب بن شيبة: ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

اختيار السلطان لأهل عمله

لما وجَّه عُمر بن هبيرة مُسلم بن سعيد إلى خُراسان، قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس، إن أحسن فأنت المُحسن، وإن أساء فأنت المُسِيء، وصاحب شرطتك؛ فإنه سوطك وسيفك، حيث وضعتهما فقدّر ضِعتهما[٢]. [و] عمال القدر[٣]. قال: وماعُمال القدر؟ قال: أن تختار من كل كورة رجالا لعملك فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

وكتب عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله إلى عدي بن أرطاة: أن اجمع بين إياس ابن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني، فولِّ القضاء أنفذهما فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل، سل عنّي وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن البصري وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتي الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به. فقال القاسم: لاتسأل عني ولا عنه، فوالله الذي لا إله إلا هو، إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء، فإن كنت كاذبًا فما ينبغي أن تولِّيني، وإن كنت صادقاً، فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئت برجل فوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة، يستغفر الله منها وينجو

---

(١) النبع: من شجر الجبال تتخذ منه القسيّ وربما اقتدح به. والرتم: نبات من دق الشجر، كأنه من دقته يشبه بالرتم، وهي الخيوط.

(٢) الضعة (بالكسرة): الوضع.

(٣) يريد «بعمال القدر»: ذوي الشرف والحسب.

مما يخاف. فقال له عديّ: أما إذ فهمتها فأنت لها، فاستقضاه.

قال عَدِي بن أرطاة لإياس بن معاوية دُلّني على قوم من القرَّاء أوَلِّهم فقال له: القرَّاء ضربان: ضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا، فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها؟ ولكن عليك بأهل البُيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولِّهم.

أيّوب السختيانيّ، قال: طُلب أبو قِلاَبة لقضاء البصرة، فهرب إلى الشام، فأقام حينا ثم رجع. قال أيوب: فقلت له: لو ولْيتَ القضاء وعدلتَ كان لك أجران. قال: ياأيوب، إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يسبح!

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه: دُلّوني على رجل استعمله. فقال له روح ابن زنباع: أدلك ياأمير المؤمنين على رجُل إن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم؛ ليس بالملحف طلبا، ولا بالممعن هربا: عامر الشعبي. فولاَّه قضاء البصرة.

وسأل عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان. فقال له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففُلان؟ قال: سريع الغضب بعيدُ الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، ويحسُد أمه، ويُنافس أباه، ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يُكافيء الأكفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

وأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يستعمل رجلاً. فبدر الرجل فطلب منه العمل. فقال عمر: والله لقد كنت أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يُعن عليه.

وطلب رجلُ إلى النبي ﷺ أن يستعمله، فقال له: «**إنا لا نستعمل على عملنا من يريده**»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه عن أبي موسى وفي لفظ: «**لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده**» رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وطلب العبَّاس عم النبي - ﷺ - إلى النبي ولاية. فقال: «**ياعم، نفس تُحييها، خير من ولاية لا تُحصيها**»(١).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فر من الشرف يتبعك الشرف، واحرص على الموت توهب لك الحياة.

وقال إياس بن معاوية: أرسل إليَّ عمر بن هبيرة فأتيته، فساكتني فسكتُّ، فلما أطلت قال: هِيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئًا؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئا؟ قلت: أنا بها أعرف. قال: إني أريد أن استعين بك على عملي. قلت إن فيَّ خلالا ثلاثًا لا أصلح معها للعمل. قال: وماهي؟ قلت: دَميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عيّ. قال: أما دمَامتك فإني لاأريد أن أحاسن الناس بك، وأما العيّ فإني أراك تُعرب عن نفسك، وأما الحدّة فإن السوط يقوِّمك. قُم قد وليتك. قال: فولاَّني وأعطاني مائةً درهمٍ. فهي أول مال تمولتُه.

وأراد عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله مكحولاً على القضاء، فأبى عليه. قال له: وما يمنعك؟ قال مكحول: قال رسول الله ﷺ: «**لايَقضِ بين الناس إلا ذو شرَف في قومه**»(٢) وأنا مولى.

ولما قَدِم رجال من الكوفة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون سعد بن أبي وقاص، قال: من يعذرني من أهل الكوفة؟ إن وليت عليهم التقي ضعَّفوه، وإن وليتُ عليهم القوى فجَّرُوه. فقال له المغيرة: ياأمير المؤمنين، إن التقي الضعيف له تقواهُ وعليك ضعفُه. والقوى الفاجر لك قُوته وعليه فُجوره. قال: صدقت، فأنت القويّ الفاجر، فاخرُج إليهم. فخرج عليهم، فلم يزَل عليهم أيام عُمر وصدرًا من أيام عثمان وأيام مُعاوية حتى مات المُغيرة.

---

(١) أورده ابن سعد في الطبقات/جـ ٤ ص ٢٧ عن محمد بن المنكدر وهو منقطع بين العباس وابن المنكدر.

(٢) الحديث لم أقف عليه.

حسن السياسة وإقامة المملكة

كَتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قَومه، ووليت الحرب الحازِم في أمره، وقلدت الخراجَ الموفرَ لأمانته. وقسمت لكُلِ خصم من نفسي قَسما، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف[1] المُسيء، والثواب إلى المُحسن البريء، فخاف المريب صولة العقابِ، وتمسَّك المُحسنُ بحظه من الثواب.

وقال أردشير لابنه: يابُنيَّ: إن المُلكَ والعدلَ أخوان لاغنى بأحدهما عن الآخر، فالمُلك أسُ والعدل حارس. والبناء ما لم يكن له أس فمهدوم، والملك ما لم يكن له حارس فضائع. يابني، اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وسرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول.

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان أن يلتزمه: العدلُ في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي ضميره لإقامة أمر دينه؛ فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لايقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما، ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغي لمن كان سلطانا أن يقيم على نفسه حُجة الرعيّة، ومن كان رعيّة أن يقيم على نفسه حجة السلطان. وليكن حُكمُه على غيره مثل حُكمه على نفسه. وإنما يَعرف حقوق الأشياء من يعرف مَبلغ حدودها ومواقع أقدارها. ولا يكون أحدٌ سلطانًا حتى يكون قبل ذلك رعية.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلُّكم يَترشَح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيفُ مسلولٌ، ومال مُبذولٌ، وعدل تطمئن إليه القلوب.

---

(١) النطف: المتهم بريبة.

وذكر أعرابيّ أميرًا فقال: كان إذا وَلِيَ لم يُطابق بين جُفونه، وأرسل العيون على عيونه؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم، فالمحسن راج والمُسيء خائف.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لا يصلح لهذا الأمر إلا اللين من غير ضعف، القوى من غير عنف.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ قال: هَيبةَ الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

وقال أردشير لأصحابه: إنِّي إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

وكان عمرو بن العاص يقول في مُعاوية: اتقوا أكرم قريش وابن كريمها، من يضحك في الغضب ولا ينام إلا على الرِّضا[1]، ويتناول ما فوقه من تحته[2].

وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبدا. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها!

وقالت الحكماء: أسوس الناس لرعيته، من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة!

وقال أبرويز لابنه شيرويه. لا توسعن على جُندك سعة يستغنون بها عنك، ولا تُضيقن عليهم ضيقا يضجون به منه، ولكن أعطهم عطاء قصدا، وامنعهم منعًا جميلًا، وابسُط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء.

ونحو هذا قول المنصور لبعض قواده: صدق الذي قال: أجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فقال له أبو العباس الطوسيّ: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجعته أن يُلوِّح له غيرُك برغيف فيتبعه ويدعك.

وخطب سعيد بن سويد بحمص، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس

---

(١) أي إنه لا يبيت إلا منتقما ممن أغضبه مرضياً نفسه بذلك.

(٢) يصفه بالدهاء وحسن السياسة وسِعة الحيلة، حتى إنه ينال ما صعب من الأمور بأيسر وسيلة.

إن للإسلام حائطاً منيعاً وباباً وثيقاً، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل. ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان. وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل.

وفي كتاب التاج: أن أبرَويز كتب لابنه شيرويه يوصيه بالرعيّة: وليكُن من تختاره لولايتك أمرأ كان في ضَعة فرفعته، أو ذا شرف كان مهملاً فاصطنعته. ولا تجعله امرأً أصبته بعقوبة فاتضع لها، ولا امرأً أطاعك بعد ما أذللته، ولا أحدًا ممن يقع في قلبك أن إزالة سُلطانك أحبّ إليه من ثبوته. وإياك أن تستعمله ضَرعاً غَمراً[1] كثيرًا إعجابه بنفسه، قليلاً تجربته في غيره؛ ولا كبيرًا مُدبرا قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السنّ من جسمه.

بسط المعدلة ورد المظالم

الشَّيباني قال: حدَّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة ابن حُميد قال: إنِّي لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدَّم إليه ـ وقد هم بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى ابن أكثم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أَمَة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

يا خيرَ مُنتصف يُهدىٰ له الرشدُ ... ويا إماماً به قد أشرقَ البلدُ
تَشكو إليك ـ عميد القوم ـ أرملةٌ ... عُدِي عليها فلم يُترك لها سَبد[2]
وابتزَّ منّى ضِياعي بعد مَنعتها ... ظُلما وفُرِّق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دُون ما قلتِ زال الصبرُ والجلدُ ... عنِّي وأقرِح منّى القلب والكبدُ

---

(١) الضرع، الضعيف. والغمر: الذي لا تجربة له.

(٢) السبد الشعر، ويُكنى به عن الإبل؛ كما يُكنى بالوبر عن الغنم، فيقال: ماله سبد ولا لبد، أي ليس له وبر ولا صوف متلبد، يريد إبلا وغنما.

هذا أذانُ صلاة العصر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعِد
فالمجلسُ السبتُ ـ إن يُقض الجلوس لنا ... نُنصِفك منه ـ وإلا المجلسُ الأحد

قال: فلمَّا كان يوم الأحد جلس، فكان أوَّل من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخَصم؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين ـ وأومأت إلى العبَّاس ابنِه ـ فقال: ياأحمد بن أبي خالد، خُذ بيده فأجلسه معها مجلس الخُصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: ياأمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تُكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها ياأحمد، فإنَّ الحقَّ أنطقها والباطل أخرَسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظَلم العبَّاس بظُلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يُوغر[1] لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنَفقة.

العُتبيّ قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذا أقبل إبراهيم بن محمد ابن طلحة وصاحبُ حرسَ هشام حتى قعدا بين يديه، فقال: إن أمير المؤمنين جَرَّاني[2] في خُصومة بينه وبين إبراهيم. فقال القاضي: شاهِديك على الجِراية[3]. فقال: أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلاهذه السترة! قال: لا، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببيِّنة. قال: فقام الحَرسي فدخل على هشام فأخبره. فلم نلبث أن تقعقعت الأبواب وخرج الحرسيّ، وقال: هذا أمير المؤمنين. وخرج هشام، فلما نظر إليه القاضي قام، فأشار إليه وبسط له مصلى، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه. وكنّا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنَّا بعضُه قال: فتكلما وأحضرا البيّنة، فقضى القاضي على هشام بن عبد الملك. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعضُ الخُرق فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظُلمك. فقال له

---

(١) يوغر لها ضيعتها، أي يسقط عنها خراجها.

(٢) جراني، أي وكلني.

(٣) الجراية (بفتح الجيم وكسرها): الوكالة.

هشام: هَممت أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمُك عن عظمك. قال: أما والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق. فقال هشام: يا إبراهيم، استُرها عليّ. قال: لاستر الله عليّ إذاً ذنبي يوم القيامة إن سترتها. قال: فإني مُعطيك عليها مائة ألف. قال إبراهيم: فسترتها عليه أيامَ حياته ثمنًا لما أخذت منه، وأذعتُها بعد مماته تَزيينا له.

قال: وورد على الحجَّاج بن يوسف سُلَيك بن سُلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أرعِني سَمعك، واغضض عنيِّ بصرك، واكفُف عني غربك. فإن سمعت خطأً أو زَللاً فدُونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصَى عاصٍ من عرض العشيرة فحُلق على اسمي[1]، وهُدم منزلي وحرمت عطائي. قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد ... تُعدي الصِّحَاح مبَارِك الجُرب
ولرُب مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذَّنب!

فقال: أصلح الله الأمير، إني سمعتُ الله عز وجل يقول غير هذا. قال: وماذاك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿**يـأيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مَكانه إنَّا نرَاك من المحسنين. قال مَعاذ الله أن نأخُذ إلاَّ من وجدنا مَتاعَنا عنده إنَّا إذًا لظالمون**﴾[2].

قال الحجاج: عليَّ بيزيد بن أبي مُسلم. فمَثُل بين يديه. فقال: افكُك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، وابنِ له منزله، ومُر مناديًا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.

وقال معاوية: إني لأستحي أن أظلِمَ من لا يجد عليّ ناصرًا إلا الله.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم.

---

(١) حلق على اسمي، أي جُعِل داخل حلقة من المداد، وكان يفعل ذلك بكل اسم يراد حبس العطاء عن صاحبه. وهو بمنزلة الضرب على المكتوب في أيامنا.

(٢) سورة يوسف الآيتان ٧٨ـ٧٩.

وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم، وهو والي أرض فارس: ياربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره.

وقال النبي ﷺ: «**الظُّلم ظُلمات يوم القيامة**»(١).

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قالت الحكماء: الناس تَبَعٌ لإمامهم في الخير والشرّ.

وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سوق، فما نفق عنده جُلب إليه.

ولما أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه، قال: إن الذي أدى هذا لأمين! قال له رجل: ياأمير المؤمنين، أنت أمين الله يؤدون إليك ماأديت إلى الله تعالى، فإذا رتعت رتعُوا(٢).

ومن أمثالهم في هذا قولهُم: إذا صلحت العين صلحت سواقيها.

الأصمعيّ قال: كان يُقال: صِنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء، والفقهاء(٣).

واطَّلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغُوطة(٤) فأنكر شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إني لأظنُّك تخونُني. قال: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟ قال: وتفعله؟ قال: نعم، والله إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شرَّ الثلاثة.

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر ابن قتيبة/عيون الأخبار جـ١ ص١١٥، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (تخريج الإحياء جـ١ ص١٧) وحكم عليه الألباني بالوضع.

(٤) الغوطة كورة منها دمشق.

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه

قالت الحكماء: لاينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك بعد ذلك ألَّا يتركوا محسنًا ولا مسيئاً مادون جزاء؛ فإنهم إذا تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل.

وقال الأحنف بن قيس. من فسدت بطانته كان كمن غَص بالماء، ومن غص بالماء فلا مساغ له، ومن خانه ثقاته فقد أُتي من مأمنه.

وقال العباس بنُ الأحنف:

قَلبي إلى ما ضرَّني داعي ... يُكثِر أحزاني وأوجاعي
كيف احتراسي من عَدوّي إذَا ... كان عدوّي بين أضلاعي!

وقال آخر:

كنتُ من كُربتي أفرُّ إليهم ... فهمُ كربتي فأين الفِرارُ؟!

وأول من سبق إلى هذا المعنى عدي بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر:

لو بغير الماء حلقي شرقٌ ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري[1]

وقال آخر:

إلى الماء يسعى من يَغصُّ بريقهِ ... فقُل أين يسعى من يغصّ بماء؟!

وقال عمرو بن العاص: لا سُلطان إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل.

وقالوا: إنما السلطانُ بأصحابه كالبحر بأمواجه.

وقالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحب يحسن القول، ولا يحسن الفِعل. ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع

---

(١) الاعتصار: إزالة الغصة بالماء قليلًا قليلًا.

الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة.

وقالوا: إنَّ السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراءَ سوء امتنع خيره من الناس، ولم يُنتفع منه بمنفعة، وشَبَّهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح، فلا يستطيع أحد أن يدخله، وإن كان محتاجاً إليه!

صفة الإمام العادل

كتب عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمّا وَلى الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم ياأمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقُوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويزودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويُعلمهم كبارًا؛ يكتسب لهم في حياته، ويدّخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها، حَملته كُرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل ياأمير المؤمنين وَصيُّ اليتامى، وخازن المساكين، يُربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل ياأمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملَّكك الله عز وجل كعبد أئتمنه سيّده، واستحفظه ماله وعيالَه، فبدَّد المال وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحُدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش،

فكيف إذا أتاها من يليها! وأنّ الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر ياأمير المؤمنين الموتَ وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويُفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا. فتزود له ما يصحبك ﴿**يوم يفر المرءُ من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه**﴾[1]. واذكر ياأمير المؤمنين: ﴿**إذا بُعثر ما في القبور. وحُصِّل ما في الصدور**﴾[2]، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن ياأمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم ياأمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلِّط المستكبرين على المُستضعفين؛ فإنَّهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولاذمةً، فتبوءَ بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغُرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسُك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولاتنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني ياأمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النُهىٰ من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هيبة الإمام في تواضعه

قال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أكبر من شرفك وقال عبد الملك بن مروان: إن أفضل الرجال مَنْ تواضع عن رفعةٍ، وزهد عن قدرةٍ، وأنصف عن قوةٍ.

---

(١) سورة عبس الآيات ٣٤ـ٣٧.
(٢) سورة العاديات الآيتان ٩، ١٠.

وقال ابن قتيبة: لم يُقل في الهيبة مع التواضع بيت أبدع من قول الشاعر[١] في بعض خلفاء بني أمية:

يُغضي حياءً ويُغْضَى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتَسِمُ

وأحسن منه عندي قول الآخر:

فتى زادَه عِزُّ المهابة ذِلةً ... فكُلُّ عزيزٍ عنده مُتواضع

وقال أبو العتاهية:

يا مَن تشرَّف بالدنيا وطينتها ... ليس التشرُّف رفعَ الطِّين بالطين
إذا أردت شريفَ النَّاسِ كلِّهم ... فانظر إلى مَلكٍ في زيِّ مسكين
ذاك الذي عَظُمت في الله نعمتُه ... وذلك يصلُح للدُّنيا وللدين

وقال الحسن بن هانىء في هيبة السطان مع محبّة الرعية:

إمامٌ عليه هيبة ومحبّة ... ألا حبّذا ذاك المَهيب المُحبّبُ

وقال أشجع بن عمرو في هَيبة السلطان:

مَنعت مهابتُك النفوسَ حديثهَا ... بالشيِّءِ تكرهه وإن لم تَعلَمِ
ومِن الولاة مُفخَّم لا يُتَّقى ... والسيفُ تقطرُ شفرتاه من الدم

وقال أيضا لهارون الرشيد:

وعلى عَدوِّك يابن عم محمد ... رَصَدان: ضوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَه وإذا غفا ... سَلَّت عليه سيوفك الأحلام

ومن قولنا في الهَيبة:

يا مَن يُجرد من بصيرته ... تحت الحوادث صارم العَزمِ
رُعتَ العدوَّ فما مَثلتَ له ... إلا تفزَّع منك في الحُلم
أضحى لك التدبيرُ مُطردا ... مِثل اطِّراد الفعل للإسم
رفعَ الحسودُ إليك ناظرَه ... فرآك مُطَّلعا مع النجم

أبو حاتم سهل بن محمد، قال: أنشدني العُتبي للأخطل في معاوية:

---

(١) الشاعر، هو الفرزدق.

تسْمو العُيون إلى إمام عادلٍ مُعطي المهابة نافعٍ ضرَّار
وترى عليه إذا العُيون لمحنه سِيما الحليم وهيبة الجبَّار

حسن السيرة والرفق بالرعية

قال الله تعالى لنبيه محمد ـ ﷺ ـ فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: ﴿**ولو كُنت فظاً غليظ القلبِ لانفضوا من حولِك**﴾(١).

وقال النبي ﷺ: «**من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من الخير كله، ومن حُرم حَظَّه من الرفق فقد حُرِم حَظَّه من الخير كله**»(٢).

ولما استُخلِف عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا عليَّ. فقال له سالم: اجعل الناس أبا وأخا وابنًا، فبِر أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال له محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك لستَ أوَّل خليفة يموت.

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت؛ مالك لا تَنفُذُ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور. فقال له عمر: لا تعجل يابُني، فإن الله تعالى ذمَّ الخمر في القرآن مرَّتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمِل الناس على الحق جملة فيدعوه وتكون فتنة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك.

وقال المنصور لولده عبد الله المهدي: لا تُبرم أمرًا حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة تريه حسناته وسيآته. واعلم أن الخليفة لا تُصلحه إلا التقوى، والسلطان لا تُصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل. وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقص عقلا من ظلم من هو دونه.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٢) صحيح: رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي الدرداء، دون ذكر كله بعد الخير. انظر الصحيحة [٥١٩] و[٨٧٤].

وقال خالد بن عبد الله القَسري لبلال بن أبي بردة: لا يحملنّك فضل المقدرة على شدة السطوة، ولا تطلب من رعيتك إلا ما تبذُله لها، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال أبو عُبيد الله كاتبُ المهدي: ما أحوج ذا القُدرة والسلطان إلى دين يَحجُزه وحياء يكفه، وعقل يعقله، وإلى تجربة طويلة، وعين حفيظة؛ وأعراق تسرى إليه، وأخلاق تسهل الأمور عليه؛ وإلى جليس شفيق، وصاحب رفيق؛ وإلى عين تُبصر العواقب وقلب يخاف الغِيَر؛ ومن لم يعرف لؤم الكِبر لم يسلم من فلتات اللسان، ولم يتعاظم ذنباً وإن عظم، ولا ثناء وإن سمح.

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر، وقال له حين ودَّعه: أرسل حَكيماً ولا تُوصه. أي بُني، انظر إلى عُمالك، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق. واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إليَّ يأتِك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفيء الجمرة؛ فإن أوّل من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجُلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا واستخلف الله عليك.

أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مُجالد عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غَلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلا فكسَر خراجَه، فَخشى أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمَّنه. فكتبتُ إليه: إن هذا أدب سوَّأ مَنْ قِبَلي. فكتب إليَّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعاً فنحمل الناس على المهالك ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزمُ الملوك من قهر جِدُّه هزله، وغلب رأيُه هواه، وجعل له الفكر صاحبًا يُحسن له العواقب، وأعرب عن ضميره فِعله ولم يخدعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن كيده.

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ـ وكان ولي عهده: يابني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توانٍ.

وقالوا: لا ينبغي للعاقل أن يستصغر شيئاً من الخطأ أو الزَّلل، فإنه متى ما استصغر الصغير يوشك أن يقع في الكبير؛ فقد رأينا الملوك تؤتَى من العدو المُحتقر، ورأينا الصحة تؤتى من الدّاء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لإحدى ثلاث: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضغناً، أو لئيم بُلغ به إلى ما لا يستحق فأورثه ذلك بَطراً، أو رجل منع حظه من الإنصاف فشكا تفريطاً.

وقيل لَملك سُلب ملكه: مالذي سَلبك مُلكك؟ فقال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدة بتضييع عدد، واستكفاء كل مخدوع عن عقله. والمخدوع عن عقله من بلغ قدرًا لايستحقه، أو أثيب ثواباً لا يستوجبه.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرص فإنها تمرُّ مر السحاب، ولا تطلبوا أثرًا بعد عين.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزم الخلفاء. وكانت عائشة رضي الله عنها إذا ذُكر عمر قالت: كان والله أحوزياً[1] نسيج وحدهِ، قد أعد للأمور أقرانها[2].

وقال المغيرة بن شعبة: مارأيت أحداً هو أحزم من عمر، كان والله له فضل يمنعه أن يَخْدَع، وعقل يمنعه أن يُخْدَع.

---

(١) الأحوزي: الحسن السياق للأمور.

(٢) أقرانها، أي أكفاءها.

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لست بِخَبٍّ والخبّ لا يخدعني.

مر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببنيان يبنى بآجر وجص فقال: لمن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين. فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. فأرسل إليه فشاطره ماله.

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقال له: المُستجاب، لقول النبي ﷺ: اتقوا دعوة سعد[١]. فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممتُ. قال له عمر: بأن تدعو عليَّ؟ قال: نعم. قال: إذاً لا تجدني بدعاء ربي شقيًّا.

وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية، فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه، فقطعت يدُه وبكم لسانه[٢].

ولما عزل عمر أبا موسى الأشعري عن البصرة وشاطره ماله، وعزل أبا هريرة عن البحرين وشاطره ماله، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله، دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أنهما عندك، إحداهما عقيلة، والآخرى من بنات الملوك؟ قال: أما عقيلة فإنها جارية بيني وبين الناس، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردت بها غلاء الفداء. قال: فما جفنتان تعملان عندك؟ قال: رزقتني شاة في كل يوم، فيعمل نِصفها غدوة ونصفها عشية. قال: فما مكيالان بلغني أنهما عندك؟ قال: أما أحدهما فأوفي به أهلي وديني، وأما الآخر فيتعامل الناس به. فقال: ادفع إلينا عقيلة، والله إنك لمؤمن لاتَغُلّ[٣]، أو فاجر مُبِلّ[٤]، ارجع إلى عملك عاقِصاً بقرنك، مكتسعا بذنبك[٥]. والله إن بلغني عنك أمر لم أُعِدْك.

---

(١) في سنن الترمذي (٣٧٥١) بسند صحيح «اللهم استجب له إذا دعاك» يعني سعداً.

(٢) انظر: ابن كثير البداية والنهاية، المجلد الرابع جـ٧، ص٤٥، ٤٦، دار الريان للتراث مصر ١٤٠٨هـ.

(٣) ولا تغل: ولا تخون.

(٤) يريد بالمبل (هنا): الغالب بحجته، أو المعيي خبثا، يقال: أبل عليه، إذا غلبه وأبل، إذا أعيا خبثا.

(٥) عاقصا بقرنك، أي: عاقدا إياه ولاويا به. والقرن، من الشعر معروف. والاكتساح بالذنب في الخيل والكلاب، هو أن تدخل أذنابها بين أرجلها. ولعله كنى بهاتين العبارتين عن معنى الذلة والمهانة.

ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أني استعملتك على البحرين، وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار؟ قال: كانت لنا أفراس تناتجت، وعطايا تلاحقت. قال: قد حسبتُ لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده. قال: ليس لك ذلك. قال: بلى والله وأوجع ظهرك. ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: ائتِ بها. قال: احتسبتُها عند الله. قال: ذلك لو أخذتَها من حلال وأديتَها طائعا. أجئتَ من أقصى حجر بالبحرين يُجْبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين! ما رجعت[1] بك أميمة إلا لرعية الحُمر. وأميمة أمّ أبي هريرة[2].

وفي حديث أبي هريرة، قال: لما عزلني عُمر عن البحرين قال لي: ياعدو الله وعدو كتابه، سرقت مال الله؟ قال: فقلت: ما أنا عدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، ماسرقتُ مال الله. قال: فمن أين لك عشرة آلاف؟ قلت: خيل تناتجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تتابعت. [فنظروا، فوجدوه كما قال][3] فلما صلّيت الصبح استغفرت لأمير المؤمنين. فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل؟ قلت: لا. قال: قد عمل من هو خير منك، يوسفُ صلوات الله عليه. قلت: إنّ يوسف نبيّ وابن نبيّ وأنا ابن أميمة، أخشى أن يُشتم عرضي ويُضرب ظهري ويُنزع مالي[4].

قال: ثم دعا الحارث بن كعب بن وهب فقال: ما قِلاصُ وأعبد بعتها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتجرتُ فيها. فقال: أما والله ما بعثناكم لتتجروا في

---

(١) مارجعت بك، أي ما ولدتك.

(٢) أورد السيوطي أن عمر رضي الله عنه شاطر عماله أموالهم؛ انظر: تاريخ الخلفاء، ص١٥٧.

(٣) الزيادة في سير أعلام النبلاء.

(٤) انظر ابن حجر/ الإصابة جـ٧ ص٢٠٦ مع بعض الاختلاف دون ذكر «ياعدو الله وعدو كتابه»، وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط، جـ٢، ص٦١٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٢هـ، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وذكر ابن كثير رحمه الله من: «ودعاه عمر ليوليه» إلى «ويشتم عرضي»، انظر البداية والنهاية جـ٨ ص١١٤، كما أورد ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار، جـ١ ص١١٦، دار الكتب العلمية/بيروت.

أموال المسلمين! أدّها. فقال: أما والله لا عملتُ عملاً بعدها أبدا. قال: انتظر حتى استعملك.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص، وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، أما بعد، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد. وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك، فاكتب إليَّ من أين أصل هذا المال ولا تكتُمه؟

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإني أتاني كتابُ أمير المؤمنين يذكر فيه ما فَشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي. وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السِّعر به رخيص، وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله، وليس في رزق أمير المؤمنين سعة. وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك، فأقصر أيها الرجل، فإنّ لنا أحسابًا هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يَذم معيشته ولا تُذَمُّ له. وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فأنّي كان ذلك ولم نفتح قفلك، ولم نشركك في عملك.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطِّر، ونسقك الكلام في غير مرجع! وما يغني عنك أن تزكِّي نفسَك، وقد بعثتُ إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك. فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يُعوزكم عُذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم، أما إنكم تجمعون العار، وتورثون النار، والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيرًا. فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئاً. فقال له عمرو: أتحرمون طعامنا؟ فقال: لو قدمت إليَّ طعام الضيف أكلتُه، ولكنك قدمت إليَّ طعام هو تقدمة شر. والله لا أشرب عندك الماء، فاكتُب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه. فشاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه. فأخذ إحداهما وترك الأخرى. فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة

قبَّح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامِل. والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها، وما منهما إلا في نمرة[١] لا تبلغ رسغيه، والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزوراً بالذهب والفضة. قال له محمد بن مسلمة: اسكُت، والله عمر خير منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار. والله لولا الزمان الذي سبقك فيه لألفِيت مُقتعد شاة يسرك غزرها ويسوءك بَكؤها[٢]. فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله. فلم يخبر بها عمر.

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بَعث معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على الشام بمال وأدهم، وكتب إلى أبي سفيان أن يدفع ذلك إلى عُمر ـ يعني بالأدهم القيد ـ وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد، أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ـ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد. قال الفرزدق: أو لجدل الأداهم ـ فخرج الرسول حتى قدم على سفيان بالمال والأدهم قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عُمر واحتبس المال لنفسه. فلما قرأ عمرُ الكتاب، قال له: فأين المال ياأبا سفيان؟ قال: كان علينا دين ومعونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتَنا به. فقال عمر: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال. قال: فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال. فأمر عمرُ بإطلاقه من الأدهم. فلما قدم الرسول على معاوية، قال له: رأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدهم؟ قال: نعم، وطرح فيه أباك. قال: ولِمَ؟ قال: جاءه بالأدهم وحبس المال؛ قال: إي والله، والخطاب لو كان لطرحه فيه.

زار أبو سفيان معاويةَ بالشام، فلما رجع من عنده دخل على عمر. فقال: أجزنا أبا سفيان. قال: ما أصبنا شيئاً فنجيزك منه. فأخذ عمر خاتمه، فبعث به إلى هند، وقال للرسول: قل لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخرجين اللذين جئتُ بهما فأحضريهما. فما لبث عمر أن أُتي بخرجين فيهما عشر آلاف دِرهم. فطرحهما عمر في

---

(١) النمر «بفتح ثم كسر»: بردة من صوف تلبسها الأعراب.

(٢) بكؤها: أي قلة لبنها.

بيت المال. فلما وَلي عثمان ردهما عليه. فقال أبو سفيان: ماكنت لأخذ مالاً عابه عليّ عمر.

ولما ولَّى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن أبي سفيان الطائف وصدقاتها ثم عزله، وتلقاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفـاً، فقال: أنى لك هذا؟ قال: والله ما هو لك ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجت به لضيعة أشتريها. فقال عمر: عامِلُنا وجدنا معه مالا؟ ما سبيله إلا بيت المال، ورفعه! فلما وَلي عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهـا؟ قال: والله إن بنا إليه لحاجة، ولكن لاترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك.

القحذمي قال: ضرب عمر رجلاً بالدُّرة فنادى: يالقَصيٍّ. فقال أبو سفيان: يابن أخي، لو قبـل اليوم تُنـادى قصيّا لأتتك منها الغطاريف. فقال له عمر: اسكت لاأبا لك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبابته على فِيه.

خَليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد، المعروف بالناقص ـ وإنما قيل له الناقص لفرط كماله ـ إلى مروان بن محمد ـ وبلغه عنه تلكؤ في بيعته ـ: أما بعد، فإني أراك تقـدِّم رِجـلا وتؤخِّـر أخـرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام. فأتته بيعته.

وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي: أما بعد، فقد بلغني ما كان من قطع الفسقة الطريق ما بلغ، فلا الطريق تحمى، ولا اللصوص تكفى، ولا الرعية ترضى، وتطمع بعد هذا في الزيارة! إنك لُمنفسح الأمل! وأيم الله لتكفيني من قبلك أو لأوجهن إليك رجالا لا تعرف مُرَّة من جهم، ولا عدي من رهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبلغ الحجاج أن قومًا من الأعراب يفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد فإنكم قد استخفتكم الفتنة، فلا عن حق تقاتلون، ولا عن منكر تنهون، وإني أُهُمّ أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف والتالد، وتدع النساءَ أيامى، والأبناءَ يتامى، والديارَ خرابًا.

فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق.

التعرض للسلطان والرد عليه

قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تخطاه، وشبهّوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضر بها لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش، وما استهدف لها من الدواح العظام قصفته. قال الشاعر:

إنّ الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نبع ولا يعبأنَ بالرَّتَم

وقال حبيب بن أوس ـ وهو أحسن ما قيل في السلطان:

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه ... وتقتاده من جانبيه فيتبع

وقال آخر:

هو السيف إن لاينته لان متنه ... وحَدَّاهُ إن خاشنته خَشنانِ

وقال معاوية لأبي الجَهم العَدوي: ياأبا الجهم، إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيّ، ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هذا هو القائل في معاوية بن أبي سفيان:

ونغضبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرما ولينا
نميل على جوانبه كأنّا ... نميل إذا نميل على أبينا

وقَدِم عُقيبة الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

مُعاوي إننا بشر فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعاً ... يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاويةُ، فقال: ما جَرَّأك عليَّ؟ قال: نصحتُك إذ غشوك، وصدقتك إذا كذبوك. فقال: ما أظنك إلا صادقًا، وقضى حوائجه.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اتقوا الله فقام إليه رجل من عُرض الناس،

فقال: أذكِّرك الله الذي ذكرتنا به ياأمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فِكرة ولا روية: سمعاً وطاعة لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم، فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين وأما أنت، فوالله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت، وأنا أحذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخذت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكة، فقال: ﴿**كَبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[1]. فأمر به فضرب مائة سوط. فكان يئن الليل كله ويقول: الموت! الموت! فأخبر هارون الرشيد أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحله، فأحله.

وخاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول أيها الأمير من أمك؟ ففعل. فقال له: النابغة بنت عبد الله، أصابتها رِماح العرب، فبيعت بعُكاظ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئًا فخذ»[2].

تحلم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاوس، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بُسطت، وجلاوزة[3] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأومأ إلينا: أن اجلسا. فجلسنا. فأطرق عنّا طويلا، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أشدّ الناس عذاباً**

---

(١) سورة الصف آية ٣.

(٢) انظر ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٣ ص١١٨٤، وص١١٨٥؛ تحقيق: محمد البجاوي ـ مطبعة نهضة مصر.

(٣) الجلاوزة: جمع جلواز [بكسر الجيم] وهو الشرطي.

يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله»(١). فأمسك ساعة، قال مالِك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفتَ إليه أبو جعفر فقال: عظني يابن طاوس. قال: نعم ياأمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد**﴾(٢). قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابي من دمه. فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. ثم قال: يابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. ثم قال: ناولني هذه الدواة: فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تُناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني قال ابنُ طاوس: ذلك ما كنّا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فمازلت أعرف لابن طاوس فضله.

فرج بن سلاَّم عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: حدثني رجل من أهل المدينة،

---

(١) سند هذا الحديث ظاهره الإرسال فطاوس هو ابن كيسان تابعي وليس صحابي. ويغني عنه ما رواه مسلم عن معقل بن يسار المزني: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**» وفي رواية: «**ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة**». وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه. ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**».

وروى مسلم أن عائذ بن عمرو وكان في أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عبيد الله بن زياد فقال: أي بني إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم**».

والحطمة: هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار. يلقي بعضها على بعض ويعسفها. ضربه مثلاً لوالي السوء ويقال أيضا: حطم بلا هاء. انظر: صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، جـ٣ وقف على طبعه محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) سورة الفجر: الآيات ٦ـ١٤.

كان ينزل بشق[١] بني زريق، قال: سمعت محمدًا بن إبراهيم يحدث قال:

سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش، فقالوا لأبي جعفر: اجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب. فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال أشرار من أهل بيت أشرار. قالوا: اسأله ياأمير المؤمنين عن الحسن بن زيد ـ وكان عامله على المدينة ـ قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة، ويقضي بالهوى. فقال الحسن: ياأمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشر. قال: ما تقول فيّ؟ قال: اعفني. قال: لابد أن تقول. قال: لا تعدِل في الرعية، ولا تقسم بالسوية. قال: فتغير وجه أبي جعفر. فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عليّ صاحب الموصل: طهرني بدمه ياأمير المؤمنين. قال: اقعد يابُني، فليس في دم رجل يشهد أن لاإله إلا الله طهُور. قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام، فقال: ياأمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه، بلغني أن لك ابنًا صالحا بالعراق، يعني المهدي. قال: أما أنك قلت ذلك، إنه الصوَّام القوَّام البعيد ما بين الطرفين[٢]. قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج. فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل، ولقد قال بذات نفسه.

قال الأصمعي: ابن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من أنفُسهم.

وأرسل أبو جعفر إلى سفيان الثوري، فلما دخل عليه قال: عظني أبا عبد الله قال: وما عملتَ ياأمير المؤمنين فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ فما وجد له المنصور جوابا.

ودخل أبو النضر سالم[٣] مولى عمر بن عبد الله على عامل للخليفة فقال له: أبا النضر، إنا تأتينا كُتب من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بدا من إنفاذها، فما

(١) الشق: الناحية. وبنو زريق: من الأنصار.

(٢) البعيد ما بين الطرفين: كناية عن شرف النسب وكثرة ما له من الآباء الأشراف.

(٣) هو سالم بن أبي أمية التيمي، ويكنى أبا النضر، مات في خلافة مروان بن محمد، وقيل سنة تسع وعشرين ومائة.

ترى؟ قال له أبو النضر: قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة، فأيّهما اتبعت كنت من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشعبي: أن زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغِفاري، وكان على الصائفة[1]: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفى له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى الله لجعل له منهما مخرجا. ثم نادى في الناس، فقسَّم فيهم ما اجتمع له من الفَيء.

ومثله قولُ الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وإلى الشعبي، فقال له: ماترى أبا سعيد[2] في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها فإن أنفذتها وافقت سخط الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي؟ فقال له الحسن: هذا عندك الشعبي فقيه أهل الحجاز. فسأله، فرقَّق له الشعبي وقال له: قارب وسَدد، فإنما أنت عبد مأمور. ثم التفت ابنُ هبيرة إلى الحسن وقال: ماتقول ياأبا سعيد؟ فقال الحسن: ياابن هبيرة، خَفِ الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله. ياابن هُبيرة، إن الله مانعُك من يزيد وإن يزيد لايمنعك من الله. ياابن هُبيرة، لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفِذه، وما خالف كتابَ الله فلا تنفِذه، فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه. فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة. وأمر للحسن بأربعة آلاف دِرهم، وأمر للشعبي بألفين. فقال الشعبي: رققنا فَرُقِّقَ لنا. فأما الحسن فأرسل إلى المساكين، فلما اجتمعوا فَرقها. وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها.

ونظير هذا قول الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في استخلاف يزيد، فسكت

---

(١) الصائفة: الغزاة في زمن الصيف.

(٢) أبو سعيد: كنية الحسن البصري.

عنه. فقال: مالك لاتقول؟ فقال: إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسُخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله. فقال له: صدقت.

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية، أما بعد: فإنه من يلتمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله مؤونةَ الناس، ومن التمس رِضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس.

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد، فإنه من يعمل بمساخط الله يَصِر حامده من الناس ذاما له، والسلام.

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزهري يوما من عند هِشام فقال: مارأيت مثل أربع كلمات تكلم بها اليوم إنسان عند هشام. قيل له: وما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: ياأمير المؤمنين، احفظ عنِّي أربع كلمات فيهن صلاح ملكك، واستقامة رعيتك فقال هاتِهن. فقال: لا تَعدن عِدة لا تثق من نفسك بإنجازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال: لا يغرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المُنحدر وعراً. قال: هات الثالثة. قال: إن للأعمال جزاءً فاتق العواقب. قال هات الرابعة. قال: واعلم أن للأمور بغتات فكن على حذر.

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبدًا رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطل ياأمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة. قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام: ﴿**ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾[1]. فهذا وعيد ياأمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال: إن الناس ليغوونا عن ديننا.

---

(١) سورة ص آية ٢٦.

المشورة

قال النبي ﷺ: «**ماندم من استشار، ولا خاب من استخار**»[١]. وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام بمشاوَرة من هو دونه في الرأي والحزم، فقال: ﴿**وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾[٢].

ولما همّت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي ﷺ استشاروا عُثمان بن أبي العاص، وكان مُطاعاً فيهم، فقال لهم: لا تكونوا آخر العرب إسلاماً، وأولهم ارتدادًا. فنفعهم الله برأيه.

وسُئل بعض الحُكماء: أي الأمور أشد تأييدًا للفتى وأيها أشد إضرارًا به؟ فقال: أشدها تأييدًا له ثلاثة أشياء: مُشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبت. وأشدها إضرارًا به ثلاثة أشياء: الاستبداد والتهاون والعجلة.

وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه. فقال له: لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره، وسهله بوعره، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره[١]. وقد وعيت النصح وقبلته، إذ كان مصدره من عند من لا يشك في مودته وصفاء غيبه، ونصح جيبه؛ ومازلت بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحاً، ومنارًا بيِّنًا.

وكان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إياكم والرأي الفطير وكان يستعيذ بالله من الرأي الدبري.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.

وأوصى ابن هبيرة ولده فقال: لاتكن أول مشير، وإياك والهوى والرأي الفطير؛ ولا تُشيرنَّ على مُستبد ولا على وَغد ولا على مُتلون ولا لجوج وخَفِ الله في موافقة هوى

---

(١) رواه الطبراني في الصغير ومن طريقه القضاعي من حديث عبد القدوس بن حبيب عن الحسن عن أنس مرفوعاً بلفظ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد» انظر المقاصد الحسنة [٩٥٤] وقال الحوت: سنده واه فيه عبد القدوس ابن حبيب تفرد به وهو ضعيف جداً. انظر أسنى المطالب [١٢٥٤] وقال الألباني موضوع، انظر الضعيفة [٦١١] وضعيف الجامع [٥٠٥٦].

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

المستشير؛ فإن التماس موافقته لؤم، وسُوء الاستماع منه خيانة.

وكان عامر بن الظرب حاكم العرب يقول: دعوا الرأي يغب[1] حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير. يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه.

ومن أمثالهم في هذا قولُهم: لا رأى لمن لا يطاع.

وكان المهلب يقول: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يبصره.

العُتبي قال: قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، فنحن نُشاوره، فكأنا ألف حازم.

قال الشاعر:

الرأي كالليل مسودّ جوانبه ... والليل لا ينجلي إلا بإصباح
فاضمُم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

العتبي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخل على الخليفة وآخر خارج من عنده قال: ثم رأيته وإنه ليتقى كما يتقى البعير الأجرب فقال لي: يا أخا العراق، اتهمنا القوم في سريرتنا ولم يقبلوا منّا علانيتنا ومن ورائهم وورائنا حكم عدل.

ومن أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سُبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بهم: يابني حنيفة بُعدًا لكم كما بَعدت عاد وثمود. أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، كأني أسمع جَرسه وأبصر غيبه، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة، وإني لمّا رأيتُكم تتهمون النصيح وتُسفهون الحليم؛ استشعرت منكم اليأس وخفت عليكم البلاء. والله ما منعكم الله التوبة، ولا أخذكم على غِرة، ولقد أمهلكم حتى ملّ الواعظ، ووهَن الموعوظ؛ وكنتم كأنما يُعنى بما أنتم فيه غيركُم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق. ومن نصيحتي الندامة، وأصبح في يدي من هلاككم البُكاء، ومن ذُلّكم الجزع، وأصبح ما فات غير مردود، وما بقى غير مأمون.

---

(١) يغب: يبيت.

قال القطامي في هذا المعنى:

ومعصية الشفيق عليك مما ... تزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعه اتباعا
كذاك وما رأيت الناس إلا ... إلى ما جر غاويهم سراعا
تراهم يغمزون من استركُّوا ... ويجتنبون من صدق المصاعا[1].

وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق وهو الذي ضغطه الخف ولا لحاقب وهو الذي يَجد رزًا[2] في بطنه.

وينشد في الرأي بعد فوته:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمْرٌ عاتب القدرا

ومن قولنا في هذا المعنى:

فلئن سمعت نصيحتي وعصيتها ... ما كنتُ أول ناصح مَعصِي

وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم:

لم يألكم مالك صفحاً ومغفرة ... لو كان ينفخ قين الحي في فحم

حفظ الأسرار

قالت الحكماء: صَدرك أوسع لسرّك من صدر غيرك.

وقالوا: سِرك من دمك فانظر أين تُريقِه؟، يعنون أنه ربما كان في إفشائه سفك دمك.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

ولا تُفش سرك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت غواة الرِّجا ... ل لا يتركون أديماً[3] صحيحا

وقالت الحكماء: ما كنتَ كاتمه من عدوّك فلا تُطلع عليه صديقك!

---

(١) استركوا: استضعفوا والمصاع: المقاتلة والمجالدة بالسيف.

(٢) الرز «بالكسر»: الصوت.

(٣) الأديم: الجلد. يريد أن الغواة يمزقون أعراض الناس.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما استودعت رجلا سرًّا فأفشاه فلُمته؛ لأني كنت أضيق صدرًا منه حين استودعته إياه حتى أفشاه.

وقال الشاعر:

إذا ضاق صدرُ المرء عن سِر نفسه فصـدر الـذي يُستودع السرَّ أضيقُ

قيل لأعرابي: كيف كِتمانك للسر؟ قال: أجحد المُخبر وأحلف للمُستخبر.

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلا قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملوك، وإفشاء السر، والتعرض للحُرَم.

وقال الوليد بن عُتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثـاً ولا أراه يطوى عنك، أفلا أحدثك به؟ قال: لا يا بُني، إنه من كتم سره كان الخِيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه، فلا تكُن مملوكا بعد أن كنت مالكـًا.

وفي كتاب التاج[1] أن بعض ملوك العجم[2] استشار وزيريه فقال أحدهما: لاينبغي للملك أن يستشـير منـا أحداً إلا خاليا به، فإنه أموت للسر وأحزم للرأي وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه اثنين وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة؛ لأن الواحد رهن بما أفشى والثاني مطلق عنه ذلك الرهن والثالث علاوة فيه فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يُظهـره رغبة ورهبة وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة واتسعت على الرجلين المعاريض، فإن عاقبهما عاقب بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئـاً بجناية مجرم وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له وعن الآخر ولا حجة معه.

وقال أبو محجن الثقفي:

لا تسـألي النـاس عن مالي وكثـرتـه وسائلي الناسَ عن بأسي وعن خُلُقي
قد أطعن الطعنة النجلاء عن عُرض وأكـتـمُ السر فيــه ضربــة الـعُـنق

---

(١) كتاب التاج: لأبي عبيدة.

(٢) الملك هو سابور بن هرمز ذو الأكتاف، انظر الوزراء، والكتاب ص١١١.

الإذن

قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟ قال: على البُيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب. قال فمن تؤخر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء!.

وكان سعيد بن عُتبة بن حصين إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانبا، فقيل له: إنك لتباعد من الآذِن جهدك. قال: لأن أدعى من بعيد خير من أن أُقصَى من قريب، ثم قال:

وإن مسيري في البلاد ومنزلي ... هو المنزلُ الأقصى إذا لم أقرَّبِ
ولست وإن أُدنيت يوما ببائع ... خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبُّبَ
وقد عدّه قوم تجارة رابح ... ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وقال آخر:

رأيت أُناساً يسرعون تبادرًا ... إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن جلوس ساكنون رزانة ... وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا

وقف الأحنف بن قيس ورجل بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن للرجل، فأسرع الرجل في مشيته حتى تقدَّم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه، فقال: والله إني ماأذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه.

قيل لمُعاوية: إن آذِنك يُقدِّم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه، إن المعرفة لتنفع في الكلب العقور والسَّبع الهصور والجمل الصؤول، فكيف في رجل حَسيب ذي كرم ودِين؟

وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيُلقى عن نفسه الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالوا: من أدمن قرع الباب يُوشك أن يُفتح له.

وقال الشاعر[١]:

كم من فتى قَصَرت في الرزق خطوته ... أصبتُه بسهام الرزق قد فلجا
إن الأمور إذا انسدت مَسالكها ... فالصبر يفتُق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسنَّ ـ وإن طالت مُطالبةٌ ـ ... إذا استعنت بصبرٍ أن تَرى فرجا
أخلِق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفاً في الشمس عند باب المنصور؛ فقال له: قد طال وقوفك في الشمس! فقال: ليطول وقوفي في الظل.

وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يُقرِّب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبعدهم ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم، فيقرب البعيد لنفعه ويُبعد القريب لضره، وشبهوا ذلك بالجرذ الذي هو في البيت مجاور، فمن أجل ضره نفي والبازي الذي هو وحشي، فمن أجل نفعه اقتني.

استأذن رجل على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: أخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان، وقل له يقول: السلام عليكم، أأدخل[٢].

وقال النبي ﷺ: الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع[٣].

الحجاب

قال زياد لحاجبه: يا عَجلان، إني ولَّيتُك حجابتي وعزلتُك عن أربع: هذا المُنادي إلى الله في الصلاة والفلاح لاتحجُبه عني، فلا سُلطان لك عليه؛ وطارق الليل لا تحجبه، فشرٌّ ما جاء به، ولو كان في تلك الساعة؛ ورسلِ الثغر، فإنه إن أبطأ ساعة

---

(١) الشاعر: هو محمد بن بشير.

(٢) أخرجه أبو داود بنحوه في الأدب، باب كيف الاستئذان، ورواه أحمد من حديث ربعي بن حراش وسنده صحيح؛ انظر زاد المعاد لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، جـ٢، ص٤٢٩ فصل: هديه ﷺ في الاستئذان، مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ.

(٣) رواه البخاري في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان. ثلاثاً، ورواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ كتاب الأدب/باب الاستئذان [٢١٥٤].

أفسد عمل سنة، فأدخله عليّ وإن كنت في لحافي؛ وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد!.

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه، فقال: من يَغْشَ أبواب الملوك يقم ويقعد، ومن يجد باباً مغلقا يجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن دعا أُجيب وإن سأل أُعطى.

وقال محمود الورّاق:

شاد الملوكُ قصورهم فتحصنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
غالوا بأبواب الحديد لعِزها ... وتنّوقوا[1] في قُبح وجه الحاجِب
فإذا تلطف للدخول عليهم ... راجٍ تلقَّوه بوعد كاذب
فاطلب إلى ملك المُلوك ولا تكُن ... بادي الضَّراعة طالباً من طالب

سعيد بن مُسلم قال: كنت والياً بإرمينية فغبر[2] أبو هِفان أياماً ببابي ولا أعلم به، فلما وصل إليَّ مثل قائماً بين السمَّاطين وقال: والله إني لأعرف أقواما لو علموا أن سَف التراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكة لأرماقهم إيثارًا للتنزه عن عيش رقيق الحواشي. أما والله إنّي لبعيد الوثبة بطيء العطفة. إنه والله ما يَثنيني عنك إلا ما يصرفك عني، ولأن أكون مُقلاً مُقرباً أحب إليَّ من أكون مُكثرًا مُبْعَداً. والله ما نسأل عملاً لا نضبطه، ولا مالاً إلا ونحن أكثر منه. وهذا الأمر الذي قد صار إليك وفي يدك قد كان في يد غيرك قبلك فأمسوا والله حديثاً، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. فتحبب إلى عباد الله بحسن البِشْر ولين الجانب وتسهيل الحجاب؛ فإن حُب عباد الله موصول بحب الله، وبغضهم موصول ببغضه؛ لأنهم شهداء الله على خلقه، ورُقباؤه على من اعوجَّ عن سبيله.

أبو مُسهِر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان فحُجبت، فكتبت إليه:

---

(١) تنوقوا: بالغوا.

(٢) غبر: مكث وبقى.

إني أتيتُك للتسليم أمس فلم ... تأذن عليك لي الأستارُ والحُجُبُ
وقد علمت بأنِّي لم أُرَدَّ و ـ لا ... والله ـ ما رُدَّ إلا العِلمُ والأدبُ

فأجابني محمد بن عبد الله بن عبد كان فقال:

ولو كنت كافأت بالحُسنى لقلت كما ... قال ابن أوس[1] وفيما قاله أدبُ:
«ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ... إن السَّماء تُرجَّى حين نحتجب»

وقف بباب محمد بن منصور رجلُ من خاصته فحجب عنه فكتب إليه:

على أيِّ باب أطلب الإذن بعد ما ... حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن؛ فقيل له: تكون لك عودة. فقال:

لئن عُدتُ بعد اليوم إني لظالم ... سأصرِف وجهي حيث تُبغَى المكارمُ
متى يظفرُ الغادي إليك بحاجة ... ونِصفُك محجوب ونصفُك نائِم

ونظير هذا المعنى للعتابي حيث يقول:

قد أتيناك للسلام مرارًا ... غير مَنٍّ مِنَّا بذاك المزار
فإذا أنت في استتارك بالليل ... على مثل حالنا بالنهار

وقف رجل بباب أبي دُلف، فأقام حينًا لا يصل إليه، فتلطف برقعة أوصلها إليه، وكتب فيها:

إذا كان الكريمُ له حَجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيمِ؟!

فأجاب أبو دُلف:

إذا كان الكريمُ قليلَ مال ... ولم يُعذَر تعلَّل بالحَجاب
وأبوابُ المُلوك محجباتٌ ... فلا تستعظِمَنَّ حجابَ بابي

وقال حبيب الطائي في الحِجاب:

سأترك هذا الباب مادام إذنهُ ... على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأته مُتعمّدا ... ولا فاز من قد نال منه وصولا

---

(١) ابن أوس: هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

ولا جُعلت أرزاقنا بيد أمريء ... حمى بابه من أن يُنال دخولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً ... وجَدنا إلى ترك المجِيء سبيلا

وقال غيره:

إذا ما أتيناه في حاجةٍ ... رفعنا الرِّقاعَ له بالقَصب
له حاجِب دونه حاجِبٌ ... وحاجب حاجِبه مُحتجب!

وقد قلت في ذلك:

إذا كنت تأتي المرءَ تُعظم حقه ... ويجهل منك الحق فالهجر أوسَع
وفي الناس أبدالٌ وفي الهَجر راحةٌ ... وفي الناس عَمَّن لا يُواتيك مَقنع
وإنّ أمرأً يرضى الهوان لنفسه ... حَريٌّ بجدع الأنف والأنف أسنع[1]

وقال آخر:

يا أبا موسى وأنت فتىً ... ماجد حلو ضرائبه
كن على منهاج معرفة ... إنَّ وجه المرء حاجبه
فيه تبدو محاسنه ... وبه تبدو معايبه

وقال أحمد بن محمد البغداديّ في الحسن بن وهب الكاتب:

ومُستنْبٍ عنِ الحسن بن وهب ... وعمّا فيه من كرم وخير
أتاني كي أُخبِّره بعلمي ... فقلتُ له سقطتَ على الخبِير
هو الرجل المهذب غير أنّي ... أراه كثير إرخاء السُّتور
وأكثر ما يغنيه فتاهُ ... حُسيٌن حين يخلو بالسرور
ولولا الريحُ أسمع أهلُ حَجر ... صليلَ البَيض تُقرعُ بالذُّكور

ومن قولنا في هذا المعنى:

ما بالُ بابِك محروساً ببوَّاب ... يحميه من طارق يأتي ومُنتاب
لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد ... فالمقت يحجبُه من غير حجَّاب
فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبُه ... فإنّ وجهك طِلَّسْمٌ على الباب

---

(١) الأسنع: المرتفع العالي؛ ومنه شرف أسنع، إذا كان كذلك.

ووقف حَبيب بن أوس الطائي بباب مالك بن طوق فحُجب عنه. فكتب إليه يقول:

قُل لابن طوق رحى سعد إذا طحَنت ... نوائبُ الدهر أعلاها وأسفلها
أصبحت حاتِمها جُودًا وأحنفها ... حِلما وكيّسها عِلما ودغفلها
مالي أرى القُبّة البيضاء مُقفلة ... دوني وقد طالَما استفتحت مُقفلها

باب من الوفاء والغدر

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال مُلكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوّي وتُظهر الغدرَ بي؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تَدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعتَ أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد موتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أمرتَ به أنفع الأشياء لك وأقبحها بي، وما عندي غير الصبر معك، حتى يفتحَ الله عليك أو أقتل معك. وأنشأ يقول:

أُسِرُّ وفاء ثم أظهر غدرة ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهرُه

أبو الحسن المَدائني قال: لما قَتلَ عبد الملك بن مروان عمرَو بن سعيد بعد ما صالحَه وكتب إليه أمانا وأشهد شهودًا، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: مارأيك في الذي كان منّي؟ قال: أمرٌ قد فات دَركه. قال: لتقولَن. قال: حزم لو قتلته وحييتَ. قال: أو لست بحيّ؟ فقال: ليس بحيّ من أوقف نفسه موقفا لا يُوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فِعْلي لأمسكت.

المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هُبيرة[1] واختلف فيه الشهود أربعين يومًا، ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور، فقال له: ياأمير المؤمنين إنَّ

(١) ابن هبيرة، هو يزيد بن عمر بن هبيرة. وكان عاملا لمروان بن محمد، آخر ملوك بني أمية على العراق.

دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجَنِّبوهم مَرارتها؛ لتُسرِع محبتُكم إلى قلوبهم، ويعذُب ذكرُكم على ألسنتهم، ومازلتُ منتظرًا لهذه الدعوة. فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه وباسَطه بالقول حتى اطمأن قلبُه. فلما خرج قال أبو جعفر [لأصحابه]: عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدرًا!.

الولايـة والعـزل

قال النبي ﷺ: «**ستحرصون على الإمارة، ثم تكون حسرة وندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة**»(١).

وقال المُغيرة بن شعبة: أُحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث:أحبها لِرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء.

قيل لعبد الله بن الحسن: إن فلاناً غيَّرته الولاية قال: من وُلِّي ولاية يراها أكبر منه تغيَّر لها، ومن وُلِّي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

ولما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى، قال له: أعن عجز أم خيانة ياأمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكنّي أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة(٢).

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذتُ العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة ـ يُعرِّض له بالحجاز ـ فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شمال زِياد. فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

ولقى عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل.

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة بلفظ: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة**».

(٢) ذكر ابن الأثير سبب عزل عمر للمغيرة بن شعبة عن البصرة، انظر: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣٧٨، دار الكتاب العربي.

قال: قد طلب العمل من هو خير منك، يوسُف عليه الصلاة والسلام. قال: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾[١].

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبادر الرجل فطلب منه العمل. فقال له عمر: والله لقد كنتُ أردتُك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يُعن عليه.

وطلب العباس عمّ النبي ﷺ من النبي ولاية، فقال له: ياعمِّ نفس تُحييها خير من ولاية لا تُحصِيها[٢].

وطلب رجل من أصحاب النبي ﷺ عملاً، فقال له: «**إنا لا نستعين على عملنا بمن يريده**»[٣].

وقال زياد لأصحابه: من أغبطُ الناس عَيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه. قال: كلا، إنّ لأعواد المنبر لهيبة، ولِقَرع لجام البريد لفزعه. ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يجري عليه كراؤها، وزوجة قد وافقته في كفاف من عيشه لا يعرفنا ولا نعرفه، فإن عرفنا وعرفناه، أفسدنا عليه آخرته ودنياه!

باب من أحكام القضاة

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إذا كان في القاضي خمسُ خِصَال فقد كَمل: عِلم بما كان قبله، ونزاهة عن الطَّمَع، وحِلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومُشاورة أهل العلم والرأي[٤].

وقال عمرُ بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فُقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمُه، فلعله قد فُقئت عيناه جميعاً.

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٥ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢، ص٦١٢.

(٢) ابن سعد/ الطبقات وقد ورد في باب «اختيار السلطان لأهل عمله» وقد تكلمنا عنه.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري بلفظ: «إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحدًا حرص عليه».

(٤) ذكره ابن قتيبة بنحو ذلك، المصدر السابق، جـ١، ص١٢٦.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية كتاباً في القضاء يقول فيه: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبُه؛ وينبسط لسانه. وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به. وآس بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

العُتبي قال: تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبُختيشُوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي داود القاضي في مجلس الحُكم في عقار بناحية الشواد، فزَرَى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي داود. فأحفظه ذلك، فقال: ياإبراهيم، إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت إليه بيد؛ وليكن قصدُك أمما، وطريقك نهجاً، وريحك ساكنة. ووفِّ مجالسَ الحُكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل لمذهبك في محتدك وعظم خطرك. ولا تعجل، فرُبَّ عجلةٍ تَهب ريثاً، والله يعصمك من الزلل، وخطل القول والعمل، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم، قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرت بسداد، وحضضت على رشاد، ولست بعائد إلى ما يثلم مُرُؤتي عندك، ويُسقطني من عينك، ويُخرجني عن مقدار الواجب إلى الاعتذار، فها أنذا مُعتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مُقر بذنبه، باخِع بجُرمه؛ فإن الغضب لا يزال يستفزني بمودة فيردني مثلك بحمله، وتلك عادة الله عنـدك وعندنا منك، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد وهبتُ حقي من هذا العقار لبُختَيشوع، فليت ذلك يقوم بأرشِ[1] الجناية، ولن يتلف مال أفاد موعظة. وبالله التوفيق.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري ـ رواها ابن عُيينة ـ:

أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسُنَّة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك الخصم،

---

(١) الأرش: الدية.

فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس[١] بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك[٢]، ولا يخاف ضعيف من جورك، البيّنة على من ادَّعَى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صُلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبّها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق، واجعل للمدّعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنه أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر. والمسلمون عُدول بعضهم على بعض، إلا مجلودًا في حَدٍّ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء أو قرابة أو نسب، فإن الله عز وجل وليّ منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والأيمان. ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يُوجب الله عز وجل بها الأجرَ، ويُحسن بها الذخر، فإنه من تخْلُصُ نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافَه منه هتك الله سِترَه[٣].

وكتب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فاحذر أن تُدركني وإياك عمياءُ مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء مُتبعة، ودنيا مُؤثرة. أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار، وأخِف الفساق واجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً[٤] وإذا كانت بين القبائل نائرة فنادوا: يالفلان، فإنما تلك نجوى من الشيطان فاضربهم بالسيف؛ حتى يفيئوا إلى أمر الله

(١) آس بين الناس أي سَوِّ بينهم، واجعل كل واحد منهما أسوة بخصمه.

(٢) قوله: «حتى لا يطمع شريف في حيفك» أي: في ميلك معه لشرفك، انظر: المبرِّد، الكامل في اللغة والأدب، جـ١ ص١٠، مؤسسة المعارف ـ بيروت.

(٣) أورده ابن قتيبة مع بعض الاختلاف، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٣، وانظر: المبرد، المصدر السابق، جـ١، ص٨، و٩.

(٤) اجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً أي فرِّق بينهم.

عز وجل، وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام. واستدم النعمة بالشكر، والطاعة بالتألف، والمقدرة بالعفو، والنصرة بالتواضع والمحبة للناس، وبلغني أن ضبَّة تنادي: يالضبَّة وإني والله ما أعلم أن ضبَّة ساق الله بها خيراً قطَّ، ولا صرف بها شرا. فإذا جاءك كتابي هذا، فانهَكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفقهوا، وألصق بغيلان بن خرشة مَنْ بينهم. وعُد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وباشر أمورهم بنفسك، وافتح لهم بابك؛ فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله قد جعلك أثقَلهم حِملا.

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلُها، فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همُّها في السّمن والسِّمن حَتفُها. واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيّته، وأشقى الناس من يشقى به الناس، والسلام[1].

أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يغزو قوماً في البحر، فكتب إليه عمرو ابن العاص، وهو عامله على مصر: ياأمير المؤمنين، إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دود على عود. فقال عمر: لا سألني الله عن أحد أحمله فيه[2].

الشعبي قال: كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاء شديداً. فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلتُ: لبُكائها. قال: لاتفعل، فإن إخوة يوسُف جاءوا أباهم عِشاء يبكون وهم له ظالمون[3].

وكان الحسن بن أبي الحسن لا يرى أن يردّ شهادة رجل مُسلم إلا أن يُجَرّحه المشهود عليه. فأقبل إليه رجل، فقال: ياأبا سعيد، إن إياساً رد شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: ياأبا وائلة، لم رددت شهادة هذا المسلم، وقد قال رسول الله ﷺ،

---

(١) أورده ابن قتيبة مع بعض الاختلاف، المصدر السابق، جـ١، ص٦٥.

(٢) الصحيح أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر يستأذنه ركوب البحر للجهاد فطلب منه عمر أن يصف البحر فلما وصفه عمرو امتنع عمر وقال قولته.

(٣) ذكرها ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٢.

«**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا**»[١]؟ فقال: ياأبا سعيد، إن الله عز وجل يقول: ﴿**ممن ترضون من الشهداء**﴾[٢] وهذا ممن لا يُرضَى.

ودخل الأشعث بن قيس على شُريح القاضي في مجلس الحكومة فقال: مرحباً وأهلا بشيخنا وسيّدنا، وأجلسه معه. فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث، فقال له شريح: قم فاجلس مجلس الخصم وكلِّم صاحبك. قال: بل أُكلِّمه من مَجلسي. فقال له: لتقومنَّ أو لآمرنَّ من يُقيمك. فقال له الأشعث: لشد ما ارتفعت! قال: فهل رأيت ذلك ضرَّك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك.

وأقبل وكيع بن أبي سُود صاحب خُراسان ليشهدَ عند إياس بشَهادة، فقال: مرحبًا وأهلا بأبي مُطرف وأجلسه معه، ثم قال له: ماجاء بك؟ قال: لأشهد لفلان. فقال: مالك وللشهادة، إنما يشهد الموالي والتجار والسُّوقة. قال: صدقت، وانصرف من عنده. فقيل له: خدعك، إنه لا يقبل شهادتك. قال: لو علمت ذلك لعلوته بالقضيب.

دخل عديّ بن أرطاة على شُريح، فقال: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إنّي رجل من أهل الشام. قال: نائي الدار سحيق المَزار. قال: قد تزوجت عندكم. قال: بالرِّفاء والبَنين. قال: وولد لي غلام. قال. ليَهنِئك الفارس. قال: وأردت أن ارَحِّلَها. قال: الرجل أحق بأهله قال: وشرطت لها دارها، قال الشرط أملك. قال فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت، قال: على من قضيت؟ قال: على ابن أُمِّك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك. يريد إقراره على نفسه.

---

(١) رواه البخاري عن أنس بلفظ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم**». كتاب الصلاة/باب فضل استقبال القبلة.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢.

obeikandl.com

فرش كتاب الفريدة في الحروب

قال أبـو عمر أحمدُ بنُ محمد بن عبد ربِّه رحمه الله: قد مضى قولُنا في السلطان وتَعظِيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وإدامة نصيحته؛ وما على السلطان من العَدلْ في رعيّته، والرفق بأهل مملكته.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومَدار أمرها، وقَود الجُيوش وتدبيرها، وما على المُدبِّر لها من إعمال الخُدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغِرّة وإذكاء العيون، وإفشـاء الـطلائـع، واجتنـاب المَضـايق، والتحفُّظ من البَيات. هذا بعـد معرفة أحكامها، وإحكام معرفتها، وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومُعاناة الجيوش، وعِلمـه أن لا دِرع كالصـبر ولا حِصن كاليقـين. ثم نذكر كرمَ الإقدام، ومحمود عاقبته، ولُؤمَ الفرار، ومُذموم مَغّبته. والله المُعين.

صفـة الحــروب

الحربُ رَحى ثِفالها[1] الصَّبْر، وقُطْبها المَكْر، ومَدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمامها الحَذر. ولكل شيء من هذه ثمرة، فثَمرة الصبر التأييد، وثمرة المكر الظفَر، وثمـرة الاجتهـاد التوفيق، وثمرة الأناة اليُمن، وثمرة الحَذر السلامة. ولكل مَقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن معْد يكرب: صِفْ لنا الحرب، قال: مُرة المَذاق، إذا كشفت عن ساق، من صَبر فيها عُرِف، ومن نكَل عنها تَلِف، ثم أنشأ يقول:

الحَـرْب أول ما تكـونُ فَتـيـة ... تسـعـى بزينـتـهـا لكـل جَهُـولِ
حتـى إذا حَمِيـت وشَـب ضِرَامـهـا ... عادت عجـوزًا غير ذات حَلِيْـل

---

(١) الثفال «ككتاب»: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

شمطاء جَزَّت رأسَها وتنكَّرت مَكْروهة للشَّمّ والتّقبيل[1]

وقيل لعَنترة الفوارس: صِفْ لنا الحرب. فقال: أوّلها شَكوى، وأوسْطها نَجوى، وآخرها بَلْوَى!.

وقال الكُمَيت:

والناسُ في الحَرب شتّى وهي مُقبلة ويَستوون إذا ما أدبَر القُبُلُ
كلّ بأمسيِّها طَبٌّ مولِيَةً والعالمون بذي غُدوِيِّها قُلُل

وقال نَصر بن سيّار صاحبُ خراسان يصف الحرب ومُبتدا أمرها:

أرى خَلَل الرَّماد وميضَ جَمرٍ فيُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإن النّار بالعُودين تُذكَى وإنّ الحربَ أوّلها الكلام
فإن لم يُطفِها عقلاء قَوم يكون وَقُودَها جُثث وهَام
فقلت من التعجّب ليت شعري أأيقاظ أُمَيّةُ أم نِيَام؟!

وفي حكمة سُليمان بن داود عليهما السلام: الشرّ حُلو أوّله: مرٌّ آخره.

والعرب تقول: الحرب غَشوم؛ لأنها تنال غيرَ الجاني.

وقال حَبيب:

والحرب تركب رأسها في مَشهد عُدِل السَّفِيهُ به بألف حَلِيمَ
في ساعة لو أنَّ لقمانا بها وهوالحكيم لكان غير حكيم!

وقال أكثم بن صَيفِيّ حكيم العرب: لا حِلم لمن لا سَفيه له.

ونحو هذا قول الأحنف بن قيس: ما قلّ سفهاءُ قومٍ قط إلا ذلّوا.

وقال: لأن يُطيعني سُفهاء قومي، أحبّ إليَّ من أن يُطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءَكم، فإنهم يَكفُونكم النارَ والعارَ.

وقال النابغة الجعدي:

ولا خيرَ في حِلم إذا لم تكُن له بَوادِرُ تَحمِي صَفوه أن يُكدَّرَا

وأنشد هذا الشعر للنبي ﷺ، فلما انتهى إلى هذا البيت، قال له النبي ﷺ: «لا

(١) انظر: ابن قتيبة المصدر السابق، جـ١، ص٢١٠.

يَفضض الله فاك». فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثَنِيَّة[١].

وقال النابغة الذُّبياني يصف الحرب:

تَبـدو كواكبـه والشمسُ طالعـةٌ ... لا النـورُ نُور ولا الإظـلام إظـلامُ!

يريد بقوله:

* تبـدو كـواكبـه والشمـس طالعـة *

شدةَ الهول والكرب، كما تقول العامة: أريتُه النجوم وسط النهار.

قال الفرزدق:

أريك نجـومَ الليـل والشمـسُ حيّـةٌ

وقال طَرفة بن العَبد:

وتُريـك النجـم يجـرى بالظُّـهُـر

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمس طالعـة ليست بكـاسفـةٍ ... تبكي عليـك نجـومَ الليـل والقَمَرا

يقول: الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدّة الغم والكرب الذي فيه الناس.

ومن قولنا في صفة الحرب:

ومُغْـبَرٍّ الـسـماء إذا تجلى ... يغـادر أرضـه كالأرجـوان

سمـوت له سمـو الـنقـع فيـه ... بكـل مذلـق سلب[٢] الـسـنـان

وكـل مشـطب[٢] المتنـين صاف ... كلون المـلح منـصـلت يماني

---

(١) أورده الحافظ بن حجر في الإصابة وقال: أخرجه البزار والحسن بن سفيان في مسنديهما وأبو نعيم في تاريخ أصبهان والشيرازي في الألقاب كلهم من رواية يعلى بن الأشدق قال؛ وهو ساقط الحديث. الإصابة جـ٣، ص٥٠٩، وانظر: المطالب العالية، ص ٤٠٦٥.

(٢) مذلق: محدد وسلب: طويل.

(٣) مشطب: فيه طرائق. ومنصلت: صقيل ماض.

كأن نهاره ظلماء ليل ... كواكبه من السمر اللدان[1]

وفي صفة المعترك :

ومُعترك تَهُزّ به المَنايا ... ذكورَ الهِند في أيدي ذكور
لوامع يُبصر الأعمَى سَناها ... ويَعمَى دونها طَرف البَصير
وخافقة الذرائب قد أنافَت ... على حَمراء ذاتِ شَباً طَرير
تُحوِّم حولها عُقبان موت ... تخطّفت القلوبَ من الصدور
بيوم راح في سِربال ليل ... فما عُرف الأصِيل من البُكور
وعين الشمس تَرنُو في قَتام ... رُنُوّ البكر من بين السُّتور
فكم قَصّرتَ من عُمر طويل ... به وأطَلتَ من عُمرٍ قَصِير

العمل في الحروب

قيل لأكثم بن صَيفّي : صِف لنا العمل في الحرب . قال : أقِلّوا الخِلاَف على أمرائكم ، فلا جماعة لمَن اختُلِف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، فتثبّتوا ؛ فإن أحزم الفَريقين الرَّكين ، ورب عَجلة تُعقب ريثاً . وادّرعوا الليل ، فإنه أخفى للوَيل ، وتحفَّظوا من البَيات .

وقال شَبيب الحَرُوريّ : الليلُ يكفيك الجَبان ونِصْفَ الشجاع .

وكان إذا أمسى يقول لأصحابه : أتاكم المَدد يعني الليل .

وقالت عائشة رضي الله عنها : المنازعة في الحرب خور، والصياح فيها فشل .

وقال عتبة بن ربيعة لأصحابة يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ﷺ : أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الحيات .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : مَن أكثر النظر في العواقب ، لم يَشجُع .

وقال النُّعمان بن مُقَرِّن لأصحابه عند لِقاء العدوّ: إنّي هازٌّ لكم الراية ، فليُصلح

---

(١) السمر اللدان : الرماح اللينة .

كل رجـل منكم من شَأنه، وليُشدَّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازّها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوّه، ومكان فُرصته ثم إنّي هازّها لكم الثالثة وحاملٌ، فاحملوا على اسم الله.

وفي النعمان بن مُقرِّن هذا يقول عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه ـ إذ تكاملت عنده الحشُود وتطلّع الصحابةُ إلى التقدم عليها ـ: لأقلدنّ أعنّتها رجلا يكون عدّاء لأوّل أسَّنة يلقاها. فقلَّدها النعمانَ بن مُقرِّن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفُرصة، فإنها تمر مَر السحاب، ولا تطلبوا أثرًا بعد عَين.

وقال بعضُ الحكماء: انتهز الفرصة، فإنها خُلسة؛ وثِب عند رأس الأمر، ولا تَثِب عند ذَنَبه. وإياك والعجز، فإنه أذلّ مركب؛ والشفيع المَهين، فإنه والله أضعف وسيلة.

وخرجت خارجة بخراسان على قُتيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقيل له: ما يُهمك منهم؟! وَجّه إليهم وكيع بن أبي سود؛ فإنه يَكفيكم. فقال: لا، إن وَكيعا رجل به كِبر، يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قَلَّت مُبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم، فيَجِد عدوُّه غرة منه.

وسُئل بعضُ الملوك عن وثائق الحَزم في القتال فقال: مُخاتلة العدو عن الريف، وإعـداد العُيون على الـرصَد، وإعطاء المبالغين على الصدق، ومُعاقبة المتوصِّلين بالكذب، وألَّا تُحرج هاربا إلى قتال، ولا تُضيِّق أمانًا على مُستأمِن، ولا تشدهنَّك[1] الغنيمة عن المُحاذَرة.

وفي بعض كتب العجم: أن حكيمًا سُئِل عن أشدِّ الأمور تدريبـاً للجنود وشحذاً لها فقال: تعود القتال وكثرته وأن يكون لها مواد من ورائها.

وقـال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري ياأمير المؤمنين أشجاعٌ أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

---

(١) لا تدهشنك: لا تدهشنك.

شُجاعٌ إذا ما أمكنتِنيَ فُرصة وإن لم تَكُن لي فُرصة فَجبَانُ

وقال الأحنف بن قيس: إن رأيتَ الشرَّ يتركُك إن تركته فاتركه.

قال هُدبة العُذري[١]:

ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركي ولكن متى أحمل على الشرِّ أركبِ
ولست بِمفراح إذا الدهرُ سَرني ولا جازعٍ من صَرفه المُتقلِّبَ

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾[٢].

وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية، والجُبنَ مَقتلة. واعتبر من ذلك، أن من يُقتل مُدبرًا أكثرُ ممن يُقتل مُقْبلاً؟

ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهبْ لك الحياة[٣].

والعرب تقول: الشجاع مُوقًّى، والجبان مُلَقًّى.

وقال أعرابيّ: الله مُخلف ما أتلف الناس، والدهر مُتلف ما جمعوا؛ وكم من مَنيَّة عِلتها طلبُ الحياة، وحياةٍ سببها التعرضُ للموت[٤].

وكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يُذَمر[٥] الناس ويقول: يأهل الإسلام، إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النَّصر[٦].

---

(١) نسب هذا الشعر للبعيث كما نسب لتأبط شرًا؛ انظر: عيون الأخبار، جـ١.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤٥.

(٣) ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٦، ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٥) يذمر الناس: يحضهم على القتال.

(٦) ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٨.

وكتب أنوشروان إلى مرازبته: عليكم بأهل الشجاعة والسخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله.

وقالت الحُكماء: استقبال الموت خيرٌ من استدباره.

وقال حسان بن ثابت:

ولسنا على الأعقاب تَدمى كلومُنا ... ولكن على أقدامنا تَقطر الدِّمَا

وقال العَلوي في هذا المعنى:

مُحرَّمةٌ أكفال خيلي على القَنا ... ودامية لَباتُها ونُحورُها
حَرامٌ على أرماحنا طَعن مُدبر ... وتغرَق منها في الصدور صُدورها

وكانوا يتمادحُون بالموت قَعصاً[1]، ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حَتف أنفه. وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام[2].

وخطب عبدُ الله بن الزبير الناس لمّا بلغه قتل مصعب أخيه فقال: إن يُقتل فقد قُتل أبوه وأخواه وعمّه. إنا والله لا نموت حَتفاً، ولكن نموت قَعصاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف؛ وإن يُقتل مصعب فإن في آل الزبير خَلفا منه.

وقال السموأل بن عادياء:

ما مات منا سيّدُ حتفَ أنفه ... ولا طُلّ منّا حيث كان قتيلُ
تَسيل على حَد الظبات نفوسُنا ... وليس على غير السُّيوف تَسِيل

وقال آخر:

وإنا لتَستحلى المَنايا نفوسُنا ... ونترك أخرى مُرةً ما نَذوقها

وقال الشَنفَرى:

فلا تَدفنوني إن دفنى مُحرم ... عليكم ولكن خامِري أمَّ عامِرِ
إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثَري ... وغودِر عند المُلتقى ثَم سائِري

(١) يقال: مات قعصاً، إذا أصابته ضربه أو رمية فمات مكانه.

(٢) رواه أحمد في مسنده [٤/٣٦] عن عبدالله بن عتيك رضي الله عنه بلفظ: «... أو مات حتف أنفه.. إلى قوله: ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب». قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن إسحاق مدلس وبقية رجال أحمد ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢٧٦).

هُنالك لا أبغي حياة تَسُرني سَجيسَ[١] الليالي مُبسلا[٢] بالجرائر

قوله: خامري أم عامر، هي الضّبع. يعني بقوله: إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن ألقوني إلى التي يقال لها: خامري أم عامر، وهي الضّبع وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب [رضي الله عنه]ـ وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغَداة وتَظهر بالعشى في إزار ورداء؟ ـ فقال: أ بِالموت تُخوِّفوني! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليّ.

وقال لابنه الحسن [رضي الله عنهما]: لا تدعُونَّ أحداً إلى المبارزة، وإن دُعيت إليها فأجب؛ فإني الداعي إليها باغ، والباغي مصروع[٣].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أنمى عدداً، وأطيب ولدًا[٤] يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددهم، ونمى ولدهم.

ومما يستدلّ به على صدق قوله: ما عمِل السيفُ في آل الزبير، وآل أبي طالب، وما كَثر من عددهم.

وقال أبو دُلف العجلي:

إني امرؤ عودني مهرى ركوب الغلس[٥]
يحمدني سيفي كما يحمد كري فرسي
سيفي بليلي قبسي وفي نهاري أنسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

لستُ لريحان ولا راح ولا على الجار بنبّاحِ

---

(١) سجيس الليالي: أي أبدا.

(٢) مبسلاً: أي مسلماً. يقول: لا أرجو في ذلك الوقت حياة سارة طول الليالي وأنا مسلم للأعداء بجرائري فيكون سبب شماتتهم.

(٣) انظر: ابن قتيبة، المصدر السابق، جـ١، ص٢١٠ مع بعض الاختلاف.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص٢١٣ مع اختلاف يسير.

(٥) الغلس: ظلام آخر الليل.

فإن أردت الآن لي موقفاً ... فبين أسيافٍ وأرماح
ترى فتى تحت ظِلال القَنا ... يقبض أرواحاً بأرواح

وقال أشهب بن رميلة:

أسود شرى لاقت أسود خفية ... تساقوا على حرد دماءَ الأساود[1]

وقيل للمُهلب بن أبي صُفرة: ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة؟ قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول:

وسائلةٍ بالغيب عنّي ولو درت ... مُقارعتي الأبطال طال نحيبها
إذا ما التقينا كنت أول فارس ... يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده. فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مَسلمة: ياأبا سعيد، هل دخلك ذُعر قطُّ لحَرب أو عدو؟ قال: ما سَلمت في ذلك من ذُعر يُنبه على حِيلي، ولم يغشني ذعر قط سلبني رأيي. قال هشام: صدقت، هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنت يوم الفرُوق[2]؟ قال: كنّا مائة، لم نكثر فنتكل[3]، ولم نقلّ فنذل.

وكان يزيد بن المهلّب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسي حياةً مثل أن أتقدَّمَا

وقالت الخنساء:

نُهين النفوس وبذل النفو ... س يومَ الكريهة أبقى لها

وقيل لعبَّاد بن الحُصَين ـ وكان من أشد أهل البصرة ـ: في أي عُدة كنت تريد أن تلقى عدوك؟ قال: في أجل مستأخر.

---

(١) الحرد: الغضب.

(٢) الفروق: موضع بديار بني سعد، كان فيه يوم من أيام حروب عبس وذبيان.

(٣) فنتكل: أي يتكل بعضنا على بعض.

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله عنه يوم صفين:

أبَت[1] لي شِيمتي وأبى بَلائي ... وأخذي الحَمدَ بالثَّمن الرَّبيح
وإقدامي على المكروه نَفسي ... وضربي هامة البطل المُشيح
وقولي كلّما جشأت وجاشت[2] ... مكانك تحمدي أو تَستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عِرْض صحيح

ونظير هذا قول قَطري بن الفُجَاءة:

وقولي كلما جشأت لنفسي ... من الأبطال ويحك لا تُراعي
فإنك لو سألت حياة يوم ... سِوى الأجل الذي لك لم تُطاعي

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول:

أيَّ يوميّ من الموت أفر ... يوم لا يُقدر أو يوم قُدِرْ
يوم لا يُقدر لا أرهبُه ... ومن المقدور لا يُنجي الحذَر

ومثله قول جرير:

قُل للجبان إذا تأخّر سَرْجُهُ ... هل أنت من شَرك المنيّة ناجي

وهذا البيت في شعره الذي أوله:

* هاج الهوى لفؤادك المُهتاج *

ومدح فيه الحجَّاج، فلما أنشده:

* قل للجبَان إذا تأخر سَرجه *

قال: جرّأتَ عليّ الناس قال: والله ما ألقيتُ لها بالاً أيها الأمير إلا وَقتى هذا!.

ونظير هذا مما يُشجِّع الجبان قول عَنتَرة الفوارس:

بكرت تُخوِّفني الحُتوف كأنني ... أصبحتُ عن غَرض الحُتوف بمعزل
فأجبتُها إنَّ المنية مَنهلٌ ... لابد أن أُسقَى بكأس المنهل
فاقني حياءَك لا أبالك واعلمى ... أنّي امرؤ سأموت إن لم أُقتَل

---

(١) نسب هذا الشعر لعمرو بن الإطنابة.

(٢) جشأت: أي تطلعت ونهضت جزعًا وكراهة.

ومن أحسن ما قالوه في الصبر قول نَهشل بن حَرِّي بن ضَمرة النهشلي:

ويـوم كأنَّ المـصـطلين بحـرّه ... وإن لم تكـن نارٌ وقـوف على جمر
صَبرنـا له حتـى يَبـوخ[1] وإنـما ... تُفـرَّج أيـام الكـريهة بالصـبر

وأحسن من هذا عندي قولُ حبيب:

فأثبـتَ في مُستنقَـع المـوت رجله ... وقـال لها من تحت إخمصـك الحشرُ
تردّى ثيـاب المـوت حُمرًا فما أتـى ... لها الليـلُ إلا وهي من سُندس خُضر

وأحسن من هذا قولهُ:

يستـعـذبـون منـايـاهـم كأنَّهمُ ... لا يخرُجـون من الـدنيـا إذا قُتِلوا

وقولُه في المعنى:

قومٌ إذا لَبِسـوا الحـديـد حَسبتَهم ... لم يحسـبـوا أن المـنّـيـة تُخلق
انـظر فحيث ترى السُّيوف لوامعـاً ... أبـداً ففـوق رءوسـهـم تتـألّـق

وقال الجَحَّاب بن حكيم:

شهـدن مع الـنبـيِّ مسـوّمـات ... حُنيـنـاً وهـي داميـةُ الحـوامِي[2]
ووقـعـةَ راهط شَهـدت وحَلَّت ... سنَـابـكُـهـن بالـبَـلد الحـرام
نُعـرِّض للطِّعـان إذا الـتـقـينـا ... خُدودًا لا تُعـرَّض للِّطام

أخذه من قولهم: ضَربة بسيف في عزّ، خير من لطمة في ذُلٍّ.

ومن أحسن ما وُصفت به رجال الحرب قولُ الشاعر:

رويـدًا بني شِيبـان بعض وَعيـدكم ... تُلاقـوا غداً خيـلي على سَفـوانِ[3]
تلاقُـوا جِيـاداً لا تحيـد عن الـوغَى ... إذا ما غدت في المـأزق المُـتـداني
إذا استنجـدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأيـةِ حرب أم بأي مكـان

---

(١) يبوخ: يسكن.

(٢) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره.

(٣) سفوان: ماء على أميال من البصرة، وكانت بنو شيبان توعد تميماً وتزعم أن سفوان لهم، وأرادوا إجلاء بني مازن عنه ومن كان معهم من بني تميم.

ونظير هذا قولُ الآخر:

قومٌ إذا نزل الغَريبُ بدارهم ... تركوه رَبَّ صَواهل وقِيانِ
وإذا دعوتَهمُ ليوم كريهةٍ ... سَدُّوا شُعاع الشمس بالفرسان
لا ينكتون الأرض عند سُؤالهم ... لتطلُّب العِلَّات بالعيدان
بل يُسْفِرُون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسنِ الألوان

ومن أحسن المُحدثين تشبيهًا في الحرب، مسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد ابن مزيد:

تلقى المنيّة في أمثال عُدتها ... كالسَّيل يَقذِف جُلمودا بجُلمودِ
تجود بالنَّفس ... ضَن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقوله أيضا:

مُوفٍ على مُهَج في يوم ذي رهج ... كأنَّه أجلٌ يسعى إلى أمَلِ
ينالُ بالرِّفق ما تعيا الرجالُ به ... كالموت مُستعجلاً يأتي على مَهَلِ

وقال أبو العَتاهية[1]:

كأنك عند الكرِّ في الحرب إنما ... تَفر عن السِّلم الذي من ورائكا
كأنّ المنايا ليس تجري لدى الوغَى ... إذا التقتِ الأبطالُ إلا برائكا
فما آفة الآجال غيرُك في الوغى ... وما آفة الأموال غيرُ حِبائكا

وقال زيد الخيل:

وقد عَلمت سلامة أن سيفي ... كريهٌ كلما دُعيت نَزالِ
أحادثه[2] بصقل كلَّ يوم ... وأعجمُه[3] بهامات الرجال

---

(١) هذا الشعر قاله أبو العتاهية يمدح به يزيد بن مزيد الشيباني. «انظر ديوان أبي العتاهية طبعة بيروت».

(٢) أحادثه: أجلوه.

(٣) أعجمه: أبلوه وأخبره.

وقال أبو مُحلِّم السعدي[١]:

تقـول وصكَّت وجههـا بيَمينهـا ... أبعـلي هذا بالـرَّحى المُتقـاعِسُ[٢]
فقـلتُ لها لا تَعـجـلي وتَـبـيَّـني ... بلائـي إذا الـتـفَّت عليَّ الفـوارس
ألستُ أردّ القِـرنَ يركبُ رَدعـه[٣] ... وفيـه سِنـانٌ ذو غِرارَين نائس[٤]
إذا هاب أقـوامٌ تقـحَّـمت غمـرةً ... يَهاب حُمياهـا الألـدّ المُداعِس[٥].
لَعَـمـر أبيـكِ الخـير إنِّي لخادِم ... لِضيـفـي وإنّي إن ركبتُ لفـارِس

وقال آخر يمدح المُهلِّبَ بالصبر:

وإذا جُدِدْتَ فكـلُّ شيء نافـعٌ ... وإذا حُدِدْتَ فكـل شيء ضائـرُ
وإذا أتـاك مُهـلّبـي في الـوغى ... في كفَـه سَيـفٌ فنِـعـم الـنّـاصر

ومن قولنا في وَصف الحرب:

سُيوف يَقيـلُ المَوتُ تحت ظُباتها ... لها في الكُلى طُعم وبين الكُلى شُربُ
إذا اصطفت الـرايـات حُمرا مُتونُها ... ذوائبُهـا تَهفـو فيَهفـو لها القَلب
ولم تَنـطِق الأبـطال إلا بفِـعـلها ... فألسُـنهـا عُجم وأفعـالُهـا عُرب
إذا ما التقَـوا في مأزِق وتَعـانقـوا ... فلُقيـاهـم طَعـن وتَقبيلهم ضَرب

---

(١) أبو محلم، هو محمد بن سعد، وقيل محمد بن هشام بن عوف السعدي. وقد نسب هذا الشعر في شرح ديوان الحماسة لهذلول بن كعب العنبري. كما نسب في الكامل للمبرد لأعرابي من بني سعد بن زيد مناة، وكان مملكا، فنزل به أضياف فقام إلى الرحى فطحن لهم، فمرت به زوجته في نسوة فقالت لهن: أهذا بعلي؟ فأعلم بذلك، فقال هذا الشعر.

(٢) المتقاعس: الذي دخل ظهره وخرج صدره، يقول: إن امرأتي حين رأتني وأنا أطحن بالرحى للأضياف ضربت وجهها بيمينها تأسفا منها أني أتولى عمل الرحى وأنا زوجها، وأنكرت مني هذا الفعل.

(٣) يركب ردعه، أي يخر صريعا لوجهه.

(٤) كذا في شرح الحماسة. والغرار: حد السيف. والنائس: المضطرب.

(٥) حمياها: شدتها. والألد: اللجوج الشديد الخصومة. والمداعس: المطاعن.

ومن قولنا في رجال الحرب، وأن الوغى قد أخذت من أجسامهم فهي مثل السيوف في رِقتها وصَلابتها:

سَيفٌ تَقلَّد مثله ... عَطف القَضيب على القضيب
هذا تُجزُّ به الرّقا ... بُ وذا تُجزّ به الخُطوب

ومن قولنا أيضاً:

تراه في الوغى سيفاً صَقيلا ... يُقلِّب صفحتي سيفٍ صَقيل

ومن قولنا أيضاً:

سَيف عليه نِجادُ سيف مثله ... في حَدِّه للمُفسدين صَلاحُ

ومن قولنا أيضا في الحرب وذِكر القائد[1]:

مَقيلك تحت أظلال العَوالي ... وبَيتُك فوق صَهواتِ الجِياد
تَبختَرُ في قَميص من دِلاص ... وترفُل في رداء من نِجاد[2]
كأنك للحُروب رَضيعُ ثَدي ... غَدتك بكل داهية نآد[3]
فكم هذا التمني للمَنايا ... وكم هذا التجلُّد للجِلاد
لئن عُرف الجهاد بكل عام ... فإنك طولَ دهرِكَ في جِهاد
وإنك حين أبتَ بكل سَعدٍ ... كمِثل الرُّوح آب إلى الفؤاد
رأينا السيفَ مُرتديًا بسيف ... وعاينّا الجواد على الجَواد

وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتقدَّم إليه، ومعنى بديع لا نظير له، وذلك قولنا:

وجَيش كظَهر اليمّ تنفَحه الصَّبا ... يَعُبُّ عُبوبًا من قَنا وقَنابلِ
فتنزل أولاه وليس بنازل ... وترحل أخراه وليس براحل
ومُعتَرك ضنك تعاطَت كُماتُه ... كؤوس دِماء من كُلى ومَفاصل
يُديرونها راحًا من الرُّوح بينهم ... ببيض رقاق أو بسُمر ذوابل

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي عبدة القائد.
(٢) الدلاص: الدرع، الواحد والجمع فيه سواء.
(٣) النآد: الداهية.

وتُسمعهم أمُّ المنيّة وسطَها ... غِناء صَليل البِيض تحت المَناصل

ومن قولنا في هذا المعنى:

سَيفٌ من الحتف تردَّى به ... يومَ الوغى سيفٌ من الحَزم
مُواصِلا أعداءَه عن قِلىً ... لا صِلة القُربى ولا الرَّحْم
وصلٌ يحنّ الإلف من بُغضه ... شَوقا إلى الهِجران والصَّرم
حتى إذا نادمَهم سيفُه ... بكلِّ كأسٍ مُرَّة الطَّعم
ترى حُميّاها بهاماتهم ... تَغُور بين الجلد والعظم
على أهازيج ظُبا بَينها ... ما شِئتَ من حَذف ومن خَرْم
طاعُوا له من بعد عِصيانهم ... وطاعةُ الأعداء عن رَغم
وكم أعدّوا واستعدّوا له ... هَيهات ليس الخَضْم كالقَضم[1]

ومن قولنا في شِبهه:

كم ألحَم السيفَ في أبناء مَلحمة ... ما منهم فوق مَتن الأرض ديَّارُ
وأورد النارَ من أرواح مارقةٍ[2] ... كادت تَميّزُ من غيظ لها النار
كأنما صَال في ثِنيى مُفاضتِه[3] ... مُستأسِدٌ حَنِق الأحشاء هَدار
لما رأى الفِتنةَ العَمياء قد رحُبت[4] ... منها على الناس آفاق وأقطار
وأطبقت ظُلم من فوقها ظُلمٌ ... ما يُستضاء بها نُور ولا نار
قاد الجيادَ إلى الأعداء سَارية ... قُبًّا[5] طواها كطَي العَصب إضمار
مَلومة تَتَبارى في مُلملَمة[6] ... كأنها لاعتدال الخَلق أفهار[7]

---

(١) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان.

(٢) المارقة: الخارجون عن الجماعة.

(٣) المفاضة: الدرع الواسعة.

(٤) رحبت الفتنة، أي اتسعت وعمت.

(٥) القب: الضوامر البطون؛ الواحد: أقب.

(٦) الململمة: المجتمعة؛ يريد الكتيبة.

(٧) الأفهار: حجارة يدق بها الطيب؛ الواحد: فهرة.

تزورّ عند احتماس الطعن أعينُها ... وهُنَّ من فُرُجات النقع نُظَّار
تَفوت بالثأر أقواماً وتُدركه ... من آخرين إذا لم يُدرَك الثار[١]
فأنساب ناصر دين الله يقدمُهم ... وحوله من جُنود الله أنصار
كتائب تتبارى حول رايته ... وجَحفل كسَواد الليل جَرَّار
قومٌ لهم في مَكر الليل غَمغمةٌ ... تحت العَجاج وإقبال وإدبار
يستقدمون كَرَاديسا[٢] مُكردسة ... كما تدفَّع بالتيار تيار
من كل أروع لا يرعى لهاجسةٍ ... كأنه مُخدر في الغِيل هصَّار[٣]
في قسطل[٤]من عَجاج الحَرب مُدَّ له ... بين السماء وبين الأرض أستارُ
فكم بساحتهم من شِلو مُصَّرحٍ ... كأنه فوق ظهر الأرض إجَّار[٥]
كأنما رأسُه أفلاق حنظلة ... وساعداه إلى الزندين جُمار
وكم على النهر أوصالا مُقسَّمةً ... تَقَسَّمتها المَنايا فهي أشطار
قد فُلِّقت بصفيح الهند هامُهُم ... فهُن بين حوامي[٦] الخيل أعشار

ومن قولنا في الحروب:

وحَومةٍ غادرت فُرسانها ... في مبرك للحرب جعجاع[٧]

---

(١) يريد أن تلك الخيل تفوت من طلبها بالثأر فلا يقدر عليها لسرعتها، كما أنها تلحق من يريد أن يفوتها فتدرك ثأرها منه.

(٢) كراديسا، أي جماعات عظيمة من الخيل؛ الواحدة: كردوسة (بضم الكاف).

(٣) المخدر (بكسر الدال وفتحها): الأسد الملازم خدره، أي: أجمته. والهصار: من الهصر، وهو الكسر والدق.

(٤) القسطل: الغبار الساطع في الحرب.

(٥) الإجار: السطح، كالإنجار (بالنون)، وهي لغة أهل الشام والحجاز. يريد أن ذلك الشلو قد سوى بالأرض فصار كالسطح على سطحها.

(٦) الحوامي: ميامن الحافر ومياسره. يريد تشبيه هامات القتلى بجَرُور الميسر، أي أنها مقسمة بين حوافر الخيل.

(٧) الجعجاع: الموضع الضيق الخشن.

مُستلحم بالموت مستشعر ... مُفرق للشمل جَمَّاع
وبلدة صحصحت منها[١] الرُّبا ... بفيلق كالسَّيل دفَّاع
كأنما باضت نَعامُ الفلا ... منهم بهام فوق أدراع
تراهم عند احتماس الوغى ... كأنهم جنٌّ بأجراع[٢]
بكل مأثور على متنه ... مثلُ مدَبِّ النَّمل في القاع[٣]
يرتد طرف العين من حَدِّه ... عن كوكب للموت لَمَّاع

ومن قولنا في الحرب:

ورُب ملتفة العوالي ... يلتمع الموت في ذُراها
إذا توطَّت[٤] حُزون أرض ... طحطحت[٥] الشُمَّ من ربُاها
يَقودها منه ليثُ غاب ... إذا رأى فرصة قضاها
تَمضي بآرائه سُيوف ... يستبق الموت في ظباها
بيضٌ تَحُلُّ القلوبَ سوداً ... إذا انتضى عزمه انتضاها
تتبعه الطيرُ في الأعادي ... تجنى كلا[٦] العُشب من كُلاها
أقدم إذ كاع[٧] كلُّ ليثٍ ... عن حومة الموت إذ رآها
فأقحَم الخيلَ في غِمَار ... تفغر بالموت لهوتاها
عَنَت له أوجُه المنَايا ... فعافها القومُ واشتهاها

---

(١) صحصحت منها الربا، أي جعلت مرتفعاتها صحصحا، وهو ما استوى من الأرض، كالصحصاح.

(٢) الأجراع: الأرض ذات الحزونة؛ وقيل: هي الرمال السهلة المستوية.

(٣) المأثور: السيف الذي في متنه أثر، وهو فرنده. والقاع: الأرض السهلة.

(٤) توطت: أصله توطأت.

(٥) وطحطحت الشم من رباها. أي كسرتها ودققتها.

(٦) كلا العشب، يريد: كلأ العشب، فسهل.

(٧) كاع: جَبُن.

فرسان العرب في الجاهلية وا لإسلام

كان فارسُ العرب في الجاهلية ربيعة بن مُكَدَّم ؛ من بني فراس بن غَنْم بن مالك ابن كِنانة، وكان يُعقر على قبره في الجاهلية، ولم يُعقر على قبر أحد غيره.

وكان بنو فِراس بن غنم بن كِنانة أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم. وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب. أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم. وددت والله أن لي بجميعكم ـ وأنتم مائة ألف ـ ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فُرْسان العرب في الجاهلية: عَنترة الفوارس، وعُتيبة بن الحارث ابن شهاب، وأبو بَراء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبِسْطام بن قيس، والأحَيمر السعدي، وعامر بن الطُّفيل، وعمرو بن عبد وُدّ، وعمرو بن مَعْدِ يكرب.

وفي الإسلام: أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وعبّاد بن الحُصين، وعُمير بن الحُبَاب، وقَطريّ بن الفُجاءة، والحَريش بن هِلالَ السَّعْديّ، وشَبيب الحَروريّ[1].

وقالوا: ما استحيا شجاعٌ قطّ أنَ يَفِرّ من عبد الله بن حازم، وقَطريّ بن الفُجاءة صاحب الأزارقة.

---

(١) كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحتمون به عندما يشتد وطيس المعركة كما حدث يوم أحد.

فقد روى مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أقرب إلى القوم منه. انظر صحيح مسلم [١٧٧٦] كتاب الجهاد والسير. وانظر الذهبي/تاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية ص٤٦٢ وروى البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي وابن سعد عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وجهاً وأجودهم كفاً وأشجعهم قلباً».

وقـالـوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بن قيس بالحِلْم، وخُرَيم بالنِّعمة، وعُمَير بن الحُباب بالشدة.

وكان شَبيب الحَروريّ يَصِيح في جَنَبات الجيش، فلا يُلْوِى أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إن صاح يومًا حسبتَ الصخرَ مُنحدرًا ... والـريـحَ عاصفـةً والموجَ يَلتـطمُ

ورجالُ الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استُلَّت السيوف، ولا زَحفت الـزُّحـوف، ولا أقيمت الصفـوف، حتى أسلم ابنـا قَيلة يعني الأوس والخزرج. وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد.

العُتبيّ قال: لما أسنّ أبو بَراء عامرُ بن مالك، وضعَّفه بنو أخيه وخرَّفوه، ولم يكن له ولد يَحميه، أنشأ يقول:

دفـعـتـكُمُ عني ومـا دفـعِ راحـةٍ ... بشيء إذا لم تَسْـتَـعِـنْ بالأنـامِـل
يُضعّـفـني حِلمـيْ وكثـرةُ جَهْلكم ... عليّ وأني لا أصـول بجـاهـل

وقال تأبّط شرًّا:

قَليـل الـتَّـشَـكِّـي للمُهمّ يُصِيبـه ... كثيرُ الهَوى[1] شَتَّى النَّوى والمَسالِك
يَبيت بمَـوْمـاة ويُضْحي بغـيرهـا ... جَحيشـا ويَعْـروري ظُهورَ المهالِك[2]
إذا حاص عينَيـه كَرىَ النـوم لم يزَل ... له كاليءٌ من قَلْب شَيخـان[3] فاتك
ويَجـعـل عينَـيْـه ربـيئَـة قَلْبـه ... إلى سَلةٍ من حَدَّ أخـلقَ باتـك[4]
إذا هزّه في عَظم قِرْنٍ تَهلَّلت ... نَواجـذُ أفـواهِ المَنـايـا الضَّـواحـك

---

(١) كثير الهوى، أي متعدد المقاصد.

(٢) الموماة: المفازة لا ماء فيها. وجحيشا، أي منفردا. ويعروري، أي يركب؛ وأصله من اعرورى الدابة، إذا ركبها عارية الظهر.

(٣) الشيحان: الحازم.

(٤) الربيئة: الرقيب. والسلَّة: المرة، من سل السيف، إذا جرده. والأخلق: الأملس. والباتك: القاطع.

وقال أبو سعيد المَخزومي، وكان شجاعاً:

وما يريد بنو الأغبار[١] من رجُلٍ ... بالجَمر مُكتحلٍ بالنَّبل مُشتَمل
لا يشرب الماءَ إلا من قَليب دمٍ ... ولا يَبيت له جارٌ على وَجل

ونظير هذا قول بشار العقيلي:

فَتى لا يبيت على دِمْنة[٢] ... ولا يشرب الماءَ إلا بدَم

وذكر مُتمم بن نُويرة أخاه مالكاً وجَلده، فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبر[٣]، عليه الشَّملة الفَلوت[٤]، بين المَزادتين على الجمل الثِّفال[٥]. مُعتقِل الرُّمْح الخَطيِّ[٦]. قالوا: إن هذا لهو الجلد.

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقَرِّن وهو على الصَّائفة: أن استعن في حربك بعمرو بن معد يكرب، وطُليحة الأزدي، ولا تُولِّهما من الأمر شيئاً، فإنّ كلّ صانع أعلمُ بصناعته.

وقال عمرو بن مَعدْ يكرب يصف صَبره وجَلَده في الحرب:

أعاذِل عُدني بَزِّي ورُمحي ... وكُلُّ مُقلِّص[٧] سَلس القِياد
أعاذِل إنما أفنى شَبابي ... إجابتي الصَّريخ إلى المُنادى
مع الأبطال حتى سَلَّ جِسْمي ... وأقْرح عاتقي حَمْلُ النِّجادِ

---

(١) الأغبار، إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض. فإنه من صفات الذم عندهم أن تحمل المرأة بالولد في آخر ليلة من ليالي الحيض. أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد.

(٢) يبيت على دمنة، أي لا يبيت على حقد، بل يعجل بأخذ ثأره شفاء لحقده.

(٣) الصنبر: الشديدة البرد.

(٤) الفلوت: التي لا تكاد تثبت على لابسها لأنها صغيرة أو ضيقة لا ينضم طرفاها، فهي تنفلت عنه كل ساعة.

(٥) الثفال: البطيء. وهي صفة للدواب وغيرها: البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرهًا انظر/المعجم الوسيط ص٩٧ دار الدعوة ـ استانبول.

(٦) الخطي: منسوب إلى الخط وهي بلدة بالبحرين وينسب إليها أجود الرماح.

(٧) المقلص: الفرس الطويل القوائم المشرف المشمر.

ويَبقى بعد حِلم القوم حِلمي ... ويَفْنى قبل زاد القوم زادي
ومن عَجب عَجبتُ له حَديثٌ ... بَديع ليس من بِدْعِ السَّداد
تَمنى أن يُلاقيني أَبَيٌّ ... وَدِدت وأينما منى ودادي
تَمنَّاني وسابغتي قَميصي ... كأن قَتيرها[1] حَدَق الجَراد
وسيف من لدُن كنعان عِندي ... تُخَيِّر نَصْلُه من عهد عاد
فلو لاقيتَني للقيتَ لَيثاً ... هَصُورا ذا ظُباً وشَباً حِداد
ولا ستيقنت أن الموت حق ... وصَرَّح شحم قَلبك عن سَواد
أريد حياته ويُريد قَتلي ... عَذيرَك مِن خَليلك مِن مُرادِ

ومن قوله في قَيس بن مَكشوح المُرادي :

تمنَّاني على فرس ... عليه جالساً أسدُه
عليّ مفاضةٌ كالنهـ ... ـي أخلص ماءَه جدَده[2]
فلو لا قيتني للقيـ ... ـت ليثاً فوقه لبدَه
سَبنتي ضَيغماً هصرًا ... صِلخداً ناشزاً كَتَده[3]
يُسامي القِرن إن قِرن ... تَيممه فيعْتَضده
فيأخذه فيُرديه ... فيخفضه فيَقتصده[4]
فَيدمغه فَيحطِمه ... فَيخضِمه فيزدرده[5]

---

(١) قتير الدرع : مساميرها التي تكون بين حلقاتها .

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهي : الغدير من الماء . والجد : الأرض الصلبة . شبه الدرع بالغدير في صفائها واطرادها .

(٣) السبنتي : الجريء المقدام . والصلخد : الصلب القوي ، أو الشهم الماضي . والناشز : المرتفع . والكتد : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس أو الكاهل وجمعه أكتاد وكتود . انظر المعجم الوسيط ص٧٧٥ .

(٤) يقتصده ، أي يقتله . .

(٥) يدمغه : يصيب دماغه . ويحطمه : يكسره . ويخضمه : يأكله . ويزدرده : يبتلعه .

المكيدة في الحرب

قال النبيّ ﷺ: «الحربُ خُدعة»[١].

وقال المُهلب لبَنيه: عليكم بالمَكيدة في الحرب، فإنها أبلغ من النجدة.

وكان المُهلب يقول: أناة في عواقبها فَوت، خير من عجلة في عواقبها دَرك.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمرًا قط بحزم فلُمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أخذت أمرًا قط وضيعت الحزم فيه إلا لُمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسُئل بعض أهل التَّمرُّس بالحرب: أي المكايد فيها أحزم؟ قال: إذ كاء العيون، وإفشاء الغَلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفَرَق، والاحتراس من البِطانة، من غير إقصاء لمن يُستنصَح، ولا استنصاح لمن يُستغشّ، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذَر عدوّه على كل حال، يحذر المُواثبة إن قَرُب، والغارَة إن بَعد، والكمينَ إن انكشف[٢]، والاستطراد إن وَلّى.

وقال المأمون للفضل بن سَهل. قد كان لأخي رأي لو عَمل به لظَفر. فقال له الفَضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كتب إلى أهل رُسان وطَبرستان والرَّي ودُنباوَند أنه قد وهب لهم الخراج لِسنة لم نَخل نحن من إحدى خصلتين، إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه، فعَصانا أهل هذه البلدان وفسدت نيَّاتهم فانقطعوا عن مُعاونتنا؛ وإما قَبلناه وأمضيناه فلا نَجد ما نُعطي منه من معنا [وتفرّق جُندنا ووَهَى أمرُنا. فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه].

وكتب الحجّاج إلى المهلّب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إنّ من البليَّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

---

(١) متفق عليه عن جابر وأبي هريرة.

(٢) انكشف، يريد انكشاف العدو عن موضعه، أي انهزامه.

وكان بعض أهل التَّمرُّس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشُّجعان من أولى العزم، والجُبناء من أولى الحزم فإن الجبان لا يألو برأيه ما بقى مُهجكم، والشجاع لا يعدُو ما يشُد بصيرتكم. ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج، والحسام الوالج.

وقيل: صالحَ سعيد بن العاص حِصناً من حصون فارس على أن لا يقتُل منهم رجلا واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قَيساريةَ سار حتى نزل غزَّة، فبعث إليه علجُها: أن ابعث إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحدٌ غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله. فقال العِلج: حدِّثني: هل في أصحابك أحدُ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا، إنّي هيّن عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرّضوني لما عرّضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ قال: فأمر له بجائزة وكُسوة، وبعث إلى البوّاب: إذا مَر بك فاضرب عُنقَه وخُذ ما معه. فخرج من عنده فمر برجل من نصارى غسّان فعرفه فقال: ياعمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففَطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ماردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يَسع بني عمّي، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تُعطيهم هذه العَطيّة، فيكون معروفك عند عشرة خيرًا من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، اعْجل بهم. وبعث إلى البواب أن خلِّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أَمِن، قال: لا عُدتُ لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلجُ، قال له: أنت هو! قال: نعم، على ما كان من غَدرك.

وقال: ولما أُتِى بالهُرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العَجم وصاحب رُستم[1]. فقال له عمر: أعرضُ عليك الإسلام نُصحاً لك في عاجلك وآجلك. قال: ياأمير المؤمنين، إنما أعتقدَ ما أنا عليه

(١) رستم هذا هو ابن فرخزاد، وكان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون وقتل فيها رستم.

ولا أرغب في الإسلام رهبةً. فدعا له عمرُ بالسيف. فلما هَم بقتله، قال: ياأمير المؤمنين، شربةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له عُمر بشربة من ماء. فلما أخذها قال له: أنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمَى بها وقال: الوفاءُ ياأمير المؤمنين نُور أبلج. قال: صدقتَ، لك التوقفُ عنك وأنظر في أمرك، ارفعوا عنه السيف. فلما رُفع عنه قال: الآن ياأمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وما جاء به حقّ من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أخّرك؟ قال: كَرهتُ أن يظُن أنّي إنما أسلمتُ جَزعاً من السيف، وإيثارًا لدينه بالرِّهبة. فقال عمر: إنّ لأهل فارس عُقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من المُلك؛ ثم أمر به أن يبرَّ ويكرم. فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجُيوش لأهل فارس.

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به مَعنُ بن زائدة في جُملة الأسرى فأمر بقتلهم، فقال له أتقتل الأسرى عطاشاً يامعن؟ فأمر بهم فسُقوا. فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يامعن؟ فخلّى سبيلهم.

وذكروا أنَّ مَلِكاً من ملوك العَجَم كان معروفاً ببُعدْ الغَورْ ويَقظة الفِطْنة وحُسن السياسية، وكان إذا أراد مُحاربة ملك من الملوك وجّه إليه مَن يَبحث عن أخباره وأخبار رعيّته قبل أن يُظهر مُحاربته، فيكْشِف عن ثلاث خصال من حاله، فكان يقول لعُيونه: انظروا هل تَرِدِ على الملك أخبارُ رَعيَته على حقائقها أم يخْدَعه عنها المُنْهى ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغِنَى في أي صِنف هو من رعيته، أفيمن اشتدّ أنفَهُ وقَلّ شَرهه؟ أم فيمن قَلّ أنفَهُ واشتدَّ شرهه؟ وانظروا في أي صنفي رعيَّته القوّامُ بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده؟ أم من شغله يومُه عن غده؟ فإن قيل له لا يُخدع عن أخبار رعيَّته، والغِنَى فيمن قلّ شرهه واشتد أنفه، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده؛ قال: اشتغِلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضد ذلك؛ قال: نارٌ كامنة تنتظرُ مُوقد، وأضغان مُزمَّلة[1] تنتظر مخرجاً، اقصدوا له فلا حَيْنَ أحْيَنُ من سلامةٍ مع تَضْييع، ولا عدوّ أعدى من أمْن أدَّى إلى اغترار.

---

(١) مزملة: مستورة.

أُسامة بن زيد اللَّيثي : قال : كان النبي ﷺ إذا غزا أخذ طريقـاً وهو يريد أخرى ، ويقول : **الحرب خُدعة**(١) .

زياد عن مالك بن أنس قال : كان مالك عبد الله الخَثعميّ ، وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل ، فيحمد الله تعالى ويُثني عليه ، ثم يقول : إنّي داربٌ بالغَـداة إن شاء الله تعالى دَرْبَ كذا . فتتفرق الجواسيسُ عنه بذلك . فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقـاً أخرى . فكانت الروم تسمّيه الثعلب .

وصايا أمراء الجيوش

كتب عُمرُ بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجَرَّاح : إنه بلغني أن رسولَ الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سريَّة قال : «**اغزُوا بسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً**»(٢) فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمُرهْم بذلك .

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول عند عَقد الألْوية : بسم الله وبالله وعلى عَون الله ، امضُوا بتأييد الله والنَّصر ، ولُزوم الحق والصبر ، فقاتِلُوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدُوا إنّ الله لا يُحب المعتدين ، ولا تجبُنوا عند اللقاء ، ولا تُمَثِّلوا عند القُدرة ، ولا تُسْرفوا عند الظهور ، ولا تَقتلوا هَرمـاً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقَّوْا قتلَهم إذا التقى الزَّحْفان ، وعند حُمَّة النّهضات ، وفي شَنّ الغارات .

---

(١) كان رسول الله ﷺ : إذا غزا ناحية ورَّى بغيرها ، وكان يقول الحرب خدعة . رواه أبو داود عن كعب بن مالك .

(٢) رواه مسلم بنحوه عن بريدة بن الحصيب ـ وانظر الموطأ ـ كتاب الجهاد .
وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان . / انظر الموطأ ـ كتاب الجهاد ـ النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ص٢٨٩ .

ولما وَجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان[١] إلى الشام شيَّعه راجلاً. فقال له يزيد: إمّا أن تركب وإمّا أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له ـ يعني الرُّهبان ـ وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤسهم الشعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني مُوصيك بعشر: لا تغدر ولا تُمثِّل، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامراً ولا تغل ولا تبخس[٢].

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجّهه لقتال أهل الردّة: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلتَ أرض العدوّ فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجَوْلة. واستظهر بالزاد، وسِر بالأدلّاء، ولا تقاتل بمَجْروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البَيات فإن في العرب غِرَّة: وأقِلَّ من الكلام فإنما لك ما وُعي عنك. واقبَل من الناس علانيتهم، وكِلْهم إلى الله في سرائرهم. وأستودعُك الله الذي لا تضيع ودائعه.

كتب خالد بن الوليد إلى مَرازبة فارس مع ابن نُفَيلة الغسَّاني: الحمد لله الذي فضّ حُزمتكم، وفرّق جَمعكم، وأوهن بأسكم، وسَلَب مُلْككم، وأذَلّ عِزّكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثُوا إليَّ بالرُّهن، واعتقدوا منّا الذمّة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرنّ إليكم بقوم يُحبون الموت كما تُحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا.

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن

---

(١) هو أحد أمراء الأجناد الأربعة الذين عقد لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيرهم لفتح الشام، ولما فتحت دمشق أمّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على دمشق. انظر الذهبي / تاريخ الإسلام.

(٢) رواه مالك بنحوه عن يحيى بن سعيد. انظر الموطأ ـ كتاب الجهاد.

تقوى الله أفضلُ العُدّة على العدوّ، وأقوى المَكِيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ أحتراسًا من المعاصي منكم من عدوّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوةٌ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعُدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مَسيركم حَفَظةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيُوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منّا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فربّ قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سُلط على بني إسرائيل، لمّا عملوا بمساخط الله، كفار المجوس ﴿**فجاسُوا خلال الدِّيار وكان وعداً مفعولاً**﴾[1]. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وتَرفَّق بالمسلمين في مَسِيرهم ولا تُجشِّمهم مسيرًا يُتعبهم، ولا تُقَصِّر بهم عن منزل يَرفُق بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفرُ لم يَنْقُص قوتَهم، فإنهم سائرون إلى عدوّ مُقيم حامي الأنفس والكُراع[2]. وأقِم بمَن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم، ويُرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ونَح منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذمّة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حُرمة وذمّة ابتُليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صَبروا لكم فتولّوهم خيرًا. ولا تستنصروا على أهل الحَرْب بظُلم أهل الصلح. وإذا وَطِئْتَ أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرُهمُ. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدْقه، فإن الكذوب لا ينفعك خَبره وإن صدّقك في بعضه، والغاش عَينٌ علَيك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تُكثر الطلائعُ وتَبُث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادَهم وموافقهم، وتتبع الطلائع عوراتِهم. وانتق للطلائع أهل الرأى

---

(١) سورة الإسراء آية ٥.

(٢) الكراع: الخيل.

والبأس من أصحابك، وتخيّر لهم سَوابق الخيل. فإن لقوا عدوّاً كان أولَ ما تلقاهم القوةُ من رأيك، واجعل أمر السَّرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، لا تخُص بها أحداً بهوىً، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ به أهل خاصّتك. ولا تبعثن طَليعة ولا سريّة في وجه تتخوفُ عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدوَ فاضمُم إليك أقاصِيَك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مَكيدتك وقوتك، ثم لا تُعاجلهم المُناجزة، ما لم يستكرهك قِتال، حتى تُبصر عورةَ عدوك ومَقاتله، وتَعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصُنعه بك. ثم أذكِ أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البَيات جُهدك. ولا تؤتي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عُنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميرًا سيّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكُن كالمُضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحاً تَجر، وإلاّ تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة، وكُن من احتيالك على عدوّك أشدَّ حذرًا من احتيال عدوّك عليك.

وكان زياد يقول لقوّاده: تجنّبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدوّ: الشتاءَ وبطُون الأودية.

وأغزَى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغَنِموا وسَلِموا، فقال لعبّاد[1]: ياأبا حرب، أينَ رأي زياد من رأينا؟ فقال: ياأمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عَورة تُصاب.

العُتبي قال: جاشت الروم وغزوا المسلمين برّاً وبحرًا، فاستعمل مُعاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماماً لا أعصيه. قال: أردُد عليّ عهدي. ثم بعث إلى سفيان ابن عوف الغامدي فكتب له عهدَه، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه

---

(١) هو عباد بن زياد.

إمـامـا أمام الحَزم، فإن خالفَه خالفتُه. فقال معاوية: هذا الذي لا يُكفكف من عجلة، ولا يُدفع في ظهره من خور، ولا يضرب على الأمور ضَربَ الجمل الثفال[١].

وقال دُريد بن الصِّمة لمالك بن عوف النَّصري قائد هَوازن يوم حُنين: يامالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام. مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء[٢]؟ قال: سُقت مع الناس أبناءَهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كل رجل أهله وماله ليُقاتل عنهم. فأنقَضَ[٣] به وقال: راعي ضأن والله؟ وهل يَرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسَيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك. وَيحك! إنك لم تصنع بتقديم البَيضة بيضةِ هَوازن[٤] إلى نُحور الخيل شيئـاً، ارفعهم إلى مُتمنع بلادهم، وعُليا قومهم، ثم الْقَ الصُّباء[٥] على مُتون الخيل. فإن كانت لك لَحِق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك، إنك قد كَبِرت وذَهل عقلك. قال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتني، ثم أنشأ يقول:

يالـيـتَـني فيـهـا جَذَعْ ... أخُـبُّ فيـهـا وأضَـعْ[٦]

---

(١) الثفال: البطيء من الدواب وغيرها انظر المعجم الوسيط ص٩٧.

(٢) يعار الشاء: صوتها.

(٣) انقض به، أي زجره، من الإنقاض، وهو أن تلصق لسانك بالحنك الأعلى ثم تصوت في حافتيه من غير أن ترفع طرفه عن موضعه. أو هو التصويت بالوسطى والإبهام كأنك تدفع بهما شيئا، وذلك حين تنكر على غيرك قولا أو عملا.

(٤) بيضة هوازن: جماعتهم.

(٥) الصباء: جمع صابيء، يريد المسلمين، كانوا يسمونهم بهذا الاسم، أي خرجوا من دين الجاهلية إلى الإسلام.

(٦) الجذع: الشاب. والخبب والوضع: ضربان من السير.

أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع[1]

وكان قُتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه: إذا غَزوتم فأطيلوا الأظفار وقَصِّروا الشعور، والحَظُّوا الناس شَزرًا، وكلمُوهم رمزًا، واطعنوهم وخزًا.

وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قُلوبكم الجُرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حِصن المحارب.

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصروا الأعِنّة واشحذُوا الأسنَّة، تأكلوا القَريب، ويَرهبكم البعيد.

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

قال عبد الملك بن مروان لجُعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزِّكم؟ قال: لم يُطمع فينا ولم يُؤمن منّا. قال: فما مَبلغ حِفظكم؟ قال: يدفع الرجل منّا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلك من يصف قومه.

قال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزيّ: أخبرني عن مالك بن مِسمع. قال له: لو غضِب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غَضب. قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.

قال: ولم يَل قطُّ مالك بن مِسمع ولا أسماءُ بن خارجة شيئا للسلطان.

وكانت العرب تَمتدح بالذب عن الجار فيقولون: فلان مَنيع الجار، حامي الذِّمار. نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجَراد إذا نزل في جِواره، فسُمي مُجير الجراد.

وقال مَروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مَفاخر بني شيبان ومنعهم لمن استجار بهم:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا ... أجابُوا وإن أعطَوا أطابوا وأجْزَلُوا
همُ يَمنَعون الجار حتى كأنما ... لجارِهمُ بين السِّماكين منزل

---

(١) الوطفاء: الطويلة الشعر. والزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة. والشاة: الوعل وهو تيس الجبل. والصدع (محركة) من الأوعال والظباء والخمر: الفتى الشاب القوي.

وقال آخر :

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنه كَثيبة زَوْر[١] بين خافِيتي نَسْرِ

وذُكر أن مُعاوية ولّى كَثير بن شِهاب المذحِجي خُراسان، فاختان مالاً كثيراً ثم هربَ فاستتر عند هانيء بن عُروة المُراديّ: فبلغ ذلك معاوية، فهَدر دم هانيء. فخرج هانيء إلى مُعاوية فكان في جواره، ثم حَضر مجلسه وهو لا يعرفه، فلما نهض الناس ثَبت مكانه. فسأله معاوية عن أمره، فقال: أنا هانيء بن عُروة. فقال: إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك:

أُرجِّل جُمتي وأجر ذَيلي وتحمل شِكتيّ أفق كُميت[٢]
وأمشي في سَراة بني غُطيف إذا ما ساءني أمر أبَيت

قال: أنا والله ياأمير المؤمنين اليوم أعزّ منّي ذلك اليوم. فقال: بِمَ ذلك؟ قال: بالإسلام. قال: أين كَثير بن شِهاب؟ قال: عندي وعندك ياأمير المؤمنين. قال: انظُر إلى ما اختانه، فخُذ منه بعضاً، وسَوِّغه بعضاً، وقد أمَّناه ووهبناه لك.

الشيباني قال: قال سَعيد بن سَلم: أهدر المَهدي دَمَ رجل من أهل الكوفة كان يسعى في فساد دولته وجعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف دِرهم. قال: فأقام الرجل حيناً متواريا ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهرًا كغائب، خائفًا مترقبًا. فبينا هو يمشي في بعض نواحيها إذ بَصُر به رجل من أهل الكوفة فعرفه، فأهوى إلى مجامع ثوبه، وقال: هذا بُغية أمير المؤمنين؛ فأمكن الرجل من قياده، ونظر إلى الموت أمامه. فبينما هو على الحالة إذ سمع وقعَ الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا مَعن بن زائدة، فقال: ياأبا الوليد، أجِرني أجارك الله؛ فوقف وقال للرجل الذي تَعلق به: ما شأنك؟ قال: بُغية أمير المؤمنين، الذي أهدر دمَه وأعطي لمن دلَّ عليه

---

(١) كثيبة الزور: أي مجتمعه.

(٢) الجمة: ما سقط من الشعر على المنكبين. والشكة: السلاح، من درع ومغفر وسيف ورمح. ويروي: «بزتي». والأفق: الفرس الرائعة الكريمة.
والكميت: من الكمتة، وهي لون بين السواد والحمرة. يصف نفسه في صدر هذا البيت بالنعمة، وفي الشطر الثاني بشدة البأس.

مائة ألف. فقال: ياغلام، انزل عن دابتك، واحمل أخانا. فصاح الرجل: يامعشر الناس، يُحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال له مَعن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس الرجل، ووجه إلى مَعن من يحضر به. فأتته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه، وقُرِّبت إليه دابته، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يخلصنّ إلى هذا الرجل وفيكم عينٌ تطرف. ثم رَكِب ودخل حتى سلم على المهديّ، فلم يردَّ عليه. فقال: يامعن، أتجير عليّ؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً! واشتد غضبه. فقال مَعن: ياأمير المؤمنين، قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسةَ عشر ألفاً، ولي أيامٌ كثيرة قد تقدم فيها بلائي، وحَسُن غَنائي، فما رأيتموني أهلا أن تهبوا لي رجلا واحداً استجار بي؟ فأطرق المَهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سُرِّيَ عنه، فقال: قد أجرنا من أجرت. قال مَعن: فإن رأي أمير المؤمنين أن يَصِلَه فيكون قد أحياه وأغناه فَعل. قال: قد أمرنا له بخمسين ألف. قال ياأمير المؤمنين، إن صِلَات الخُلفاء تكون على قدر جنايات الرعية، وإنّ ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصّلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فتعجّلها ياأمير المؤمنين فإن خير البرّ عاجله. فأمر بتعجيلها. فدعا لأمير المؤمنين بأفضل الدعاء، ثم انصرف ولحقه المال. فدعا الرجل، فقال له: خُذ صِلَتك، والحق بأهلك، وإياك ومُخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

قال عمرو بن مَعد يكرب: الفَزَعات ثلاث: فمن كانت فَزعته في رِجليه، فذلك الذي لا تُقله رِجلاه؛ ومن كانت فَزعته في رأسه، فذلك الذي يفِر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذلك الذي يُقاتل.

وقال الأحنف بن قيس: أسرعُ الناس إلى الفتنة أقلّهم حياءً من الفِرار.

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن لله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خَفقت الريح خفقت معها، فأفٍّ للجبناء! أفٍّ للجبناء!

وقال الشاعر:

يَفِـر الجـبـانُ عن أبـيـه وأمـه ... ويَحمِي شجاعُ القوم من لا يُناسبُه
ويُـرزق معـروفَ الجـواد عَدوُّه ... ويُحـرم معـروفَ البخيـل أقـاربـه

وقـال خالد بن الوليد عند موته. لقد لقيتُ كذا وكذا زَحفـاً، وما في جِسمي موضعُ شِبر إلا وفيه ضَربة أو طعنة أو رَمية، ثم هأنذا أموتُ حتف أنفي كما يموت العَير، فلا نامت أعينُ الجُبناء.

ومن أشعار الفرَّارين الذين حسَّنوا فيها الفِرار على قُبحه حتى حَسُن، قولُ الفَرَّار السُّلَمي[١]:

وكَـتـيـبـةٍ لَبَّسـتُـهـا بكـتـيـبـة ... حتـى إذا الـتبستْ نفضتُ لها يَدِي[٢]
وتـركتهم تَقِص الـرمـاحُ ظهـورَهم ... من بين مَقْتـول وآخـر مُسنَـد[٣]
هل يَنـفـعـنِّي أن تقـول نسـاؤهم ... وقُـتلت دون رجـالهـا: لا تَبعَـدِ

وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنَّى: ما اعتذر أحد من الفَرَّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يَعـلـم ما تركـتُ قِتـالهـم ... حتى رمَـوا مُهـري بأشقَـرَ مُزبـدِ[٤]
وعـلمـتُ أني إن أقـاتـل واحـداً ... أُقتـل ولا يضرر عدوّي مَشهَـدي
فَصـدفـتُ عنهـم والأحبّـة فيهمُ ... طَمعًا لهم بعقـاب يوم مُرْصـدِ[٥]

وهذا الذي سمعه رَتُبيل[٦] فقال: يامعشرَ العرب، حسَّتم كل شيء فَحسُن حتى الفِرار.

---

(١) هو حيان بن الحكم، شاعر مخضرم صحابي، وكان صاحب راية بني سليم يوم الفتح.

(٢) لبستها، أي خلطتها. ونفضت لها يدي، كناية عن الإعراض عنها. والذي في الأصول.

(٣) تقص: تكسر. والمسند، الذي أمسك إلى ما يسنده وبه رمق.

(٤) يريد بالأشقر: الدم. والمزبد: الذي علاه الزبد.

(٥) يقـول: أعـرضـت عنهم لطمعي في أن يعقب الله لي يومـا يرصد الشر لهم ويمكنني منهم فأنتهز الفرصة. والذي في الأصول: «مفسد» مكان «مرصد». وهو تحريف. والذي في نهاية الأرب: «سرمد».

(٦) رتبيل، لقبٌ لملوك سجستان.

وقال آخر:

قامت تشجِّعني هِندُ وقد علمت ... أنّ الشجاعةَ مَقرونٌ بها العَطبُ
لا والذي مَنَع الأبصارَ رُؤيته ... مَا يشتهي الموتَ عندي مَن له أدب
لِلحرب قومٌ أضَل الله سعيَهمُ ... إذا دَعتهم إلى نِيرانيها وَثَبوا
ولستُ مِنهم ولا أبغى فِعالَهمُ ... لا القتل يُعجبني منهم ولا السَّلَب

وقال محمود الورَّاق :

أيها الفارسُ المُشيح[1] المُغيرُ ... إنّ قَلبي من السِّلاح يَطيرُ
ليس لي قُوة على رَهَج[2] الخَيـ ... ـلِ إذا ثَوّر الغُبار مُثير
واستدارت رحَى الحُروب بِقَوم ... فقَتيلٌ وهاربٌ وأسِير
حيثُ لا ينطِق الجبانُ من الذُّعر ... ويعلُو الصِّياحُ والتَّكبير
أنا في مثل ذا وهذا بَليدَ ... ولبِيب في غيره نِحرير

وقال أيمن بن خُرَيم :

إن للفِتنة مَيطاً[3] بَيِّناً ... فرُوَيدْ المَيط منها يَعتدل
فإذا كان عطاءً فأتِمّ ... وإذا كان قِتالٌ فاعتزل
إنّما يُوقدها جُهالها ... حَطبَ النار فدَعها تشتَعِل

ومما يحتج به الفَرَّارون ما قاله صاحبُ كَليلة ودِمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال.

أخذ هذا المعنى حَبيبُ الطائي فنَظمه في شعره حيث يقول:

كم بَين قومٍ إنّما نَفقاتهم ... مالٌ وقوم يُنفقون نُفوسا

وفرَّ عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المُهَلب: يابن أخي، خَندِق على نفسك وعلى أصحابك فإني عالم بأمر

---

(١) المشيح: الجاد الماضي في أموره.

(٢) الرهج: بفتحتين الغبار، انظر مختار الصحاح ص١٠٩.

(٣) ميطا: أي صخبا وشدة.

الخوارج ولا تَغتر. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهون عليَّ من ضَرطة الجمل. فبيَّته قَطري صاحب الأزارقة، فقتل من أصحابه خَمسمائة وفرّ لايلوي على أحد.

وقال أبو دُلامة: كنتُ مع مروان[١] أيام الضحّاك[٢] الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم ثان فقتله، ثم ثالث فقتله فانقبض الناس عنه وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المُغتلم. فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت عليَّ الدنيا وسَخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرَزت إليه، فإذا عليه فَرْو قد أصابه المطر فارمَعل[٣]، ثم أصابته الشمس فاقفعل[٤]، وله عينان تَتقدان كأنهما جَمرتان. فلما رآني فهم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وخارجٍ أخرجه حُبُّ الطمع ... فرَّ من الموت وفي الموت وقَع
من كان يَنوي أهله فلا رجع

فلما رأيته قنَّعت رأسي ووليت هارباً، ومروان يقول: من هذا الفاضح؟ لا يَفُتكم، فدخلت في غُمار الناس.

وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟ قال: وكيف يكونون لي عدوًّا وما أعرفهم ولا يعرفوني؟

وقيل لآخر: ألا تَغزو العدوّ؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أُحب إليه رَكضاً.

وممَّا قيل في الفرَّارين والجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يُعيِّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر.

إن كنتِ كاذبة الذي حدّثتِني ... فَنجوتِ منجي الحارث هشام

(١) هو مروان بن محمد.
(٢) هو الضحاك بن قيس الشيباني الحروري.
(٣) ارمعل: ابتل.
(٤) أقفعل: تقبض.

تركَ الأحبَّة لم يُقاتل دُونهم ونَجا برَأس طِمِرَّة ولجام[١]
ملأت به الفرجين فارمدَّت به وثوى أحبّتُه بشرّ مُقام[٢]

وقال بعض العراقيين في رجل أكُول جَبان:

إذا صوّت العُصفور طار فؤاده وليث حديد النَّاب عند الثرائد

وليس يُعاب الشجاع والبُهمة[٣] البطل بالفَرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة، وقَليلة لا عادة، كما قال زُفر بن الحارث، وفَر يوم مَرج راهط[٤] عن أبيه وأخيه فقال:

أيذهب يومٌ واحد إن أسأتُه بصالح أيّامي وحُسن بلائيا
ولم تُرمِنّي زلةٌ قبل هذه فِراري وتَركي صاحبيَّ ورَائيا

وفَر عمرو بن معد يكرب من عباس بن مِرداس السُّلمي، وأسر أخته ريحانه. وفيها يقول عمرو:

أمِن ريحانةَ الداعي السَّميعُ يُؤرقني وأصحابي هُجوعُ

وفَر عن بني عبس، وفيهم زهير بن جَذيمة العبسي، وولده شأس بن زُهير، وقيس ابن زُهير، ومالك بن زهير فقال فيهم:

أجاعلة أم الثُّوَير[٥] خَزاية عليَّ فِراري إذ لَقيتُ بني عَبْس
لَقيت أبا شأسٍ وشأساً ومالكا وقيساً فجاشت من لِقائهمُ نفسي
لقُونا فضَموا جانبينا بصادقٍ من الطعن مثل النَّار في الحطب اليَبس
ولما دخلنا تحت فَيء رماحهم خَبَطتُ بكفّي أطلب الأرض باللَّمس
وليس يُعاب المرء من جُبن يَومه إذا عُرفت منه الشجاعةُ بالأمس

---

(١) الطمرة: الأنثى من الجياد، وهي المستفزة للوثب والعدو؛ وقيل: هي الطويلة القوائم. وقيل الطِّمِرُّ: الفرس الجواد الشديد العدو، انظر المعجم الوسيط ص ٥٦٥.

(٢) ملأت به الفرجين، كناية عن سرعة الفرس في نقل قوائمها حتى لا تترك سعة بينها. وأرمدت: أسرعت.

(٣) البهمة (بالضم): الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

(٤) مرج راهط: بنواحي دمشق.

(٥) أم الثوير: هي امرأة عمرو بن معد يكرب. وقيل هي: أم الحصين.

وقال أيضا:

ولقد أجمع رجليّ بها ... حَذَر الموت وإني لفرُورْ
ولقد أعطفها كارهةً ... حين للنَّفْس من الموت هَرير[١]
كُل ما ذلك منيِّ خُلقٌ ... وبكُلٍّ أنا في الرَّوْع جَدِير
وابن صُبْحٍ سادرًا[٢] يُوعِدني ... ما له في الناس ما عشت مُجير

وقال الحارث لامرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يَحُدُّ حربة يوم فتح مكة، فقالت له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء! قال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم أنشأ يقول:

إن يُقبلوا اليوم فما بي عِله ... هذا سلاحٌ كامل وألّه[٣]
وذو غِرارين سريعُ السَّلة

فلما لقيهم خالدُ بن الوليد يوم الخَندمة[٤] انهزم الرجل، فلامته امرأته فقال:

إنك لو شَهدت يوم الخَندمه ... إذ فرَّ صَفوان وفَرَّ عِكرمه[٥]
وأبو يَزيدَ[٦] قائم كالمُوتمه ... ولحَقَتنا بالسيوف المُسلِمه
يَفلقن كل ساعد وجُمجمه ... ضَربا فلا تَسْمع إلا غمغَمه
لهم نَهيتٌ[٧] خَلفنا وهَمهمه ... لم تنطِقي في اللَّوم أدنَى كَلِمه

وكان أسلم بن زُرعَة وجَّهه عُبيد الله بن زياد لحرب أبي بِلال الخارجي في ألفين،

---

(١) الهرير: الصياح، وهَرِيرُ الكلب صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد انظر الرازي ـ المصدر السابق ص٢٨٩.

(٢) سادرا، أي لا يبالي ما صنع.

(٣) الألة: الحربة لها سنان طويل.

(٤) الخندمة: جبل دخل منه النبي ﷺ مكة يوم الفتح.

(٥) يريد: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وكانا هما وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا.

(٦) أبو يزيد: هو سهيل بن عمرو خطيب قريش. والموتمة: المرأة مات زوجها وترك لها أيتاما.

(٧) النهيت: الزئير والزحير.

وأبو بلال في أربعين رجلاً، فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه؛ فلما دخل على ابن زياد عنفَّه في ذلك وقال: أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين! فخرج عنه وهو يقول لأن يَذُمني ابنُ زياد حياً، خيرٌ من أن يمدحني ميتاً. وفي رواية أخرى: لأن يَشتمني الأمير وأنا حي، أحب إليّ من أن يدعو لي وأنا ميت.

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مُطيع بن الأسود العَدوى وكان فر يوم الحرةّ من جيش مُسلم بن عُقبة، فلما كان أيام حِصار الحَجّاج بمكة لعبد الله بن الزبير جعل يُقاتل أهل الشام ويقول:

أنا الذي فَررتُ يوم الحَرَّه ... والشيخُ لا يَفِرُّ إلا مرَّه
فاليومَ أجزى فرَّة بكرَّه ... لا بأس بالكَرَّة بعد الفره

فلم يزل يقاتل حتى قُتل.

وأحسن ما قيل في الفِرار كلّه ما قال قيس بن الخطِيم:

إذا ما فَرَرنا كان أسوأَ فِرَارنا ... صُدودُ الخُدود وازورارُ المَناكِب
أجالِدهم يومَ الحَدِيقة[1] حاسِرًا ... كأنّ يدي بالسيف مخراق[2] لاعب

وفرّ عُتبية بن الحارث بن شهاب يومَ ثبرة[3] عن ابنه حزرة وقال:

ياحَسرتَا لقد لَقِيت حَسره ... يالتَميم غَشيتني غَمره
نِعم الفتى غادرته بثبره ... نَجَّيت نفسي وتركتَ حَزره
هل يترك الحرُّ الكريم بِكْرَه

---

(١) الحديقة: بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة وقاف وهاء بلفظ واحدة الحدائق، وهي البساتين. والحديقة: بستان كان بقنا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب. والحديقة أيضًا: قرية من أعراض المدينة في طريق مكة كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام وإياها أراد قيس بن الخطيم. انظر ياقوت الحموي ـ معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٢ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٢) المخراق: منديل أو نحوه يلوى فيُضرب به، أو يُلف فيفزع به.

(٣) ثبرة: بالفتح اسم ماء في وسط واد في ضبَّة، يقال لذلك الوادي الشواجن انظر ياقوت ـ المصدر السابق ـ جـ٢ ص٧٢.

وفر أبو خِراش الهُذلي من فائد وأصحابه ورصدوه بعرفات، فقال:

رَفَوني وقالوا ياخُويلد لا تُرع ... فقلتُ ـ وأنكرتُ الوجوه ـ هُم هُمُ
وقلت وقد جاوزتُ أصحابَ فائد ... أأعجزت أولى الخَيل أم أنا أحلَم
فلولا أدِّراك الشدِّ قامت حَليلتي ... تخيَّر من خُطابها وهي أيِّم
ولولا أدِّراك الشر أتلفت مُهجَتي ... وكاد خِراشٌ يومَ ذلك يُيتم

وفر خُبيب بن عوف يوم مرداء هَجر من أبي فُديك فقال:

بَذَلت لهم ياقوم حولي وقُوتي ... ونُصحي وما ضَمّت يَدَاي من التبر
فلما تناهى الأمرُ بي من عدُوكم ... إلى مُهجتي وليتُ أعداءكم ظَهري
وطِرت ولم أحفِل[1] ملامة عاجز ... يُقيم لأطراف الرُّدينية[2] السُّمر
فلو كان لي رُوحان عَرَّضت واحدًا ... لكل رُديني وأبيض ذي أثْر[3]

وقيل لرجل جَبان في بعض الوقائع: تَقدَّم. فأنشأ يقول:

وقالوا تَقدَّم قُلت لست بفاعل ... أخافُ على فَخّارتي أن تَحَطَّمَا
فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ... ولكنَّه رأسٌ إذا راح أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السُّوق مثلُه ... فَعلتُ ولم أحفِل بأن أتقدَّما
فأوتم أولاداً وأرمِل نِسوةً ... فكيف على هذا تَرون التقدُّما

وقال كعب بن زُهير:

بُخلاً علينا وجُبناً من عَدوِّكُم ... لبِئست الخَلتان: البُخلُ والجُبُنُ

---

(١) لم أحفل: لم أبال.

(٢) الردينية: نسبة إلى ردينة، امرأة كانت تثقف الرماح.

(٣) الأثر: فرند السيف وجوهره.

فضائل الخيل

قال النبيّ ﷺ في صفة الخيل: «**أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**عليكم بإناث الخيل، فإن بُطونها كَنز، وظُهورها حِرز، وأصحابها مُعانون عليها**»(٢).

وسأل رجل النبي ﷺ فقال: إني أريد أن أشتري فرساً أعده في سبيل الله. فقال له: **اشتره أدهم؛ أو كميتاً أقرح أرثم**(٣) **أو مُحجَّلاً مُطلق اليمين، فإنها مَيامن الخيل**(٤).

وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فَرَس يتبعها فرس في بطنها فرس.

صفة جياد الخيل

كان رسول الله ﷺ يَستحبُّ من الخيل الشُّقر(٥).

---

(١) روى البخاري ومسلم عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم**». والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة.

(٢) الحديث لم أقف عليه.

(٣) الأقرح، من القرح (بالتحريك) وهو دون الغرة، وهو كل بياض كان في جبهة الفرس ثم انقطع قبل أن يبلغ المرسن (الأنف). والأرثم: من الرثم (بالتحريك) وهو كل بياض أصاب الجحفلة (الشفة) العليا، قل أو كثر، إلى أن يبلغ المرسن.

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي قتادة بنحوه وصححه الألباني انظر صحيح الجامع ٣٢٦٨.

(٥) رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بلفظ «يُمّن الخيل في الشُّقْر» وصححه الألباني/صحيح الجامع ٨٠١٨ وفي هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل واقتنائها للجهاد ضد أعداء الله وأن فضلها وخيرها والجهاد باق إلى يوم القيامة..

وسأله رجل: أي المال خير؟ قال: «سِكَّة مَأبورة، ومُهرة مَأمورة»[١].

وكان عليه الصلاة والسلام يَكره الشِّكال[٢] من الخيل[٣].

وقالوا: إنما سُميت خَيلاً لاختيالها.

ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نَعَس، وإذا حَرَّكته طار.

وأرسل مُسلم بن عمرو لابن عَمّ له بالشام يشتري له خيلاً. فقال له: لا علم لي بالخيل. فقال: ألست صاحب قَنص؟ قال: بلى. قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكَلب فاطلُبه في الفرس. فأتِ بخيل لم يكن في العرب مِثلُها.

وقال بعضُ الضّبيين في وَصف فرس:

مُتقاذفٍ عبل الشوى شَنج النَّسا ... سَبَّاق أندية الجياد عَميثَل[٤]
وإذا تَعَلل بالسِّياط جيادُها ... أعطاك نائلَه ولم يَتعلّل

سأل المهدي مَطَر بن دَرَّاج عن أي الخيل أفضلُ؟ قال: الذي إذا استقبلتَه قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاخر[٥]، وإذا استعرضته قلت زافر[٦]. قال: فأيّ هذه أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه.

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال: «خير مال المرء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة». انظر المسند ج٣ ص٤٦٨.

السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة. والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج يقال: أمرهم الله فأمروا، أي كثروا. يريد: خير المال زرع أو نتاج.

(٢) الشكال: أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة، أو عكس ذلك وقيل بياض الرجل اليسرى واليد اليسرى.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب ما يكره من صفات الخيل (١٣/١٨) نووي.

(٤) المتقاذف: السريع الركض. وعبل الشوى: غليظ القوائم. والنسا: عرق من الورك إلى الكعب. وشنج النسا: متقبضة، وهو مدح للفرس، لأنه إذا سنج نساه لم تسترخ رجلاه. والعميثل: النشيط.

(٥) يريد أنك إذا استدبرته رأيته زاخر الكفل، أي ممتلئة، وذلك مما يمدح في الخيل.

(٦) لعل المراد بالزافر: العظيم الزفرة (بالضم)، وهي وسط الفرس؛ فما يمدح في الفرس أن يكون عظيم الجوف مجفر الجنين.

وقال آخر[١]: الذي إذا مشى رَدَى[٢]، وإذا عَدَا دَحا[٣]، وإذا استُقبِل أقعى، وإذا استُدبِر جبَّى[٤]، وإذا استُعرض استوى.

وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصع بن صَوحان[٥]: أي الخيل أفضل؟ قال: الطويل الثلاث، القَصير الثلاث، العريض الثلاث، الصَّافي الثلاث. قال: فَسر لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأذن والعنق والحِزام، وأما القصير الثلاث، فالصُّلب والعَسيب والقَضيب. وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمِنخر والوَرك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب: كيف معرفتك بعراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعُرضت عليه. فقال: قدِّموا إليها الماء في التراس[٦]، فما شَرِب ولم يَكتِف[٧] فهو من العراب، وما ثَنى سُنبكه فليس منها.

قلت: إنما المحفوظ أنّ عمر شك في العِتاق والهجُن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره. فأمر سَلمان بطَست من ماء فوضع بالأرض، ثم قدَّم إليه الخيل فرسا فرسا، فما ثنى سُنبكه وشرب هجَّنه، وما شرب ولم يثن سنبكه عرَّبه[٨].

---

(١) هو ابن أقيصر، أحد بني أسد بن خزيمة. (انظر الأمالي وعيون الأخبار).

(٢) الرديان: أن يرجم الأرض رجمًا بين المشي الشديد والعَدْو.

(٣) إذا كان الفرس في سيره يرمي بيده لا يرفع سنبكه عن الأرض قيل: يدحو دحوا.

(٤) جبى: انكب على وجهه.

(٥) نسب هذا الكلام أيضًا لأيوب بن القِريَّة، وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل. انظر نهاية الأرب جـ١٠ ص٢٠.

(٦) التراس: جمع ترس، وهو صفحة مستديرة تحمل للوقاية من سيف ونحوه.

(٧) كتف الفرس: ارتفعت فروع كتفه.

(٨) وذلك لأن في أعناق الهجن قصرا، فهي لا تنال الماء في تلك الحال حتى تثني سنابكها. وأعناق العتاق طوال.

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس:

بكـل كُميتٍ جَوْزه نصف خلقـه ... أقبّ طُوالٍ مُشرف في الحـوارِك[١]

وقال زُهير:

ومُـلجَـمنـا ما إن يَنـال قَذالُـه ... ولا قَدمـاه الأرض إلا أنـامِـله[٢]

وقال آخر:

له ساقَـا ظَليـم خا ... ضب فُوجـىء بالـرُّعـب[٣]

حديـد الـطَّرف والمـنـكـ ... ـبِ والـعُـرقُـوب والـقَـلب

وقال آخر[٤]:

هَريـتٌ[٥] قصِـير عِذاب الـلِّجـام ... أسـيـلٌ طَويـل عِذارِ الـرَّسـن[٦]

لم يُرد بقوله: «قصير عذار اللجام» قِصَر خده، وإنما أراد طولَ شقّ الفَم.

وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.

وقال آخر:

بكُـل هريـت نَقـيّ الأديـم ... طويـل الحِـزام قَصـيرالـلَّبب[٧]

وقال أبو عبيدة يُستدل على عِتق الفرس برقة جَحافله[٨] وأرنبته، وسَعة مِنخريه،

---

(١) الكميت: من الكمتة، وهي لون بين السواد والحمرة. وجوزه: وسطه. والأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن. والطوال: الطويل. والحوارك: أعالى الكاهل.

(٢) القذال من الفرس: معقد العذار خلف الناصية.

(٣) الظليم: ذكر النعام. والخاضب: الذي اغتلم فاحمرت ساقاه. وقيل: هو الذي أكل الربيع فاحمرت ساقاه.

(٤) هو تميم بن أي بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مخضرم عاش مائة وعشرين سنة.

(٥) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شق الفم.

(٦) الرسن: الزمام.

(٧) لبب الفرس: منخره.

(٨) الجحافل: جمع جحفل، وهي الشفقة.

وعُري نواهقه[١]، ودِقة حقويه وما ظهر من أعالى أذنيه، ورقّه سالفتيه وأديمه، ولين شعره. وأبينُ من ذلك كله لين شَكير[٢] ناصيته وعُرفه.

وكانوا يقولون. إذا اشتد نفَه، ورحبُ مُتنفسه، وطال عُنقه، واشتد حَقوه، وانهرت[٣] شدقه، وعظمت فخذاه، وانشبخت أنساؤه[٤]، وعظمت فُصوصه[٥]، وصَلبت حوافره ووقُحت: ألحِق بجياد الخيل.

قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المُقرف؟ قال: نعم؛ أما الكريم، فالجواد الجيد الذي نهز نهز العَير[٦]، وأنَف تأنيف[٧] السير، الذي إذا عدا أسلهب، وإذا أقبل أجعلب، وإذا انتصب اتلأب[٨].

وأما المُقرف: فإنه الذَّلول الحجبة[٩]، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال: أمسِكني، وإذا أمسكته قال: أرسِلني.

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالدّيباج أمَّا سماؤه ... فريّا وأما أرضُه فمحُول

---

(١) يريد بالنواهق: الناهقين، وهما العظمان الشاخصان في مجرى الدمع.

(٢) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العتق.

(٣) انهرت: اتسع.

(٤) الشبخ: تقلص الجلد والأصابع وغيرهما؛ يقال: فرس شبخ النسا، منقبضه، وهو مدح له. والنسا (بالفتح): عرق من الورك إلى الكعب.

(٥) الفصوص: جمع فص، وهو ملتقى كل عظمين.

(٦) يقال: نهزت الدابة، إذا نهضت بصدرها للسير. والعير: الحمار الوحشي.

(٧) المؤنف: المحدد من كل شيء؛ ومنه سير مؤنف، أي مقدود على قدر واستواء. يريد أن الفرس قد سوى خلقه على قدر كما يسوى السير المقدود من الجلد.

(٨) اسلهب: مضى، واجلعب: امتد على الأرض. واتلأب: رفع صدره ورأسه.

(٩) حجبة الفرس: ما أشرف على صفاق البطن من وركيه. وهو الذي ليس لحجبته إشراف فهي ملساء مستوية. وهذا هو المراد أيضا بكلمة «ذلول».

قوله سماؤه: أعلاه؛ وأرضه: أسفله. يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

مُبتل مَتن وصَهوتين إلى ... حَوافر صُلبةٍ له مُلُس[١]
فهو لَدى الرَّوع والحَلائب[٢] ذُو ... أعلى مُنَدًّى وأسفل يَبَس
أو أدهم فيه كمْتةٌ أمم[٣] ... كأنه قطعة من الغَلَس
صَهصَلق في الصَّهيل تَحسبه ... أُشرِج حُلقُومه على جَرَس[٤]

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهب الكاتب:

ما مُقرب[٥] يَختال في أشطانه ... ملآن من صَلف به وتَلهوق[٦]
بَحوافر حُفرٍ وصُلب صُلَّب ... وأشاعر شُعر وحَلق أحلق[٧]
وبشُعلة تَبدو كأن حُلولها ... في صَهوتيه بُدوُّ شَيب المَفرق[٨]
ذو أولق تحت العَجاج وإنما ... من صِحةٍ إفراطُ ذاك الأولق[٩]
تُغرَى العيونُ به ويُفلق شاعرٌ ... في نَعته عفوًا وليس بمُفلق[١٠]

---

(١) يصف الفرس بأنه ريان الأعلى ظمآن الأسفل.

(٢) الحلائب: جمع حلبة، وهي الخيل تجتمع للسباق.

(٣) الأمم: الشيء بين الشيئين.

(٤) صهصلق: شديد الصهيل. وأشرج: خيط.

(٥) المقرب من الخيل: الذي يدني ويقرب ويكرم.

(٦) الأشطان: الحبال؛ الواحد: شطن. والتلهوق: المبالغة في العجب والاختيال.

(٧) حفر، أي قوية تحفر الأرض من صلابتها. والصلب (بالضم): الظهر. وصلب: قوي. والأشاعر: ما استدار بالحافر من منتهى الجلد. وشعر: شديد وأحلق: واسع.

(٨) الشعلة: البياض.

(٩) الأولق: الجنون. يريد وصفه بشدة النشاط.

(١٠) مفلق: يجيء بما يعجب. يقول: إن هذا الفرس يجيد في وصفه من ليس بمجيد من الشعراء، لأنه ينظر منه إلى ما يروق ويعجب.

بمُصَعَّد من حُسنه ومُصوَّب ... ومُجمَّع في خلقه ومُفرّق [١]
قد سالت الأوضاحُ [٢] سيلَ قَرارة ... فيه فَمُفترق عليه ومُلتقى
صافي الأديم كأنما ألبسته ... من سُندس ثوبا ومن إستبرق
مُسودّ شطر مثلما أسودَّ الدُّجى ... مُبيضّ شطر كابيضاض المُهرق [٣]
فكأن فارسَه يُصرِّف إذ بدا ... في مَتنه ابنًا للصباح [٤] الأبلق
إمليسه إمليده لو عُلِّقت ... في صَهوتيه العين لم تتعلق [٥]
يُرقى وما هو بالسليم ويَغتدى ... دون السلاح سلاح أروع مُمْلِقِ [٦]

وقال أبو سُويد: شهد أبو دُلَف وقعة البَذّ [٧] وتحته فرس أدهم، وعليه نضح الدم. فاستوقفه رجل من الشعراء [٨]، وأنشد:

كم ذا تُجرعه المَنون ويسلمُ ... لو يستطيع شكا إليك الأدهمُ

---

(١) مصعده: أعلاه ومصوبه: أسفله. ومجمعه: وسطه. ومفرقه، كقوائمه وأذنيه ونحوهما. يقول: إن في الفرس أشياء يحمد اجتماعها فقد جمعت وأشياء يحمد افتراقها قد فرقت.

(٢) الأوضاح: جمع وضح (بالتحريك): البياض.

(٣) المهرق: ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه. يقول: إنه مقسوم على شعرة سوداء وشعرة بيضاء.

(٤) يصف الفرس ببنوته للصباح في بياضه.

(٥) إمليسه إمليده: أملسه أملده، أي لبن ناعم. والعين: يريد بها التي تصيب الإنسان. وغيره من الحيوان، ويدل على ذلك قوله: «يرقى... إلخ» في البيت الآتي. يصفه بالملاسة والنعومة لأنها تدل على السلامة من العيوب.

(٦) يرقى، من الرقية. والسليم: الذي قد لدغ. قال التبريزي: «هذا الفرس يرقى لكرامته عند أهله». والأروع: الشجاع. والمملق، أي الذي لا سلاح له. يقول: إذا طلب الأعداء هذا الفارس كان الفرس سلاحا له، كما أنه إذا طلب هو عدوه أدركه.

(٧) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخزمي في أيام المعتصم. وقد ذهب إليه أبو دلف في جملة من كان مع الأفشين حيدر بن كاوس لمحاربته.

(٨) هو إسحاق بن خلف البهراني.

في كل مَنبت شعرةٍ من جلده ... نَمَق يُنمّقه الحُسام المِخذم[١]
وكأنما عَقَد النجوم بطرفه ... وكأنه بعُرى المجرة مُلجم[٢]
وكأنه بين البَوارق[٣] لقوة[٤] ... شَقراء كاسرة طَوت ما تَطعم
ما تُدرك الأرواح أدنى سَيره ... لا بل يَفوت الريح فهو مُقدِّم
رَجعته أطراف الأسنّة أشقرًا ... واللونُ أدهمُ حين ضَرّجه الدَّم

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومن قولنا في وصف الفرس:

ومُقرَبة يَشقرُّ في النَّقع كمتُها[٥] ... ويَخضرّ حينًا كلما بلّها الرَّشحُ
تَطير بلا رِيش إلى كل صَيحة ... وتَسبح في البَر الذي ما به سَبْح

وقال عديّ بن الرِّقاع:

يَخرجن من فُرُجات النَّقع دامية ... كأن آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البُحتريّ الشاعر من محمد بن حُميد بن عبد الحميد الكاتب فرسًا، ووصف له أنواعا من الخيل في شعره فقال:

لأكلّفن العِيسَ أبعدَ همّةٍ ... يَجري إليها خائفٌ أو مُرتَجي
وإلى سَراة بني حُمَيد إنهم ... أمْسَوا كواكبَ أشرقت في مَدلِج
والبيتُ لولا أن فيه فَضيلةً ... تَعلو البُيوتَ بفَضلها لم يُحَجج
فأعِن على غزوِ العدوِّ بمُنطَو ... أحشاؤه طَي الرّداء المُدرج
إمّا بأشقر ساطع أغشى الوَغى ... منه بمثل الكَوكب المُتأجِّج
مُتسربل شِيةً طَلت أعطافَه ... بدَمٍ فما تَلقاه غيرَ مُضرّج

---

(١) المخذم: القاطع.

(٢) يشير بهذا البيت إلى أنه مرتفع الرأس لا يخفضه.

(٣) البوارق: السيوف.

(٤) كذا في أكثر الأصول. واللقوة: أنثى العقبان.

(٥) المقربة من الأفراس: التي تدني وتقرب وتكرم، ويفعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم. وكمتها: من الكمتة، وهي الحمرة يخالطها سواد.

أو أدهم صافي الأديم كأنّه ... تحتَ الكميّ مُظهَّرٌ بيرَندج[١]
ضَرِمٍ يَهيجُ السوطُ من شُؤبوبه ... هَيجَ الجَنائب من حَريق العَرفج[٢]
خَفَّت مواقعُ وَطئه فلو انّه ... يجرى برملةِ عالجٍ لم يُرهج[٣]
أو أشهب يَقَقٍ يُضيء وراءَه ... مَتنٌ كمتن اللجّة المُتَرجرج
تَخفى الحُجولُ ولو بَلغن لبانَه ... في أبيضٍ مُتألِّق كالدُّملج[٤]
أوفى بعُرفٍ أسودٍ مُتفرِّد ... فيما يَليه وحافر فَيروزَجي
أو أبلقٍ ملأ العُيون إذا بدَا ... من كل لونٍ معجب بنمُوذَج
جَذلان تَحسُده الجيادُ إذا مَشى ... عَنَقا[٥] بأحسن حُلة لم تُنسج
وعَريضِ أعلى المَتن لو عَلَّيتَه ... بالزِّئبق المُنهال لم يَترجرج
خاضت قوائمُه الوثيق بناؤها ... أمواجَ تَحنيب[٦] بهنَّ مُدَرَّج
ولأنت أبعدُ في السَّماحة هِمَّةً ... مِن أن تَضِن بمُوكف[٧] أو مُسرَج

وأول من شبه الخيلَ بالظبي والسِّرحان والنعامة وتَبِعه الشعراء وحَذَوا حذوَهُ وعلى مثاله، امرؤُ القيس بن حُجر، فقال في الفَرس:

---

(١) اليرندج: السواد يسود به الخف، أو هو الزاج يسود به.

(٢) الشؤبوب: شدة العدو. والجنائب: جمع جنوب، وهي من الرياح: التي تقابل الشمال. والعرفج: ضرب من النبات سهلي طيب الريح، ولهبه شديد الحمرة، ويبالغ بحمرته، فيقال: كأن شعره ضرام عرفجة.

(٣) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيىء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، ولم يرهج: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.

(٤) اللبان: الصدر. والدملج: حلي يلبس في المعصم.

(٥) العنق: ضرب من السير فسيح سريع.

(٦) التحنيب: احديداب في وظيفي يدى الفرس، ويوصف صاحبه بالشدة؛ وقيل. هو بُعْدُ ما بين الرجلين من غير فجج، وهو مدح.

(٧) الموكف: الذي وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.

له أيْطلا ظَبي وسَاقَا نَعامةٍ ... وإرخاء سِرحانٍ وتَقريبُ تَتْفُل [١]
كأنّ على المَتنين منه إذا انتَحى ... مَداكَ عَروسٍ أو صَلاية حَنظَل [٢]
مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ مَعاً ... كجُلمود صَخرٍ حطّه السيلُ من عَل
دَرير كخُذروف الوليد أمرَّه [٣] ... تتابُع كفّيه بخيط مُوصَّل
كُميتٍ يَزِلّ اللِّبدُ عن حال مَتنِه ... كما زَلَّت الصَّفواء بالمتنزِّل [٤]

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من أمريء القيس فَحَذوا عليه، فقال طُفيل الخَيل:

إنّي وإن قل مالي لا يُفارقني ... مثلُ النّعامة في أوصالها طُولُ
تَقريبها المَرَطي والجَوز مُعتدِل ... كأنه سُبَد بالماء مَغسول [٥]
أو ساهِم الوَجه لم تُقطع أباجلُه ... يُصان وهو ليوم الرَّوع مَبذول [٦]

وقال عبد الملك بن مَروان لأصحابه: أي المَناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مَناديل

---

(١) الأيطل: الخاصرة. والإرخاء: شدة العدو. والتقريب: أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا في عدوه. وقيل: إذا رجم الأرض رجما فهو التقريب. والسرحان: الذئب. والتتفل: ولد الثعلب.

(٢) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر. وانتحى: اعتمد وقصد. والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب. والصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه حب الحنظل ونحوه.

(٣) الدرير: الفرس السريع العدو. والخذروف: عود أو قصبة مشقوقة يفرض في وسطه ثم يشد بخيط، فإذا أمر دار وسمعت له حفيفا، يلعب به الصبيان. ويشبه به الفرس في سرعته. وأمره: قلبه ثم أداره بين كفيه.

(٤) الكميت: ما خالط حمرته سواد. والحال: وسط الظهر. يريد وصف ظهره بالملامسة فإذا ألقى عليه اللبد زل فلم يثبت عليه. والصفواء: الصخرة الملساء التي لا يثبت فيها شيء. والمتنزل: الذي ينزل عليها فيزلق عنها.

(٥) التقريب: أن يرفع الفرس يديه معا ويضعهما معا في عدوه. وقيل: إذا رجم الأرض رجما فهو التقريب. والمرطي: فوق التقريب. والجوز: الوسط. والسيد: ثوب يسد به الحوض المركو لئلا يتكدر الماء، يفرش فيه وتسقى الإبل عليه.

(٦) ساهم الوجه: عابسه، وهي صفة ممدوحة في الخيل. والأباجل: جمع أبجل، وهو عرق غليظ في الرجل، وهو في الفرس بمنزلة الأكحل من الإنسان.

مصر التي كأنها غرقيء[١] البَيض. وقال بعضُهم: مَناديل اليَمن التي كأنها أنوارُ الربيع. فقال: ما صنعتم شيئاً، أفضل المناديل عَبْدة[٢] بن الطَّبيب حيث يقول:

لمّا نَزلنا ضَربنا ظِل أخبيةٍ[٣] وفارَ باللَّحم للقوم المَراجيلُ
وَردًا وأشقرَ[٤] لم يُنهِئه[٥] طابخُه ما قارَبَ النُّضجَ منها فهو مأكول
وقد وَثَبنا على عُوجٍ مُسوَّمة[٦] أعرافُهن لأيدينا مَناديل

سوابق الخيل

وقال الأصمعي: ماسَبق في الرهان فرس أهضم[٧] قطّ. وأنشد لأبي النَّجم[٨].

مُنتفجُ[٩] الجَوف عَريضٌ كَلكَلُه

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مُسبِّقاً لا يكاد يَسبق، فسبقت له فرس أنثى وَصلَّت أختُها[١٠]، ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال: عليّ بالشعراء قال أبو النّجم: فدُعينا فقيل لنا: قُولوا في هذه الفرس وأختها. فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرة حتى

---

(١) غرقيء البيضة: القشرة الملتزقة ببياضها.

(٢) اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة.

(٣) يريد أنهم بنوا أرديتهم فوق رماحهم كما تبنى الأخبية يستظل بها.

(٤) يريد بالورد: ماأخذ فيه النضج من اللحم؛ وبالأشقر: ما لم ينضج.

(٥) لم ينهئه، أي لم ينضجه، العرب لا تنضج اللحم، إما لاستعجالها للضيف، وإما لأن ذلك مستحب عندها.

(٦) المسومة: المعلمة.

(٧) الهضم (في الخيل): استقامة الضلوع وانضمام أعالي البطن واستقامتها ودخول أعاليها، وهو عيب.

(٨) هو الفضل بن قدامة، الراجز المعروف.

(٩) الانتفاج (بالجيم): نحو من الانتفاخ، إلا أن الانتفاخ (بالخاء) عن علة وداء، والانتفاج (بالجيم): من خلقه وسمن.

(١٠) وصلت: جاءت تالية للسابق.

يقولوا. فقلت له: هل لك في رجل يَنقُذك إذا استنسئوك؟ قال: هات. فقلتُ: من ساعتي:

أشاعَ للغَرّاء فينا ذِكرَها ... قوائمٌ عُوجٌ أطعنَ أمرَها
وما نَسينا بالطريق مُهرها ... حين نَقيسُ قدره وقدرها
وصَبره إذا عدا وصَبرها ... والماءُ يعلو نحره ونَحرها
مَلمومةَ[١] شدَّ المَليكُ أسرها ... أسفَلها وبطنَها وظَهرَها
قد كاد هاديها[٢] يكون شَطرَها

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن على بن جعفر البَصري قالا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد رَكب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة. قال الأصمعي: فدخلتُ الميدانَ لشُهودها فيمن شَهد من خواص أمير المؤمنين، والحَلبة يومئذ أفراس للرشيد ولوَلديه الأمين والمأمون ولسُليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر. فجاء فرسٌ أدهمُ، يقال له الربِذ[٣] لهارون الرشيد، سابقاً. فابتهج لذلك ابتهاجاً عُلم ذلك في وجهه وقال: عليّ بالأصمعي. فنوديتُ له من كل جانب. فأقبلتُ سريعاً حتى مثلت بين يديه. فقال: ياأصمعي: خُذ بناحية الرَّبذ ثم صفه من قونَسه إلى سُنبكه[٤]، فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير. قلت: نعم ياأمير المؤمنين، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حزرة[٥]. قال: فأنشدنا لله أبوك. قال: فأنشدته:

---

(١) ملمومة، أي مجتمعة الخلق. الأسر: شدة الخلق.

(٢) الهادي: العنق. يريد وصفه بالطول.

(٣) الربذ من الخيل: السريع. ورَبِذَ: خفَّت رجله في المشي وخَفَّت يده في العمل فهو ربذ. انظر المعجم الوسيط ص٣٢٢.

(٤) أي من أعلى رأسه إلى طرف حافره.

(٥) هي كنية جرير بن عطية الخطفي، الشاعر المشهور.

وأقبّ كالسِّرحان تَمّ له ما بينَ هامته إلى النّسرِ

الأقبّ: اللاحق المُخطَف البَطن[١]، وذلك يكون من خِلقة، وربما حدث من هُزال أو بُعد قَودَ[٢]، والأنثى قَبّاء، والجمع: قُبّ، والمصدر: القَبب. والسِّرحان: الذِّئب، شبهه في ضموره وعدوه به، وجمعه سراحين، وقد قالوا: سِرَاح[٣]. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدّماغ؛ وهي من أسماء الطير. والنَّسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه، كأنه النَّوى والحَصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نسور.

رحُبت نَعامته ووفِّر فرخه وتمكن الصُّردانِ في النَّحرِ

رحُبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تُغطى الدماغ، وهي من أسماء الطير. وقوله: «ووُفِّر فرخه». الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووُفِّر: أي تُمم؛ يقال: وَفَّرت الشيء ووفرته (بالتخفيف) فهو موفور. والصُّردان: عِرقان في أصل اللسان، ويقال: إنهما عرقان أخضران مُكتنفان باطن اللسان، يجري منهما الريق ونَفَس الرئة، وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صُرد (أيضا)، وهو بياض يكون في موضع السَّرج من أثر الدَّبَر[٤]؛ يقال: فرس صَرِد، إذا كان ذلك به. والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البَرك.

وأناف بالعُصفور من سَعَف هامٍ أشمَّ موثَّق الجَذر

أناف: أشرف. والعُصفور: أصل منبت الناصية والعُصفور (أيضا): عظم ناتيء في كل جبين والعُصفور: من الغُرر (أيضا)، وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرحة، وهو من أسماء الطير والسَّعف، يقال: فرس بَيِّن السعف، وهو الذي سالت ناصيته. وهامٍ، أي سائل منتشر. وأشمّ: مرتفع. والشّمم في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: «هادٍ أشم» يريد عُنقا مرتفعا، وجمعه:

---

(١) مخطف البطن: منطويه.

(٢) القود: طول الظهر والعنق.

(٣) سراح، بفتح السين وكسرها.

(٤) الدبر: جمع دبرة (بالتحريك)، وهي قرحة الدابة.

هوادٍ، وقوله: موثّق، أي شديد قوي. والجذر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح؛ وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالدِّيكين صَلصَلُه ونَبت دَجاجتهُ عن الصَّدر

ازدان: افتعل، من قولك زان بزين، وكان الأصل ازتان، فقلبت التاء دالا، لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان واحدهما ديك، وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخُشْشاء والخُشّاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللحم الذي على زَوره بين يديه. والدِّك والصَّلصل والدَّجاجة، من أسماء الطير.

والنَّاهِضان أُمرّ جَلزُهما فكأنما عُثما على كَسر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدين من أعلاهما، والجمع نواهض، ويقال في الجمع: أنهضُ، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أمرّ جلزُهما، أي فُتلَ وأحكم؛ أمررتُ الحبل فهو مُمر، أي فَتلته. والجَلْز: الشد. وقوله:

فكأنما عُثِما على كَسر

أي كأنهما كُسرا ثم جُبرا. يقال: عَثمت يدُه. والعَثم: الجبر على عُقدة وعَوج؛ وعثمان، فُعلان منه.

مُسحَنفرُ الجنبَين مُلتئم ما بين شِيمته إلى الغُرّ

مسحنفر الجنبين: أي منتفخها. مُلتئم، أي معتدل. وشِيمته: نَحره[1]. والشِّيمة، أيضا: من قولك: فرس أشيم، بيِّن الشِّيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغُر في الطير: الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق.

وصَفت سُماناه وحافِزه وأديمهُ ومَنابتُ الشَّعر

---

(١) الشيمة: من قولك: فرس أشيم: بين الشامة.

السُّمانَى: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السَّمانة، وهي دائرة تكون في سالفة الفَرس، وهي عُنقه، والسَّمامة، من الطير أيضاً. والأديم: الجلد.

وسَمَا الغُراب لَموقعيه معاً فأُبِين بينهما على قَدر

سما الغراب، أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصَّلَوين: الغرابان، وهما مُكتنفا عجب الذنب[1]. ويقال: هما مُلتقى أعالى الوركين. والموقعان، منه في أعالى الخاصرتين. فأبين، أي فُرِّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكتنّ دون قَبيحه خُطَّافه ونأت سَمامته عن الصَّقر

اكتن: أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُركَّب الذراعين في العضدين. والخُطاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عَقبُ الفارس إذا حرك رجليه. ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المَركلان. ونأت، أي بعدت. والسَّمامة: دائرة تكون في عُنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتقدَّمت عنه القطاةُ له فنأتْ بموقعها عن الحُرّ

القطاة: مَقعد الردف، وهي من أسماء الطير. والحُر: من الطير، يقال إنه ذكر الحمام، وهو من الفرس، سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسَما على نَقويه دون حِداته خَربان بينهما مَدى الشِّبر

النَّقوان: واحدهما نَقو، والجمع. أنقاء، وهو عظم ذو مُخ، وإنما عَنَى هاهنا عِظام الوَركين، لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدهُن في ورك الفرس. وهو من الطير: ذَكرُ الحُبَارى. والحِداة: من الطير، وأصله الهمز، ولكنه خُفف، وهي سالفة الفرس، وجمعها حداء، على وزن فعال، كما تقول: عَظاءة وعظاء، ويقال: عظاية. وإذا فتحت الفاء قلت: حَدأة، وهي الفأس ذات الرأسين، وجمعها: حَدأ، مثل نَواة ونوى، وقطاة وقطا.

---

(١) عجب الذنب: أصله، وهو العصعص.

يَدع الـرَّضـيـم إذا جرى فِلقًا بتـوائـمٍ كمـواسـمٍ سُمـر

الرَّضيم: الحجارة. والفِلَق: المكسورة فِلقا. بتوائم: جمع توأم، وقد قالوا. تُؤم، على وزن فُعَل، جمع توأم، وهي على غير قياس. يقول: هي مَثنى مثنى، يعني حوافره.

والمـواسم: جمع مِيسم الحـديد، من وسمت، أي إنها كمـواسم الحـديد في صلابتها. وقوله: سمر، أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رُكِّـبْـنَ في محص الـشـوى سَبط كَفـتِ الـوثـوب مُشـدَّد الأسر

الشوى، هاهنا: القوائم، والواحدة: شَواة. ويقال: فرس مَحص الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سَبط: سهل. كفت الوثوب، أي مجتمع، من قولك: كَفَتُّ الشيء، إذا جمعته وتمّمته. مشدّد الأسر، أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وسبق يوما فرسٌ للرشيد يُسمى المُشمر، وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي، فقال أبو العتاهية:

جاء المُشمَّـر والأفـراس يَقدُمها هَونًا على سُرعة منها وما انتهَرا
وخلَّف الـريح حَسرى وهي تتبعه ومَـرَّ يَختـطف الأبصـار والنَّـظرا

وقال أبو النجم في شعر يصف الفرسَ، وهو أجود شِعر يصف الخَلبة:

ثم سمـعـنـا برهـان نأمـله قِيْدَ له من كل أفـق جحفُـله[1]
فقـلتُ للسـائس قُدهُ أعـجلهُ[2] وأغـدُ لعنّـا[3] في الـرهـان نُرسله
فظل مجنـوبـا وظـل جمله بين شعـيـبـين وزادٍ يزمُـلُه[4]

---

(١) الجحفل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خيل.

(٢) أراد «أعجله» بإسكان اللام، فلما وقف على الهاء فسكنها ألقى حركتها على اللام ليستقيم الروى.

(٣) لعنا، لغة في لعلنا: ويروى، لعلنا، بإسكان اللام.

(٤) مجنوبا: لا يركب. وجمله يزمله: أي يحمل الزاد والعلف. وشعيبين، أي مزادتين.

نَعلو به الحَزْن ولا نُسهله[١] إذا علا الأخشب صاح جندله[٢]
تَرنُّم النُّوح تبكي مُثكِله[٣] كأن في الصوت الذي يُفصله
زُمَّار دُفٍّ يتغنى جُلجله حتى وردنا المِصر يُطوى قنبلُه[٤]
طَيّ التجار العصب إذ تنخّلُه[٥] وقد رأينا فعلهم فنفعله
نَطويه والطَّي الرقيق يجدله[٦] نُضَمِّرُ الشحم ولسنا نهزله
حتى إذا الليل تولى أثجلهُ[٧] وأتبع الأيديَ منه أرجلُه[٨]
قمنا على هول شديد وجلُه نَمُدُّ حبلا فوق خطّ نَعدله[٩]
نقوم قَدِّم ذا وهذا أدخله وقام مشقوق القميص يُعجله
فوق الخُماسيِّ[١٠] قليلاً يَفضُله أدرَك عقلاً والرهانُ عَمله

---

(١) لانسهله، أي لا نصير به إلى السهل. وإنما أراد لا نسهل به، فحذف الحرف وأوصل. وهو على حد قول غيلان الربعي يصف حلبة.

وأسهلوهن دقاق البطحا

أراد: وأسهلوا بهن.

(٢) الجندل: الحجارة. يشير إلى صوت حوافره عليها.

(٣) النوح: الجماعة من النساء تنوح. والمثكل: التي ثكلت ولدها.

(٤) الجلجل: الجرس. والقنبل: الطائفة من الخيل. والضمير فيها يعود على «المصر». يريد أننا وردنا المصر وفيه جماعات الخيل تضمر استعداداً للرهان.

(٥) العصب: ضرب من البرود. وتنخله: تختاره.

(٦) يجدله، أي يُحْكِمُ فتل عضلاته ويحسن طيها.

(٧) الأثجل: القطعة الضخمة من الليل.

(٨) أتبع: تبع. يريد أن أرجله قد تبعت أيديه. يصف مرور الليل وتوليه، مشبها له في مضيه بالفرس في عدوه.

(٩) يريد الحبل الذي ينصب قبل إرسال الخيل ويجعل في صدورها لتكون متساوية عند الإرسال. ويسمى: المقوس أو المقبض.

(١٠) يقال: غلام خماسي، وذلك إذا كان طوله خمسة أشبار.

حتى إذا أدرك خيلاً مُرسله ... ثار عَجاجٌ مُستطير قَسطُله[١]
تنفُش منه الخيلُ مالا تَغزله ... مَرًّا يُغطيها ومَرًّا تُنعله[٢]
مَرَّ القَطا انصبَّ عليه أجدَلُه ... وهو رَخيُّ البال ساجٍ[٣] وَهلُه
قَدَّمه مثلاً لمن يَمتثله ... تُطيره الجن وحيناً تُرجله
تَسبح أخراه ويَطفو أوّله ... ترى الغلام ساجياً ما يَركُله
يُعطيه ما شاء وليس يَسأله ... كأنه من زَبَد يُسَربله[٤]
في كُرْسُف النَّدَّاف لولا بَلله ... تَخالُ مِسكاً عَلَّه مُعلِّلُه[٥]
ثم تَناولنا الغُلام نُنزله ... عن مُفرع الكِتفين[٦] حُلو عَطَله[٧]
مُنتفج[٨] الجوف عَريض كلكله ... فوافت الخيلُ ونحن نَشكُله
والجنّ عُكاف به تُقبّله

وقال آخر في فَرس أبي الأعور السُّلمي[٩] :

مَرَّ كلمع البرق سامٍ ناظِرُه ... تَسبح أولاه ويَطفو آخِرُه
فما يَمَس الأرض منه حافرُه

وقول هذا أشبه من قول أبي النَّجم، لأنه يقول:

تَسبح أخراه ويطفو أوّله

---

(١) والقسطل: الغبار الساطع.
(٢) تنعله، أي تجعل الغبار تحت أرجلها كالنعل.
(٣) الساجي: الساكن. والوهل: الفزع.
(٤) يسربله: يلبسه. يشبه الزبد، وقد عم جسمه، باللباس يغطي الجسد.
(٥) الكرسف: القطن. والنداف: الذي يندف القطن بالمندف، أي يطرقه.
(٦) مفرع الكتفين: عليهما.
(٧) العطل: العنق. وقيل: عطله: ضمره.
(٨) الانتفاج: الانتفاخ من خلقة وسمن.
(٩) أبو الأعور، هو عمر بن سفيان.

وقال الأصمعي : إذا كان الفرس كما قال أبو النَّجم فحِمَار الكَسَّاح[١] أسرع منه، لأن اضطراب مُؤخره قبيح .

وقال الأصمعي كان أبو النجم وَصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت، وقد غَلط رُؤبة أيضاً في الفرس، فقال يصف قوائمه :

يَهوين شَتَّى وَيقعن وَفقاً[٢]

ولما أنشده مُسلم بن قُتيبة. قال له: أخطأت في هذا ياأبا الجَحافَ، جعلته مُقيّداً. فقال: قَربني من ذَنب البعير[٣].

وأنشد الأصمعي :

قد أطرُق الحيَّ على سابحٍ ... أسطَعَ[٤] مثل الصدع[٥] الأجرِدِ
لما أتيتُ الحيَّ في مَتنه ... كأنّ عُرجوناً بمَثنَى يَدِي
أقبل يَختال على شَأوه ... يَضرب في الأقرب والأبعد
كأنه سَكرانُ أو عابِسٌ ... أو ابنُ ربّ حَدَثُ المَولِد

وقال غيره :

أما إذا استَقبَلتُه فكأنّه ... جِذعٌ سَما فوق النَّخيل مُشذَّبُ
وإذا اعترَضت له استوَت أقطارُه[٦] ... وكأنه ـ مُستدبرًا ـ مُتَصوِّب

وقال ابن المُعتز:

وقد يحضُر الهيجاءَ بي شَنجُ النَّسا[٧] ... تَكامَل في أسنانه فهو قارِحُ[٨]

---

(١) الكساح: الكناس.

(٢) والوفق: كل شيء يكون متفقا على نمط واحد.

(٣) يشير بهذه العبارة إلى أنه يحسن وصف الإبل دون الخيل.

(٤) السابح. الفرس، لسبحه بيديه. والأسطع: الطويل العنق.

(٥) الصدع من الأوعال والإبل والحمر: الفتى الشاب القوي.

(٦) الأقطار: النواحي، الواحد: قطر (بالضم).

(٧) شنج النسا، أي متقبضة. والنسا: عرق من الورك إلى الكعب.

(٨) القارح: الفرس في الخامسة من عمره، وهو بمنزلة البازل من الإبل.

له عُنُق يَغتال طولَ عِنانه ... وصَدرٌ إذا أعطيته الجرى سابِح
إذا مال عن أعطافه قُلت شارب ... عَناه بتَصريف المُدامة طافِح

وقال أيضاً:

ولقد وَطِئتُ الغَيث[1] يَحملني ... طِرفٌ كَلون الصُّبح حين وَقَد
يَمشي فيعرِض في العِنان كما ... صَدَف المُعشَّق ذو الدَّلال وصَدّ
طارت به رِجلٌ مُرصَّعة ... رجَّامةٌ لِحصى الطريق ويَدَ
فكأنه مَوج يَسيل إذا ... أطلقتَه وإذا حَبَست جَمَد

الحلبة والرهان

والحَلْبة: مَجمع الخيل. ويقال: مُجتمع الخيل. ويقال: مُجتمع الناس للرِّهان. وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا، إذا اجتمعوا. ويقال منه: حلَب الحالب اللبنَ في القَدَح، أي جمعه فيه. والمِقْوَس: الحبل الذي يُمدَ في صدور الخيل عند الإرسال للسباق. والمُنَصَّبة: الخيل حين تُنصَّب[2] للإرسال.

وأصل الرّهان من الرّهن؛ لأن الرجل يُراهن صاحبه في المُسابقة، يَضع هذا رهنًا وهذا رهنًا، فأيهما سبق فرسُه أخذ رهنه ورهن صاحبه. والرِّهان: مصدر راهنتُه مُراهنة ورِهاناً، كما تقول: قاتلتُه مقاتلة وقتالا. وهذا كان من أمر الجاهليّة، وهو القمار المنهي عنه، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مُسمى، على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبهُ أخذ الرهن، فهذا حلال، لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر. وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما مُحلِّلا، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدَّخيل، ولا يُجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يُرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه، فكان له طيّباً، وإن سبق الدّخيل أخذ الرَّهنين جميعاً، وإن سُبق هو لم يكن عليه شيء.

---

(١) يريد النبات حيث يكتر الصيد. (٢) تنصب: تقام وتعد بعضها إلى جانب بعض.

ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً، لا يأمنان أن يَسبقهما، وإلا فهذا قِمار لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمُصَلِّي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مُصلٍّ، لأنه يكون عند صَلَوي السابق، وهما جانبا ذَنبه عن يمينه وشِماله[1]. ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمى سُكيتاً. قال أبو عبيدة: لم نَسمع في سوابق الخيل ممن يُوثق بعلمه اسماً لشيء منها إلا الثاني والعاشر، فإن الثاني اسمه المُصَلِّي، والعاشر السُّكيت، وما سوى ذينك يقال: الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السُّكيت. ويقال السُّكيت (بالتشديد والتخفيف). فما جاء بعد ذلك لم يعُتد به. والفِسْكل، بالكسر: الذي يجيء آخر الخيل، والعامة تسميه الفُسكل، بالضم. وقال أبو عُبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحَلبة آخر الخيل، وهو الفِسكل، وإنما قيل للسُّكَيت سُكَيت، لأنه آخر العدد الذي يقف العادّ عليه. والسَّكت: الوقوف. هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيّروا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير:

إذا شِئتم أن تمسحوا وجه سابقٍ ... جَوادٍ فمدوا في الرهان عنانيا

ومن قولنا في هذا المعنى:

وإذا جِيادُ الخَيل ماطلها المَدَى ... وتَقطَّعتْ في شَأْوها المَبْهورِ

خَلوا عناني في الرهان ومسِّحُوا ... مِنِّي بغُرة أبلق مَشهور

---

(١) ويطلق الصلا أيضا: على وسط الظهر وما انحدر من الوركين والفرجة بين الجاعرة والذنب.

وصف السلاح

كانت دِرْع عليّ رضي الله عنه صدرًا لاظهر لها فقيل له في ذلك. فقال: إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يُبْقي.

ورُئي الجرّاح بن عبد الله قد ظاهر بين دِرعين. فقيل له في ذلك. فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري

واشترى زيد بن حاتم أدراعاً وقال: إني لستُ أشترى أدراعاً وإنما أشترى أعماراً.

وقال حبيب بن المُهلَّب لبَنيه لايقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لابد فاعلين فإلى زَرَّاد، أو سَرَّاج، أو وَرَّاق.

العُتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة. فبعث به إليه. فلما ضرب به وجده دون ماكان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك. فردَّ عليه: إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به.

وسأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً عن السلام: فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له قال: ماتقول في الترس؟ قال: هو المِجَنّ الدائر وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرُّمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال فالنَّبل؟ قال: منايا تخطىء وتصيب. قال: فما تقول في الدرع؟ قال: مثقلة للراجل، مُتعبة للفارس، وإنها لحِصن حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أُم لك ياأمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة، وقال: بل لا أم لك

قال: الحُمَّى أضرعتني [1] لك.

الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معديكرب، الذى يقال له الصمصامة، لموسى الهادي فدعا به، فوُضع بين يديه مُجرّداً ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء. فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا فيه. فبدرهم ابن يامين فقال:

---

(١) الحمى أضر عتنى إليك هو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع.

حاز صمصامة الزبيدِيّ عمرٍو ... من جميع الأنام موسي الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا ... خير ماأغمدت عليه الجفون
أخضر المتن بين حديه نورُ ... من فرندٍ تمتدُّ فيه العيون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ... ثم شابت به الذُّعاف القيون
فإذا ماسللته بهر الشمـ ... ـس ضياءً فلم تكد تستبين
فكائن الفرند والرونق الجا ... ري في صفحتيه ماء معين
وكأنّ المنون نيطت إليه ... فهو من كل جانبيه منون
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ... ـجاء يسطو به ونعم القرين
ما يبالي من انتضاه لضرب ... أشمالٌ سطت به أم يمين

فأمر له ببدرة وخرجوا.

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبدالله بن المغيرة فقطّه إلى القربوس. فقالوا: ماأجود سيفك! فغضب. يريد أن العمل ليده لا لسيفه. وقال:

متى تلقني يعدو ببَزِّي[1] مُقلِّصٌ ... كُمَيتٌ[2] بهيم أو أغرُّ مُحجَّلُ
تُلاقِ أمرا إن تَلْقَه فِبسَيْفه ... تُعلِّمك الأيامُ ما كنت تجهل

وقال أبو الشيص:

ختلته المنون بعد اختيال ... بين صفين من قنا ونصال
في رداء من الصفيح صقيل ... وقميص[3] من الحديد مُذَال

وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر، فوجه إليهم ابنه الأغر، وقال: يابُنى، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم؛ وإياك والسيف، فإنه ظل الموت، واتق الرمح، فإنه رشاء المنية؛ ولاتقرب السهام، فانها رُسُل لاتؤامر مرسلها. قال: فبماذا أقاتل؛ قال: بما قال الشاعر:

---

(١) البز: السلاح والمقلص: الفرس الطويل القوائم
(٢) الكميت: لون بين السواد والحمرة.
(٣) القميص: الدرع.

جلاميـد يملان الأكـف كأنهـا رءوس رجال حُلِّقت في المواسم

وذكر أعرابي قوماً تحاربوا فقال:

أقبلت الفحول تمشي مَشْيَ الوعُول، فلما تصافحوا بالسيوف، فغرت المنايا أفواهها.

وقال آخر يذكر قوماً أُسِروا: استنزلوهم عن الجياد بلَيِّنة الخُرصان، ونزعوهم نزع الدلاء بالأشطان [١].

وقال أعرابي فى آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم: احتثُّوا كل جُمالية عيرانة، كيما يخصفون أخفاف المطيّ بحوافر الخيل. حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المران أرشية المنايا، فاستقوا بها أرواحهم.

ومن أحسن ماقيل فى السيف قولُ حبيب:

ونبَّهن مثلَ السيف لو لم تَسُلَّه يَدانِ لسَلّته ظُباه من الغِمْدِ[٢]

وقال فى صفة الرماح:

مُثقّفات سَلبْنَ الرومَ زُرْقَتَها والعُرْبَ سُمْرتها والعاشِق القَضفا

ومن الإفراط القبيح قول النابغة فى وصف السيف:

يقُدُّ السَّلوقيَّ[٣] المُضاعَفَ نَسْجُه ويُوقِد فى الصُّفّاح نار الحُباحِبِ

فذكر أنه يقدُّ الدرع المضاعف نسجها، والفارس والفرس، ويقع بها فى الأرض فيقدح النار من الحجارة.

وأقبح منه في الإفراط قول الآخر [٤]:

تظلّ تحفرُ عنه إن ضربتَ به بعد الذراعين والساقين والهادي[٥]

وقد جمع العلويّ وصف الخيل والسلاح كله، فأحسن وجوّد حيث يقول:

---

(١) الأشطان: الحبال.

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبى تمام.

(٣) السلوقي، نسبة إلى سلوق: بلدة باليمن تنسب إليها الدروع.

(٤) هو النمر بن تولب. انظر ابن قتيبة/ الشعر والشعراء ص١٩٢ طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

(٥) الهادي: العنق

بحسبي من مالي من الخيل أعيطُ[١] سليم الشَّطي عاري النواهق[٢] أمعطُ[٣]
وأبيضُ من ماء الحديد مُهَنّد وأسمرُ عُسّالُ[٤] الكعُوب عنَطْنطُ[٥]
وبيضاءُ كالضحضاح[٦] زَعْفٌ[٧] مُفاضة يُكفِّتها عني نِجادٌ مُخَطَّطُ
ومعطوفة الأطراف كبداء[٨] سمحة مُنَفّجة الأعضاد صفراء شَوْحطُ[٩]
فياليت مالى غيرَ ماقد جمعتُه على لُجّةً تيّارُها يتغطغط[١٠]
ويا ليتنى أُمسي على الدهر ليلةً وليس على نفسى أمير مُسَلَّط

ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكل رُدينى كأن سنانه شِهابٌ بدا فى ظُلمة الليل ساطعُ
تقاصرت الآجالُ فى طول مَتْنه وعسادت به الآمال وهى فجائع
وساءت ظنون الحرب فى حُسن ظنّه فهنّ ظُبَات للقلوب قوارعُ
وذي شُطَب تقضى المنايا بحُكمه وليس لما تقضي المنية دافعُ
فرنْدٌ إذا ما اعتنَّ[١١] للعين راكِد وبرقٌ إذا ما اهتزّ بالكفِّ لامعُ
يُسَلِّل أرواحَ الكُماة انسلاله ويرتاع منه الموتُ والموتُ رائع
إذا مالتقت أمثاله في وقيعة هنالك ظنُّ النفس بالنفس واقع

---

(١) الأعيط: الطويل العنق.
(٢) يريد بعري ناهقيه: أنه لالحم عليهما، وهذا تمتدح به الخيل.
(٣) الأمعط: الذي لاشعر على جسده.
(٤) العسال: الرمح
(٥) عنطنط: طويل.
(٦) الضحاح: الماء اليسير
(٧) الزعف: الدرع الواسعة.
(٨) الكبداء: القوس.
(٩) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي.
(١٠) يتغطغط، أى ترتفع أمواجه وتعلو.

ومن قولنا في وصف السيف:

بكـــل مأثـــور علـى متنـــه مثـلُ مـدبّ النمـــل بالقـــاع[١]
يرتد طـرفُ العـين مـن حـــدّه عـــن كوكـــبٍ للـمـــوت لـمَّـــاع

النزع بالقوس

إبراهيم الشيبانى قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعةً له بواسط فى مغرم لزمه للخليفة، فحمل وكيلا له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك مافى هذا الخرج وإلا فاكتب إليَّ أمِدَّك بالمال. فخرج، فلما أصحر[٢] عن البيوت، لحق به أعرابى راكب على حمار معه قوس وكنانة، فقال له: إلى أين تتوجَّه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك فى الصحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فوَّزا[٣] فعنَّتْ لهما ظباء قال له الأعرابى: أى هذه الظباء أحب إليك، المتقدِّم منها أم المتأخر فأزكيه[٤] لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتويا وأكلا. فاغتبط الرجل بصُحبة الأعرابى. ثم عنت لهما زُفَّة[٥] قَطَا فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها. فرماها فأقصدها، ثم اشتويا وأكلا. فما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابيُّ سهماً ثم قال له: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله ـ عز وجل ـ واحفظ زمام الصحبة. قال: لابدّ منه. قال: اتق الله ربك واستبقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً. قال: فاخلع ثيابك. فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً

---

(١) القاع: الأرض المنخفضة بين السهول.

(٢) أصحر عن بيوت، أى تركها وصار فى الخلاء.

(٣) فوَّزا، أى دخلا المفازة.

(٤) أزكيه، أى أرميه بالسهم فاجعله مزكى يحل أكله.

(٥) الزفة: الزمرة

حتى بقى مجرّداً. قال له: اخلع أمواقك[١]، وكان لابساً خُفين مطابقين[٢] فقال له: اتق الله فىّ ودع لى الخفين أتبلغ بهما من الحر، فإن الرمضاء تحرق قدمى. قال: لابد منه. قال: فدونك الخف، فأخلعه. فلما تناول الخف، ذكر الرجل خنجراً كان معه فى الخف، فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهب مثلا. وكان هذا الأعرابى من رُماة الحدق[٣].

وقال النبي ﷺ: «**اركبوا وارموا. وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا**» وقال: «**كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته. فإنه حق. إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب، والقويّ به سبيل الله، أي والرامى به فى سبيل الله**»[٤].

ورُوي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[٥].

---

(١) الأمواق: جمع موق (بالضم) وهو خف غليظ يلبس فوق الخف.

(٢) مطابقين، أي لبس أحدهما فوق الآخر.

(٣) رماة الحدق: أى المهرة فى النضال.

(٤) رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين ورواه أبو داود عن عقبة بن عامر وقال الألباني ضعيف/انظر ضعيف الترمذي [١٧٠٣] وانظر ضعيف أبي داود [٢٥١٣]. ويغني عنه قوله ﷺ «**كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امراته. وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة**» رواه النسائي عن جابر بن عبدالله «ومر النبي ﷺ بنفر يرمون فقال: رمياً بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً» أخرجه ابن ماجه وأحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم انظر الصحيحة ١٤٣٩.
وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول ﷺ «**ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله. فلايعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه**». وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى**». انظر صحيح مسلم/كتاب الإمارة ـ باب فضل الرمي والحث عليه.

(٥) رواه مسلم بنحوه / كتاب الإمارة/باب فضل الرمي والحث عليه [١٩١٧].

وكان أرمى أصحاب رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص، لأن رسول الله ﷺ دعا له، فقال: «**اللهم سدِّد رميته، وأجب دعوته**»(١) فكان لايرد له دعاء، ولايخيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله ﷺ جاءهم وهم يرمون ببُطْحان (٢) فقال رسول الله ﷺ: «**ارموا يابني إسماعيل، فقد كان أبوكم رامياً، وأنا مع ابن الأدرع**»(٣) فتعدى القوم فقالوا: يارسول الله، من كنت معه فقد نضل(٤). قال رسول الله ﷺ: «**ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل**»(٥).

وقال عمر: ائتزروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الرُّكُب(٦)، وانزوا على الخيل نَزْوا، وعليكم بالمعدِّية ـ أو قال بالعربية ـ ودعوا التنعم وزيّ العجم

وقال أيضا: لن تخور قواكم مانزوتم ونزعتم. يعنى نزوتم على ظهور الخيل، ونزعتم بالقِسيِّ.

وجنى قوم من أهل اليمامة جناية، فأرسل السلطان إليهم جنداً من محارِبة ابن زياد(٧). فقام رجل من أهل البادية يذمِّر أصحابه، فقال: يامعشر العرب، ويابني المحصنات. قاتلوا على أحسابكم وأنسابكم، فو الله إن ظهر هؤلاء عليكم لايدعون بها لبنة حمراء، ولانخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، ولااعتراكم من نُشّاب معهم

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة [١٤٠٨] وموسى بن عقبة والحديث ضعيف، وكون سعد رضي الله عنه مستجاب الدعوة أمر معلوم وفي سنن الترمذي [٣٧٥١] بسند صحيح «**اللهم استجب له إذا دعاك**» يعني سعداً.

(٢) بطحان (بالضم أو بالفتح وكسر الطاء): موضع بالمدينة

(٣) ابن الأدرع: اسمه محجن. وقيل: سلمة والأدرع لقب.

(٤) نضل: غلب في المناضلة، وهي المراماة.

(٥) رواه البخاري بنحوه/كتاب الجهاد ـ باب التحريض على الرمي

(٦) الركب (ككتب): جمع ركاب.

(٧) ابن زياد: هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه.

فى جعاب كأنهار أُيور الفِيَلة، ينزعون فى قِسيّ كأنها الغُبُط، تَئِطّ إحداهن أطيط الزُّرْنوق[١]، يَمْعط[٢] أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبطئيه، ثم يرسل نشابة كأنها رشاء منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينه أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبهم، فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدى ووزراؤه، ومادار بينهم من تدبير الرأي فى حرب خُراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة، على أن نكثوا بيعتهم ونقضوا موثقهم، وطردوا العمال، والتواوْا بما عليهم من الخراج، وحمل المهدى مايحب من مصلحتهم، ويكره من عنتهم، على أن أقال عثرتهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولاً بالفضل، واتساعاً بالعفو، وأخذا بالحجة، ورفقا بالسياسة. ولذلك لم يزل، منذ حمّله الله أعباء الخلافة، وقلده أمور الرعية، رفيقا بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه؛ باسطا للمَعْدِلَة فى رعيته، تسكن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه. فإذا وقعت الأقضية اللازمة، والحقوقُ الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولامداهنة، أثرةً للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزم. فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه، والثقةُ بعفوه، أن كسروا الخراج، وطردوا العمال، وسألوا ماليس لهم من الحق. ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومه بإقرار، وتنصُّلاً باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه، وبعث إلى نفر من لُحْمته[٣] ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية، ثم أمر الموالى بالابتداء، وقال للعباس بن محمد[٤]: أيْ: عم؛ تعقّب قولنا،

---

(١) الزرنوق: واحد الزرنوقين، وهما منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليها خشبة تعرض عليهما ثم تعلق فيها البكرة فيستقي بها.

(٢) معط الرامي فى قوسه: أغرق فى مدها.

(٣) لحمته: قرابته

(٤) هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، أخو المنصور.

وكُن حكـما بيننا. وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمرَ، وشاركهما فى الرأي، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم فى كتاب.

فقال سلّام صاحب دار المظالم: أيها المهدي، إن فى كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعُرفت بهم. ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية وطلبت معـونتنـا عليهـا، أقـوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفرسان الهـزاهـز[1] وإخـوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رشحتهم سجالُها، وفيّأتهم ظلالُهـا، وعضّتهم شدائدُها، وقرمتهم نواجذُها. فو عجمت ماقِبَلهم، وكشعت ماعنـدهم، لوجـدت نظائـر تؤيدُ أمـرك، وتجاربَ توافق نظرك، وأحاديث تُقويّ قلبك. فأما نحن، معاشر عمالك، وأصحاب دواوينك، فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بِثِقْل ماحمّلتنا من عملك، واستودعتنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حُكمك، وإظهار حقّك.

فأجابه المهدي: إن فى كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفى كل حال تدبيراً، يبطل الآخر الأولَ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نعم، أيهـا المهـدي، أنت متسع الرأى، وثيق العُقدة، قويّ المُنّة، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الرويّة، مؤيَّد البديهة مُوفّق العزيمة، مُعانٌ بالظّفَر، مهديّ إلى الخير. إن هممتَ ففى عزمك مواقعُ الظنِّ، وإن أجمعت صَدَعَ فعلُك ملتبسَ الشك. فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقُلْ يُنطِق الله بالحق لسانك؛ فإن جنودك جَمّة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابة المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومِفتاحا بركة، لايَهْلِك عليهما رأي، ولايتفيّل[2] معهـما حزم، فأشـيروا برأيكم، وقـولـوا بما يحضركم فإنى من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الـربيع: أيها المهدى، إن تصاريف وجوه الرأى كثيرة وإن الإشارة ببعض

---

(١) الهزاهز: الفتن والحروب. (٢) لايتفيل: لايضعف.

معاريض القول [١] يسيرة. ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشُّقّة، متفاوتة السُّبُل. فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومُبرم التقدير، ولُباب الصواب، رأيا قد أحكمه نظرُك، وقلّبه تدبيرك، فليس وراءه مذهبٌ لحُجَّة طاعن، ولادونه معلق لخصومة عائب؛ ثم خبَّت البُرُد [٢] به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحري أن لايصل إليهم محكمه، إلا وقد حدث منهم ماينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وتَرِدَ عليك الكتب، بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم، فتحدث رأيا غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحِلَق وتحلَّلت العُقَد، واسترخى الحقاب [٣] وامتد الزمان ثم لعلَّما موقع الأخرة كمصدر الأولي. ولكن الرأي لك أيها المهدي ـ وفقك الله ـ أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفكر، فيما جمعتنا له، واستشرتنا فيه، من التدبير لحربهم، والحِيَل فى أمرهم، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوىً فى سواك، ولامتهما فى أثرة عليك، ولاظنينا [٤] على دُخلة مكروهة، ولامنسوبا إلى بدعة محظورة، فيقدح فى ملكك، ويُرَبِّض [٥] الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره فى عهدك ووصيتك إياه، بلزوم أمرك مالزمه الحزم؛ وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى، عند استحالة الأمور، واستدارة الأحوال، التى يُنْقَض أمر الغائب عنها، ويثبُت رأى الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فواثب أمرهم من قريب، وسقط عنه مايأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل، وأُحِدّ النظر. إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدى، إن وليّ الأمور وسائس الحروب، ربما جنّد جنوده، وفرّق أمواله فى غير ماضيق أمر حَزَبه [٦]، ولاضغطة حالٍ اضطرته،

---

(١) معاريض القول: ماعرض به ولم يصرح، وهي التورية عن الشيء بالشيء.

(٢) خبت: أسرعت. والبرد: جمع بريد، وهو الرسول.

(٣) الحقاب: شيء تعلق به المرأة الحلي وتشده فى وسطها.

(٤) الظنين: المتهم.

(٥) يربض: يثبت.

(٦) حزبه: اشتد عليه.

فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها، عديماً منها، فاقداً لها، لايثق بقوة، ولايصول بعُدّة، ولايفرع إلى ثقة. فالرأى لك أيها المهدي ـ وفقك الله ـ أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغرير القتال، ولاتُسرع للقومِ فى الإجابة إلى مايطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدبهم، وتجرِّيء من رعيتك غيرهم. ولكن اغْزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم، وأرعد نحوهم بالفعل، وابعث البعوث، وجنّد الجنود، وكتّب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش، مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم. ثم ادسس الرسل وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك. وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، وأغرض أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوى الصدور على البغضة، ويدخل كلا من كل الحذر والهيبة، فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحِيلة، والمناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل فى القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي يستلب العقول، ويسترق القلوب؛ ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة[1]، أنفذ من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح. كما أن الوالى الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكم عملاً، وألطف نظراً. وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، وإتلاف الأموال، والتغرير والخطار. وليعلم المهدي ـ وفقه الله ـ أنه إن وجّه لقتالهم رجلا، لم يسرِ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صعبة، وأموال متفرقة، وقُوّاد غششة، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون،

---

(١) المواتاة: الموافقة.

وتجسد حقه فى القلوب. ولكن فوق كل ذى علم عليم. ثم نظر إلى ابنه على، فقال: ماتقول؟

قال علىّ: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدح فى تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أذل؛ لأن الله مع حقه الذى لايخذله، وعند موعده الذى لا يخلفه. ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أجبت إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة[1] الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغرير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاح خليقتك، ومعدلة نظرك. فأمِنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دُرْبة. وإن منعتهم ماطلبوا، ولم تجبهم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم فى ميدان الخطاب. فما أربُ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مذعنين طاعته، لايخرجون أنفسهم عن قدرته، ولايبرئونها من عبوديته، فملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء فى جِدِّ المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي ـ وفقه الله ـ الأموال؟ فلعمري لايناها ولايظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف مايدعي قِبَلهم. ولو نالها فحملت إليه، ووضعت بخرائطها[2] بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان ذلك مما إليه ينسب، وبه يعرف من الجود الذى طبعه الله عليه؛ وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد فى أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود،

---

(١) نائرة الحرب: مااشتعل منها واتقد.

(٢) الخرائط: جمع خريطة، وهو وعاء من أدم وغيره يشرج على مافيه.

وأنطقوا لسان الإرجاف[١] وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم. فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين فى الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، ولإقالة عثرتهم صفحه، واستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه، ولا مستنكرا من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لايتعاظمه عفو، ولايتكاءده[٢] صفح، وإن عظم الذنب، وجل الخطب. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله تعالى ـ أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم، وضيعة عيالاتهم، بَرًا بهم وتوسعا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول. وإنما مَثَلُهُم فيما دخلوا فيه من مساخطه، وتعرضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومَثَلُه فى قلة ماغير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته عليهم كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازرين، أصاب أحدهما خبل عارض، ولم حادث، فنهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له، ولطفاً به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبراً به، ومرحمةً له.

فقال المهدى: أما عليّ فقد نوى سمت الليان، وفض القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبإ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ماترى ياأبا محمد؟ يعنى موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لاتسكن إلى حلاوة مايجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. الحال من القوم تنادى بمضمرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه ستراً، واتخذوا العلل من دونها حجاباً، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر

---

(١) الإرجاف: الخوض فى أخبار الفتن لإيقاع الاضطراب فى الناس

(٢) يتكاءده: يشق عليه.

الأمور بهم. والمهدي من قولهم فى حال غرة ولباس أمنة قد فَتَر لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا مااجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاة، وغِبّ سكون الأمور. فليشدُد المهدي ـ وفقه الله ـ أزره لهم، ويُكتِّب كتائبه نحوهم، وليضع الأمرَ على أشدّ مايحضُره فيهم، وليُوقن أنه لايعطيهم خُطّة يُريد بها صلاحَهم، إلا كانت دُربةً لفسادهم، وقُوةً من معصيتهم، وداعيةً إلى عودتهم، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرَّهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب، لم يبرح فى فتق حادث، وخلاف حاضر، لايصلح عليه دين، ولاتستقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدُّربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفرطة، والمئونة الشديدة. والرأى للمهدي ـ وفقه الله ـ أن لا يُقيل عثرتهم، ولايقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف، ويستحر بهم القتل، ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل. فإن فعل المهدي بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدى : قد قال القوم، فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدى، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها، لأنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لاتنفق، والجنود أن لاتفرق، وبأن لايعطى القوم ماطلبوا، ولايبذل لهم ماسألوا، وجاء بأمر بين ذلك، استصغاراً لأمرهم، واستهانة بحربهم، وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علىّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جرد الوالى لمن غمط أمره، وسفه حقه اللين بحتا، والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينة ولابشَرٍّ

يَحيشُهم[١] إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعذرهم[٢]، ووسع لهم الفرجة لثنى أعناقهم. فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم، ولاشدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة فى نفوسهم، ونَزْوة فى رءوسهم، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويصرفون بها رأى المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته، باللين المحض، والخير الصراح، فذلك ماعليه الظن بهم، والرأى فيهم، وماقد يُشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير، ما لا يخطر على قلب بشر، ولاتدركه الفكر، ولا تعلمه نفس، ثم دعا الناس إليها، ورغبهم فيها. فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولاقبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا[٣] بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لاخير معه. وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجردا، ليس معها طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه، ويذعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: فى قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه

---

(١) يحيشهم: أي يفزعهم

(٢) العذر (بضمتين) جمع عذار؛ وهو من اللجام ماسال على خد الفرس.

(٣) عصب الشيء: لواه وشده.

البعوث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل .

قال المهدي : ذلك رأى .

قال هارون : خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ماتحب، ولكنى أرى غير ذلك . ،

قال المهدى : لقد قلت قولاً بديعاً . خالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال : وظنين بما ادَّعى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة؛ فاخرج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدى، إن الحرب خُدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن مايسرون على ظاهر مايعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخولة لاتعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدَّم[1] يده، وموضع ميسمه[2]، لايتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء . فالرأى للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يفرَّ[3] باطن أمرهم فرَّ المُسِنَّة، ويَمْخَضُ ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتك حجب غيوبهم، وتكشف أغطية أمورهم ، فإن انكشفت الحال له، وأفضت الأمور به، إلى تغيير حال، أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لاعفو معها. وإن انفرجت الغيوب، واهتصرت الستور، ورفعت

---

(١) مقدم يده، أى الموضع الذى يقدم الطبيب فيه يده من المريض.

(٢) الميسم : المكواة.

(٣) يفر: يختبر

الحجب، والحال فيهم مريعة [١]، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظُلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بماتّة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ماصدعوا، ويرتق من فتقهم مافتقوا، ويولي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم، فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعى الحدب، الذى يحتال لمرابض غنمه، وضوال رعيته. حتى يبرئ المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، وماتّة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدى الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلُظ، أحزم في الرأى. وأصح فى التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمعَ أطرافُها إلى جمهورها.

قال المهدي: مازال هارون يقع وَقْعَ الحيا، حتى خرج خروج القِدَح مما قال، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى. فدعوا ماقد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنّى بعده هارون. ولكن من لأعنّة الخيل، وسِياسة الحرب، وقادة الناس، إن أمعن بهم اللّجاج، وأفرطت بهم الدالة؟

قال صالح: لسنا نبلُغ أيها المهدي بدوام البحث، وطول الفِكر، أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك، وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل، ورأى كامل، وتدبير قويّ، تُقلده حربَك،

---

(١) مريعة، أى موفورة الرزق مخصبة؛ يقال: مرع الوادي (من باب كرم)، أى أخصب بكثرة الكلأ، فهو مريع.

وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولايقف نظرك، على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله منه ماتحب، وجمع لك منه ماتريد.

قال المهدي: إنى لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار بالمشاورة فى الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان، أيها المهدي، قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذلهم، لأنهم بين سِفلة لايعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لايُلجمون إلا بالشدة، ولايُفطمون إلا بالقهر. وإن ولى المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء، وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخر المهديُّ أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم [١]، بلا أنفة تلزمهم، ولاحمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدَّ، ولايستصلحه، وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي ـ وفقه الله ـ فاطماً عاداتهم، ولاقارعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لاثالث لهما، ولاعدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق، موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لاتزعزع، وبُهْمة لايُثْنىٰ، وبازل [٢] لايفزعه صوت الجُلْجَل؛ تقيّ العرض، نزيه النفس، جليل

(١) أملاؤهم: جماعاتهم، الواحد: ملأ.

(٢) البازل: الجمل فى السنة التاسعة. ويطلق على الرجل الكامل فى تجربته.

الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته ؛ فجعل الغرض الأقصى لعينه نصبا ، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً ، فليس يغفل عملا ، ولايتعدى أملا ، وهو رأس مواليك ، وأنصح بني أبيك ، رجل قد غُذّي بلطيف كرامتك ، ونبت في ظل دولتك ، ونشأ على قويم أدبك . فإن قلدته أمرهم ، وحمّلته ثقلهم ، وأسندت إليه ثغرهم ، كان قفلا فتحه أمرك ، وباباً أغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكما . وإذا حكم النصفة ، وسلك المعدلة ، فأعطاهم مالهم ، وأخذ منهم ماعليهم ، غرس لك في الذى بين صدورهم ، وأسكن لك فى السويداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق ، باسقة الفروع ، متمثلة في حواشى عوامهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ، فلايبقى فيهم ريب إلا نفوه ، ولايلزمهم حق إلا أدوه ، وهذا أحدهما . والآخر عود من غيضتك ، ونبعة من أرومتك ، فتيّ السن ، كهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف ، يجرد فيهم سيفه ، ويبسط عليهم خيره ، بقدر مايستحقون ، وعلى حسب مايستوجبون ، وهو فلان أيها المهدي . فسلطه ـ أعزك الله ـ عليهم ، ووجهه بالجيوش إليهم ، ولاتمنعك ضراعة سنة [1] ، وحداثة مولده ، فإن الحلم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به ، من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مستحكم لكم ، متكامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله : أفتاء أهل بيتك أيها المهدى فى الحلم على ماذُكر ،

---

(١) ضراعة سنة : شبابه .

وأهل خراسان فى حال عز على ماوُصف، ولكن إن ولِّي المهدى عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولابنبيه الصوت فى الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهَيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترئون بها عليه، في النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التى يقود، والجيوش التى يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصوت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقع البوار قبل الاختبار. وبباب المهدي ـ وفقه الله ـ رجل مهيب، نبيه حنيك صيِّت، له نسب زاك، وصوت عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألَّف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالمِقّة[1]، ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدى: جانبت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية، إذ رأيُ الحدث من أهل بيتنا، كرأي عشرة حلماء من غيرنا. ولكن أين تركتم وليَّ العهد؟ قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونُه شَبيهَ جَدّه، ونسيجَ وَحْده، ومن الدِّين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله. ولكن وجدنا الله عزوجل قد حجب عن خلقه، وستر من دون عباده، عِلْمَ ماتختلف به الأيام، ومعرفة ماتجرى به المقادير، من حوادث الأمور، وريب المنون، المخترمة[2] لخوالي القرون، ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه[3] عن محلّة المُلك، ودار السلطان، ومقرّ الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود، وموضع الوجوه، ومجمع الأموال،

---

(١) المقة: الحب.

(٢) المخترمة: المهلكة.

(٣) شسوعه: بعده.

التى جعلها الله عزوجل قطباً لمدار الملك، ومصيدة لقلوب لناس، ومثابة لإخوان الطمع، وثوّار الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، وأبناء المروق. وقلنا إن وجّه المهدي وليّ عهده، فحدث فى جيوشه وجنوده ماقد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يُعقبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم، وهول شديد، إن تنفّست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عَرَض لايُستغنى فيه، أو يحدث أمر لابد فيه منه، صار مابعده، مما هو أعظم هَوْلاً وأجل خطراً، له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر ما تذهبون إليه وعلى غير ماتصفون الأمر عليه. نحن ـ أهل البيت ـ نجري من أسباب القضايا، ومواقع الأمور، على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهىَ ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره عندنا، فيه نُدبِّر وعلى الله نتوكل. إنه لابد لوليّ عهدي، وولي عهد عقبي من بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدِّم إليهم رسله، ويعمل فيهم حِيَله، ثم يخرج نَشِطاً إليهم حَنِقاً عليهم يريد أن لايدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، إلا توطّأه بحرّ القتل، وألبسه قِناع القهر، وطوّقه طَوْق الذُّل؛ ولاأحداً من الذين عملوا فى قصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاة الحق، إلا أجرى عليهم دِيَم فَضْله، وجداول بذله. فإذا خرج مُزْمِعاً له مُجْمِعاً عليه، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله. وكدحت كتبه، ونفذت مكايده؛ فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائرة الأهواء [1] واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبرًّا بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد

(١) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكنت ثائرتها.

أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حُجّاجهم بيت الله الحرام، وسلب تُجّارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء مايطلبون، وبذل مايسألون، فإذا سمت الفرق بقرانها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت[1] بطاعتها، وألقت بأزمّتها، فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته وخصّها بعظيم حبائه، ثم عمّ الجماعة بالمعدلة، وتعطّف عليهم بالرحمة. فلاتبقي فيهم ناحية دانية، ولافرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضيعها، وزاد رفيعها، ماخلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخفّ بدعوته، وتُبطىء عن إجابته، وتتثاقل عن حقّه، فتكون آخر من يبعث، وابطأ من يُوجّه فيضطمر[2] عليها مَوْجدة، ويبتغى لها علّة، لايلبث أن يجدها بحق يلزمهم، وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرّ فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبُّع، حتى يُخرّب البلاد، ويُؤتم الأولاد وناحيةً لايبسط لهم أماناً، ولايقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفُرقة، وتدرَّع جلباب الفِتنة، وربض فى شقّ العصا. ولكنه يَقتُل أعلامهم، ويأسر قُوّادهم، ويطلب هُرّابهم، فى لُجج البحار، وقُلل الجبال، وخَمَر[3] الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامَىٰ. وهذا أمر لانعرف له فى كتبنا وقتاً، ولانصحح منه غير ماقلنا تفسيراً.

---

(١) بخعت بطاعتها: أقرت بها.

(٢) يضطمر، أى يضمر فى نفسه ويخفي.

(٣) الخمر (بفتحتين): ماواراك من شجر؛ تقول: توارى الصيد مني فى خمر الوادي.

وأما موسىٰ ولي عهدي، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان، وحُلوله بجرجان، وماقضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خيرٌ للمسلمين مغبّة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمر فى لجج بُحورنا، ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب[1] مشرق نوره، ويُتقلّل كثير ماهو كائن منه. فمن يصحبه من الوزراء، ومن يختار له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملّتك علما قد تثنّت نحوه أعناقُها، ومُدَّت سَمْته أبصارها. وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك: عُطْلَ الحال، غُفْلَ الأمر، واسع العذر. فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة، وأمراء الأمة، أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله، فى برّه ومَرْحمته، وإقساطه ومَعْدَلته، وتدبيره، وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ماسبق إليهم، أغلب الأشياء عليهم، وأملك الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدها استمالة لرأيهم، وعطفاً لأهوائهم، فلايفتأ المهدي ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يقوِّي عَمَد مملكته ويُسدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أُمته، بأمرٍ هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مَغبَّة لأمره، وأجلّ موقعاً فى قلوب رعيته، وأحمدُ حالاً فى نفوس أهل مِلّته. ولاأوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر من أثره، ومحبة للخير وأهله. وأن يختار المهديُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذُكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تُسهل لهم عِمارة سُبل الإحسان، وفَتْح باب المعروف، كما قد كان فُتح له وسُهِّل عليه.

قال المهديُّ: صدقتَ ونصحتَ. ثم بعث في ابنه موسىٰ[2] فقال: أى بُنيّ، إنك

---

(١) يتذأب: يضطرب. (٢) بعث في ابنه: أي فى طلب ابنه.

قد أصبحت لسَمْت عيون العامة نُصْباً، ولمثنى أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتُك نامية وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله عزوجل وطاعته، فاحتمل سُخط الناس فيهما، ولاتطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عزوجل كافيك من أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رضا من سواه. ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمان عِتْرَةَ من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا لنُصرة حقِّه؛ يُجدِّد حبلَ الإسلام بدعواهم، ويُشيِّد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً، يسدون الخلل، ويقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد. وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم، ونُدافع ريب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم رُكن الدهر ببصائرهم. فهم عِماد الأرض إذا أُرْجِفت كُنُفها وحُتوف الأعداء إذا برزت صَفْحتُها، وحُصون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخمدت نيران الفتن، وقصمت دواعى البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا، التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسى، وجهد البأس والضُرّ. فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالّتهم، ومـاتّة سابقتهم، وحُرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسّن بذلك لربِّك، وتزين به فى عين رعيتك، واجعل عُمّال القَدْر، وولاةَ الحُجج مُقدّمة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت، هؤلاء عمال القدر

وولاة الحجج. فلا يضيعن عليك مافي ذلك ـ إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع ـ من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور. ولاينفكن في ظل كرامتك نازلا، وبعُرَىٰ حبلك متعلقاً، رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقلب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك؛ وتحلية ذكرك، فتسْتشيره في حربك، وتُدخله في أمرك؛ فرجل أصبتَه كذلك فهو يأوي إلى محلتي، ويرعى في خضرة جناني: ولاتدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواماً يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك؛ وهادياً ينطق بالحق لسانك.

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد [١]

باب في مداراة العدو

في كتاب الهند: إن العدو الشديد الذى لاتقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخضوع له، كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها.

وقالوا: ازفن[٢] للقرد في دولته.

---

(١) تذكر المصادر أن وفاة المهدي في ٢٢/١/١٦٩هـ انظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣١٥ وانظر ابن قتيبة/المعارف ص٣٨٠ ولعل التاريخ فى آخر الكتاب هو تاريخ إعلانه وليس تاريخ كتابته والله أعلم.

(٢) ازفن: ارقص.

أخذه الشاعر فقال:

لاتعبدن صنماً فى فاقة وازفِنْ بلا حرج للقرد فى زمنه

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها.

وقال سابق البلويّ:

وداهن إذا ماخفت يوماً مسلطاً عليك ولن يحتال من لا يداهن

وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة [١] الفرصة عند إمكانها والانصراف عما لاسبيل إليه.

وقال الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاء عداوة غير ذى حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ويرتع منك فى عرض مصون

التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولاتطمئن إليه، وكن أشد ماتكون حذراً منه ألطف مايكون مداخلة لك. فإنها السلامة من العدو بتباعدك منه، وانقباضك عنه؛ وعند الأنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.

وقالوا: لاتطمئن إلى العدو إن أبدى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه، وخفض لك جناحه، فإنه يتربص بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولايرتجى صلاحاً إلا في فسادك، ولارفعة إلا بسقوط جاهك.

كما قال الأخطل:

بنى أمية إنى ناصحٌ لكُم فلا يبيتنّ فيكم آمناً زُفِرُ [٢]
وأتخِذوه عدُوّاً إنّ شاهدَه وما تَغَيَّب من أخلاقه دَعَرُ [٣]

---

(١) المغافصة: المفاجأة والأخذ على غرة.

(٢) هو زفر بن الحارث بن كلاب الكلابي، أخو بني نفيل بن عمرو بن كلاب.

(٣) الدعر: الفساد

إن الضغينــةَ تلقـاهــا وإن قَدُمت كالعُرّ[١] يكمُـن حينـاً ثم يَنْتَشِرُ

وفى كتـاب الهنـد: الحـازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والمعاودة إن بعد: والكمين إن انكشف، والاستطراد إن وَلّى، والكَرّة إن فر

وأوصىٰ بعض الحكماء ملكا فقال: لايكونن العدو الذى كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذى يستتر لك بمُخاتلته، فإنه ربما تخوف الرجل السّمَّ الذى هو أقتل الأشياء، وقتله الماء الذى هو محيي الأشياء؛ وربما تخوّف أن تقتله الملوك التى تملكه، ثم تقتله العبيد التى يملكها.

ولم يقل أحد فى العدو المندمل على العداوة؛ مثل قول الأخطل:

إن الضـغينــة تلقاهـا وإن قدمـت كالعُــرِّ يكمـن حينـاً ثم ينتشــر

وقد أشار الحسن بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

وابــن عـــم لا يكاشفنـا قــد لبسنــاه على غمــره[٢]
كَمُـــن الشنـآن فيــه لنا ككمـــون النــار فى حجــره[٣]

وشبهواالعدو إذا كان هذا فعله بالحية المطرقة. قال ابن أخت تأبط شرًّا:

مطــرق يرشــح موتــاً[٤] كما أطـرق أفعـى ينفث السّمّ صلّ

وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية ـ ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ: مالى أراك تطرق إطراق الأفعوان فى أصول السَّخبر؟

وفى كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعلة ألجأته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة، كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً: والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لم تثمر إلا مرًّا.

---

(١) العر: الجرب.

(٢) الغمر: الحقد.

(٣) يريد حجر القادح.

(٤) الرشح: العرق. والنفث كالقذف. والصل: من صفة الأفعى؛ وكل خبيث يقال له: صل أصلا.

وقال دريد بن الصمة:

وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح

وقال زهير:

وما يكُ فى صديق أو عدُوٍّ تُخْبِرَكَ العيونُ عن القلوبِ

وقيل لزياد: ماالسرور؟ قال: من طال فى العافية والكفاية عمره، حتى يرى فِي عدوه مايسره.

obeikandl.com

فرش كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد

قال الفقيه أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب ومايدخلها من النقص والكمال، وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد، والعدة والعدد. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد[١]، إذ كان أشرف ملابس الدنيا، وأزين حللها، وأجلبها لحمد، وأدفعها لذم، وأسترها لعيب، كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري، والجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمىٰ بها، فهو الكريم عزوجل. ومن كان كريما من خَلْقه، فقد تسمى باسمه، واحتذى على صفته.

وقال النبى ﷺ: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[٢].

وفي الحديث المأثور: «**الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله**»[٣].

وقال الحسن والحسين رضى الله عنهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت فى بذل المال. قال: بأبي وأمي أنتما، إن الله قد عودني أن يتفضل علي، وعودته أن أتفضل

---

(١) الأصفاد: جمع صفد (بالتحريك) وهو العطاء.

(٢) قال المناوي: قال الذهبي في مختصر المدخل طرقه كلها ضعيفه وله شاهد مرسل، وحكم ابن الجوزي بوضعه وتعقبه العراقي ثم تلميذه ابن حجر بأنه ضعيف لا موضوع. انظر فيض القدير [٣٤٥]. وقال السخاوي بعد أن ذكر طرق الحديث: «وبهذه الطرق يقوى الحديث» المقاصد الحسنة [٥٠] وانظر العجلوني/ كشف الخفا [١٨٠] والصحيحة [١٢٠٥].

(٣) رواه أبو يعلى والبزار عن أنس ورواه الطبراني عن ابن مسعود وأشار المناوي في فيض القدير (٣/٥٠٥) إلى أنه لايصح.

على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني.

وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبي: أنت مِتلاف. قال: منع الجود سوء ظن المعبود. يقول الله عزوجل: ﴿ **وماأنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾[١].

وقال النبى ﷺ: أنفق بلال ولاتخش من ذي العرش إقلالا[٢].

مدح الكرم وذم البخل

قال النبي ﷺ: «**اصطناع المعروف يقي مصارع السوء**»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها**»[٤].

وقال النبي ـ ﷺ ـ لقوم من العرب: «**من سيدكم**»؟ قالوا: الجد بن قيس على بخل فيه. فقال ﷺ: «**وأى داء أدوى من البخل**»؟[٥]

يقول الله تعالى: ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[٦]

وقال أكثم بن صيفى حكيم العرب: ذللوا أخلاقكم للمطالب: وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولاتقيموا على خلق تذمونه من غيركم، وصلوا من رغب

---

(١) سورة سبأ أية رقم ٣٩

(٢) رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ورواه الطبراني فى الكبير عن ابن مسعود وصححه الألباني انظر المشكاة [١٨٨٥] وصحيح الترغيب [٩٣٣] وصحيح الجامع الصغير [١٥١٢].

(٣) رواه الحاكم عن أنس بلفظ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء**» قال الألباني: صحيح انظر صحيح الجامع [٣٦٩١].

(٤) رواه البيهقي عن طلحة بن عبيد الله بلفظ «**إن الله تعالى جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها**» وقال الألباني صحيح انظر الصحيحة [١٦٢٧] وصحيح الجامع [١٧٤٠].

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ٣/ ٣٤٢.

(٦) سورة الحشر آية رقم ٩.

إليكم، وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة، ولاتقتعدوا [١] البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال:

أمن خوف فقر تعجَّلته وأخَّرتَ إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغنيُّ وما كنت تعدو الذى تصنع

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر. فرد عليه: ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** ﴾ [٢] وإنى أكره أن أترك أمراً قد وقع لأمر لعله لا يقع.

وكان خالد بن عبد الله القسرى يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف، فإن الله لايعدم فاعله جوازيه. وماضعفت الناس عن أدائه، قوي الله على جزائه.

وأخذه من قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه [٣] لا يذهب العرف بين الله والناس

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: من رزقه الله رزقا حسناً فلينفق منه سرًّا وجهراً، حتى يكون أسعد الناس به، فإنما يترك مايترك لأحد رجلين إما لمصلح فلايقل عليه شيء، وإما لمفسد فلا يبقىٰ له شيء.

أخذه الشاعر فقال:

أسعد بما لك فى الحياة فإنما يبقى خلافك مصلح أو مفسد
فإذا جمعت لمفسد لم يغنه وأخو الصلاح قليله يتزيد

وقال أبو ذر رضى الله عنه: إن لك فى مالك شريكين: الحدثان والوارث، فإن استطعت ألا تكون أبخس الشركاء حظّاً فافعل. [٤]

---

(١) لاتقتعدوا البخل: لاتتخذوه مطية.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٨

(٣) جوازيه جمع جاز، أى لايعدم جزاء عليه.

(٤) أورده ابن قتيبة مع بعض الاختلاف. انظر عيون الأخبار ج٣ ص٢٠١.

وقال محمود الوراق :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظن المرء بالله

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان، فقال لي : إما أن تحملني وإما أن أحملك. ففهمت ماأراد، فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصارى[1] :

فأوصيكم بالله أول وهلة وأحسابكم، والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهُمُ وإن كنتمُ أهل السيادة فاعدلوا
وإن أنتمُ أعوزتمُ فتعففوا وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا

فأمر لى بعشرين الفاً

وقال عبد الله بن عباس: سادات الناس فى الدنيا الأسخياء، وفى الآخرة الأتقياء.

وقال أبو مسلم الخولا ني: ماشيء أحسن من المعروف إلا ثوابه. وما كل من قدر على المعروف كانت له نية. فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة، وأنشد :

إن المكارم كلها حَسَنٌ والبذل أحسن ذلك الحسنِ
كم عارف بي لست أعرفه ومُخبّر عني ولم يرني
يأتيهم خبرى وإن بعدت دارى بُوعِد عنهم وطني
إني لِحُرِّ المال ممتهن ولِحُرِّ عرضي غير ممتهنِ

وقال عمرو بن العاص: والله لرجل ذكرني، ينام على شقة مرة وعلى شقة أخرى، يراني موضعاً لحاجته، لأوجب عليَّ حقاً إذا سألنيها مني إذا قضيتها له.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع مَعْروفي عنده، فيَدُهُ عندي أعظم من يدي عنده. وأنشد لابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجعت الفتىٰ وأعمل فكر الليل و الليلُ عاكِرُ

---

(١) هو أبو قيس صرمة بن أبى أنس بن صرمة، من بنى النجار. وكان قد ترهب فى الجاهلية وفارق الأوثان، حتى قدم على الرسول ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

وباكرنى فى حاجة لم يكن لها سوايَ ولامن نكبةِ الدهرِ ناصرُ
فرجت بمالي همّــه عن خناقه وزايله الهمُّ الطَّروق المُساور
وكان له فضلٌ عليَّ بظنّه بيَ الخيرَ إنّي للذى ظَنَّ شاكرُ

وقيل لأبى عُقيل البليغ العِراقيّ: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته فى الإنعام فوق رغبته فى الشكر، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة.

أخذه بشار فنظمه فقال:

مالكيُّ ينشقّ عن وجهه الجَدْ بُ كما انشقّت الدُجَى عن ضياءِ
ليس يُعطيك للرجــاء ولا الخَوْ فِ ولكـن يلذّ طَعْـمَ العطاءِ

وقال زياد: كفَىٰ بالبخلِ عاراً أنَّ اسمه لم يقع فى حمد قطّ، وكفىٰ بالجود فخراً أن اسمه لم يقع فى ذم قط.

وقال آخر:

لقد علمْتِ وقد قطّعتنى عذلا ماذا من الفضل بين البخل والجود
إلّا يَكُن وَرَقٌ يوماً أراح به للخابطين فإنى لَيِّنُ العُودِ
لايعدم السائلون الخيرَ أفعله إما نوالاً وإما حُسْــنَ مَرْدودِ

قوله: «إلا يكن ورق» يريد المال، وضربه مثلا. ويقال: أتى فلان [فلاناً] يختبط ماعنده. والاختباط: ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائمة، فجعل طالب الرزق مثل الخابط.

وقال أسماء بن خارجة: ماأُحبّ أن أرد أحداً عن حاجة طلبها. لأنه لايخلو أن يكون كريماً فأصون له عِرْضَه، أو لئيما فأصون عرضي منه.

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف

قال النبي ﷺ: «**إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه، فانظروا مايتبعه من حسن الثناء**»(١).

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقيل لبعض الحكماء: ماأفادك الدهرُ؟ قال: العلم به، قيل: فما أحمد الأشياء؟ قال: أن تبقى للإنسان أُحدوثة حسنة.

وقال بعضُ أهل التفسير في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**واجعل لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين**﴾(٢) إنه أراد حسن الثناء من بعده.

وقال أكثم بن صيفيّ: إنما أنتم أخبار، فَطَيِّبوا أخباركم.

أخذ هذا المعنى حبيب الطائى فقال:

وما ابن آدم إلا ذِكْرُ صالحةٍ ... أو ذكر سيئة يَسْرِي بها الكلمُ
أمَا سَمِعتَ بدهر بادَ أُمَّتُهُ ... جاءت بأخبارها من بعدها أُمَمُ

وقال أبو بكر محمد بن دريد:

وإنما المرء حديثٌ بعدَه ... فكُنْ حديثاً حسناً لمن وَعَى

وقالوا: الأيام مزارع فما زرعت فيها حصدته.

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق:

يا من تَجَلَّد للزما ... ن أما زمانك منك أَجْلَدْ
سَلِّط نُهاك على هَوا ... ك وعُدّ يومَك ليس من غَدْ
إن الحياةَ مزارعٌ ... فازرع بها ما شئت تَحْصُدْ

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه عن علي وفيه عبدالله بن سلمة متروك ورواه مالك عن كعب الأحبار موقوفاً. قاله المناوي في فيض القدير [٣٦٢]. وضعفه الألباني انظر الضعيفة [١٦٢٠].

(٢) سورة الشعراء آية/ ٨٤.

والنـــاس لا يَبقـــىٰ ســـوى آثارهـــم والعـــينُ تَفْقِـدْ
أو ما ســـمعتَ بمـــن مضـىٰ هذا يُـذَم وذاك يُحْمَـدْ
والمـــالُ إن أصـلحتَـــه يَصْلُـح وإن أفســدت يَفْسُـدْ
والعِلْـمُ ما وعـت الصُّـــدو ر وليس ما فى الكُتْـب تَخْلُدْ

وقال الأحنف بن قيس : ماادخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

وقالوا: تربيب المعروف أولى من اصطناعه.

وقالوا: أحْي معروفك بإماتة ذكره، وعظِّمه بالتصغير له.

وقالت الحكماء: من تمام كرم الـمُنْعِم التغافل عن حُجَّته، والإقرارُ بالفضيلة لشاكر نعمتـه.

وقالوا: للمعروف خصال ثلاث: تعجيله وستره وتيسيره، فمن أخلَّ بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه، وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: من كانت له عندي يد صالحة. قيل فإن لم تكن له؟ قال: كانت لي عنده يد صالحة.

وقال النبي ﷺ: «**من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه، فإن لم يقم بتلك المؤونة عرَّض النعمة للزوال**»(١).

ابن المبارك عن حميد (٢) عن الحسن قال: لأن أقضيَ حاجةً لأخ لي أحبُّ إليّ من عبادة سنة.

---

(١) قال العراقي: رواه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ: «**ماعظمت نعمة الله على عبد إلا . . .**» فذكره وفيه أحمد بن معدان، قال ابوحاتم مجهول والحديث باطل، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع وفيه حلبس بن محمد أحد المتروكين، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس، قال ابن عدي يُروَى من وجوه كلها محفوظة. انظر المغني عن حمل الأسفار [٣٣٠٤] وتخريج احياء علوم الدين [٣٠٤١]. والمقاصد الحسنة [٩٦٨] وفيض القدير [٧٩٤٢] وضعيف الجامع [٥١٠٨].

(٢) هو حميد الطويل بن طرخان، مولى طلحة الطلحات الخزاعي، ويكنى أبا عبيدة، مات سنة اثنتين وأربعين ومائة انظر المعارف لابن قتيبة ص٤٨١.

الجود مع الإقلال

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ فيما حكاه عن الأنصار: ﴿ويُؤثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولَئِكَ همُ المُفْلِحُونَ﴾[١].

قال عليه الصلاة والسلام: «**أفضل العطية جهد المقل**»[٢].

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير من الكثير.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه فى أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلماً:

قد بعثنا إليك أكرمك اللـ ـه بشيء فكن له ذا قبولِ
لاتَقِسْه إلى نَدَى كفك الغَمْـ ـر ولانيلك الكثير الجزيلِ
واستجِز قِلة الهديَّة منّى إنّ جُهد المُقِلِّ غيرُ قليلِ

وقالوا: جهد المقل أفضل من غنى المكثر.

وقال صريع الغوانى:

ليس السماح لمكثر في قومه لكنْ لمُقْتِر قومه المُتجَمِّد

وقال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ ماوَدِدت أن أحداً ولدتنى أمُّه إلا أُمّ جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه تَبِعْتُه ذاتَ يوم وأنا جائع، فلما بلغ البابَ التفت فرآني فقال لي: أدخل، فدخلت. ففكّر حيناً فما وجد فى بيته شيئاً إلا نِحْيا[٣] كان فيه سمن مُرّ، فأنزله من رفٍّ لهم، فشقّه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ماكان فيه من السمن والرُّبّ[٤] وهو يقول:

---

(١) سورة الحشر آية ٩.

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**أفضل الصدقة جهد المقل، وابدأ بمن تعول**». قال المناوي: رواه أبوداود في الزكاة وسكت عليه وأقره المنذري والحاكم عن أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي. انظر فيض القدير [١٢٥٩]. وصححه الألباني انظر الصحيحة [٥٦٦]. وصحيح الجامع [١١٢٣].

(٣) النحي (بالكسر): ماكان للسمن خاصة. (٤) رب السمن: ثفله الأسود.

ما كلّف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا تجـود يدٌ إلا بما تَجِدُ

وقيل لبعض الحكماء: من أجود الناس؟ قال: من جاد من قِلّة، وصان وجه السائل عن المذلّة.

وقال حمّاد عجرد[1]:

أَوْرق بخير تُؤَمَّل للجَزيل فما ... تُرْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورق العُودُ
إنَّ الكريم ليُخْفِى عن عُسْرَتَهَ ... حتى تراه غنيًّا وهو مَجْهودُ
وللبخيل على أمواله عِللٌ ... زُرْق العيون عليها أَوْجُه سُودُ
بُثَّ النوالَ ولا تَمْنَعك قِلّته ... فكُلّ ما سدَّ فقراً فهو مَحْمُودُ

وقال حاتم:

أُضاحِك ضَيفي قبل إنزال رَحْلِهِ ... ويُخْصِب عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ[2]
وماالخِصْب للأضياف أن يَكثُر القِرَىٰ ... ولكنَّما وَجْه الكريم خَصِيب

وقال عبد الملك بن مروان: ماكنت أُحب أنّ أحداً وَلَدَني من العرب إلا عُروة بن الوَرْد لقوله:

أَتَهْزأ منّي أن سَمِنتَ وأن ترى ... بجسمي مَسّ الجُوعِ والجُوعِ جاهدُ
لأني أمروٌ عافي إنائي شِرْكةٌ ... وأنت امروٌ عافى إنائِك واجدُ
أقسِّم جسمي في جُسومٍ كثيرةٍ ... واحسُوا قَراح الماءِ والماءُ باردُ

ومن أحسن ماقيل في الجود مع الإقلال، قولُ أبي تمام حبيب:

فلو لم يَكُـن فى كَفِّـه غيرُ رُوحـه ... لجادَ بها فليتـق الله سائـلُه

وقال آخر:

مَلأتُ يدي من الدُّنيا مِراراً ... وما طَمع العَوَاذلُ في اقتصادي
ولا وَجَبت عَلَيَّ زكاةُ مالٍ ... وهل تجب الزكاة على الجواد

---

(١) نسب هذا الشعر لبشار بن برد.

(٢) نسب هذا الشعر فى عيون الأخبار للخريمي.

العطية قبل السؤال

قال سعيد بن العاصي: قبح الله المعروف إن لم يكن ابتدىءَ من غير مسألة، فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه، فقلبه خائف، وفرائصه ترتعد، وجبينه يرشح؛ لايدري أيرجع بنجح الطلب، أم بسوء المنقلب، قد انتُقع لونُه، وذهب دمُّ وجهِه. اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظًّا فلا تجعل لي حظًّا في الأخرة.

وقال أكثم بن صيفيّ: كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جل.

وقال علي بن أبى طالب رضي الله عنه لأصحابه: من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة [١]

حبيب قال:

عطاؤك لايفنىٰ ويستغرق المنىٰ ... وتبقي وجوه الراغبين بهائها

وقال حبيب أيضا:

ذُلّ السؤال شجاً فى الحلق معترضُ ... من دونه شَرَق من خلفه جَرَض[٢]

ما ماءُ كفك إن جادت وإن بَخِلَتْ ... من ماء وجهي إذا أفنيته عِوَضُ

إنى بأيسر ما أدنيت منبسط ... كما بأكثر ما أقصيت منقبضُ

وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفاك حق نعمتك.

وقالوا: أكمل الخصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وسماح بلاطلب مكافأة، وحلم بغير ذل.

---

(١) نسب هذا الكلام مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه في عيون الأخبار لمطرف بن عبد الله يقوله لابن أخيه.

(٢) الجرض: الغصص.

وقالوا: السخي من كان مسروراً ببذله، متبرعاً بعطائه، لايلتمس عرض دنيا فيحبط عمله، ولاطلب مكافة فيسقط شكره، ولايكون مثله فيما أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحب للطائر، لايرد نفعها ولكن نفع نفسه.

نظر المنذر بن أبى سبرة إلى أبي الأسود الدّؤلي وعليه قميص مرقوع، فقال له: ماأصبرك على هذا القميص؟ فقال له: رب مملوك لايستطاع فراقه. فبعث إليه بتخت من ثياب. فقال أبو الأسود:

كساني ولم أستكسه فحمدته ... أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
وإن أحق الناس إن كنت شاكراً ... بشكرك من أعطاك والعرض وافر

وسأل معاوية صعصعة بن صوحان: ماالجود؟ فقال: التبرع بالمال، والعطية قبل السؤال.

ومن قولنا في هذا المعنى

كريم على العلّات جزل عطاؤه ... ينيل وإن لم يعتمد لنوالِ
وماالجود من يُعطي إذا ما سألته ... ولكن من يُعطي بغير سؤالِ

وقال بشّار العُقَيْل:

مالكيٌّ[1] ينشق عن وجهه الجَدْ ... بُ كما انشقت الدُّجىٰ عن ضياء
فثجوج السماء فيض يديه ... لقريب ونازح الدار نائي
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ... ف ولكن يَلَذُّ طعم العطاء
لا ولا أن يقال شيمته الجو ... د ولكن طبائع الآباء

وقال آخر:

إن بين السؤال والاعتذار ... خُطَّةً صَعْبةً على الأحرارِ

وقال حبيب بن أوس

لئن جحدتُك ما أوليتَ من نِعَمٍ ... إني لفي اللّؤم أمضىٰ منك فى الكرمِ
أنسَىٰ ابتسامُك والألوانُ كاسِفةٌ ... تبسُّمَ الصُّبْح في داجٍ من الظلمِ

---

(١) مالكي: نسبة إلى مالك من أجداد عقبة بن مسلم

استنجاح الحوائج

قال النبي ﷺ: «**استعينوا على حوائجكم بالكتمان لها، فإن كل ذي نعمة محسود**». (١)

وقال خالد بن صفوان: لاتطلبوا الحوائج في غير حينها، ولاتطلبوها من غير أهلها؛ فإن الحوائج تطلب بالرجاء، وتدرك بالقضاء.

وقال: مفتاح نُجْحِ الحاجة الصبر على طول المدة، ومِغْلاقها اعتراض الكسل دونها.

قال الشاعر:

إني رأيتُ وفي الأيام تجربةٌ ... للصبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ من جدّ في أمر يحاوله ... فاستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفرِ

ومن أمثال العرب في هذا: من أدمن قرع الباب يُوشك أن يفتح له.

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالصبرُ يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبة ... إذا تضايق أمر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظىٰ بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وقال خالد بن صفوان: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه كما روي بطرق أخرى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ونقل عن الإمام أحمد ويحيى بن معين رحمهما الله أنهما قالا: هو موضوع وليس له أصل. انظر السخاوي/المقاصد الحسنة [١٠٣] وانظر المناوي/ فيض القدير [٩٨٥] وقد صححه الألباني بمجموع طرقه انظر الصحيحة [١٤٥٣] وصحيح الجامع [٩٤٣].

وقالوا: صاحب الحاجة مبهوت، وطلب الحوائج كلها تعزير.

وقالت الحكماء[١]: لاتطلب حاجتك من كذاب، فإنه يُقَرِّبُها بالقول، ويبعدها بالفعل؛ ولا من أحمق، فإنه يريد نفعك فيضرك، ولا من رجل له أكلة من جهه رجل، فإنه لايؤثر حاجتك على أكلته.

وقال دِعْبل بن علي الخزاعي:

جئتك مسترفداً بلا سببٍ ... إليك إلا بحرمة الأدب
فاقض ذمامي فإنني رجلٌ ... غير مُلِحٍّ عليك في الطلبِ

وقال شبيب بن شيبة: إني لأعرف أمراً لا يتلاقي به اثنان إلا وجب النجح بينهما. قيل له: وماذاك؟ قال: العقل، فإن العاقل لايسأل ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن.

وقال الشاعر:

أتيتك لا أدلي بقُرْبَىٰ ولايدٍ ... إليك سوىٰ أني بجودك واثقُ
فإن تولني عُرفاً أكن لك شاكراً ... وإن قلت لي عذراً أقُل أنت صادقُ

وقال الحسن بن هانئ:

فإن تُولِيْنْ منك الجميل فأهله ... وإلَّا فإنِّي عاذر وشكور

وقال آخر:

لعمرك ماأخلقت وجهاً بذَلْتَه ... إليك ولا عرضته للمعاير
فتىً وفرت أيدي المكارم عِرْضَه ... عليه وخلَّت ماله غير وافر

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء[٢] فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين.

أراد إن قضيتها كنت أنت كريماً بقضائها، وكنت أنا كريماً بسؤالك إياها، لأني وضعت الطلبة في موضعها. فإن لم تقضها كنت أنت لئيما بمنعك، وكنت أنا لئيما بسوء اختياري لك.

---

(١) نسب هذا الكلام في عيون الأخبار لمسلم بن قتيبة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٢) هو قتيبة بن مسلم «انظر عيون الأخبار».

ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجةٌ والعذرُ فيها مقدمُ ... خفيفُ مُعَنَّاهَا مضاعفةُ الأجرِ
فإن تَقْضِها فالحمدُ لله وحدَهُ ... وإن عاق مقدورٌ ففي أوسع العذرِ

قال له: ماحاجتك أبا عبد الله؟ قال: كتاب لى إن رأى الأمير ـ أكرمه الله ـ أن ينفذه في خاصته، كتبه إلَّي موسىٰ بن عبد الملك في تعجيل أرزاقي.

قال: أو غير ذلك أبا عبد الله نعجلها لك من مالنا؟ وإذا وددت كنت مخيراً بين أن تأخذ أو ترد. فأنشد سوار يقول:

فبابك أيمنُ أبوابهم ... ودارك مأهولة عامره
وكفك حين ترى المجتدي ... ن أندىٰ من الليلة الماطره
وكلبك آنس بالمعتفين ... من الأم بابنتها الزائره

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان، فقال: أتيتك فى حاجة رفعتها إلى الله قبلك، فإن يأذن الله لك في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن فى قضائها لم تقضها وعذرناك. (١)

قال المنصور لرجل دخل عليه: سل حاجتك؛ قال: يبقيك الله ياأمير المؤمنين. قال: سل حاجتك فإنك لست تقدر على مثل هذا المقام في كل حين قال: والله ياأمير المؤمنين، ماأستقصِر عمرك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتنم مالك، وإنَّ عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزين، ومابامرىء بذل إليك وجهه نقص ولاشين. فوصله وأحسن إليه.

---

(١) ذكر ابن قتيبة أن محمد بن واسع دخل على قتيبة بن مسلم وقال له هذا القول، انظر عيون الأخبار ج ٣ ص ١٤٣

استنجاز المواعيد

من أمثالهم في هذا: أنجز حُرٌّ ماوعد.

وقالوا: وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويف.

وقال الزهري: حقيق على من أورق بوعد أن يثمر بفعل.

وقال المغيرة: من أخَّر حاجة فقد ضمنها.

وقال الموبذان الفارسي: الوعد السحابة، والإنجاز المطر.

وقال غيره. المواعيد رءوس الحوائج، والإنجاز أبدانها.

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: خلف الوعد ثلث النفاق، وصدق الوعد ثلث الإيمان، وماظنك بشيء جعله الله تعالى مدحة في كتابه، وفخراً لأنبيائه، فقال تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًّا**﴾ (١)

وذكر جبار بن سلمى عامر بن الطفيل، فقال: كان والله إذا وعد الخير وفَّى، وإذا أوعد بالشر أخلف، وهو القائل:

ولايرهب ابن العم ماعشت صولتي ... ويأمن مني صولة المتهدد
وإنّي وإن أوعدته أو وعدته ... ليكذب إيعادي ويصدق موعدي

وقال ابن أبي حازم:

إذا قلت في شيء «نعم» فأتمه ... فإن «نعم» دين على الحر واجبُ
وإلا فقل «لا» تسترح وترح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذبُ

ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله عزوجل: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالاتفعلون**﴾ (٢) لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولايقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لايقولون ولايفعلون: فزعم أنهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق.

---

(١) سورة مريم آية ٥٤ (٢) سورة الصف آيتان ٢، ٣

وفى هذا المعنى يقول الحسن بن هانئ:

قال لي ترضىٰ بوعد كاذب ... قلت إن لم يك شحم فنفش[1]

ومثله قول عبّاس بن الأحنف، ويقال إنه لمُسلم بن الوليد، صريعِ الغواني:

ما ضَرَّ مَن شَغل الفؤاد ببُخله ... لو كان علّلني بوعدٍ كاذبِ
صَبْرًا عليك فما أرى ليَ حيلةً ... إلا التمسكَ بالرَّجاء الخائبَ
سأموت من كَمدٍ وتَبقى حاجتي ... فيما لديْك وما لها من طالب

قال عبدُ الرحمن بن أم الحَكَم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وَعدها إياه فَمَطله بها: نحن إلى الفِعْل أحوجُ منّا إلى القول، وأنت بالإنجاز أولى منك بالمَطل. واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد، واستِتْمامك المعروف.

القاسم بن معْن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى: أيها الأمير، ما انتفعتُ بك مذ عرفتُك، ولا أوصلتَ لي خيرًا مذ صَحِبتك. قال: ألم أكلِّم لك أميرَ المؤمنين في كذا وأسأله لك كذا؟ قال: قلت: بلى، فهل استنجزتَ ما وعدت، واستَتْمَمت ما بدأت؟ قال: حال من دون ذلك أمورٌ قاطعة، وأحوالٌ عاذرة. قلت: أيها الأمير، فما زِدْت على أن نَبَّهت العجز من رَقدته، وأثرت الحُزن من رَبْضَته، إنّ الوعد إذا لم يشْفعه إنجاز يُحَقّقه، كان كلفْظٍ لا معنى له، وجِسْم لا رُوح فيه.

وقال عبد الصمد بن الفَضْل الرّقاشي لخالد بن دَيْسم، عامل الرَّيّ.

أخالد إنّ الرَّي قد أجحفتْ بنا ... وضاق علينا رَحْبُها ومَعاشُها
وقد أطمعتْنا منك يومًا سحابةٌ ... أضَاءت لنا برْقًا وأبطا رشاشها
فلا غَيْمُها يصحو فيُيْئِس طامعا ... ولا ماؤها يأتي فتُروَى عِطاشها

وقال سعيد بن مسلم: وعد أبي بشاراً العقيلى حين مدحه بالقصيدة التى يقول فيها:

صدَّت بخد وجَلَتْ عن خدٍّ ... ثم انثنت كالنَّفَسِ المُرتدّ

---

(١) نفش: نفش القطن ونحوه نفشاً.
المعجم الوسيط ص ٩٤٠

فكتب إليه بشار بالغد:

مـازال ما منيتني من همـي والوعد غمٌّ فأرِح من غمـي
إن لم تُرِد حمدي فراقِبْ ذَمِّي

فقـال له أبي: ياأبا معاذ، هلا استنجحت الحاجة بدون الوعيد؟ فإذ لم تفعل فتربص ثلاثاً وثلاثاً، فإني والله مارضيت بالوعد حتى سمعتُ الأبرش الكلبيَّ يقول لهشام: ياأمير المؤمنين، لاتصنع إليَّ معروفاً حتى تَعِدني، فإنه لم يأتني منك سَيْب على غير وعد إلا هان عليّ قدْرُه، وقلَّ مني شكره. قال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيّد أهلك أبو مسلم الخولاني: إنّ أوقع المعروف فى القلوب، وأبرده على الأكباد معروف منتظر بوعد لايُكدّره المطل.

وكان يحيى بن خالد بن برمك لايُقضىٰ حاجة إلا بوعد، ويقول: من لم يَبِتْ على سرورِ الوعد لم يجد للصنيعة طَعْماً.

وقالوا: الخُلْف ألأم من البُخل، لأنه من لم يفعل المعروف لزمه دمُّ اللؤم وحده، ومن وعد وأخلف لزمه ثلاثُ مذمّات: ذمَّ اللؤمِ، وذم الخُلْفِ، وذمُّ الكذبِ.

قال زياد الأعجم:

لله دَرّك مـن فـتىً لو كنت تفعل ماتقولْ
لاخير فى كَـذِبِ الجـوا د وحبّذا صِدْقُ البخيلْ

استبـطأ حبيب الطائي الحسن بن وهب في عدة وعدها إياه، فكتب إليه أبياتاً يستعجله بها. فبعث إليه بألف درهم، وكتب إليه:

أعجلتنـا فأتاك عاجل برِّنا قُلًّا ولو أخّرته لم يَقْلـل
فخُذ القليل وكن كمن لم يسأل ونكـون نحن كأننـا لم نفعل

وقال عبد الله بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشّماخ:

وأشعثَ قد قَدّ السَّفارُ قميصَه يَجُر شِواءً بالعصا غيرَ مُنْضجِ [1]

---

(١) السفار: السفر. أي رب أشعث شقت كثرة السفر وكثرة العمل لرفقائه ثوبه.

دعوتُ إلى ما نابني فأجابني ... كريمٌ من الفتيان غيرُ مُزلّج[١]
فتىً يملأ الشِّيزى[٢] ويُرْوِي سِنانه ... ويضْرب فى رأس الكَمِيِّ المُدجَّج
فتى ليس بالراضي بأدنى معيشةٍ ... ولا في بيوت الحي بالمُتَولِّج

فرفع رأسه إلى المهدي وقال : هذه صفتك أبا العباس فقلت: بك نلتها ياأمير المؤمنين . فضحك إلى وقال: هل تنشد من الشعر شيئا؟ قلت: نعم ياأمير المؤمنين. قال فأنشدني. فأنشدته قول السّموأل :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللؤم عِرضهُ ... فكلُّ رداء يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضَيْمها ... فليس إلى حُسْنِ الثناءِ سبيلُ
إذا المرء أعيته المروءةُ يافعاً ... فمطلبها كَهْلاً عليه ثقيلُ
تُعيِّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إن الكرامَ قليلُ
وماضرّنا أنَّا قليل وجارنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
ونحن أناسٌ لانرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلولُ
يُقرِّب حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتَكْرهُهُ آجالهم فَتطولُ
وما مات منَّا سيِّد حَتْفَ أنفه ... ولاطُلّ[٣] منا حيث كان قتيلُ
تسيلُ على حدِّ السيوفِ نفوسُنا ... وليستْ على غير السيوف تسيلُ
ونُنْكرُ إن شِئْنا على الناسِ قولَهُم ... ولايُنْكرون القولَ حين نقولُ
فنحن كماءِ المُزنِ ما فى نِصابنا ... كهَامٌ ولافينا يُعَدُّ بَخيل[٤]
وأسيافُنا فى كل شَرْقٍ ومَغربٍ ... بها من قِراع الدارعين فُلُول

فقال: أحسنت! اجلس، بهذا بلغتم، سل حاجتك؟ فقلت: ياأمير المؤمنين،

---

(١) المزلج: البخيل. والناقص المروءة .

(٢) الشيزى: خشب أسود تتخذ منه للفصاع ويطلق أيضا على الجفان التى تسوى منه، وهو المراد هنا.

(٣) طل: أى ذهب دمه هدرا.

(٤) الكهام: الكليل الحد.

تكتب لي في العطاء ثلاثين رجلا من أهلي؟ قال: نعم، فرضٌ عليّ إذا وعدت. فقلت: ياأمير المؤمنين، إنك متمكن من القُدرةَ وليس دونك حاجز عن الفعل، فما معنى العِدة؟ فنظر إلى ابن دأب كأنه يريد منه كلاماً في فضل الموعد فقال ابن دأب:

حلاوةُ الفعل بوَعدٍ يُنجَزُ لاخير في العُرفِ كنَهْب يُنهَزُ

فضحك المهديّ وقال:

الفعل أحسن ما يكونُ إذا تَقَدّمه ضمانُ

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يابني، إذ غدا عليكم الرجل وراح مسلماً، فكفى بذلك تقاضيا.

وقال الشاعر:

أروح بتسليمي عليك وأغتدي وحسبك بالتسليم منى تقاضياً

وقال آخر:

كفاك مخبراً وجهي بشاني وحسبُك أن أراكَ وأن تراني
وما ظني بمن يعنيه أمري ويعلم حاجتي ويرى مكاني

كتب العتابي إلى بعض أهل السلطان: أمابعد، فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل المطل، والسلام.

وكتب الجاحظ إلى رجل وعده: أما بعد، فإن شجرة وعدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل، والسلام.

ووعد عبد الله بن طاهر دِعْبَلاً بغلام، فلما طال عليه تصدّى له يوماً، وقد ركب إلى باب الخاصّة، فلما رآه قال: أسأت الاقتضاء، وجَهلت المأخذ، ولم تُحسن النظر، ونحن أولى بالفضل، فلك الغلام والدابة لما ننزل إن شاء الله تعالى. فأخذ دِعْبل بعنانه وأنشده:

ياجَوادَ اللسان من غير فِعْل ليتَ في راحتيك جُودَ اللسان
عَينَ مِهران قد لَطَمت مِراراً فاتّقي ذا الجلال في مِهْران[1]

---

(١) يضرب المثل للرجل الذى يكذب فى حديثه فيقال: هو يلطم عين مهران

عُرتَ عيناً فَدَع لِمهرَان عَيْناً لاتَدَعه يطوف فى العِميان

قال: فنزل به عن دابته، وأمر له بالغلام.

وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بعدة ومطله بها:

لاجعل الله لي إليك ولا وعندك ماعِشْتُ حاجةً أبدَا
ما جئتُ في حاجةٍ أُسَرّ بها إلا تثاقلتَ ثم قلت غداً

وكتب دِعبل إلى رجل وعده وعداً وأخلفه:

أحسبتَ أرضَ الله ضَيّقةً عنّى فأرضُ الله لم تَضِق
وجعلتنى فَقْعاً بقرقرة فَوَطِئتنى وطئا على حَنَق(١)
فإذا سألتُك حاجة أبداً فاضرب لها قُفْلا على غَلَق
وأعدَّ لى غُلاًّ وجامعةً(٢) فاجمع يديّ بها إلى عُنُقي
ماأطولَ الدنيا وأوسَعُها وأدلّنى بمسالك الطُّرُقِ

ومن قولنا في رجل كتب إليَّ بعدة في صحيفة ومطلني بها:

صحيفة طابَعها اللّومُ عُنوانُها بالجهل مَختُومُ
يُهدَىٰ لها والخُلفُ في طَيِّها والمطلُ والتسويفُ واللّومُ
من وَجهه نَحْسٌ ومن قُرْبِه رِجْسٌ ومن عِرفَانه شُومُ
لاتهتضم إن بتَّ ضيفاً له فَخُبْزهُ في الجَوفِ هاضومُ
تَكلِمه الألحاظُ من رِقّةٍ فهو بِلَحْظ العْين مكلومُ
لاتأتدم شيئاً على أكله فإنه بالجُوعِ مأدومُ

وقلت فيه:

صحيفة كُتبت ليت بها وعسى عُنوانُها راحةُ الرَّاجى إذا يئسا
وَعدٌ له هاجسٌ في القلب قد بَرِمت أحشاء صَدْرى به من طول ما هجسا
يراعة غرَّني منها وَميضُ سَنىً حتّى مددتُ إليها الكفّ مُقتَبِسَا

---

(١) الفقع (بالفتح ويكسر): البيضاء الرخوة من الكمأة. والقرقرة: الأرض اللينة

(٢) الجامعة: الغل، لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

فصادفَتْ حَجَراً لو كنتَ تضربه ... من لُؤمه بعصا موسى لما انبجسَا
كأنما صِيغ من بُخلٍ ومن كَذِبٍ ... فكان ذاك له رُوحاً وذا نَفَساَ

وقلت فيه:

رجاء دون أقربه السحابُ ... ووعد مثل مالمع السّرابُ
وتسويف يَكِلَّ الصبرُ عنه ... ومطلٌ ما يقوم له حِسابُ
وأيامٌ خلت من كل خَيْرٍ ... ودُنيا قد توزعها الكِلابُ

لطيف الاستمناح

قالت الحكماء: لطيف الاستمناح سبب النجاح، والأنفُس ربما انطلقت وانشرحت بلطيف السؤال، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل؛ كما قال الشاعر:

وجَفوتَني فقطعتُ عنك فوائدي ... كالدُّر يَقطعه جَفاءُ الحالب

وقال العتَّابي: إن طلبتَ حاجةً إلى ذي سلطان، فأجمل في الطلب إليه، وإياكَ والإلحاحَ عليه، فإنّ إلحاحك يَكلم عِرضك، ويُريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عِوضاً لما يأخذ منك؛ ولعلَّ الإلحاحَ يجمع عليك إخلاقَ الوجه، وحِرمان النجاح؛ فإنه ربما ملَّ المطلوبُ إليه حتى يستخفَّ بالطالب.

وقال الحسن بن هانيء:

تأنَّ مواعيد الكِرام فرُبما ... حملتَ من الإلحاح سَمحاً على بُخلِ

وقال آخر:

إن كنت طالبَ حاجةٍ فَتجمّلِ ... فيها بأَحسنِ ما طلبتَ وأَجْمِلِ
إنَّ الكريمَ أخا المُروءة والنُّهى ... مَن ليس في حاجاته بمُثَقِّلِ

وقال مروان بن أبي حَفصة: لقيتُ يزيدَ بن مَزيد وهو خارج من عند المهديّ، فأخذتُ بعِنان دابته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد لكل بيت منها مائة ألف. قال: هات، لله أبوك! فأنشأت أقول:

ياأكرمَ الناس من عُجم ومن عربِ ... بعد الخليفة يا ضِرغامة العَربِ
أفنيتَ مالك تُعطيه وتُنهبه ... يا آفة الفِضّة البيضاء والذّهبِ
إن السِّنان وحَدّ السيف لو نَطقا ... لأخبرا عنك في الهَيجاء بالعَجب

فأمر لي بها.

المدائني قال: قَدم قوم من بني أمية على عبد الملك بن مَروان، فقالوا: ياأميرَ المؤمنين، نحن مّمن تَعرف، وحقُّنا ما لا يُنكر، وجِئناك من بعيد، ونَمُتّ بقريب، ومهما تُعطنا فنحن أهله.

دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة، أم بالخلافة والعامة؟ قال: بل بالقَرابة والخاصة. قال: يداك ياأمير المؤمنين بالعطيّة أطلق من لساني بالمسألة. فأعطاه وأجزل له.

ودخل أبو الرّيَّان على عبد الملك بن مَروان، وكان عنده أثيرًا، فرآه خائرًا[1]، فقال: ياأبا الرَّيان، مالَك خائرًا؟ قال: أشكو إليك الشَّرف ياأمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قال: نُسأل ما لا نقَدر عليه ونَعتذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسنَ ما استمنحت، واعتررت[2] ياأبا الرَّيان! أعطوه كذا وكذا.

العتّابي قال:

كتب الشَّعبيّ إلى الحجّاج يسأله حاجة، فاعتلّ عليه. فكتب إليه الشّعبي: والله لا عذرتُك وأنت والي العراقَيْن، وابنُ عظيم القَريتين. فقضى حاجته. وكان جد الحجاج لأمه عُروة بن مسعود الثَّقفيّ.

العُتْبيّ قال:

قدم عبد العزيز بن زرارة الكِلابيّ على أمير المؤمنين مُعاوية، فقال: إني لم أزل أهُز ذوائب الرِّحال إليك، فلم أجد مُعوَّلا إلا عليك؛ امتطي الليلَ بعد النهارِ، وأسِم

---

(١) الخائر: الثقيل النفس غير النشيط.

(٢) اعتره، إذا أتاه يطلب معروفه.

المجاهلَ بالآثار؛ يقودني إليك أملٌ، وتَسوقني بَلوى، والمُجتهد يُعذر، وإذا بلغتك فَقَطني، فقال: أحطُط عن راحلتك رَحلَها.

ودخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يُستعان بك ويستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئا إلا وهو يصغر عنك وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب أن لا تفعل، قال: سل حاجتك. قال: قد حملت عن عشيرتي عشر ديَات. قال: قد أمرتُ لك بها وشَفعتُها بمثلها.

العُتبيّ عن أبيه قال:

أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال: إنها وقعت بيني وبين قومي دِيات فاحتملتُها في مالي وأملي، فعَدِمتُ مالي وكنتَ أملي، فإن تحملها عني فربّ هّمٍ فرّجته، وغمّ كفيته، ودَين قضيته؛ وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك، ولم أيأس من غدك. فَحَملها عنه.

وذكروا أن جارًا لأبي دُلف ببغداد لَزِمه كبيرُ دين فادح حتى احتاج إلى بَيع داره. فساوموه بها، فسألهم ألفي دينار، فقالوا له: إن دارك تُساوي خمسمائة دينار. قال: وجواري من أبي دلف بألف وخمسمائة دينار. فبلغ أبا دُلف، فأمر بقضاء دَينه، وقال له، لا تَبع دارك ولا تَنتقل من جوارنا.

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قِلّة الجرذان. قال: ما أحسن هذه الكناية! املئوا لها بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتَمرا.

إبراهيم بن أحمد عن الشَّيباني قال:

كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مُستتراً فكان يجلس في حلقة أزهر السمان للمُحدث. فلما أفضت الخلافة إليه، قدم عليه أزهر، فرحب به وقربه، وقال له ما حاجتُك ياأزهر؟ قال: داري مُتهدمة، وعليَّ أربعة آلاف درهم، وأريد أن يبني محمد ابني بعياله، فوصله باثني عشر ألفا، وقال. قد قضينا حاجتك ياأزهر، فلا تأتنا طالباً: فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة أتاه. فلما رآه أبو جعفر،

قال: ما جاء بك ياأزهر؟ قال: جئتك مُسلِّماً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مُسلِّما. قال: قد أمرنا لك باثنى عشر ألفا، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلما. فأخذها ومضى. فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك ياأزهر؟ قال: أتيتُ عائداً. قال: إنه يقع في خَلَد أمير المؤمنين أنك جئتَ طالباً. قال: ما جئتُ إلا عائدًا. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا لا طالباً ولا مُسلِّماً ولا عائدًا. فأخذها وانصرف. فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك ياأزهر؟ قال: دُعاء كنت أسمعك تدعو به ياأمير المؤمنين، جِئت لأكتُبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مُستجاب، وذلك أني قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، فاذهب وتعال متى شئتَ، فقد أعيتني فيك الحِيلة.

أقبل أعرابي إلى داود بن المُهلب، فقال له: إني مدحتك فاستمع. قال: على رِسلك، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج، فقال: قل فإن أحسنت حكّمناك، وإن أسأت قتلناك. فأنشأ يقول:

أمِنت بداودٍ وجُود يمينه ... من الحَدَث المَخشي والبؤس والفَقر
فأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبوةً ... من الحَدثان إذ شددت به أزري
له حُكم لُقمان وصورة يُوسف ... ومُلك سليمان وعدل أبي بكر
فَتىً تفرق الأموال من جُود كَفِّه ... كما يَفْرَقُ الشيطانُ من ليلة القَدْرِ

فقال: قد حكّمناك، فإن شئت على قدرك وإن شئت على قدري. قال: بل على قدري، فأعطاه خمسين ألفاً. فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير! قال: لم يك في ماله ما يَفي بقَدره. قال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك، وأمر له بمثل ما أعطاه.

الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده:

وآمرة بالبُخل قلتُ لها اقصري ... فليس إلى ما تأمُرين سَبيل

فَعـالي فعـالُ المُكثـرين تجمّـلاً ومـالي كما قد تعـلمـين قليـل
فكيف أخـاف الفقر أو أُحرم الغِنَى ورأيُ أمـير المـؤمـنـين جميـل

فقال له الرشيد: لله درّ أبيات تأتينا بها! ما أحسن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها! ياغلام، أعطه عشرين ألفاً. قال: والله لا أخذت منها درهما واحدا. قال: ولم؟ قال: لأن كلامك والله ياأمير المؤمنين خير من شعري. قال: أعطوه أربعين ألفاً. قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصيَد لدراهم الملوك منّي.

إبراهيم الشّيباني قال:

ولدت لأبي دُلامة ابنة ليلا، فأوقد السِّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق[1]. فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يُحجب عنه. فأنشده:

لو كان يَقعد فوق الشمس من كرم قومٌ لقيـل اقـعـدوا ياآل عبـاس
ثم ارتقُـوا من شعاع الشمس في دَرج إلى الـسـماء فأنـتم أكـرمُ النـاس

قال له المهدي: أحسنت والله أبا دُلامة! فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: وُلدت لي جارية ياأمير المؤمنين. قال: فهل قلتَ فيها شعرًا؟ قال: نعم، قلت:

فما ولَـدتـك مريـم أم عيـسـى ولم يَكـفُـلك لقـمان الحـكـيـمُ
ولـكـن قد تَضُـمُّـك أمُّ سَوْءٍ إلى لبَّـاتهـا وأبٌ لئِيم

قال: فضحك المهدي. وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه ياأمير المؤمنين، وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يَقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تملأ مالا. فلما نُشِرت أخذت عليهم صحن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

ولقى أبو دُلامة أبا دُلف في مَصادٍ، وهو والي العراق، فأخذ بعِنان فرسه وأنشد:

إنّي حلفـت لئـن رأيـتُـك سالمًا بقُـرى الـعـراق وأنـت ذو وَفـرِ
لتُـصـلين على الـنـبـي محمـد ولـتـمـلأنّ دراهمًا حِجـري

(١) الشقق: جمع شقة (بالضم). وهي من الثياب.

فقال: أما الصلاة على النبيّ، فنعم، ﷺ؛ وأما الدراهم، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى: قال له: جُعلت فِداك، لا تُفرق بينهما. فاستلفها له، وصُبت في حجره حتى أثقلته.

ودخل أبو دلامة على المهدي، فأنشده أبياتا أعجب بها، فقال له: سَلني أبا دُلامة واحتكم وأفرط ما شئت. فقال: ياأمير المؤمنين، كلب أصطاد به، قال: قد أمرنا لك بكلب؛ وهاهنا بَلغْتَ هِمَّتك، وإلى هاهنا انتهت أُمنيتك؟ قال: لا تعجل عليَّ ياأمير المؤمنين، فإنه بقى عليَّ. قال: وما بقى عليك؟ قال: غلام يقود الكلب. قال: وغلام يقود الكلب. قال: وخادم يطبخ لنا الصيد. قال: وخادم يطبخ الصيد. قال: ودار نسكنها. قال: ودار تسكنها. قال: وجارية نأوي إليها. قال: وجارية تأوي إليها، قال: قد بقي الآن المَعاش، قال: قد أقطعناك ألفي جَريب[1] عامرة، وألفي جريب غامرة. قال: وما الغامرة ياأمير المؤمنين؟ قال: التي لا تَعمر. قال: أنا أُقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد. قال: قد جعلتها كلها لك عامرة. قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده؟ قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعتني شيئاً أيسر هي أمّ ولدي فقدًا منه.

ودخل أبو دُلامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قَلنسوة طويلة ـ وكان قد أخذ أصحابه بلبسها وأخذهم بلُبس دراريع عليها مكتوبٌ بين كتفي الرجل: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[2] وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم ـ فدخل عليه أبو دلامة في ذلك الزِّي، فقال له: كيف أصبحت أبا دلامة؟ قال: بِشَر حال ياأمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك! قال: وما ظَنك ياأمير المؤمنين بمن أصبح وجههُ في وسطه، وسيفه في أسته، وقد نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره. قال: فضحك أبو جعفر، وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دُلامة بصِلة.

قدم رجلٌ على مَلك من ملوك الأكاسرة، فمكث ببابه حيناً لا يَصِل إليه، فتلطف في رُقعة أوصلها إليه، وفيها أربعةُ أسطر:

---

(١) الجريب من الأرض: ثلاثة آلاف وستمائة ذراع؛ وقيل: عشرة آلاف ذراع.

(٢) سورة البقرة آية ١٣٧.

في السطر الأول: الضُّر والأمل أقدماني عليك.

والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.

والسطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنة وشماتةٌ للعدو.

والسطر الرابع: فإما نَعَم مُثمرة، وإما لا مُريحةٌ.

فلما قرأها وقع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده:

سألتُ الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولكنني عبدُ ليحيى بن خالد
فقلتُ: شِراءً قال: لا بل وراثةً ... تَوارثَني عن والدٍ بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف.

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري فأنشده:

أخالدُ إني لم أزرك لخَلَّةٍ ... سِوى أنّني عافٍ وأنت جوادُ
أخالدُ بين الحمد والأجر حاجتي ... فأيهما تأتي فأنت عِماد

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

ومن قولنا في هذا المعنى. ودخلت على أبي العباس القائد فأنشدته:

الله جَرَّد للندى والباسِ ... سَيفاً فقلده أبا العبّاسِ
مَلِكٌ إذا استقبلتَ غُرة وَجهه ... قَبض الرجاء إليك رُوح اليَاسِ
وَجهٌ عليه من الحياءِ سكينةٌ ... ومحبة تجري مع الأنفاس
وإذا أحبّ الله يوماً عبده ... ألقى عليه محبَّة للناس

ثم سألته حاجة فيها بعض الغلظ فتلكأ فيها عليَّ، فأخذت سحاية[1] من بين يديه فوقعت فيها على البديهة:

ما ضرّ عندك حاجتي ما ضرَّها ... عُذراً إذا أعطيت نفسك قدرها
انظر إلى عرض البلاد وطولها ... أوَلستَ أكرم أهلها وأبرَّها
حاشا لجُودك أن يُوعِّر حاجتي ... ثِقتي بجُودك سّهلت لي وعرَها

(١) السحاية: القرطاس.

لا يجتني حُلو المحامد ماجدٌ حتى يذوقَ من المطالب مُرَّها

فقضى الحاجة وسارع إليها.

وأبطأ عبد الله بن يحيى[1] عن الديوان، فأرسل إليه المُتوكل يتعرّف خَبره، فكتب إليه:

عَلِيل من مَكانين من الإفلاس والدَّيْن
ففي هذين لي شُغُل وحسبي شُغل هذين

فبعث إليه بألف دينار.

عبد الله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى. فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلاً قد أكثر في طلب الإذن، وزعم أن له يدًا يَمُتُّ بها. فقال: أدخله. فدخل رجلٌ جميلُ الوجه رثُّ الهيئة. فسلم فأحسن. فأومأ إليه بالجلوس، فجلس. فلما عَلِم أنه قد انطلق وأمكنه الكلامُ قال له: ما حاجتك؟ قال له: قد أعربت بها رثاثة هيئتي وضعفُ طاقتي. قال. أجل، فما الذي تمُت به؟ قال: ولادة تَقرُب من ولادتك، وجوار يدنو من جوارك، واسم مُشتق من اسمك. قال: أما الجِوار فقد يُمكن أن يكون كما قلت، وقد يوافق الاسمُ الاسمَ، ولكن ما عِلمك بالولادة؟ قال: أعلمتني أمي أنها لما وضعتني، قيل: إنه وُلد الليلة ليحيى بن خالد غلام وسُمِّي الفضل، فسمتني فُضيلا، إعظاما لاسمك أن تُلحقني به. فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمسٌ وثلاثون سنة. قال: صدقت، هذا المِقدار الذي أتيت عليه، فما فعلت أمك؟ قال: تُوفيت رحمها الله. قال: فما منعك من اللحوق بنا فيما مضى؟ قال: لم أرضَ نفسي للقائك لأنها كانت في عامِّية وحداثةٌ تُقعدني عن لقاء الملوك. قال: ياغلام، أعطه لكل عام مضى من سنيه ألفاً، وأعطه من كُسوتنا ومراكبنا ما يصلح له. فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

---

(١) هو عبد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل.

وكتب حَبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي دُؤاد:

اعلم وأنت المرءُ غير مُعلَّم ... وافهم ـ جعلتُ فداك ـ غير مُفهَّمِ
أن اصطناع العُرف ما لم تُوله ... مُستكملاً كالثوب ما لم يُعلَمِ
والشُّكر ـ ما لم يُستثر بصَنيعةٍ ... كالخَطّ تقرؤه وليس بمُعجمِ
وتفنني في القولِ إكثارٌ وقد ... أسرجتَ في كرم الفعال فأَلجمِ

وقال دِعبل بن عليّ الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان:

أيا ذا اليَمينين والدعوتين ... ومَن عنده العُرف والنَّائلُ
أترضى لمثليَ أنّي مُقيمُ ... ببابك مُطَّرَحُ خامل
رضيتُ من الودّ والعائدات ... ومن كل ما أمَّل الآمل
بتسليمةٍ بين خَمسٍ وستّ ... إذا ضمَّك المجلسُ الحافل
وما كنتُ أرضي بذا من سِواك ... أيرضَى بذا رجلٌ عاقل
وإن ناب شُغل ففي دون ما ... تُدبِّره شغُلٌ شاغل
عليك السلامُ فإنّي أمرؤ ... إذا ضاق بي بَلد راحل

الأصمعي قال:

ونظر زياد إلى رجلٍ من ضبة يأكل أكلا قَبيحاً، وهو أقبح الناس وجهاً، فقال: يا أخا ضَبة، كم عِيالُك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهنَّ وجها، وهنَّ آكل منّي: فضحك زياد وقال: لله درُّك! ما ألطف سؤالك! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادماً، وعجّلوا له ولهن أرزاقهم. فخرج الضَّبي وهو يقول:

إذا كنتَ مرتادَ السماحة والندَى ... فنادِ زياداً أو أخاً لزياد
يُجِبك أمرؤ يعطي على الحمد ما لَه ... إذا ضنَّ بالمعروف كل جواد
وما لي لا أثني عليك وإنَّما ... طريفي من معروفكم وتلادي

الشيباني عن البُطين الشاعر قال:

قدمت على علي بن يحيى الأرمينيّ فكتبتُ إليه:

رأيتُ في النّوم أنّي راكبٌ فرساً ... ولي وصيفٌ وفي كفِّي دنانيرُ

فقال قوم لهم حِذق ومَعرفة رأيت خيراً وللأحلام تَعبير
رُؤياك فسّر غدًا عند الأمير تجد تعبير ذاك وفي الفال التباشير
فجئتُ مستبشراً مستشعرًا فرحا وعند مثلك لي بالفِعل تيسير

قال: فوقع لي في أسفل كتابي: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. ثم أمر لي بكلّ شيء ذكرتهُ في أبياتي ورأيتُه في منامي.

الأخذ من الأمراء

حدَّثنا جعفر بن محمد عن يزيد بن سِمعان عن عبد الله بن ثَور عن عبد الحميد بن وَهب عن أبي الخلال، قال:

سألت عثمان بن عفان عن جائزة السلطان، فقال: لحم طَريّ زَكيّ.

جعفر بن محمد عن يحيى بن محمد العامريّ عن المُعتمر عن عِمران بن حُدير، قال:

انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة، فرأى الرجل عليه عِمامة مُتخرقة. فقال الرجل: عندنا عمائمُ، ألا نبعث إليك بعمامة منها؟ قال عكرمة: إنَّا لا نقبل من الناس شيئاً، إنما نقبل من الأمراء.

قال هشام بن حسَّان:

رأيت على الحسن البصري خَميصة[1] لها أعلامٌ يصلي فيها، أهداها إليه مسلمة ابن عبد الملك.

وكان النبي ﷺ يلبس خُفين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحبُ الحبشة[2].

---

(١) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

(٢) عن بريدة رضي الله عنه: «أن النجاشي أهدى للنبي ﷺ خفين أسودين ساذَجين فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما» رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني، انظر صحيح سنن الترمذي [٢٢٦١] وصحيح ابن ماجه [٢٩١٧].

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفتنة، مثل المختار وغيره.

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد، فشكا إليه ديناً لزمه، فأمر له بألف دينار عين. فلما وضع يديه للقيام قال: ياأمير المؤمنين، وزوجت ابني محمدًا فصار علي فيه ألفُ دينار. قال: ولابنه ألف دينار.

فلقد مات مالك، وتركها زنته في مِزود.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: ياأبا إسحاق، كنت أريد أن تقبل مني هذه الجُبة كسوة. قال: إن كنت غنياً قبلتها منك، وإن كنت فقيراً لم أقبلها منك. قال: فإني غني. قال: وكم مالك. قال: ألفا دينار. قال: فأنت تود أنها أربعة آلاف. قال: نعم. قال: فأنت فقير لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغلب، المعروف بزيادة الله، بمال يُقسم على الفقهاء، فكان منهم من قَبِل، ومنهم من لم يقبل. فكان أسد بن الفرات فيمن قبل، فجعل زيادة الله يغمِص[1] على كل من قبل منهم: فبلغ ذلك أسد بن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي.

وقد فخرت العربُ بأخذ جوائز الملوك، وكان من أشرف ما يتمولونه، فقال ذو الرمة:

وما كان مالي من تُراثٍ ورثتُه ... ولا دِيَة كانت ولا كَسب مَأثَم
ولكن عطاءُ الله من كل رِحلة ... إلى كل محجوب السُّرادق خِضرم

وقال آخر: يهجو رجلاً ويعيبه بأخذه من العامّة، ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

عَطايا أمير المؤمنين ولم تكن ... مُقسمة من هؤلاء وأولئكا
وما نِلتَ حتى شبت إلا عطيَّة ... تقوم بها مَصرورةً في ردائكا

---

(١) يغمص: يعيب.

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء، فقال: إن سعيد بن حِذيم منهم. فأعطاه ألفَ دينار، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا أعطيت فأَغْنِ[١].

وأعطى النبيّ ﷺ يوم حُنين المؤلَّفة قلوبهم، فأعطى الأقرع بن حابس التَّميمي وعُيينة بن حصن الفَزاري مائةً من الإبل، وأعطى العبَّاس بن مرداس السلمي خمسين، فشقَّ ذلك عليه، فقال أبياتاً، فأتاه بها وأنشده إياها، وهي:

أيذهبُ نَهبي ونَهبُ العُبـ ... ـيد[٢] بين عُيَينة والأقرعِ
ولا كان حِصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرداسَ في مَجمَع
وما كنتُ غير أمريء منهمُ ... ومن تضع اليوم لم يرفع

فقال رسول الله ﷺ لبلال: اقطع عنّي لسان العبَّاس. فأعطاه حتى أرضاه[٣].

وقال صَفوان بنُ أمية: لقد غزوتُ مع رسول الله ﷺ، وما خَلَق الله خلقًا أبغض إليّ منه، فما زال يعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحب إليَّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلفة قلوبُهم[٤].

---

(١) جاء في قول عمر رضي الله عنه: «إذا أعطيتم فأغنوا». قال الألباني: ضعيف أخرجه أبوعبيد في الأموال (١٧٧٦) من طريق عمرو بن دينار وإسناده ضعيف منقطع، فعمرو بن دينار ولد بعد وفاة عمر رضي الله عنه. انظر تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ـ ص٤٧/ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(٢) العبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة «باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ومن يخاف على إيمانه» دون قوله: «اقطع عني لسانه» وفيه بعد الأبيات: «فأتم له المائة» مسلم شرح النووي ٧/١٥٥.

(٤) أخرجه مسلم بنحوه في كتاب الفضائل.

شكـــر النعمـــة

سليمان التَّميمي [١] قال:

إن الله أنعم على عباده بقَدر قُدرته. وكلّفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقالوا: كُفر النعمة يُوجب زوالها، وشُكرها يوجب المزيد فيها.

وقالوا: مَن حمدكَ فقد وفَّاك حقَّ نعمتك.

وجاء في الحديث: «**مَن نشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كَفره**» [٢].

وقالوا: إذا قَصُرَت يدك عن المكافأة. فليطُل لسانك بالشُّكر.

وقالوا: ما نَحَلَ الله تعالى عباده شيئاً أقل من الشكر، واعتبر ذلك بقول الله عز وجل: ﴿**وقليلٌ من عبادي الشكور**﴾ [٣].

وقال النبي ﷺ: «**ما أنعم الله على عبده نِعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاكرًا لأنعمه، وما أنعم الله على عبده نعمة فلم يَر أثرها عليه إلا كتب: بغيض الله كافرًا لأنعمه**» [٤].

---

(١) هو سليمان بن عبد الرحمن بن عيسى بن ميمون التميمي الدمشقي أبو أيوب، ابن بنت شرحبيل ابن مسلم الخولاني ولد سنة ١٥٣هـ وكانت وفاته سنة ٢٣٢هـ.

(٢) قال ﷺ: «**من أبلي بلاءً فذكره، فقد شكره وإن كتمه فقد كفره**» رواه أبو داود والضياء عن جابر وصححه المناوي في فيض القدير (٨٢٨٢) والألباني في صحيح الجامع (٥٨٠٩) والصحيحة (٦١٨).

(٣) سورة سبأ آية رقم ١٣.

(٤) بحثت عن هذا الحديث ولم أجد ما يثبته ويغنى عنه قوله ﷺ: «**إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه**» أخرجه الإمام أحمد، قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط مسلم وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده**». أخرجه الترمذي (٢/١٣٤) وقال حديث حسن. انظر غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ص٦٣/المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

وكتب عديّ بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النِّعم وقد خفت علي من قبلي من المسلمين قلّة الشكر والضعف عنه. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم يُنعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: ﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا**﴾[1]. فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.

وسمع النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها تُنشد أبيات زُهير بن جَناب:

ارفَع ضعيفك لا يحُر بك[2] ضَعفه ... يوماً فتدركه عواقبُ ما جَنَى
يجزيك أو يُثني عليك فإن من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جَزَى

فقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**صدق ياعائشة، لا شكر الله من لا يشكر الناس**»[3].

الخُشَنيّ[4] قال: أنشدني الرياشيّ:

إذا أنا لم أشكر على الخَير أهلَه ... ولم أذمُم الجبس[5] اللئيم المُذمَّما
ففيم عرفتُ الخير والشكر باسمه ... وشق لي الله المسامع والفما

وأنشدني في الشكر:

ساشكر[6] عَمْرًا[7] ماتراخت منيَّتي ... أيادي لم تُمنن وإن هي جَلَّتِ
فَتىً غير مَحجوب الغنَى عن صديقة ... ولا مُظهِرَ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلّتي من حيث يخفى مكانُها ... فكانت قَذى عينيه حتى تجلت

---

(١) سورة النمل آية ١٥.

(٢) لا يحر: لا يرجع.

(٣) «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان وصححه الألباني انظر: (صحيح الجامع ٧٥٩٦) وانظر (الصحيحة ٤١٧) المكتب الإسلامي.

(٤) الخشني: هو محمد بن عبد السلام الخشني أبو عبد الله.

(٥) الجبس (بالكسر): الجبان واللئيم.

(٦) العرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل وتأكيده.

(٧) هو عمر بن عثمان بن عفان، وهذا الشعر لعبدالله بن الزبير (بفتح الزاي) من شعراء الدولة الأموية.

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي ﷺ: «**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

وقالت الحكماء: الكِرَام في اللئام كالغُرَّة في الفرس.

وقال السَّموأل:

تُعيِّرنا أنّا قليلٌ عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليلُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليل

وقال حبيب:

ولقد تكون ولا كريم ننالُه ... حتى نَخُوض إليه ألفَ لئيمِ

وقال دِعبل:

ما أكثر الناس لابَل ما أقلهمُ ... والله يعلم أنّى لم أقُل فَندَا
إني لأغلق عيني ثم أفتحها ... على كَثيرٍ ولكن ما أرى أحدا

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قولُ حبيب الطائي:

إنّ الجياد كثيرٌ في البلاد وإن ... قَلُّوا كما غيرُهم قُلٌّ وإن كَثُروا
لا يدهمنّك من دهمائهم عَجبٌ ... فإنَّ جُلَّهم أو كلَّهمُ بقر

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة**». انظر صحيح مسلم/كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ [١٩٢/٧] ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

والراحلة: البعير الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوي على الأحمال والأسفار. وسميت راحلة لأنها ترحل أي يجعل عليها الرحل. وقال الأزهري في معنى هذا الحديث أن الزاهد في الدنيا، الكامل الزهد فيها والرغبة في الآخرة قليل جدًّا كقلة الراحلة في الإبل.

وقال آخرون: إن معناه أن مرضيّ الأحوال من الناس الكامل الأوصاف قليل فيهم كقلة الراحلة في الإبل. انظر صحيح مسلم ج٤ كتاب فضائل الصحابة تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

وكلما أضحت الأخطار بينهمُ ... هَلكى تَبين من أضحى له خَطر
لو لم تُصادفْ شياتُ البَهم أكثر ما ... في الخيل لم تُحمد الأوضاح والغُرَر[١]

من جاد أولاً وضنَّ آخرًا

نزل أعرابيٌ برجل من أهل البَصرة، فأكرمه وأحسن إليه، ثم أمسك. فقال الأعرابي:

تَسرَّى فلما حاسَبَ المرءُ نفسَه ... رأى أنه لا يستقرُّ له السَّرُو[٢]

وكان يزيد بن منصور يُجري لبشار العُقيلي وظيفةً في كل شهر، ثم قطعها عنه فقال:

أبا خالد ما زلتَ سابحَ غَمرَةٍ ... صغيرًا فلما شِبت خيّمت بالشاطِي[٣]
جريتَ زماناً سابقاً ثم لم تزل ... تأخّرُ حتى جئت تقطو مع القاطي[٤]
كسِنَّور عبد الله[٥] بيع بدِرهم ... صَغيراً فلما شَبَّ بيع بِقيراط

وقال مُسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد:

أبا حَسنٍ قد كنت قدَّمت نعمةً ... وألحقتُ شُكرًا ثم أمسكت وانيا
فلا ضَيرَ لم تَلحقك منّي مَلامةٌ ... أسأت بنا عَوداً وأحسنتَ باديا
فأقسم لا أجزيك بالسّوء مثلَه ... كَفى بالذي جازيتَني لك جازيا

---

(١) الشيات: جمع شية، وهي سواد في بياض أو بياض في سواد. والأوضاح، جمع وضح، وهو التحجيل في القوائم. والغرر: جمع غرة، وهو بياض في الجبهة.

(٢) تسرى تكلف السرو، وهو المروءة في شرف.

(٣) خيم: أقام.

(٤) القاطي: الثقيل المشي، أو الذي يقارب في مشيه.

(٥) سنور عبد الله يضرب مثلا لمن يكون مرجواً في صغره فإذا كبر تراجع ولم يفلح.

من ضن أولاً ثم جاد آخراً

قدم الحارث بن خالد المَخزوميّ على عبد الملك فلم يصِله، فرجع وقال فيه:

صحبتُـك إذ عَينى عليهـا غِشـاوةٌ فلما انجلَت قطَّعتُ نفسي ألـومُها
حَبَستُ عليـك النفسَ حتى كأنـما بكَـفّيـك يَجرى بُؤسهـا ونَعيمهـا

فبلغ قولُه عبد الملك، فأرسل إليه فردّه، وقال: أرأيتَ عليك غَضاضة من مقامك ببابي؟ قال: لا، ولكني اشتقت إلى أهلي ووطني، ووجدت فضلاً من القول فقلت: وعليّ دَين لزمني. قال: وكم دَينك؟ قال: ثلاثون ألفاً. قال: فقضاء دينك أحبّ إليك أم ولاية مكة؟ قال: بل ولاية مكة. فولاه إياها.

وقدم الحطيئةُ المدينة فوقف إلى عُتَيبة بن النَّهّاس العجليّ فقال: أعطني. فقال: مالك عندي فأُعطيَكه، وما في مالي فضل عن عيالي، فأعودَ به عليك. فخرج عنه مُغضباً. وعـرّفه به جلساؤه، فأمر برده، ثم قال له: ياهذا إنك وقفت إلينا فلم تستأنس ولم تسلم، وكتمتنا نفسك، كأنك الحُطيئة؟ قال: هو ذلك. قال: اجلس، فلك عندنا كل ما تُحب. فجلس، فقال له: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروفَ من دون عِرضه يَفِـره[1] ومـن لا يتَّق الشتمَ يُشتَمِ

يعنى زُهيرا: قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

من يَسـأل الـنـاسَ يحرمـوه وسـائـلُ الله لا يَخيـبُ

يعني عَبيداً. قال: ثم من؟ قال: أنا.

فقال لوكيله: خُذ بيد هذا فامضِ به إلى السوق، فلا يُشيرنّ إلى شيء إلا اشتريته له، فمضى معه إلى السوق، فعرضَ عليه الخز والقَز، فلم يلتفت إلى شيء منه وأشار إلى الأكسية والكـرابيس[2] الغِـلاظ والأقبية. فاشـترى له منهـا حاجته، ثم قال:

---

(١) يفره: يوفره.

(٢) الكرابيس: جمع كِرْبـس (بالكسر). وهو ثوب غليظ من القطن الأبيض، معرب.

أمسك. قال: فإنه قد أمرني أن أبسط يدي بالنفقة، قال: لا حاجة في أن يكون له على قومي يَدٌ أعظم من هذه، ثم أنشأ يقول:

سُئِلتَ فلم تَبخل ولم تُعطِ طائلاً ... فسيّانِ لاذَمٌ عليك ولا حَمد
وأنت أمرؤ لا الجودُ منك سَجيَّة ... فتُعطي وقد يُعدِي[1] على النائِل الوُجد

من مدح أميراً فخيبه

قال سَعيد بن سَلم[2]: مدحني أعرابيٌّ فأبلغ، فقال:

ألا قُل لساري اللَّيل لا تَخش ضِلّة ... سعيدُ بن سَلم نورُ كل بلادِ
لنا سيّد أربَى على كلّ سيّد ... جوادٌ حَثَا في وجه كلّ جواد[3]

قال: فتأخرتُ عنه قليلا. فهجاني فأبلغ، فقال:

لكلِّ أخي مَدح ثوابٌ علمتهُ ... وليس لمدح الباهلي ثوابُ
مَدحتُ سعيدًا والمديحُ مَهزَّةٌ ... فكان كصَفوان[4] عليه تُراب

ومدح الحسنُ بن رجاء أبا دُلف فلم يُعطه شيئاً، فقال:

أبا دُلف ما أكذبَ الناس كلّهم ... سِوايَ فإني في مَديحك أكذب

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

إني مدحتُك كاذباً فأثبَتني ... لمّا مدحتُك ما يُثاب الكاذِبُ[5]

وقال آخرُ في مثل هذا المعنى:

لئن أخطأتُ في مَدحيـ ... ـك ما أخطأتَ في مَنْعِي

---

(١) يعدى: يعين. والوجد: اليسار والسعة.

(٢) هو سعيد بن مسلم بن قتيبة.

(٣) يريد: حثا التراب في وجوه الأجواد. وذلك كناية عن تقصيرهم عنه في العطاء شبهه فالجواد السابق الذي يثير الغبار في وجوه الخيل اللاحقة.

(٤) الصفوان: الحجر الصلد الأملس لا ينبت شيئاً.

(٥) ما يثاب الكاذب: أي ثواب الكاذب.

لقـد أحـللتُ حاجـاتي بـوادٍ غيـرِ ذي زَرعِ

ومَدح حبيبٌ الطائي عياش بن لَهيعة، وقدِم عليه مصر، واستسلفه مائتي مِثقال. فشاور فيها زوجته، فقالت له: هو شاعر يَمدحك اليوم، ويهجوك غدًا، فاعتلَّ عليه واعتذرَ إليه ولم يقض حاجتَه. فقال فيه:

عيّـاش إنـك للئـيـم وإنّـني مُذ صِرتَ موضـع مطلبي للئيـمُ

ثم هجاه حتى مات. وهجاه بعد موته.

ومن قولنا في هذا المعنى، سألت بعض موالي السلطان إطلاق محبوس فتلكّأ فيه، فقلت:

حاشـا لِمثـلك أن يَفُـكّ أسـيرا أو أن يكـون من الـزمـان مُجيرا
لَبست قوافي الشعـر فيـك مَدارعـاً سُوداً وصَكَّت أوجُـهـاً وصُـدورا
هَلّا عَطفـت برحمـة لمّا دَعَـت ويـلاً عليـك مدائـحي وثُبـورا
لو أن لُؤمـك عادَ جُوداً عُشرُه ما كان عنـدك حاتـمٌ مذكـوراً

قال: ومدح ربيعة الرّقّي يزيدَ بن حاتم الأزديّ، وهو والي مصر فاستبطأه ربيعة. فشخص عنه من مصر وقال:

أُراني ـ ولا كُفْـران لله ـ راجـعـاً بخُـفي حُنـين من نَوال ابن حاتمِ

فبلغ قولُه يزيد بن حاتم. فأرسل في طلبه، فرُد إليه فلما دخل عليه قال له: أنت القائل:

أُرانـي ولا كُفـران لله راجعـًا

قال: نعم؛ قال: فهل قلتَ غير هذا؟ قال: لا والله؛ قال: لترجعنَّ بخُفي حُنين مملوءة مالا، فأمر بخَلْع نَعليه، ومُلئت له مالا. فقال فيه لما عُزل عن مصر ووُلِّيَ يزيد ابن أسيد السُّلمي[1] مكانه:

بكى أهـل مصر بالدموع السواجم غداةً غَدا منهـا الأغـرُّ ابنُ حاتمِ

---

(١) وهو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) بن زفر بن أسماء بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة.

أجواد أهل الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجُود في الجاهلية ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهَرم بن سِنان المُرِّي، وكعب بن مامةَ الإيادي.

ولكن المضروب به المثل: حاتم وحده، وهو القائل لغلامه يَسار، وكان إذا اشتد البرد وكَلِب الشتاء أمر غلامه فأوقد نارًا في يَفاع[١] من الأرض لينظُر إليها مِن أضلِّ الطريق ليلاً فيَصمِد نحوه، فقال في ذلك:

أوقد فإن الليلَ ليلٌ قَرُّ ... والريحَ يامُوقد ريحٌ صِرُّ
عسى يَرى نارَكَ من يَمُرّ ... إن جلبتْ ضيفاً فأنت حُرّ

ومَرَّ حاتم في سَفِره على عَنَزة، وفيهم أسير. فاستغاث بحاتم ولم يحضُره فَكاكه، فاشتراه من العنزيين وأطلقه، وأقام مكانَه في القَيد حتى أدّى فِداءه وقالوا: لم يكن حاتم ممسكا شيئاً ما عدا فرسَه وسلاحَه، فإنه كان لا يجود بهما.

وقالت نَوار امرأة حاتم: أصابتْنا سنة، اقشعرَّت لها الأرض، واغبرَّ أفق السماء، وراحت الإبل حُدبا حدابير[٢] وضنّت المراضع على أولادها فما تَبضّ بقطرة، وحلَقت[٣] السنة المال وأيقنا بالهلاك. فوالله إنّا لفي ليلة صِنَّبر[٤]، بعيدةِ ما بين الطَّرفين، إذ تضاغى[٥] صِبيتنا جُوعا، عبد الله وعديّ وسَفّانة، فقام حاتم إلى الصبيَّين، وقمت أنا إلى الصبيَّة، فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعلّلني بالحديث، فعرفتُ مايريد فتناومتُ، فلما تَهوّرت[٦] النجوم، إذا شيء قد رفع

---

(١) اليفاع (كسحاب): التل.

(٢) الحدابير: جمع حدبار وحدبير (بالكسر فيهما)، وهي الناقة الضامرة.

(٣) أي أهلكته واستأصلته.

(٤) صنبر: شديدة البرد.

(٥) تضاغى: صاح.

(٦) تهورت: ذهبت وولت.

كِسر[١] البيت ثم عاد؛ فقال: من هذا؟ قالت: جارتُك فلانة، أتيتُك من عند صبية يتعاوون عُواء الذئاب، فما وجدتُ معوِّلا إلا عليك ياأبا عديّ. فقال: أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم. فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي جانبيها أربعة، كأنها نعامة حولها رئالها. فقام إلى فرسه فوجأ لَبّته بمدية فخر، ثم كشطه عن جلده، ورفع المدية إلى المرأة، فقال لها: شأنَك. فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحي يأتيهم بيتاً بيتاً، فيقول: هُبُّوا أيها القوم عليكم بالنار، فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحية ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منه مُزعه[٢]، وإنه لأحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر، فأنشأ حاتم يقول:

مَهلاً نَوار أقلي اللومَ والعَذَلا ... ولا تقُولي لشيء فاتَ ما فَعلا
ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلكَه ... مهلاً وإن كنت أُعطى الإنس والخَيلا[٣]
يرى البخيلُ سبيلَ المال واحدة ... إنَّ الجواد يرى في ماله سُبلا

ورُئي حاتم يوماً يضرب ولَده لما رآه يضرب كَلبة كانت تدل عليه أضيافه، وهو يقول:

أقول لابني وقد سُطتُ يديه ... بكَلبة لا يزال يَجلِدُها
أوصِيك خيراً بها فإن لها ... عندي يداً لا أزال أحمدها
تَدُل ضَيفي عليَّ في غَلَس الـ ... ـلَيل إذا النار نام موقِدها

ولحاتم بن عبد الله أيضا:

أماويّ قد طال التجنُّبُ والهَجر ... وقد عَذَرتنا عن طِلابكم العُذرُ
أماويّ إنّ المال غادٍ ورائحٌ ... ويَبقى من المال الأحاديثُ والذِّكر
أماويَّ إما مانع فمُبينٌ ... وإما عَطاء لا ينهنهه الزَّجر
أماويَّ إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حَل في ماليَ النَّذْرُ

---

(١) يريد الشقة السفلى من الخباء.

(٢) المزعة (بالضم والكسر): القطعة من اللحم.

(٣) الخيل: الجن.

أماويّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى ... إذا حَشرجت يوما وضاق بها الصدر
تَري أن ما أنفقت لم يك ضرني ... وأن يدي مما بخلت به صفر
وقد يَعلم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراءَ المال كان له وَفر

وأمّا هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه:

متى تُلاق على عِلاّته هرِماً ... تَلقَ السماحة في خَلْق وفي خُلُق

وكان سنانٌ أبو هرم سيد غطفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مِتُ فشُقوا بطني فإن سيد غطفان فيه. فلما ماتت شَقُّوا بطنَها فاستخرجوا منه سِنانا. وفي بني سِنان يقول زهير:

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كَرم ... قومٌ بأوّلهم أو مَجدهم قَعدوا
جِنٌّ إذا فَزعوا إنْسٌ إذا أمِنُوا ... مُرزّءون بهاليلُ إذا قُصِدوا
مُحسّدون على ما كان من نِعم ... لا ينزع الله منهم ما له حُسِدوا

وقال زُهير في هرم بن سِنان:

وأبيضَ فيَّاض يداه غَمامةٌ ... على مُعتَفيه ما تُغبّ نوائله[1]
تراه إذا ما جِئته مُتهلّلاً ... كأنك تُعطيه الذي أنت سائله

وقال زهير في هرم بن سنانٍ وأهل بيته:

إليك أعملتُها فُتلا مَرافقُها ... شَهرين يَجهض من أرحامها العَلَق[2]
حتى دفَعن إلى حُلو شمائلُه ... كالغيث يَنبُت في آثاره الوَرق
المُطعمون إذا ما أزمةٌ أزمَت ... والطيبون ثِيابًا كلّما عَرقوا
كأنّ آخرهم في الجُود أوّلهم ... إن الشمائل والأخلاق تتفق

وقال فيهم أيضاً:

وفيهم مَقامات حِسَانٌ وجوهُهم ... وأندية يَنتابها القَول والفِعْلُ

---

(١) ما تغب: ما تتقطع.
(٢) العلق: الدم الجامد.

على مُكثريهم حق من يعتفيهم ... وعند المُقلين السماحةُ والبَذل
فما كان من خَير أتوه فإنما ... تَوارثه آباءُ آبائهم قَبْلُ
وهل يُنبِت الخَطِّيَ إلا وَشيجُه ... وتُغرَسُ إلا في مَنابتها النَّخل

وأما كعب بن مامةَ الإياديّ، فلم يأت عنه إلا ما ذكر من إيثاره رفيقه النَّمَري بالماء حتى مات عطشا ونجا النمريّ، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره وله يقول حبيب:

يجودُ بالنّفس إن ضَنَّ البَخيلُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجُودِ

وله ولحاتم الطائي يقول:

كعبٌ وحاتمٌ اللذان تقسَّما ... خطط العُلا من طارف وتَليدِ
هذا الذي خَلَف السحابَ ومات ذا ... في المجد مِيتة خِضرم[1] صِنديد

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحدَ عشر رجلاً في عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلُهم[2].

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عُبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد، وهم: عبد الله بن عامر بن كُريز وعُبيد الله ابن أبي بكرة، مولى رسول الله ﷺ ومسلم بن زيادة، وعُبيد الله بن مَعمر القُرشي، ثم التَّمي، وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخُزاعيّ، وله يقول

---

(١) الخضرم: الكريم.

(٢) أجودهم محمد عليه الصلاة والسلام ومن الصحابة رضوان الله عليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وجها وأجودهم كفا واشجعهم قلبا» متفق عليه.

الشاعر يرثيه، ومات بسجستان وهو والٍ عليها:

نَضَّر الله أعظُماً دَفنوها بسجستان طلحةَ الطلحاتِ

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتّاب بن ورقاء الرِّياحي وأسماءُ ابن خارجة الفَزَارى. وعكرمة بن رِبعي الفَيّاض.

فمن جود عبيد الله بن عباس

أنه أول من فَطّر جيرانَه، وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حَيَّا على طعامه، وأول من أنهبَه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفي السَّنة الشَّهباء أطعمت حامضًا وحُلواً ولحماً تامكا ومُمزَّعا[1]

وأنت ربيعٌ لليتامى وعِصمةٌ إذا المَحلُ من جَوِّ السماء تَطَلَّعا

ومن جوده: أنه أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه فقال: يابن عباس، إنّ لي عندك يدًا، وقد احتجتُ إليها. فصعَّد فيه بصرهَ وصوَّبه، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدُك عندنا؟ قال رأيتُك واقفاً بزَمزم وغُلامُك يَمتح[2] لك من مائها، والشمس قد صَهرتك، فظلّلتك بطَرف كسائي حتى شَربت قال: إنى لأذكر ذلك، وإنه يتردد بين خاطري وفِكري، ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف دِرهم؛ قال فادفعها إليه وما أراها تَفِي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيّد الأولين والآخرين محمدًا ﷺ، ثم شَفَعه بك وبأبيك.

ومن جوده أيضاً: أن الحُسين بن علي ضاقت عليه حاله. فقيل له: لو وَجهت إلى ابن عمك عُبيد الله، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف دِرهم. فقال الحُسين: وأين تقع ألف ألف من عُبيد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه ضِيقَ حاله، وأنه يحتاج إلى

---

(١) السنة الشهباء: التي لا خضرة فيها ولا مطر. وتامكا: مكتنزا. وممزعاً: مقطعا مفرقا.

(٢) المتح: الاستقاء.

مائة ألف درهم. فلما قرأ عبيد الله كتابه، وكان من أرق الناس قلباً وألينهم عطفا، انهملت عيناه، ثم قال: لقهرمانه: احمل إلى الحُسين نصفَ ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابّة، وأخبره أني شاطرته مالي، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشَّطر الآخر؛ فقال له القَيِّم: فهذه المؤن التي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمر يُقيم حالك. فلما أتى الرسولُ برسالته إلى الحسين، قال: إنّا لله حملت والله على ابن عمي وما حسبته يتسع لنا بهذا كله؛ فأخذ الشطر من ماله. وهو أول من فعل ذلك في الإسلام.

ومن جوده: أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النِّيروز حُللا كثيرة ومِسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم والله، إنّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام؛ فضحك عُبيد الله، وقال: فشأنك بها فهي لك. قال: جُعلت فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد عليّ. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن فإن حان خروجنا حملها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم ولوددتُ أنِّي لا أموت حتى أراك مكانه ـ يعني معاوية ـ فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه، قال: دع عنك هذا الكلام فإنا قوم نَفِي بما وَعدنا، ولا ننقض ما أكَّدنا.

ومن جوده أيضا: أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه، فقال له: تصدَّق، فإني نُبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه؟ فقال له: وأين أنا من عبيد الله؟ قال أين أنت منه في الحسب أم كثرة المال؟ قال: فيهما؛ قال: أما الحسب في الرجل، فمرُوءته وفِعله، وإذا شئت فعلت، وإذا فعلت كنت حسيباً، فأعطاه ألفي درهم واعتذر له من ضيق الحال؛ فقال له السائل: إن لم تكن عُبيد الله بن عباس فأنت خيرٌ منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خيرٌ منك أمس؛ فأعطاه ألفاً أخرى. فقال السائل: هذه هِزَّة كريم حسيب، والله لقد نقرتُ حبة قلبي فأفرغتها في قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضا: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يابن عم رسول الله ﷺ، إنه

وُلد لي في هذه الليلة مولود، وإني سمّيته باسمك تبرُّكا منيّ به، وإن أمّه ماتت. فقال عُبيد الله: بارك الله لك في الهِبة، وأجزل لك الأجر على المُصيبة، ثم دعا بوكيله، فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنّفقة على تربيته، ثم قال للأنصاري: عُد إلينا بعد أيام فإنك جِئتنا وفي العيش يُبس وفي المال قِلة. قال الأنصاري: لو سبقت حاتما بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدًا، ولكنه سَبقك، فصِرت له تالياً، وأنا أشهد أن عَفوك أكثر من مجهوده، وظَلّ كرمك أكثر من وابله.

جود عبد الله بن جعفر

ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمّار دخل على نخّاس يعرض قيانا له، فعلق واحدة منهن، فشُهِر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومجاهد يعذلونه، فكان جوابه أن قال:

يلومني فيكِ أقوامٌ أجالسهم ... فما أُبالي أطار اللّومُ أم وَقَعَا

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له هَمّ غيره، فحجّ فبعث إلى مولى الجارية، فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قَيّمة جواريه أن تُزيّنها وتحليها، ففعلت. وبلغ الناسَ قدومُه فدخلوا عليه، فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمّار زارنا! فأُخبر الشيخ، فأتاه مسلِّما. فلما أراد أن يَنهض استجلسه ثم قال: ما فَعل حُب فلانة؟ قال: في اللحم والدم والمُخ والعَصب. قال: أتعرفها لو رأيتها؟ قال: لو أدخلتُ الجنةَ لم أنكرها فأمر بها عبد الله أن تخرج إليه وقال له: إنما اشتريتها لك، ووالله ما دنوت منها، فشأنك بها، مُباركاً لك فيها. فلما وَلّى، قال ياغلام، احمل معه مائة ألف درهم ينَعم بها معها. قال: فبكى عبد الرحمن فرحا، وقال: يأهل البيت، لقد خصَّكم الله بشرف ما خصّ به أحداً قبلكم من صُلب آدم، فتهنئكم هذه النعمة، وبورك لكم فيها.

ومن جوده أيضا: أنه أعطى امرأة سألته مالاً عظيما. فقيل له: إنها لا تعرفك.

وكان يُرضيها اليسير. قال: إن كان يُرضيها اليسير فإني لا أرضى بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص

ومن جود سعيد بن العاص: أنه مرِض وهو بالشام، فعاده مُعاوية ومعه شُرحبيل ابن السمط ومُسلم بن عقبة المُرِّي، ويزيد بن شجرة الرّهاويّ، فلما نظر سعيدٌ معاويةَ وثب عن صدر مجلسه إعظاما لمعاوية، فقال له معاوية: أقسمت عليك أبا عثمان أن لا تتحرك، فقد ضَعُفت بالعلة، فسقط، فتبادر مُعاوية نحوه حتى حَنا عليه وأخذ بيده، فأقعده على فراشه وقعد معه، وجعل يسائله عن علته ومنامه وغذائه، ويصف له ما ينبغي أن يتوقاه، وأطال القعود معه. فلما خرج التفت إلى شرحبيل بن السِّمط، ويزيد بن شجرة، فقال: هل رأيتما خَللا في مال أبي عُثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئاً نُنكره. فقال لمُسلم بن عُقبة: ما تقول؟ قال: رأيت. قال: وماذاك؟ قال: رأيت على حَشمه ومواليه ثياباً وَسخة ورأيت صحن داره غير مكنوس، ورأيت التجار يُخاصمون قهرمانه. قال: صدقت، كل ذلك قد رأيته، فوجّه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف. فسبق رسولٌ يُبشره بها ويخبره بما كان، فغضب سعيد، وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسن فأساء، وتأوّل فأخطأ. فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركته اتسخ ثوبه؛ وأما كنس الدار فليست أخلاقنا أخلاق من جعل داره مرآته، وتزيّنه لُبْسه، ومعروفه عطره، ثم لا يبالي بمن مات هزلا من ذي لُحمة أو حرمة. وأما منازعة التجار قهرماني، فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدّا من أن يكون ظالما أو مظلوما؛ وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين، فوصلته كل ذي رحم قاطعة، وهنأتُه كرامته المُنعم بها عليه، وقد قَبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف، ولشرحبيل بن السمط بمثلها، وليزيد بن شجرة بمثلها، وفي سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعوّلنا.

فركب مُسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه. فقال: صدق ابن عمّي فيما قال:

وأخطأت فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لروح بن زِنباع عقوبة لك، فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها، كما أنه من فعل خيرًا كوفيء عليه.

ومن جوده: أن معاوية كان يداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة، فكان مروان يُقارضه[1]. فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك؟ ـ يعني مَروان ـ قال: تركته مُنفِّذاً لأمرك، مُصلحا لعملك. قال معاوية: إنه كصاحب الخُبزة كُفي إنضاجها فأكلها. قال: كلّا ياأمير المؤمنين، إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا. قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟ قال: خفتُه على شرفي وخافني على مثله. قال: فأي شيء كان له عندك؟ قال: أسوءه حاضراً وأسرُّه غائباً. قال: ياأبا عثمان، تركتنا في هذه الحروب. قال: حملت الثِّقل وكفيت الحزم. قال: فما أبطأ بك؟ قال: غِناك عني أبطأني عنك، وكنت قريباً، لو دعوت لأجبناك، ولو أمرت لأطعناك. قال: ذلك ظننا بك. فأقبل معاوية على أهل الشام، فقال ياأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم. ثم قال: أخبرني عن مالك، فقد نُبئت أنك تتجر فيه. قال: ياأمير المؤمنين، لنا مالٌ يخرج لنا منه فضل، فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلّته، وإن كان كثيراً فكذلك، غير أنا لا ندخر منه شيئاً عن معسر، ولا طالب، ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بفلذة لحم، ولا مزعة شحم. قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال: من السنة نصفها. قال: فما تصنع في باقيها؟ قال: نجد من يسلِّفنا ويسارع إلى معاملتنا. قال: ما أحد أحوج إلى أن يصلح من شأنه منك. قال: إن شأننا لصالح ياأمير المؤمنين، ولو زدت في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال. فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم، وقال: اشتر بها ضيعة تعينك على مروءتك. فقال سعيد: بل أشترى بها حمداً وذكراً باقياً، أطعم بها الجائع، وأزوج بها الأيم، وأفك بها العاني؛ وأواسي بها الصديق، وأصلح بها حال الجار. فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلة بعد الإيمان بالله هي أرفع في الذكر

---

(١) يقارضه، أي ينظر كل واحد منها إلى صاحبه شزرا.

ولا أنبه في الشرف، من الجود، وحسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجُود أحد صِفاته.

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعي، قال: كان سعيد بن العاص يسمرُ معه سُمّاره إلى أن ينقضي حين من الليل، فانصرف عنه القوم ليلة ورجلٌ قاعد لم يقُم. فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتك يافتى؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم، فأمر له بها. وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه.

جود عبيد الله بن أبي بكرة

ومن جود عبيد الله بن أبي بكرة: أنه أدلى إليه رجل بحرمة، فأمر له بمائة ألف درهم. فقال: أصلحك الله، ماوصلني أحدٌ بمثلها قط، ولقد قطعت لساني عن شكر غيرك، وما رأيت الدنيا في يد أحد أحسن منها في يدك، ولولا [الله ثم] أنت لم تبق لها بهجة إلا أظلمت ولا نورٌ إلا انطمس.

جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي

ومن جود عُبيد الله بن معمر القرشي: أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت في جميع ذلك، ثم إن الدهر قعد بسيدها ومال عليه. وقدم عبيد الله بن معمر البصرة من بعض وجوهه فقالت لسيدها: إني أريد أن أذكر لك شيئا أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أنه يسهل ذلك علي ما أرى من ضيق حالك، وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاحتياج، وضيق الحال، وهذا عبيد الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمت شرفه وفضله وسعة كفه وجود نفسه، فلو أذنت لي فأصلحت من شأني، ثم تقدمت بي إليه وعرضتني عليه هدية، رجوت أن يأتيك من مكافأته ما يقيلك الله به وينهضك إن شاء الله. قال: فبكى وَجْدًا عليها وجزعا لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبدًا. ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدي عبيد الله، فقال: أعزّك

الله، هذه جارية ربَّيتُها ورضيت بها لك فاقبلها مني هدية. فقال: مثلي لا يستهدي من مثلك، فهل لك في بيعها، فأجزل لك الثمن عليها حتى ترضى؟ قال: الذي تراه. قال: يُقنعك مني عشرة بدر، في كل بدرة عشرة آلاف درهم؟ قال: والله يا سيدي ما امتد أملي إلى عُشر ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف، وجودك المشهور. فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحِجاب. فقال سيدها: أعزك الله لو أذنت لي في وداعها؟ قال: نعم. فوقفت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوح بحزن من فراقك مُوجعٍ ... أقاسِي به ليلاً يطيل تفكُّري
ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يُفرقنا شيءٌ سوى الموت فاعذري
عليك سلامٌ لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن مَعمر

قال عبيد الله بن معمر: قد شئت ذلك، فخذ جاريتك، وبارك الله لك في المال. فذهب بجاريته وماله، فعاد غنيًّا.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسمينا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شهروا بالجود وعُرفوا بالكرم، وحُمدت أفعالهم. وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد

فمنهم الحكم بن حنطب (١)

قيل لنُصيب بن رباح: خَرف شعرك أبا محجن؛ قال: لا، ولكن خرف الكرم، لقد رأيتني ومدحت الحكَم بن حَنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة نَاقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابي الحكم بن حنطب، فأعطاه خمسمائة دينار؛ فبكى الأعرابي

---

(١) هو الحكم بن المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب.

فقال: ما يبكيك ياأعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا والله، ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك، ثم أنشأ يقول:

وكأن آدم حين حان وفاتُه ... أوصاك وهو يَجُود بالحوباء[1]
بِبنيه أن ترعاهُم فرعيتَهم ... وكَفَيْتَ آدمَ عيلة الأبناء

العُتبيّ قال: أخبرني رجلٌ من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حَنطب، وهو مُملق فأغنانا. قال له: كيف أغناكم وهو مملق؟ قال: علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا.

ومنهم معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حَدِّث عن البحر ولا حرج، وحدث عن معن ولا حرج. وأتاه رجلٌ يسأله أن يحمله، فقال: ياغلام، أعطه فرساً وبرذوناً وبغلا وعيرًا وبعيرًا وجارية، وقال: لو عرفتُ مَركوبا غير هؤلاء لأعطيتُك.

العُتبيّ قال: لما قَدِم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضادتي الباب[2]، فأنشده شعره الذي قال فيه:

فما أحجم الأعداءُ عنك بَقيةً[3] ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الحتفُ والجُود فيهما ... أبىٰ الله إلا أن يَضُرَّ وينفعا

ومنهم يزيد بن المهلب

وكان هشام بن حسَّان إذا ذكره قال: والله إن كانت السُّفن لتجري في جوده.

وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني دارًا؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحَبس.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده:

---

(١) الحوباء: النفس.

(٢) عضادتا الباب: خشبتان من جانبيه.

(٣) يريد بالبقية: الإبقاء.

صَحّ في قَيدك السماحةُ والجو د وَفكُّ العُناة والإفضالُ

قال: أتمد حني وأنا في هذه الحال؟ قال: أصبتُك رخيصاً فاشتريتُك فأمر له بعشرة آلاف.

وقال سُليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير: أغرَم ديتَك خمسين مرة. قال: ليس عندي ما أغرم. قال: والله لتغرمنَّ ديتك مائة مرة. قال يزيد بن المُهلب: أنا أغرمها عنه ياأمير المؤمنين. قال: أغرم. فغرمها عنه مائة ألف.

الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المُهلب قومٌ من قضاعة من بني ضنَّة، فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتَنا طَلبُ إليك من الذي نَتطلَّبُ
ولقد ضَربنا في البلاد فلم نجد أحدًا سواكَ إلى المَكارم يُنسبَ
فاصبِر لعادتنا التي عودتَنا أو لا فأرشدنا إلى من نَذهب

فأمر له بألف دينار. فلما كان في العام المُقبل وفَد عليه فقال:

مالي أرى أبوابَهم مهجورةً وكأن بابك مجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شامُوا النَّدى بيَديك فاجتمعُوا من الآفَاقَ
إنّى رأيتُك للمكارم عاشِقاً والمَكرُماتُ قليلةُ العُشاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومر يزيد بن المُهلب في طريق البصرة بأعرابية فأهدت إليه عنزا فقبلها، وقال لابنه معاوية: ما عندك من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها. قال: إنها لا تعرفك ويرضيها اليسير. قال: إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي، وإن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

ومنهم يزيد بن حاتم

وكتب إليه رجلٌ من العلماء يَستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم، وكتب إليه: أما بعد، فقد بَعثتُ إليك بثلاثين ألفاً لا أُكثِّرها امتناناً، ولا أقلِّلها تجبُّراً، ولا أستثيبك عليها ثناءً، ولا أقطع لك بها رجاءً، والسلام.

وكان ربيعة الرقيّ قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم الأزديّ، فلم يعطه شيئا، فخرج وهو يقول:

أراني ـ ولا كُفــران لله ـ راجــعــا ... بِخُـفّي حُنــين من نوال ابنِ حاتمِ

فسأل عنه يزيد، فأخبر أنه قد خرج، وقال كذا، وأنشد البيت؛ فأرسل في طلبه، فأتى به، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فقال: شُغلنا عنك. ثم أمر بخفيه فخلعتا من رجليه ومُلئتا مالاً، وقال: ارجع بها بدلا من خُفي حُنين. فقال فيه لمَّا عُزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن أُسيد:

بَكى أهـلُ مصر بالدُّموع السَّواجم ... غداة غدا منهــا الأغــرُّ ابـنُ حاتِم

وفيها يقول:

لشتَّـان ما بين اليـزيـدين في النَّدى ... يزيــد سُليـم والأغــرِّ ابـن حاتـم
فهـمُّ الـفتى الأزديِّ إتـلافُ مالِــه ... وهــمُّ الفتى القيسيِّ جمع الــدراهم
فلا يَحسب التَّمتــام أني هجــوتُــه ... ولـكـنَّـني فضّـلت أهــل المَكــارم

وخرج إليه رجلٌ من الشعراء يمدحه، فلما بلغ مصر وجده قد مات، فقال فيه:

لئـن مصرُ فاتـتـني بما كنـت أرتجـي ... وأحلفني منهــا الــذي كنتُ آمــلُ
فما كلّ ما يخشـى الـفـتى بمُصيبــه ... ولا كل ما يرجــو الفتى هُو نائــلُ
ومــا كان بيـني لو لقِـيتُــك سالمــا ... وبــين الـغِـنَـى إلا لَيــالٍ قلائــلُ

ومنهم أبو دُلَف

واسمه القاسم بن إسماعيل، وفيه يقول عليُّ بن جَبلة:

إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ ... بَين مَبداهُ ومُحتضَره[١]
فإذا ولّى أبو دُلَف ... ولّتِ الدُّنيا على أثَره

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة[٢]:

الله أجرى من الأرزاق أكثرها ... عَلى العباد على كَفَّي أبي دُلَف
بارَى الرياح فأعطى وهي جاريةٌ ... حتى إذا وقفت أعطى ولم يَقِف
ما خَطَّ «لا» كاتِباه في صَحيفته ... يوماً كما خُطّ «لا» في سائر الصُّحف

فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخرُ فقال له:

يُشبهه الرعدُ إذا الرعدُ رَجَف ... كأنه البرقُ إذا البرقُ خَطَف
كأنه الموتُ إذا الموتُ أزَف ... تَحمِله إلى الوغى الخيلُ القُطُف[٣]
إن سار سار المجدُ أو حَلَّ وقَف ... انظر بعينيك إلى أسنى الشّرف
هل ناله بقُدرةٍ أو بكُلف ... خَلقٌ من الناس سِوَى أبي دُلَف

فأعطاه خمسين ألفاً.

ومن أخبار معن بن زائدة

قال شَرَاحيل بن مَعن بن زائدة:

حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي، وكنتُ كثيراً ما أسايره، إذ عرض له أعرابيٌّ من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وأفرط؛ فقال له هارون: ألم أنهك عن

---

(١) مبداه ومحتضره، يريد: حلوله البدو وحلوله الحضر.

(٢) الشاعر هو علي بن جبلة.

(٣) القطف: جمع قطوف، وهي الفرس تقارب الخطو في سرعة..

مثل هذا في مدحك يا أخا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقُل كقول القائل في أب هذا:

بنو مَطَر يومَ اللقاء كأنّهم ... أُسودٌ لها في غِيل خفَّان[١] أشبُلُ
هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنما ... لجارهمُ بين السِّماكين مَنزل
بهَاليل[٢] في الإسلام سادُوا ولم يكُن ... كأولهم في الجاهلية أوَّل
وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن أحسنوا في النّائبات وأجمَلُوا
هُمُ القومُ إن قالوا أصابُوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

ومنهم خالد بن عبد الله القسري

وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إلى خالدٍ حتى أنحن بخالدٍ ... فنِعم الفَتى يُرجَى ونِعم المُؤمّلُ

وبينا خالد بن عبد الله القَسريّ جالس في مِظلة له إذ نظر إلى أعرابي يَخبّ به بعيرُه مقبلا نحوه، فقال لحاجبه: إذا قَدِم فلا تَحجبُه. فلما قدم أدخله عليه فسلم وقال:

أصلحك الله قَلّ ما بيدِي ... فما أُطيق العِيالَ إذ كَثروا
أناخ دهرٌ ألقى بكَلكَلِه ... فأرسلُوني إليك وانتظروا

فقال خالد: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تَنصرف إليهم بما يَسُرهم، وأمر له بجائزة عظيمة وكُسوة شريفة.

ومنهم عدي بن حاتم

دخل عليه ابنُ دارة فقال: إني مدحتُك؟ قال: أمسك حتى أتيك بمالي، ثم امدحني على حسبه، فإني أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول، لي ألفُ شاة وألف دِرهم وثلاثة أعْبُد وثلاث إماء وفَرسي هذا حُبِس في سبيل الله، فامدَحني على حسب ما أخبرتُك. فقال:

---

(١) خفان (كحسان): موضع كثير الغياض قرب الكوفة.

(٢) في نسخة: جمع لهميم، وهو السابق الجواد.

تَحِنُّ قَلوصي في مَعَدٍّ وإنما ... تُلاقي الربيع في ديار بني ثُعَلْ
وأبقى الليالي من عدي بن حاتمٍ ... حُساماً كنصل السيف سُلَّ من الخلل[1]
أبوك جوادٌ لا يُشق غُباره ... وأنت جوادٌ ما تَعذَّر[2] بالعِلَلْ
فإن تَتقوا شرًّا فمثلكم اتّقى ... وإن تفعلوا خيراً فمثلكُم فَعَلْ

قال له عَدِيّ: أمسك لا يبلغ مالي أكثرَ من هذا.

أصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مُسلم الباهليّ قال:

قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه جُبة حِبرة ورِداءٌ يَمان، قد شدّه على وسطه، ثم ثَناه على عاتقه، وعمامتهُ، قد عصبها على فودَيه، وأرخى لها عَذَبة من خَلفه. فمثلَ بين يدي الرشيد. فقال سعيد: ياأعرابي. خُذ في شرف أمير المؤمنين. فاندفع في شعره. فقال الرشيد: ياأعرابي، أسمعك مُستحسناً وأنكرك مُتهما، فقل لنا بيتين في هذين: - يعني محمدًا الأمين وعبد الله المأمون ابنيه وهما عن حِفافيه - فقال: ياأمير المؤمنين، حملتني على الوَعر القَردد[3]، ورجعتني عن السهل الجَدَد[4]، رَوعة الخلافة، وبُهر الدرجة، ونفور القوافي على البديهة، فأرودني تتألف لي نوافرُها، ويسكن روعي. قال: قد فعلتُ، وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك. قال: ياأمير المؤمنين، نَفّست الخِناق، وسهّلت مَيدان السِّباق؛ فأنشأ يقول:

بَنيتَ لعَبد الله ثم محمّدٍ ... ذُرَى قُبّة الإسلام فاخضر عُودُها
هما طُنُباها[5] بارَك الله فيهما ... وأنت أمير المؤمنين عَمودُها

---

(١) الخلل جمع خلة (بالكسر)، وهي جفن السيف المغشى بالأدم.
(٢) ما تعذر، يريد ما تتعذر.
(٣) القردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.
(٤) الجدد (محركة): الأرض الغليظة المستوية.
(٥) الطنب (بضمتين): حبل طويل يشد به سرادق البيت، أو هو الوتد.

فقال الرشيد: وأنت ياأعرابيّ، بارك الله فيك، فَسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك. قال: الهُنَيدة[١] ياأمير المؤمنين. فأمر له بمائة ناقة وسَبع خِلَع.

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن يمينه الوليدُ، وعن يساره سُليمان. فقال له عبد الملك: ماذا بَقي ياأبا المُغيرة؟ قال: مَضى ما مضى وبقي ما بَقى وأنشأ يقول:

وما أنا في حَقِّي ولا في خُصومتي ... بمُهتضَمٍ حقِّي ولا قارعٍ سِنّي
ولا مُسلم مَولاي من سُوء ما جنَى ... ولا خائف مولاي من سُوء ما أجني
وفَضلي في الأقوال والشعر أنّني ... أقولُ الذي أعني وأعرفُ ما أعني
وأنّ فؤادي بين جَنبيّ عالمٌ ... بما أبصرت عَيني وما سَمِعت أذنَي
وأني وإن فَضَّلت مَرَوان وابنَه ... على الناس قد فضَّلت خير أبٍ وابنِ

فضحك عبد الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

العُتبيّ قال:

دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثَّقفي بن أم الحكم، فقال له عبدُ الرحمن: أبا فِرَاس، دعني من شعرك الذي لا يأتي آخرُه حتى يُنسى أوَّلُه، وقُل فيّ بيتين يعلقان أفواه الرُّواة، وأعطيكها عطيةً لم يُعطِكها أحدٌ قبلي. فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابن بَطحاوَي قُريش[٢] فإن تَشأ ... تكُن في ثَقيف سَيل ذى حَدَب غمْر[٣]
وأنت ابنُ فَرعٍ ماجدٍ لِعَقيلةٍ ... تَلقت له الشمس المُضيئة بالبَدرِ[٤]

قال: أحسنتَ. وأمر له بعشرة آلاف.

---

(١) الهنيدة: اسم للمائة من الإبل، أو لما فوقها ودونها.

(٢) سميت قريش في الجاهلية قريش البطحاء، وهم الذين كانوا ينزلون الشعب بين أخشبي مكة؛ وقريش الظواهر، وهم الذين كانوا ينزلون خارج الشعب. وأكرمها قريش البطاح. فالمراد ببطحاوي: بطحاء قريش. وقيل أراد أعلى مكة وأسفلها، أي عبد شمس وبني هاشم.

(٣) الحدب: الحدور في صبب.

(٤) يريد بالشمس والبدر: أمه وأباه. وله، أي لأجله.

أبو سُويد قال: أخبرني الكُوفيّ قال:

اعترض الفضل بن يحيى بن خالد في وقت خُروجه إلى خُراسان فتىً من التجار كان شَخَص إلى الكوفة، فقُطِع به، وأخذ جميعُ ما كان معه، فأخذ بعِنان دابّة الفضل وقال:

سأُرسِل بَيتاً ليس في الشعر مثله ... يُقطِّع أعناق البُيوت الشَّواردِ
أقام النَّدى والبأسُ في كلِّ منزل ... أقامَ به الفضلُ بن يحيى بن خالدِ

قال فأمر له بمائة ألف درهم.

العُتبيّ: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبياتاً ورفعها إلى زبيدة بنت جعفر يمتدح ابنها محمداً، وفيها يقول:

لله دَرُّكِ يا عَقيلة جَعفرٍ ... ماذا ولدت من العُلا والسُّودَدِ
إنّ الخلافة قد تبيّن نُورها ... للناظِرين على جَبين مُحمَّدِ

فأمرت أن يُملأ فمُه دُرًّا.

عرض رجل لابن طوق، وقد خرج متنزهاً في الرحبة، فناوله رقعةً فيها جميع حاجته، فأخذها فإذا فيها:

جعلتُك دُنياي فإن أنت جُدت لي ... بخير وإلا فالسَّلام على الدُّنيا

فقال: والله لأُصدِّقن ظنك. فأعطاه حتى أغناه.

وخرج عبد الله بن طاهر الخُراساني فتلقاه دِعبل بن علي الشاعر برقعة فيها:

طلعت قَناتُك بالسعادة فوقَها ... مَعقودةً بلواء مُلكٍ مُقبلِ
تَهتزّ فوق طَريدتَين كأنما ... تَهفُو يُقَصّ لها جَناحا أجْدلِ
رَبِح البَخيلُ على احتيالٍ عرضه ... بنَدى يدَيك ووجهك المتهللِ
لو كان يَعلم أن نَيْلك عاجلٌ ... ما فاض منه جَدْوَل في جَدولِ

فأمر له بخمسة آلاف.

القَحذَميّ قال:

جاء موسى شهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، فقال: إنّ هنا جارية

خطبتها، وأبَوا أن يَنقصُوني عن مائتي دينار. فقال: بورك فيه. فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسِيد، وأمه عائشة بنت طلحة الطَّلحات[١]، فدَعا بمطرف خَزّ فبسطه وعقد في كل رُكن من أركانه مائة دينار، وقال لموسى: خذِ المِطرف بما فيه، فأخذه، ثم غدا عليه فأنشده:

أبـا خالـدٍ أعني سعيـدَ بن خالـدٍ ... أخا العُرف لاأعني ابن بِنت سَعيدِ[٢]
عَميدَ الندى ماعاش يرضى به الندَى ... فإن مات لم يرضَ النـدى بعَميـد
دَعُـوه دَعُـوه إنـكـم قد رَقـدتـمُ ... ومـا هو عن أحسـابكم برَقُـودِ

الأصمعيّ قال: حدّثني رُؤبة قال: دخلت على أبي مُسلم صاحب الدعوة، فلما أبصرني نادى: يارؤبة، فأجبته:

لبَّـيـك إذ دعـوتـني لبَّـيـكـا ... أحمـدُ ربًّـا ساقَـني إلـيـكـا

ثم قلت: يأذن لي الأمير في الإنشاد؟ قال: نعم، فأنشدته:

مازال يأتي المُـلك من أقـطاره ... وعـن يَمـيـنـه وعـن يَسـارِهِ
مُشـمِّـرًا لا يُصـطلى بنَـاره ... حتـى أقـرَّ المُـلكَ في قَراره

فقال: يارؤبة، إنك أتيتنا وقد شفّ المالُ واستنفده الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة وهي تافهة يَسيرة، ومنك العَود وعلينا المُعوَّل، والدهرُ أطرقُ مُستَتِبٌّ[٣] فلا تجعل بيننا وبينـك الأسِدَّة. قال رُؤبة: فقلت: الذي أفادني الأميرُ من كلامه أكثرُ من الذي أفادني من ماله.

دخل نُصيب بن رباح على هشام فأنشده:

إذا استبق النـاسُ العُـلا سَبَقَتهمُ ... يمينُـك عَفـواً ثم صَلَّت شِمالَـكَ

فقـال هشام: بلغتَ غاية المدح فسَلني. فقال: ياأمير المؤمنين، يداك بالعطيّة أطلقُ من لسـاني بالمسألة؟ قال: لابد أن تفعل؟ قال: لي ابنة نفضتُ عليها من

---

(١) طلحة الطلحات: هو أبو محمد طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي.

(٢) ابن بنت سعيد: هو سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وأمه بنت سعيد بن العاص.

(٣) أطرق مستتب: الضعيف الذليل وهو من أوصاف البعير.

سَوادي فكَسدها، فلو أنفقها أمير المؤمنين بشيء يجعله لها؟ قال: فأقطعها أرضاً، وأمر لها بحُلي وكُسوة.

الرِّياشي عن الأصمعي، قال: مَدح نُصيب بن رَباح عبد الله بن جعفر، فأمر له بمال كثير، وكُسوة شريفة، ورَواحل مُوقَرة بُرًّا وتَمرا. فقيل له: أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما لئن كان عبدًا إن شِعرَه فيّ لحُرّ، ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يفنى، وثيابا تَبلى، ورواحل تنضى، وأعطى مديحا يُروى، وثَناء يَبقى.

وذكروا عن أبي النَّجم العجليّ أنه أنشد هِشاماً شعره الذي يقول فيه:

الحمـــدُ لله الـوهـــوب المُجـــزِل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشمـسُ في الجـوّ كَعَينِ الأحْـوَلِ

وكان هشامٌ أحولَ، فأغضبه ذلك، فأمر به فطُرِد. فأمّل أبو النَّجم رَجعتَه، فكان يأوى إلى المسجد. فأرق هِشام ذاتَ ليلة فقال لحاجبه: ابغني رجلاً عربيا فصيحا يُحدثني ويُنشدني. فطلب له ما سأل، فوجد أبا النّجم، فأتى به. فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: حيثُ ألفاني رسولُك. قال: فمن كان أبا النجم أبا مَثواك؟ قال: رجلين أتغدَّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر. قال: فما لك من الوَلد؟ قال: ابنتان. قال: أزوجتَهما؟ قال: زوَّجت إحداهما. قال: فما حال الأخرى؟ قال: هي ظلّامة التي أقول فيها:

كأن ظلّامـة أخـتَ شيـبـان ... يَتـيـمـة ووالـداهـا حَيَّـان
الـرأس قَمْـل كله وصِئـبـان ... ولـيس في الـرِّجلين إلا خيـطان

قال هشـام لحاجبـه: ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقَبضها؟ قال: هي عنـدي، وهي خمسمائة دينار. قال له: ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رِجْلَي ظلّامة مكان الخيطين.

أبو عُبيدة قال: حَدَّثني يونس بن حَبيب قال:

لما استُخلف مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنّئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماما، وجعلك لأحكام دينه قِواما، ولأمة محمد المصطفى جُنّة ونظاما، ثم أنشده شعره الذي يقول فيه:

تَسوء عداك في سَداد وَنعْمةٍ ... خلافتُنا تِسعين عاما وأشهرَا

فقال مروان: كم الأشهر؟ قال: وفاء المائة ياأمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة، وأسعد عاقبة في النُّصرة والتمكين. فأمر له بمائة ألف درهم.

ثم تقدَّم إليه ذو الرّمة مُتحانياً كَبْرَةً[1] قد انحلت عمامته مُنحدرةً على وجهه، فوقف يُسوِّيها. فقيل له: تقدَّم. قال: إني أُجلُّ أمير المؤمنين أن أخطُب بشَرفه مادحاً بلوثة عِمامتي فقال مَروان: ما أمَّلت أنه قد أبقت لنا منك مَيّ ولا صَيدح[2] في كلامك إمتاعاً. قال: بلى والله ياأمير المؤمنين، أَرِد منه قَراحا، والأحسن امتداحا. ثم تقدَّم فأنشد شعراً يقول فيه:

فقلتُ لها سِيري أمامك سَيِّدٌ ... تَفرَّع من مَروان أو من مُحمَّدِ

فقال له: ما فعلت مَيّ؟ فقال: طُويت غَدائرها ببُرد بَلى، ومحا التّرب محاسن الخَد، فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالا، يُعطى بكل من سَمّى من أبائي ألف دينار. قال ذو الرُّمة: لو علمتُ لبلغتُ به عبدَ شمس.

الربيعُ حاجبُ المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم، ونفدت نفقاتهم. قال: اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام وقل لهم: من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فإنما هو كلب من الكلاب، ولا بالحيَّة، فإنما هي دُويبّة مُنتنة تأكل التراب، ولا بالجَبل، فإنما هو حجر أصمَّ، ولا بالبحر، فإنما هو غُطامط[3] لَجب، ومن ليس في شعره هذا

(١) أي أنه طعن في السن فتقوس ظهره.

(٢) مي: صاحبة ذي الرمة. وصيدح: ناقته. (٣) غطامط (بالضم): عظيم الأمواج.

فَليدخل ومن كان في شعره فلينصرف فانصرفوا كُلُّهم إلا إبراهيم بن هَرمة، فإنه قال له: أنا له ياربيع، فأدخلني. فأدخله، فلما مَثل بين يديه، قال المَنصور ياربيع، قد علمتُ أنه لا يُجيبك أحد غيره، هات يابن هرمة. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

له لحظاتٌ عن حفَافَي سَريره ... إذا كَرَّها فيها عَذابٌ ونائلُ
لهم طِينةٌ بيضاءُ من آل هاشمٍ ... إذا أسودَّ من كوم التراب القبائل
إذا ما أَبَى شيئاً مضى كالذي أبي ... وإن قال إنّي فاعِل فهو فاعل

فقال: حسبك، هاهنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. فقُمت إليه وقبّلت رأسه وأطرافه ثم خرجت؛ فلما كِدت أن أخفى على عينيه سمعته يقول: ياإبراهيم. فأقبلت إليه فَزعا، فقلت: لَبَّيك، فداك أبي وأمي. قال: احتفظ بها فليس لك عندنا غيرُها. فقلت: بأبي وأمي أنت، أحفظها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتَم الجِهبذ.

ودخلت لَيلى الأخيلية على الحجَّاج فأنشدته:

إذا وَرد الحجَّاج أرضاً مَريضة ... تتبَّع أقصى دائها فشَفَاهَا
شَفاها من الدّاء العُضَال الَذي بها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَناة سَقَاها

فقال لها: لا تقولي: غلام، ولكن قُولي: همام. ثم قال: أيُّ النساء أحبُّ إليك أُنزلك عندها؟ قالت: ومَن نِساؤك أيها الأمير؟ قال أم الجلاَس بنت سعيد بن العاص الأموّية، وهِند بنت أسماء بن خارجة الفَزَارية، وهند بنت المُهلَّب بن أبي صُفرة العَتَكيَّة، قالت: القَيسِية أحبّ إليَّ. فلما كان من الغد دخلت عليه. قال: ياغلام، أعطها خَمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أُدما[1]. قال قائل: إنما أمر لك بشاء قالت: الأمير أكرم من ذلك. فجعلها إبلاً إناثا على استحياء، وإنما كان أمر لها بشَاء أولا.

---

(١) الأدم: البيض من الإبل، وهي أكرمها.

فرش كتاب الجمانة في الوفود

قال [الفقيه] أبو عُمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه:

قد مَضى قولُنا في الأجواد والأصفاد على مَراتبهم ومنازلهم، وما جرَوْا عليه، وما نَدبوا إليه، من الأخلاق الجميلة، والأفعال الجزيلة؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وَفدوا على النبيّ ﷺ، وعلى الخلفاء والملوك، فإنها مَقامات فَضل، ومَشاهد حَفل يُتخيّر لها الكلام، وتُستهذب الألفاظ، وتُستجزل المعاني. ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدَهم وزعيمَهم الذي عن قُوّته يَنزعون، وعن رأيه يُصدِرون؛ فهو واحد يَعْدِل قبيلة، ولسان يُعرِب عن ألسنة. وما ظنُّك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبيّ ﷺ أو خَليفته، أو بين يدي مَلك جبّار في رَغبة أو رَهبة، فهو يُوَطّد لقومه مَرةً، ويتحفّظ ممَّن أمامه أخرى؛ أتُراه مُدَّخرًا نتيجةً من نتائج الحِكمة، أو مُستبقياً غَريبة من غرائب الفِطنة، أم تظُنُّ القوم قَدَّموه لفضل هذه الخُطّة إلا وهو عندهم في غاية الحَذلقة واللَّسن، ومَجمع الشعر والخطابة. ألا ترى أن قيس بن عاصم المنقريّ لمّا وفد على النبي ﷺ، بَسط له رداءَه وقال: هذا سيّد الوَبَر[1]. ولما تُوفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر:

عليكَ سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاء أن يترَّحَما
تحيّةَ من أَلبستَه منك نعمةً ... إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سَلّما
وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكُ واحدٍ ... ولكنَّه بُنيان قومٍ تَهدَّما

---

(١) أورده ابن حجر في الإصابة دون ذكر بسط له رداءه وقيس بن عاصم المنقري هو قيس بن عاصم بن سنان ابن منقر بن خالد بن عبيد بن مقاعس واسمه الحرث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة تميم التميمي المنقري يكنى أبا علي كان قد حرم الخمر في الجاهلية ثم وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم فأسلم فقال رسول الله ﷺ هذا سيد أهل الوبر. وكان سيداً جواداً.
انظر ابن حجر/الإصابة ٥/٢٥٨.

وفود همدان على النبي ﷺ

قَدِم مالك بن نَمَط في وَفْد هَمْدان على رسول الله ﷺ، فلقُوه مُقبلا مِن تَبُوك، فقال مالك بن نَمَط: يارسول الله، نَصِيّة من هَمْدان، من كل حاضر وباد، أتَوْك على قلُص نواج، مُتّصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لَوْمة لائم، من مِخلاف خارف ويَام وشاكر[١] عَهْدُهم لا يُنقض. عن سُنَّة ماحل ولا سواداء عَنقفِير[٢]، ما أقام لَعْلع[٣] وما جَرَى اليَعْفور[٤] بصُلَّع[٥].

فكتب إليهم النبيّ ﷺ: **هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مِخلاف خارف، وأهل جِنَاب الهَضب، وحِفَاف الرّمل، مع وافدها ذي المِشعار، مالك بن نمَط، ومن أَسْلم من قومه أنْ لهم فِراعَها ووِهاطَها وعَزَازَها ما أقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة، يأكلون عِلاَفَها، ويَرْعَون عَفاها، لنا من دِفئهم وصِرَامهم ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصَّدقة الثِّلب والناب والفَصِيل والفارض الداجن والكبش الحوَرِي، وعليهم الصالغ والقَارح**[٦].

---

(١) خارف ويام وشاكر: قبائل من اليمن.

(٢) العنقفير: الداهية.

(٣) لعلع: جبل كانت به وقعة.

(٤) اليعفور: ولد الظبية.

(٥) بصلع: أي بأرض لا نبات فيها.

(٦) أورد ذلك ابن القيم مع اختلاف كبير انظر زاد المعاد ج٣ ص٦٢٢، وانظر ابن سيد الناس اليعمري/ عيون الأثر تحقيق د. محمد الخطراوي ومحيي الدين مستو/ مكتبة دار التراث ١٤١٣هـ. وانظر ابن هشام/ السيرة النبوية ج٤ ص١٨٠ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٥.

وفود النخع على النبي ﷺ

قدم أبو عمرو النَّخَعيّ[١] على النبيّ ﷺ فقال: يارسول الله، إني رأيتُ في طريقي هذه رؤيا، رأيت أتَاناً تركتُها في الحيِّ ولدَت جَديًا أسفعَ أحوَى؛ فقال رسول الله ﷺ: **هل لك من أمَة تركتَها مُصرّةً حَمْلاً؟** قال: نعم، تركت أمَة لي أظنُّها قد حَملت؛ قال: **فقد ولدت غلامًا وهو أبنُك**؛ قال: فما له أسفع أحوى؟ قال: **أدْنُ منّي**؛ فدَنا منه، فقال: **هل بك بَرص تَكْتمه؟** قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا ما رآه مخلوق ولا عَلِم به؛ قال: **فهو ذلك**. قال: ورأيتُ النُّعمان بن المُنْذر عليه قُرْطان ودُمْلَجان ومَسَكتان؛ قال: **ذلك مُلك العَرب عاد إلى أفضل زيّه وبهجتَه**. قال: ورأيتُ عجوزاً شَمطاء تخرج من الأرض؛ قال: **تلك بقيَّة الدنيا**. قال: ورأيتُ نارًا خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يُقال له عمرو، ورأيتها تقول: لَظًى لظًى، بصير وأعمى، أطعِموني، آكلكم آكلكم، أهلِككم ومالَكم. فقال النبي ﷺ: **تلك فِتنة في آخر الزمان**؛ قال: وما الفِتنة يارسول الله؟ قال: **يَقتل الناس إمامهم ثم يَشتجرون اشتجارَ أطباق الرأس**[٢] ـ وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه ـ **يَحسب المُسِيءُ أنه مُحْسن، ودَمُ المؤمن عند المؤمن أحلَى من شُرب الماء**[٣].

---

(١) ذكره ابن القيم أنه زرارة بن عمرو انظر زاد المعاد جـ٣ ص٦٨٦ وابن سيد الناس/ عيون الأثر ج٢ ص٣٤٢.

(٢) الاشتجار: الاشتباك والاختلاف، وأطباق الرأس: عظامه.

(٣) للحديث بقية لم يوردها ابن عبد ربه انظر ابن القيم ـ المصدر السابق ج٣ ص٦٨٦ وص٦٨٧، وانظر ابن سيد الناس/ عيون الأثر ج٢ ص٣٤٢.

وفود ثقيف على النبي ﷺ

وفدت ثَقِيف على النبيّ ﷺ فكتب لهم كتابًا حين أسلموا: أنَّ لهم ذِمَّة الله، وإنَّ واديَهم حَرَام عِضَاهه[١] وَصيْده[٢] وظُلمٌ فيه، وأن ما كان لهم من دَين إلى أجل فبلغ أجله فإنه لِياط مُبرأ من الله ورسوله، وأنّ ما كان لهم من دَيْن في رَهْن وراء عكاظ فإنه يُقضى إلى رأسه ويلاط بعُكاظ ولا يُؤخر[٣].

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي ﷺ

وَفَد لَقِيطُ بن عامر بن المُنتفِق على النبي ﷺ ومعه صاحب له، يقال له نَهيْك بن عاصم بن مالك بن المُنتفق. قال لقيط: فخرجتُ أنا وصاحبي حتى قَدِمنا لانسلاخ رجب، فأتينا رسولَ الله ﷺ حين انصرف من صلاة الغَداة، فقام في الناس خَطيبا، [إلى آخر الحديث][٤].

---

(١) العضاه: شجر عظيم له شوك.

(٢) رواه أبو داود في المناسك وأحمد في المسند وقال الشيخ النووي: وتحريم صيد وج رواه أبو داود في سننه من رواية الزبير بن العوام وإسناده ضعيف، وقال الألباني ضعيف انظر ضعيف الجامع الصغير ١٨٧٥، والمشكاة ٢٧٤٩.

(٣) أورده ابن القيم مع اختلاف في نص الكتاب والذي كتبه خالد بن سعيد بن العاص انظر زاد المعاد ج٣ ص٥٠١، وانظر ابن سيد الناس/ عيون الأثر ج٢ ص٣٠٦.

(٤) الحديث بطوله أورده ابن القيم وفيه زيادة على ما أورده ابن عبد ربه وقد علق عليه الأرنؤوط بأن الحديث إسناده ضعيف لجهالة عبد الرحمن بن عياش السمعي ودلهم بن الأسود حيث لم يوثقهما إلا ابن حبان ولذلك لم نكمل الحديث.

كتاب رسول الله ﷺ لأكيدر دُومة [١]

من محمد رسول الله لأكَيدِر دُومة حين أجاب إلى الإسلام، وخَلَع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيفِ الله في دُومة الجَندل وأكنافها: إنّ لنا الضاحية من الضَّحل والبَوْر، والمَعامِيَ وأغفالَ الأرض، والحَلقة، والسلاحَ والحافرَ والحِصْن؛ ولكم الضامِنة من النخل والمعِينُ من المَعمور، ولا تُعدَل سارحتُكم ولا تُعدّ فاردتُكم، ولا يُحظَر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوَقتها، وتُؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.[٢]

وفود نابغة بني جعدة على النبي ﷺ

وفد أبو ليلى نابغةُ بني جَعدة[٣] على النبي ﷺ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلغنا السماءَ مجدُنا وسَناؤنا ... وإنا لَنبغي فوق ذلك مَظهَرَا

قال له النبي ﷺ: إلى أين أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة؛ قال النبي ﷺ: إن شاء الله. فلما انتهى إلى قوله:

---

(١) هو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة وكان نصرانيًا وكان ملكًا عليها. وروى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، انظر صحيح مسلم/ كتاب الجهاد/ باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل.

(٢) أورد ابن القيم هذه القصة بتوسع واختلاف دون ذكر نص الكتاب انظر زاد المعاد ج٣ ص٥٣٨ وانظر الذهبي/ تاريخ الإسلام (المغازي)، وانظر ابن سيد الناس اليعمري/ عيون الأثر ج٢ ص٢٩٧، وانظر ابن هشام/ المصدر السابق ج٤ ص٢٢٥.

(٣) النابغة الجعدي: شاعر مشهور معمر اختلف في اسمه فقيل هو قيس بن عبد الله بن عدي بن ربيعة بن جعدة وقيل اسم النابغة عبدالله وقيل حِبَّان بن قيس. انظر ابن حجر/الإصابة ج٦ ص٢١٨.

ولا خيرَ في حِلمٍ إذا لم تَكن له بوادرُ تَحمي صَفوهُ أن يُكَدَّرَا

فقال له النبي ﷺ: **لا يفْضُض الله فاك**، فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفضّ له سِنّ[1]. وبقي حتى وَفد على عبد الله بن الزُّبير في أيامه بمكة وامتَدحه؛ فقال له: يا أبا ليلى، إن أدنى وسائلك عندنا الشِّعر، لك في مال الله حَقان: حق برُؤيتك رسول الله، وحق بِشِركتك أهل الإسلام في فَيئهم، ثم أحسن صِلَته وأجازه.

وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لما أراد جبلة بن الأيهم بن أبي شَمِر الغَسَّاني أن يُسْلِمَ كَتَبَ إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك ويَستأذنه في القدوم عليه، فسُر بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا: فخرج جبلة في خمسمائة فارس من عك وجَفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفِضة، ولبِس يومئذ جَبلة تاجَه وفيه قرط مارية، وهي جَدته، فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر إليه حتى النّساء والصّبيان، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عُمر بن الخطاب. فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطيء على إزاره رجلٌ من بني فزارة فحَلَّهُ، فالتفت إليه جَبلةُ مُغضبًا، فَلطمه فَهشم أنفه، فاستعدَى عليه الفَزاريّ عمر بن الخطاب، فبعث إليه فقال: ما دعاك ياجبلة إلى أن لطَمت أخاك هذا الفَزاري فهشمت أنفه؟ فقال: إنه وَطيء إزاري فحلّه، ولولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عَيناه؛ فقال له عمر: أمَّا أنت فقد أقررت، إما أن تُرضيه وإلا أقدتُه منك؛ قال: أتُقيده منّي وأنا مَلِك وهو سُوقة؟ قال: ياجبلة، إنه قد جَمعك وإيّاه الإسلام، فما تَفضُله بشيء إلا بالعافية؛ قال: والله لقد رجوتُ أن

---

(١) انظر ابن حجر/ المصدر السابق ج٦ ص٢١٩.

أكون في الإسلام أعزّ منّي في الجاهليّة؛ قال عمر: دَع عنك[١] ذلك؛ قال: إذن أتنصّر؛ قال: إن تنصّرتَ ضربتُ عُنقَك. قال: واجتمع قومُ جَبَلَة وبنو فَزارة فكادت تكون فِتنة؛ فقال جبلة: أخِّرني إلى غَدٍ ياأمير المؤمنين؛ قال: ذلك لك. فلما كان جُنْح الليل خرج هو وأصحابُه، فلم يثْنِ حتى دخل القُسطنطينية على هِرقْل فتنصّر، وأقام عنده، وأعظم هرقلُ قدومِ جبلة وسُرّ بذلك، وأقطعه الأموال والأرَضين والرّباع. [وقد مات جبلة على الكفر][١].

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

المدائني قال: قَدِم الأحنفُ بن قيس التَّميمي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم، وتكلم الأحنف فقال:

ياأمير المؤمنين، إنّ مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وُفود أهل العراق، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزَلوا منازلَ الأمم الخالية، والمُلوك الجَبابرة، ومنازل كسرى وقَيصر، وبني الأصفر، فهم من المِياه العَذبة، والجنان المُخصِبة، في مثل حِوَلاء السَّلي وحَدقة البعير؛ تأتيهم ثمارُهم غَضّة لم تتغير، وإنا نزلنا أرضًا نَشاشة وطَرَفٌ في فلاة وطَرَف في مِلح أُجَاجْ، جانِبٌ منها منابت القصب، وجانب سَبخة

---

(١) من هذه القصة [والتي تم اختصارها] نعرف عظمة الإسلام في الحكم والعدل والمساواة بين الرعية وتطبيق أحكام الشرع على القوي والضعيف كذلك نرى حرص أعداء الإسلام على استقبال وإكرام من يلجأ إليهم من المسلمين ليس حباً فيهم وإنما كرهاً في الإسلام وأهله وفي واقعنا يظهر ذلك واضحاً في اهتمام الغرب بالعلمانيين والمنافقين والمرتدين من أبناء المسلمين حيث دفاعهم عنهم وتأييد أعمالهم، كل ذلك لأجل تحقيق أطماعهم وأهدافهم القذرة في البلاد الإسلامية.

نشاشة[١]، لا يَجف ترابها، ولا ينَبت مرعاها، تأتينا مَنافعها في مثل مَريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف منا يَستعذِب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرَنِّق[٢] ولدها ترنيق العنز، تخاف عليه العدوّ والسبع، فإلاّ ترفع خَسيسَتنا، وتُنعِش رَكيستنا، وتَجبرُ فاقتنا، وتَزيد في عِيالِنا عِيالا، وفي رجالنا رجالا، وتُصَفِّر درهمنا[٣]، وتُكبِّر قفيزنا[٤]، وتأمر لنا بحَفر نهر نستعذب به الماء هلكنا.

قال عمر: هذا والله السَّيد! هذا والله السيد! قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.

فأراد زيد بن جَبلة أن يضع منه، فقال: ياأمير المؤمنين، إنه ليس هُناك، وأُمه باهليّة. قال عمر: هو خَيْرٌ منك إن كان صادقا. يريد إن كانت له نِيَّة. فقال الأحنف:

أنا ابن الباهليَّة أرضعَتني ... بثَدي لا أجدٍّ ولا وَخِيمِ
أغُضّ على القذَى أجفانَ عيني ... إذا شرَّ السَّفيه إلى الحليم

قال: فرَجع الوفد واحْتبس الأحنفَ عنده حَولاً وأشهرًا، ثم قال: إن رسول الله ﷺ، حَذَّرنا كُلَّ منافق صَنَع اللسان، وإني خِفتك فاحتبستُك، فلم يبلُغني عنك إلا خيرٌ، رأيتُ لك جُولاً[٥] ومَعقولاً، فارجع إلى منزلك واتّق الله ربَّك. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن يَحتفر لهم نهرًا.

---

(١) سبخة نشاشة، أي نزازة تنز بالماء.
(٢) ترنق: أي تطيل النظر.
(٣) أي تجعل فضتنا ذهبا.
(٤) القفيز: المكيال.
(٥) الجول: الرأي.

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العتبي عن أبيه قال: وفَد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يقرع بينهما في الرِّياسة، فلما اجتمعت بنو تميم، قال الأحنف:

ثَوى قَدَحٌ عن قَومِه طالما ثَوى فلمَّا أتاهم قال قُومُوا تناجَزُوا

فقال عمرو بن الأهتم: إنَّا كنَّا وأنتم في دار جاهليَّة فكان الفَضل فيها لمن جَهل، فسَفَكنا دماءكم، وسبَينا نساءكم، وإنَّا اليوم في دار الإسلام، والفَضلُ فيها لمن حَلِم، فغَفر الله لنا ولك. قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القُرعة لآل الأهتم. فقال عَمْرُو بن الأهتم:

لما دعَتني للرِّياسة منقَرٌ لَدَى مَجلسٍ أضحَى به النَّجمُ بادياً
شَدَدت لها أزري وقد كُنتُ قَبلَها لأمثالها مما أشُدَّ إزاريا

وعمرو بن الأهتم: هو الذي تكلّم بين يدي رسول الله ﷺ، وسأله عن الزِّبرقان[1]؛ فقال عمرو: مُطاع في أدْنَيه، شَديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: والله يا رسول الله، إنَّه يعلم منى أكثر مما قال، ولكن حَسدني. قال: أما والله يارسول الله، إنه لزَمِر المُروءة، ضَيِّق العَطَن، أحمق الولد، لئِيم الخال، والله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الأخرى، رضيتُ عن ابن عّمى فقلتُ أحسَن ما علمت، ولم أكذب، وسَخِطتُ عليه فقلت أقبَح ما علمت، ولم أكذِب؛ فقال رسول الله ﷺ: **إن من البيان لسحرًا**[2].

---

(١) الزِبْرِقَان بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم بن مُرّ التميمي السَّعْدي يقال اسمه الحُصَيْن ولُقِّبَ الزبرقان لحُسْن وجهه، وهو من أسماء القمر، عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنهما. انظر ابن حجر/الإصابة ج١ ص ٣، ٤.

(٢) قال ابن حجر رحمه الله: إسنادُهُ حسن إلا أن فيه انقطاعاً، وأخرجه ابن شاهين من طريق أبي المقوم الأنصاري عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس وقال ابن مَنْدَه: غريب. انظر ابن حجر/المصدر السابق ج٣ ص٤.

وفود عمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أوفده سعد

لما فُتِحَت القادسيّة على يدي سعد بن أبي وقاص، أبلى فيها عمرو بن معد يكرب بلاءً حسنا، فأوفده سعدٌ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب إليه معه بالفَتحِ وأثنى في الكتاب على عمرو. فلما قَدِم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد؛ فقال: أعرابي في نَمِرته[1]، أسدٌ في تأمورته[2]، نَبطيّ في جبايته، يَقسم بالسويّة، ويَعدل في القضيّة، ويَنفِر في السَّرِية، وينقل إلينا حقّنا نقل الذَرَّة. فقال عمر: لشَدَّ ما تقارضتُما الثناء. وكان عُمر قد كتب إلى سعدٍ يوم القادسية أن يُعطي الناس على قَدر ما معهم من القرآن. فقال سعد لعمرو بن معد يكرب: ما معك من القرآن؟ قال: ما معي شيء؛ قال: إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن؛ فقال عمرو:

إذا قُتلنا ولا يَبكي لنا أحدٌ ... قالت قريشٌ ألا تِلك المَقادير
نُعطَى السَّوية من طعنٍ له نفَذٌ ... ولا سويّة إذ نُعطَى الدَّنانير

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر. فكتب إليه أن يُعطى على مقاماته في الحَرب.

وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وفَد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد إيقاع خالد بهم وقَتله مُسيلمة الكذّاب؛ فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبُكم؟ قالوا: اعفِنا ياخليفة رسول الله؛ قال: لابدّ أن تقولوا؛ قالوا: كان يقول: ياضِفْدع، كم تَنقّين، لا الشراب تَمْنعين، ولا الماء تُكدِّرين، لنا نِصفُ الأرض ولقُريش نصفها، ولكن قريش

---

(١) النمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب.

(٢) التأمورة: عريسة الأسد.

قوم لا يَعدِلون. فقال لهم أبو بكر: ويْحكم! ما خرج هذا من إلٍّ ولا بَرّ، فأين ذُهب بكم؟

قال أبو عُبيد: الإلّ: الله تعالى. والبَرّ: الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معد يكرب على مجاشع بن مسعود

وَفَدَ عمرو بن معد يكرب الزُّبيديّ على مُجاشع بن مسعود السُّلَمي ـ وكانت بين عمرو وبين سُليم حروبٌ في الجاهليّة ـ فقَدِم عليه البصرةَ يسأله الصِّلة؛ فقال: اذكُر حاجتَك؛ فقال له: حاجَتي صلَةُ مِثلي. فأعطاه عشرةَ آلاف درهم، وفرسًا من بنات الغَبْراء، وَسَيْفًا جُرازا، ودِرعاً حَصينة، وغُلاما خبّازاً. فلما خرج من عنده، قال له أهل المجلس: كيف وجدت صاحبك؟ قال: لله دَرُّ بنو سُليم، ما أشدَّ في الهيجاء لَقاءَها، وأكرمَ في اللأواء عطاءها، وأثبت في المَكرماتِ بناءها، والله يا بني سُليم لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجْبَنَّاكم، ولقد هاجيناكم فما أفحَمناكم، وقد سألناكم فما أبخلناكم.

فلله مَسئولاً نَوالاً ونائلاً ... وصاحبَ هَيج يوم هَيج مُجاشعُ

وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه

أبو بكر بن أبي شَيبة قال:

وَفَد الحسن بن عليّ رضي الله عنهما على معاويةَ بعد عام الجماعة(١)، فقال له معاوية، والله لأحبونَّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك، ولا أجيز بها أحدًا بعدك، فأمر له بمائة ألف.

وفي بعض الحديث أن النبي ﷺ، دخل على ابنته فاطمة، فوجد الحَسن طِفْلاً

---

(١) هو العام الذي تصالح فيه معاوية والحسن رضي الله تعالى عنهما.

يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله تعالى سيُصلح على يدي ابنك هذا بينِ فئتين عظيمتين من المُسلمين[١].

وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رضي الله عنه

العُتبي عن أبيه قال:

وَفَد عبدُ العزيز بنُ زرارة على معاوية، وهو سيّد أهل الكوفة، فلما أذِن له وَقَفَ بين يديه، وقال: ياأمير المؤمنين، لم أزل أهزُّ ذَوائب الرِّحال إليك، إذ لم أجِد مُعولا إلا عليك؛ أمتطي الليل بعد النهار، وأصمِ المَجاهل بالآثار، يقودني إليك أمَل، وتسوقُني بلوى؛ والمجتهد يُعذَر، وإذ بلغتك فقطْني. فقال معاوية: احطط عن راحتك رَحلها.

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيدَ بن معاوية إلى الصائفة فهلك هناك، فكتب به يزيدُ بن معاوية إلى مُعاوية، فقال لزُرارة: أتاني اليومَ نعي سيّد شَباب العرب؛ قال زُرارة: يا أمير المؤمنين، هو ابني أو ابنك؟ قال: بل ابنُك؛ قال: للموت ما تَلِد الوالدة.

أخذه سابقٌ البَريري فقال:

وللموت تَغذُو الوالداتُ سِخَالَها[٢] ... كما لِخراب الدَّار تُبنَى المَساكنُ

وقال آخر:

لِلموتِ يُولد منّا كُلُّ مولودِ ... لا شيء يَبقى ولا يَفنى بموجودِ

---

(١) رواه البخاري في المناقب وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرةً ويقول ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين. ورواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) سخالها: أولادها، الواحد، سخلة للذكر والأنثى؛ وهو في الأصل ولد الغنم.

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبدُ الملك بن مَروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث إليَّ رجلاً يَصلح للدِّين والدنيا، أتخذه سَميرًا وجليساً وخَليّاً؛ فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي، وبعث به إليه. فلما دخل عليه وَجده قد كَبَا مُهتمًا، فقال: ما بالُ أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتُ قول زُهير:

كأنّي وقد جاوزتُ تِسعين حِجَّةً ... خَلعتُ بها عَنّي عِذار لِجَامي
رمتني بَناتُ الدَّهر من حيثُ لاأرَى ... فكيف بمن يُرمَى وليس بِرَامي
فلو أنَّني أرْمَى بنَبل رأيتُها ... ولكنّني أُرمى بغير سِهام
على الرَّاحتين تارةً وعلى العَصا ... أنُوء ثلاثاً بعدَهنَّ قِيَامي

قال له الشّعبي: ليس كذلك ياأمير المؤمنين، ولكن كما قال لَبيدُ بن ربيعة وقد بلغ سَبعين حِجَّة:

كأنّي وقد جاوزتُ سَبعين حِجَّةً ... خَلعتُ بها عن مَنكِبيّ رِدَائيا

ولما بلغ سبعاً وسبعين سنةً قال:

باتت تُشَكّي إليَّ النفسُ مُوهَنةً ... وقد حملتُكِ سَبعاً بعد سَبعينا
فإن تُزَادى ثلاثاً تبلغي أملاً ... وفي الثّلاث وفاءٌ للثّمانينا

ولمّا بلغ تِسعين سنة قال:

ولقد سَئِمت من الحياة وطُولِها ... وسُؤالِ هذا الناسِ كيفَ لَبِيدُ

ولما بلغ عشرًا ومائة قال:

ألَيسَ ورائي إن تراخَتْ مَنيّتي ... لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ
أُخبِّر أخبارَ القُرُون التي خَلت ... أنُوءُ كأنّي كلّما قُمت راكِعُ

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:

تَمنَّى ابنتاىَ أن يَعيش أبوهما ... وهل أنا إلا مِن رَبيعة أو مُضَر
فقُوما فقُولا بالذي تَعْلمانه ... ولا تَخمِشا وَجهًا ولا تَحلِقا شَعَر

وقُولا هو المَرء الذي لا صديقه أضاع ولا خانَ الخليلَ ولا غَدَر
إلى سَنَةٍ ثم السلامُ عليكما ومن يَبك حولاً كاملاً فقدِ اعتذر

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وَجه عبد المَلك طَمعاً أن يعيشها.

وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال:

لما وُلِّي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قَتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعَظَّم منزلته، فلم تزل تلك حالُه عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه مُعادِلاً، لا يُقصِّر له في برٍّ ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يَبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قَدِمتُ عليك أمير المؤمنين برجُل الحجاز، لم أدَع له بها نظيرًا في الفَضل والأدب والمُروءة وحُسن المَذْهب، مع قَرابة الرَّحم ووُجوب الحق وعِظَم قَدْر الأبُوة، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة وحسن المُوَازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرتُه بابَك ليَسهُل عليه إذنُك، وتَعرفَ له ما عَرّفتك؛ فقال: أذكرتَنا رَحِماً قريبة وحقًّا واجبًا، يا غلام، ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة. فلما دخل عليه أدناه عبدُ الملك حتى أجلسه على فِراشه، ثم قال له: يابن طلحة، إن أبا محمد ذكَّرنا ما لم نَزل نَعرفك به في الفضل والأدب والمُروءة وحُسن المذهب، مع قرابة الرَّحِم ووجوب الحق وعِظَم قدر الأبوّة، وما بَلاه منك في الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة، فلا تدعنّ حاجة في خاصَّة نفسك وعامّتك إلا ذكرتَها؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنّ أولَ الحوائج وأحقَّ ما قُدِّم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضاً، ولحقّ نبيه ﷺ أداءً، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحة لا أجد بُدًّا من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ، فأخلِني ياأمير المؤمنين تَرِد عليك نصيحتي؛ قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم،

دون أبي محمد. قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خَطرف السِّترُ أقبل عليَّ، فقال: يابن طلحة، قُل نصيحتك؛ فقال: تالله ياأمير المؤمنين، لقد عَمدَت إلى الحجاج في تَغطرسه، وتَعجرُفه، وبُعده من الحق، وقُربه من الباطل، فولَّيتَه الحرمين، وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يَطؤهم بطَغام أهل الشام ورِعَاع لا رَويَّة لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويَسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السُّنة، بعد الذي كان من سَفك دمائهم، وما انتُهك من حُرمَهم، ثم ظننتَ أنّ ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نَبيك غداً إذا جاثَاك للخصومة بين يدي الله في أمَّته، أما والله لا تَنجو هنالك إلا بحُجَّة، فأربع على نفسك أو دَعْ. فقال له عبد الملك: كذبتَ ومِنت وظن بك الحجَّاجُ ما لم يَجده فيك، وقد يُظن الخير بغير أهله، قُم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمتُ وما أعرف طريقاً، فلما خَطرف الستر[1] لَحِقني لاحق، فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل، فدخل، فمكث مَلِيّاً من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذِن، فقال: ادخل يابن طلحة، فلما كُشف لي الستر لَقِيني الحجاج، وهو خارج وأنا داخل، فاعتنقني وقبّل ما بين عينيّ، وقال: أما إذا جَزَى الله المتواخِيَين خيراً بفضل تواصُلهم فجزاك الله عنّي أفضل الجزاء، فوالله لئن سَلِمتُ لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك؛ قال: قلت: يَهزأ بي وحقِّ الكعبة. فلما وصلتُ إلى عبد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول، ثم قال: يابن طلحة، لعل أحداً شاركك في نصيحتك هذه؟ قلت: والله ياأمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصَعُ عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج، ولو كنتُ محابياً أحداً لغرض دُنيا لحابيتُه، ولكني آثرتُ الله ورسوله وآثرتُك والمؤمنين عليه؛ قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج، ولكن أردتَ الله والدار الآخرة، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهتَ من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما، وولّيتُه العراقين، وما هنالك من الأمور التي لا يَدْحَضُها إلا مثلُه، وأعلمته أنك استدعيتني

(١) خطرف الستر، أي انسدل وأرخى.

إلى ولايته عليها استزادة له، لألزمه بذلك من حقّك ما يؤدِّي إليك عني أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذامٍ لصُحبَته. فخرجتُ مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

وفود جرير على عبد الملك بن مروان

لما مَدح جرير بن الخَطفي الحجّاج بن يوسف بشِعره الذي يقول فيه:

مَن سَدَّ مطّلع النِّفاق عليكُم ... أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغَارُ على النِّساء حَفِيظةً ... إذ لا يَثِقن بغَيرَةِ الأزواجِ

وقوله:

دَعَا الحجاجُ مثلَ دُعاء نُوحٍ ... فأسمعَ ذا المعارج فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكنّي موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسِر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه في الإنشادِ، فأذن له، فقال:

أتصحو بَلْ فؤادُك غير صَاحِ

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تَعزَّت أم حَزرة ثم قالت ... رأيت الوَاردين ذَوِي امتياحِ [1]
ثِقِي بالله ليس له شَرِيكٌ ... ومن عند الخَليفة بالنّجاح
سأشكُر إن رَدَدْتَ إليَّ رِيشي ... وأثْبَتَّ القوادمَ في جَناحي
ألستُم خيرَ من ركب المَطايا ... وأندَى العالمين بُطونَ راحِ

ارتاح عبد الملك وكان مُتكئاً، فاستوى جالساً، ثم قال: مَن مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكُت؛ ثم قال له: ياجرير، أترى أم حَزرة تُرويها مائةُ ناقة

(١) الامتياح: المنفعة والعطاء.

من نَعَم كَلب؟ قال: إذا لم تُروها ياأمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نَعَم كلب كلها سُود الحَدقة؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنها أُبّاق ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فَضل عن راحلته، فلو أمرتَ بالرِّعاء؛ فأمر له بثمانية من الرِّعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صِحاف من فِضَّة يَقرعها بقضيب في يده؛ فقال له جرير: والمِحلب ياأمير المؤمنين، وأشار إلى صَحفة منها، فَنَبذها إليه بالقضيب وقال: خُذها، ففي ذلك يقول جرير:

أعطَوا هُنيدة يَحْدوها ثمانيةٌ ... ما في عَطائهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رحمه الله

قَدِم جرير بن الخَطَفي، على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، عن أهل الحجاز فاستأذنه في الشعر، فقال: مالي وللشعر ياجرير؟ إني لفِي شُغل عنه؛ قال: ياأمير المؤمنين؛ إنها رسالة عن أهل الحجاز؛ قال: فهاتها إذاً؛ فقال:

كم من ضريرٍ أميرَ المؤمنين لدَى ... أهل الحجاز دَهَاهُ البُؤس والضَّررُ
أصابت السَّنةُ الشّهباء ما ملكت ... يمينُه فَحناه الجَهد والكِبَر
ومن قَطيع الحَشا عاشت مُخبَّأةً ... ما كانت الشمسُ تَلقاها ولا القَمر
لَمّا اجتلتها صُرُوف الدهرُ كارهةً ... قامت تُنادي بأعلى الصوت ياعُمر

وفود دُكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رحمه الله

قال دُكين بن رَجاء الفُقيمِي الراجز: مدحت عُمر بن عبد العزيز، وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عَشَرة ناقة كرائم صِعاباً، فكرهت أن أرمي بها الفِجاج فتنتشر عليّ، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدِمت علينا رُفقةٌ من مُضر، فسألتهم الصُّحْبة، فقالوا: إن خرجت الليلة؛ فقلت: إني لم أودّع الأمير ولابد من وداعه؛

قالوا: فإن الأمير لا يُحجَب عن طارق ليل؛ فاستأذنتُ عليه، فأذِن لي وعنده شيخان لا أعرفهما؛ فقال لي: يادُكين، إنّ لي نفساً توّاقة، فإن أنا صِرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعَين ما أرينَّك؛ قلت: اشهد لي بذلك أيها الأمير؛ قال: إني أشهد الله؛ قلت: ومِن خَلْقه؟ قال: هذين الشيخين؛ قلت لأحدهما: من أنت يَرحمك الله أعرفُك؟ قال: سالمُ بن عبد الله؛ فقلت: لقد استَسمنتُ الشاهد؛ وقلت للآخر: مَن أنت يَرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير، وكان مُزاحمٌ يُكنى أبا يحيى. قال دُكين: فخرجتُ بهنَّ إلى بلدي فرمى الله في أذنابهنَّ بالبركة، حتى اتخذت منهن الضياع والرِّباع والغلمان، فإني لبِصحراء فلج إذا بَريد يركض إلى الشام، فقلت له: هل من مُغرِّبة خَبر؟ قال: مات سليمان بن عبد الملك؛ قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر ابن عبد العزيز. قال: فأنخت قلوصي، فألقيت عليها أداتي وتوجهت عنده، فلقيت جريراً في الطريق جائياً من عنده، فقلت: من أين أبا حَزرة؟ قال: من عند أمير يُعطِي الفقراء ويَمنع الشعراء؛ قلت: فما تَرى، فإني خرجت إليه؟ قال: عَوِّل عليه في مال ابن السبيل، كما فعلتُ. فانطلقت فوجدتُه قاعداً على كرسيّ في عَرصة داره قد أحاط الناس به، فلم أجد إليه سبيلاً للوصول، فناديت بأعلى صوتي:

ياعُمر الخيرات والمكارم ... وعُمر الدّسائع العَظائم
إني أمرؤٌ من قُطنِ بن دَارِمْ ... أطلب حاجي من أخي مَكارم
إذ ننتجِي والله غيرُ نائم ... في ظلمة الليل وليلي عاتِم
عندَ أبي يحيى وعند سَالم

فقال أبو يحيى، ففَرَّج لي وقال: ياأمير المؤمنين، إنّ لهذا البدويّ عندي شهادة عليك؛ قال: أعرفها، ادن مني يادُكين، أنا كما ذكرتُ لك أن لي نفساً تَواقة، وأن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا؛ فلما أدركتُها وجدتُها تتوق إلى الآخرة، والله ما رَزأتُ من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدَهما؛ فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركةً منها.

وفود كثيّر والأحوص على عمر بن عبد العزيز رحمه الله

حماد الراوية قال:

قال لي كُثَيِّر عَزّة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شَخصتُ أنا والأحوص ونُصيب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكلُّ واحد منا يُدِل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنه سيشركُنا في خلافته، فلما رُفعت لنا أعلام خُناصرة[1]، لقينا مَسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فَتى العرب؛ فسَلَّمنا، فردّ، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا: ما تَوضَّحَ إلينا خَبرٌ حتى انتهينا إليك، ووَجمنا وَجمةً عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يَكُ ذو دِين بني مروان قد وَلى وخَشِيتم حِرمانه، فإن ذا دُنياها قد بَقِي ولكم عندي ما تُحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلُه. فلما قدم كانت رحالُنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزول عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أنّي دنوتُ من عمر فسَمِعت كلامَه فحفِظته كان ذلك رأياً، ففعلتُ. فكان مما حفظتُ من كلامه: لكل سَفر زادٌ لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يَطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتَنقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه. ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحقُّ والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء، وانصرفت إلى صاحبيّ فقلت لهما: خُذا في شَرْجٍ[2] من الشعر غير ما كُنَّا نقول لعُمر وآبائه، فإن الرجل آخريٌّ وليس بِدنيوي. إلى أن أستأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أُذن للعامة، فلما دخلتُ

---

(١) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية. عن معجم البلدان.

(٢) الشرج: الضرب واللون.

سَلَّمت ثم قلت: ياأمير المؤمنين، طال الثَّواء وقَلَّت الفائدة وتحدَّثت بجفَائك إيَّانا وفود العرب؛ قال: ياكُثير ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل**﴾[1] أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بَلَى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال: ألست ضَيفَ أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛ قلت: ياأمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقّاً؛ فقلت:

وَلِيتَ فلم تشتُم عليًّا ولم تُخف ... بَريّاً ولم تقبل إشارة مُجرمِ
وصدَّقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيتَ فأمسى راضيا كلُّ مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زَيغه ... من الأوَدِ البادي ثقَافُ المقوِّم
وقد لَبست لبس الهلوك ثيابَها ... تراءى لك الدنيا بكَفٍ ومِعصمِ
وتُومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ ... وتبسِم عن مثل الجُمان المنظَّم
فأعرضتَ عنها مُشمئزاً كأنَّما ... سَقَتك مدوفاً من سِمامٍ وعَلقم
وقد كنتَ من أجبالها في مُمَنَّع ... ومن بحرها في مُزْبد الموْج مُفعَمِ
وما زلت توّاقاً إلى كل غايةٍ ... بلغتَ بها أعلى البناء المُقوَّم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تَكَلُّم
تركت الذي يفنى وإن كان مُونقاً ... وآثرت ما يبقى برأيٍ مُصمِّم
وأضررتَ بالفاني وشمَّرت للذي ... أمامك في يوم من الهَول مُظلم
ومالك إذ كنتَ الخليفة مانعٌ ... سوى الله من مال رَغيب ولا دَم
سَما لك همٌّ في الفؤاد مُؤرِّقٌ ... بَلغت به أعلى المعالي بسُلَّم
فما بين شرق الأرض والغرب كلِّها ... مُنادٍ ينادي من فصيحٍ وأعجم
يقول: أميرَ المؤمنين ظلمتنى ... بأخذٍ لدينارٍ ولا أخذ درهم
ولا بَسطِ كف لامريء غير مجرمٍ ... ولا السفك منه ظالماً مِلء محجم

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠.

ولو يستطيع المُسلمون لقسَّموا ... لك الشطرَ من أعمارِهم غير نُدَّم
فأرْبِحْ بها من صفقةٍ لمُبايعٍ ... وأعظِمْ بها أعظمْ بها ثم أعظِم

قال: فأقبل عليّ وقال: إنك مَسئول عما قلت. ثم تقدَّم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد؛ فقال: قُل ولا تقل إلَّا حقاً؛ فقال:

وما الشِّعر إلا حكمة من مُؤلفٍ ... بمنطق حقٍ أو بمنطِق باطلِ
فلا تَقْبلَنْ إلا الذي وافق الرِّضا ... ولا تَرجعنَّا كالنِّساء الأرامل
رأيناك لم تَعدِل عن الحق يَمنَةً ... ولا شأمَةً فِعْلَ الظَّلوم المُخاتل
ولكن أخذتَ الحقَّ جَهدك كلَّه ... وتَقفو مثالَ الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نَكذِب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يَرُدُّ الحقَّ من قول قائل
ومن ذا يرُد السهم بعد مَضائه ... على فُوقه إذ عار[1] من نَزع نابل
ولولا الذي قد عَوَّدتْنَا خلائفٌ ... غَطاريف كانوا كالليوث البَواسل
لما وَخَدَت شهراً برحلي شِمِلَّةٌ[2] ... تَقُدُّ مُتون البيْدِ بين الرَّواحل
ولكن رَجَونَا منك مثل الذي به ... حُبينا زماناً من ذويك الأوائل
فإن لم يكن للشعر عندك مَوضعٌ ... وإن كان مثل الدُرِّ من نظم قائِل
وكان مُصيباً صادقاً لا يعيبه ... سوى أنه يُبنى بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحضَ مودةٍ ... وميراث آباء مَشَوا بالمناصل
فذادُوا عدوَّ السَّلم عن عُقْر دارهم ... وأرسَوْا عمود الدين بعد التمايُل
وقَبلك ما أعطى الهُنيدة جِلّة ... على الشعر كعباً من سديس وبازِلِ
رسولُ الإله المستضاء بنوره ... عليه سلام بالضُّحى والأصائل

فقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدم نُصيب فاستأذنه في الإنشاد، فلم يأذن له، وأمره بالغزو إلى دابِق[3]، فخرج إليها وهو مَحمُوم. وأمر لي بثلثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنُصيب بمائة وخمسين.

---

(١) السهم العائر: الذي لا يدري من أين أتى.
(٢) الشملة: السريعة. (٣) دابق: قرية قرب حلب.

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز رحمه الله

ابن الكلبيّ:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وفدت إليه الشعراء كما كانت تَفد إلى الخلفاء قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عَون بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخَى طَرَفيها، وكانت له منه مكانة، فصاح به جرير:

يأيها الرَّجلُ المُرخِي عمامتَهُ ... هذا زمانُك إني قد مضى زَمَني
أبلغْ خليفتَنا إن كنت لاقِيَهُ ... أنِّي لدى الباب كالمصفود في قَرَن
وَحش المكانة من أهلي ومن ولدي ... نائي المَحلة عن داري وعن وطني

قال: نَعم أبا حَزرة ونُعمى عين. فلما دخل على عمر، قال: ياأمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية وسِنانهم مَسنونة؛ قال: ياعَون: مالي وللشعراء؛ قال: ياأمير المؤمنين، إنّ النبي ﷺ: قد مُدح وأعطى، وفيه أسوة لكل مُسلم؛ قال: ومن مَدحه؟ قلت: عباس بن مرداس،[1] فكساه حُلّة قَطع بها لسانه؛ قال: وتَروي قوله؟ قلت: نعم:

رأيتُك يا خَير البريَّة كلِّها ... نَشرتَ كتابا جاء بالحق مُعْلَمَا
ونوَّرت بالبُرهان أمرًا مُدَمَّسا ... وأطفأت بالبُرهان نارًا مُضرَّما
فمن مُبلغ عنِّي النبيَّ محمداً ... وكلُّ امرىء يُجزى بما قد تكلَّما
تعالى عُلوّاً فوق عرش إلهنا ... وكان مكانُ الله أعلى وأعظما

قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قلت: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة؛ قال: لا قرَّب الله قرابته ولا حيَّا وجهه، أليس هو القائل:

ألَا ليتَ أني يومَ حانت مَنِيَّتي ... شمِمْتُ الذي ما بين عَيْنَيك والفَمِ

(١) فيه اختلاف عما رواه مسلم في كتاب الزكاة.

وليتَ طَهوري كان ريقَك كلّه ... وليت حَنوطي من مُشاشك والدم
ويا ليتَ سَلْمى في القُبور ضَجيعتي ... هنالك أو في جَنّةٍ أو جَهَنَّم

فليته والله تمنّى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملاً صالحاً، والله لا دخل عليَّ أبداً؛ فمن بالباب غير من ذكرْت؟ قلت: جميل بن مَعمر العُذريّ؛ قال: هو الذي يقول:

ألا لَيتنا نَحْيا جميعاً وإن نَمُتْ ... يوافى لَدَى الموتى ضَريحي ضريحُها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ ... إذا قيل قد سُوِّي عليها صَفيحُها
أَظلُّ نهاري لا أراها ويَلْتقى ... مع الليل رُوحي في المنام ورُوحُها

اعزُب به، فوالله لا دخل عليّ أبداً، فمن غير من ذكرت؟ قلت: كُثَيِّر عزّة؛ قال: هو الذي يقول:

رُهْبان مَدْيَن والذين عَهِدتُهم ... يَبكون من حَذَرِ العذاب قُعودا
لو يَسمعون كما سَمِعْتُ حديثها ... خرُّوا لعزّة راكعين سُجُودا

اعزُب به، فمن بالباب غيرُ من ذكرت؟ قلت: الأحوص الأنصاري؛ قال: أبعده الله ومحقه، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه:

الله بيني وبينَ سيِّدها ... يَفِرُّ عَنِّي بها وأتَّبِعُ

اعزُب به، فمن بالباب غيرُ من ذكرت؟ قلتُ: همّام بن غالب الفرزدق؛ قال: أليس هو القائل يفخر بالزنى:

هما دَلَّتاني من ثمانين قامةً ... كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريش كاسرهُ
فلمّا استوت رجْلاي في الأرض قالَتا ... أحيٌّ يُرَجّى أم قَتيل نُحاذره
وأصبحت في القوم الجلوس وأصبحت ... مُغلقة دوني عليها دساكرُه
فقلت ارفعاَ الأسْباب لا يَشْعروا بنا ... ووَلّيتُ في أعقاب لَيْلٍ أُبادره

اعزب به، فوالله لا دخل عليَّ أبداً، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبي؛ قال: أليس هو القائل:

فلستُ بصائمٍ رمضان عُمري ... ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحِي
ولستُ بزاجرٍ عَنْساً بَكوراً ... إلى بَطْحاء مكةَ للنَّجاح
ولستُ بقائمٍ كالعَيْرِ يَدْعو ... قُبَيلَ الصُّبح حيَّ على الفلاح
ولكنِّي سأشربُها شَمُولاً ... وأسجُد عند مُنبلج الصَّباح

واعْزُب به، فوالله لا وَطِيء لي بساطاً أبداً وهو كافر، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جرير بن الخَطفي؛ قال: أليس هو القائل:

لولا مُراقبة العُيون أريتِنا ... مُقل المها وسَوالفَ الآرامِ
هل يَنْهينّك أن قَتلن مُرقِّشا ... أو ما فعلن بعُروةَ بن حِزامِ
ذُمَّ المنازلَ بعد مَنزلة اللِّوى ... والعيشَ بعد أولئك الأقوام
طرقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا ... حينَ الزِّيارة فارْجِعي بسَلام

فإن كان ولابد فهذا، فأذن له فخرجت إليه، فقلت: ادخل أبا حرزة، فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بَعث النَّبيَّ محمداً ... جَعل الخِلافة في إمامٍ عادلِ
وَسِعَ الخلائق عدلُه ووفاؤه ... حتى ارعوى وأقام مَيل المائل
والله أنزل في القران فريضة ... لابن السَّبيل وللفقير العائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفسُ مُولعة بحُب العاجل

فلما مَثَل بين يديه، قال: اتق الله ياجرير، ولا تقل إلا حقا؛ فأنشأ يقول:

كَم باليمامة من شَعثاء أرمَلةٍ ... ومن يَتيمٍ ضَعيفِ الصَّوتِ والنَّظر
ممَّن يَعُدك تَكفي فقدَ والده ... كالفَرخ في العُش لم يَنهض ولم يَطِر
يَدعوك دعوة مَلهوف كأنَّ به ... خَبلاً من الجنِّ أو مَسًّا من البَشَر
خليفةَ الله ماذا تأمرنَّ بنا ... لَسنا إليكم ولا في دار مُنتظَر
مازلتُ بَعْدَكَ في هَمٍّ يُؤرقني ... قد طال في الحيِّ إصعادى ومُنحدري
لا ينفع الحاضِرُ المَجهود باديَنَا ... ولا يعودُ لنا بادٍ على حَضَر
إنَّا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلَفَنا ... من الخليفة ما نَرجو من المَطَر

نال الخلافة إذ كانت له قَدَرًا ... كما أتى ربَّه موسى على قَدَر
هذي الأرامل قد قضَّيْتَ حاجَتها ... فَمَن لحاجةِ هذا الأرمَل الذّكر

فقال: ياجرير، والله لقد وَليت هذا الأمر، وما أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبدُالله، ومائة أخَذَتْها أمُّ عبد الله، ياغلام، أعطه المائة الباقية؛ فقال: والله ياأمير المؤمنين إنها لأحبُّ مالٍ إليَّ كسبتهُ، ثم خرج؛ فقالوا له: ماوراءك؟ قال: ما يَسُوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين يُعطي الفقراء ويَمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطان لا تَستَفِزُّه ... وقد كان شيطاني من الجِنِّ راقِياً

وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضي الحرمين قال:

أقحمت السَّنَةُ نابغة بني جَعدة، فوفد إلى ابن الزبير، فدخل عليه في المسجد الحرام، ثم أنشده:

حَكيتَ لنا الصِّديق لما وَليتَنا ... وعثمان والفاروق فارتاح مُعدِمُ
وسَويت بين الناس في الحقِّ فاستووا ... فعاد صَباحًا حالكُ اللون مُظلم
أتاك أبو ليلى يَجوب به الدُّجى ... دُجَى الليل جوّابُ الفلاة عَثَمثم[1]
لِتجبُرَ منه جانباً زعزعت به ... صُرُوف الليالي والزّمان المُصَمِّم

فقال له ابن الزبير: هَوِّن عليك أبا ليلى، فالشعر أدنى وسائلك عندنا، أما صَفوة أموالنا فلآل الزبير، وأما عَفْوته فإنَّ بني أسد وتيماً تشغلها عنك، ولكن لك في مال الله سهمان، سَهم برؤيتك رسول الله ﷺ، وسَهْمٌ بشركتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أخذ بيده ودخل به دار النَّعم فأعطاه قلائص سبعاً، وجملاً رَحيلاً، وأوقر له

(١) العثمثم: الجمل الشديد الطويل.

الرِّكاب بُراً وتمراً وثياباً. فجعل النابغة يَستعجل فيأكل الحب صِرفاً؛ فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى! لقد بلغ به الجهد؛ قال النابغة: أشهد أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ماوُليت قريش فعدلت، واسترحمَتْ فَرحمت، وحَدثت فصَدقت، وَوَعدت خيراً فأنجزت، فأنا والنبيون فُرَّاط القاصِفين**»(١).

قال الزبير بن بكَّار: الفارِط: الذي يتقدم إلى الماء يُصلح الرِّشاء والدِّلاء. والقاصِف: الذي يتقدّم لشراء الطعام(٢).

وفود أبي عثمان المازني على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال:

وفدتُ على الواثق، فلما دخلتُ وسلَّمت قال: هل خليت وراءك أحداً يهمك أمره؟ قلت: أخَيَّة لي ربيتها فكأنها بنتي؛ قال: ليت شعرى! ماقالت حين فارقتها؟ قلتُ: أنشدتني قولَ الأعشى:

تقول ابنتي يوم جَد الرحيلُ ... أُرانا سَواءً ومَنْ قد يَتِم
أبانا فلا رِمت مِن عندنا ... فإنا نخاف بأن تُخترم
أرانا إذا أضمرتك البلا ... د نُجْفَى وتُقطع مِنّا الرَّحم

قال: ليت شعري! ما قلتَ لها؟ قال: أنشدتها أمير المؤمنين قول جرير:

ثِقي بالله ليس له شريكٌ ... ومِن عند الخليفة بالنجاحِ

قال: أتاك النّجاح، وأمر له بعشرة آلاف دِرهم.

---

(١) انظر: كنز العمال [٣٣٨٢٧] جـ١٢ ص٢٩ ورواه الطبراني في المعجم الكبير بنحوه ١٨/٣٦٥ والشيرازي في الألقاب وانظر المطالب العالية لابن حجر [٢٠٥٦] ومجمع الزوائد للهيثمي ١٠/٢٥.

(٢) وقيل فراط: جمع فارط: أي متقدمون إلى الشفاعة. وقيل إلى الحوض. والقاصفون: المزدحمون، انظر كنز العمال جـ١٢ ص٢٩.

فرش كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه :

قد مضى قولُنا في الوُفود والوافدات ومَقاماتهم بين يدي نبيّ الله ﷺ وبين يدي الخُلَفاء والملوك، ونحن قائلون بعَوْن الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مُخاطبة الملوك والتـزلّف إليهم بسِحْر البيان، الذي يُمازج الرُّوح لطافة، ويجرى مع النّفس رقّة؛ والكلامُ الرَّقيق مَصايد القلوب، وإن منه لما يَستعطف المُستَشيط غيظاً، والمُنْدَملُ حِقـدًا، حتى يُطْفِيء جَمْرة غيظه، ويَسُلَّ دفائن حِقْده؛ وإن منه لما يَستَميل قلبَ اللئيم، ويأخذ بسَمْع الكريم وبصره؛ وقد جعله الله تعالى بينه وبين خَلْقه وسيلةً نافعةً، وشافعاً مقبولاً؛ قال تبارك وتعالى: ﴿**فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التوابُ الرحيم**﴾[1].

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى مَن تخلّص من أُنشوطة الهَلاك وتَفلّت من حبـائـل المنيّة، بحُسن التنصُّـل، ولَـطِيف التـوصُّـل، وَلِـين الجـواب، ورَقِيق الاستعتاب، حتى عادت سَيِّآته حسنات، وعِيض بالثواب بدلاً من العِقَاب.

البيـــان

كلُّ شيء كَشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدَّى إلى الفهم ويتقبله العقل، فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، ومنّ به على عباده، فقال تعالى: ﴿**الرحمن علَّمَ القرآن خلق الإنسان علَّمَهُ البيان**﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ١ـ٤.

وسئل النبي ﷺ: فيم الجمال؟ فقال: «**في اللسان**» يريد البيان[١].

وقال ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»[٢].

وقالت العرب: أنفذُ من الرميَّة كلمة فصيحة.

وقال الرّاجز:

لقد خشيتُ أن تكون ساحراً ... رِوَايَةً طوراً وطوراً شاعرا

وقال سهل بن هارون:

العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: البيان بَصَرٌ، والعِيّ عَمى؛ كما أن العلم بَصَرٌ، والجَهل عَمَى. والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

وقال صاحب المَنطق: حَدُّ الإنسان: الحيُّ الناطق المُبين. وقال: الروح عِماد البدن، والعلم عِماد الرُّوح، والبيان عِماد العلم.

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قال النبي ﷺ: «**إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرمُوه**»[٣].

وقالت العلماء: لايُؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.[٤]

---

(١) رواه العسكري عن العباس قال: قلت يارسول الله ماالجمال في الرجل قال: «**فصاحة لسانه**». وهو عند ابن لال بلفظ: «**الجمال في الرجل اللسان**». وفي إسناده محمد بن زكريا الغلابي وهو ضعيف جداً. ورواه الحاكم عن علي بن الحسين وهو مرسل قاله السخاوي في المقاصد [٣٧٠] وانظر العجلوني/ كشف الخفا [١٠٧٥] وقال ابن الديبع: له طرق كلها ضعيفة. انظر التمييز [٤٨٨] وانظر ضعيف الجامع [٢٦٣٣].

(٢) رواه مالك وأحمد والبخاري وأبوداود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما. وروى الإمام أحمد وأبوداود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً**».

(٣) قال المناوي: قال الذهبي في مختصر المدخل طرقه كلها ضعيفة وله شاهد مرسل وحكم ابن الجوزي بوضعه وتعقبه العراقي ثم تلميذه ابن حجر بأنه ضعيف لا موضوع. انظر فيض القدير [٣٤٥]. وقال السخاوي بعد أن ذكر طرق الحديث: «وبهذه الطرق يقوى الحديث» المقاصد الحسنة [٥٠] وانظر العجلوني في كشف الخفا [١٨٠] والصحيحة [١٢٠٥].

(٤) بل هو حديث سيأتي.

اعتل الفضل بن يحيى، فكان إسماعيل بن صُبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يَزد على السلام عليه والدعاء له، ويُخفف في الجلوس، ثم يَلْقَى حاجبه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه، وكان غيره يُطيل الجلوس. فلما أفاق من عِلته قال: ما عادني في علتي هذه إلا إسماعيل بن صُبيح.

وقال أصحاب معاوية له:

إنا ربما جَلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك؛ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شِئتم.

وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلتُ: على بركة الله.

ودخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عَطَاك؟ قال: ألفين؛ قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان؛ قال: فلم لَحنت فيما لا يَلحن فيه مثلك؟ قال: لَحنَ الأميرُ فلحنت، وأعربَ الأميرُ فأعربت، ولم أكن ليَلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمُقرع له بلحنه، والمُستطيل عليه بفضل القول قبله. فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً.

قبلة اليد

ذكر عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نُقبِّل يد النبي ﷺ(١).

---

(١) قال الألباني: ضعيف، انظر ضعيف ابن ماجة باب الرجل يقبل يد الرجل [٨٠٧] ـ وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على ثبوت ذلك عن النبي ﷺ منها: حديث الزارع العبدي وكان في وفد عبد القيس قال: «فجعلنا نتبادر من رواحلنا نقبل يد النبي ﷺ ورجله». أخرجه أبو داود قال الألباني: صحيح انظر صحيح أبي داود [٤٣٥٤] وصحيح ابن ماجة [٤١٨٨].

وحديث أسامة بن شريك قال: «قمنا إلى النبي ﷺ فقبَّلنا يده» قال ابن حجر سنده قوي.

ومن حديث جابر: «أن عمر قام إلى النبي ﷺ فقبَّل يده» انظر ابن حجر/ فتح الباري ج١١ ص٥٩.

ومن حديث وكيع عن سفيان، قال: قال: قَبَّلَ أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب[١].

الشعبي قال:

ركب زيد بن ثابت، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال له: لا تَفعل يابن عمّ رسول الله ﷺ؛ قال هكذا: أُمِرنا أن نفعل بعُلمائنا؛ فقال له زيد: أَرِني يدَك؛ فأخرج إليه يده، فأخذها وقبَّلها، وقال: هكذا أُمِرْنَا أن نفعل بأهل بيت نبينا[٢].

من كره من الملوك تقبيل اليد

العُتبي قال:

دخل رجلٌ على هشام بن عبد الملك فقبَّل يده؛ فقال: أفٍّ له، إن العرب ما قبَّلت الأيدي إلا هُلوعاً، ولا فعلته العجم إلا خُضوعاً.

واستأذن رَجُلٌ المأمون في تقبيل يده، فقال له: إنّ قبلة اليد من المسلم ذِلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تَذِلَّ، ولابنا أن نُخدع.

واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده؛ فقال: أما هذه فَدَعْهَا؛ قال: ما منعتَ عيالي شيئاً أيسر فقداً عليهم من هذه.

---

(١) انظر ابن حجر المصدر السابق.

(٢) انظر ابن حجر المصدر السابق. وقد أورد ابن حجر رحمه الله أقوال بعض أهل العلم واختلافهم في تقبيل اليد، فمالك أنكر ذلك وأجازه آخرون، وقال الأبهري: «وإنما كرهها مالك إذا كانت على وجه التكبر والتعظم، وأما إذا كانت على وجه القربة إلى الله لدينه أو لعلمه أو لشرفه فإن ذلك جائز».
وقال النووي: «تقبيل يد الرجل لزهده وصلاحه أو علمه أو شرفه أو صيانته أو نحو ذلك في الأمور الدينية لا يكره بل يستحب، فإن كان لغناه أو شوكته أو جاهه عند أهل الدنيا فمكروه شديد الكراهة» انظر فتح الباري ج١١ ص٥٩ ص٦٠ ويرى الشيخ الألباني جواز تقبيل يد العالم بشرط أن لا يتخذ عادة يتطبع العالم على مد يده إلى تلامذته. وأن لا يدعو ذلك إلى تكبر العالم على غيره وأن لا يؤدي ذلك لتعطيل سنة معلومة كسُنَّة المصافحة، انظر السلسلة الصحيحة الشرح والتعليق على حديث رقم [١٦٠] وقد تم حذف بعض الأحاديث والأثار المتعلقة بالالتزام والتقبيل وذلك لأنه سوف يأتي ذكرها في «باب الإذن في القبلة» ولا داعي لتكرارها.

حسن التوفيق في مخاطبة الملوك

قال هارون الرشيد لمَعْن بن زائدة: كيف زمانُك يامَعْن؟ قال: ياأمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان.

وهذا نظير قول سعيد بن سَلْم، وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من بَيْتُ قيس في الجاهلية؟ قال: ياأمير المؤمنين، بنو فزارة؛ قال: فمن بيتهم في الإسلام؟ قال: ياأمير المؤمنين، الشريف من شرَّفتُموه؛ قال: صدقت أنت وقومُك.

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له: كبرت يامَعْن؛ قال: في طاعتك ياأمير المؤمنين؛ قال: وإنك لجلد؛ قال: على أعدائك ياأمير المؤمنين؛ قال: وإن فيك لبقية؛ قال: هي لك ياأمير المؤمنين؛ قال: أي الدولتين أحبُّ إليك أو أبغض، أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك ياأمير المؤمنين، وإن زاد بِرُّكَ على بِرِّهِمْ كانت دولتك أحبَّ إليَّ، وإن زاد بِرُّهُم على بِرِّكَ كانت دولتهم أحب إليَّ؛ قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلُك؟ قال: هو لأمير المؤمنين ولي به؛ قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيب ماء؛ قال: فكيف هواؤه؟ قال: أصح هواء.

وقال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد: إني أردتُك لأمر؛ قال: ياأمير المؤمنين، قد أعد الله لك مني قلباً معقودًا بطاعتك، ورأيًا موصولاً بنصيحتك، وسيفاً مشهوراً على عدوك، فإذا شئت فَقُلْ.

وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله؛ قال: ياأمير المؤمنين، إن مَدَحْتُه عِبْتَه، وإن ذممته اغتبته، ولكنه قِدْحٌ في كف مُثَقِّف ليوم نِضال في خدمة أمير المؤمنين.

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منبج[1]؛ قال: رقيقة الهواء، لينة

(١) منبج: مدينة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ.

الوطَاء؛ قال: فصف لي منزلك بها؛ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها؛ قال: ولم وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثَرَهُ وأحذو مثاله.

ودخل المأمون يوماً بيت الديوان، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: مَنْ أنت ياغلام؟ قال: أنا الناشيء في دولتك، والمُتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك، الحسن بن رجاء؛ قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

ودخل عقال بن شَبَّة على أبي عُبَيْد الله كاتب المهدي، فقال: ياعقال، لم أرك منذ اليوم؛ قال: والله إني لألقاك بشوق، وأغيب عنك بتَوْق.

وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيْب بن رباح ـ وكان أسود ـ يا نُصَيْب، هل لك فيما يُثْمِرُ المحادثة؟ يريد المنادمة؛ فقال: أصلح الله الأمير، اللون مُرَمَّد، والشعر مفلفل، ولم أقعد إليك بكريم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل.

مدح الملوك والتزلف إليهم

ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة فقال: ياأمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الـدُرُّ زان حُسْـنَ وجـوهٍ ... كان للدُرِّ حسنُ وجـهـك زَيْـنَـا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أُعطِيَ صاحبُكم مقولاً ولم يعط معقولا.

ذكر ابن أبي طاهر قال:

دخل المأمون بغداد فتلقَّاهُ وجوه أهلها، فقال له رجل منهم، ياأمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك، وزادك في نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تَقَدَّمْتَ من قبلك، وأتعَبتَ من بعدك، وأيَسْتَ أن يُعاين مثلك؛ أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقى

فلا نرجوه، فنحن جميعا ندعو لك ونثني عليك؛ خَصِبَ لنا جنابك، وعَذُبَ شرابُك، وحَسُنت نظرتك، وكَرُمَتْ مقدرتك؛ جبرت الفقير، وفككت الأسير، فأنت ياأمير المؤمنين كما قال الأول:

مازلت في البذل للنوال وإطـ ـلاقٍ لعانٍ بجرمه عَلِقُ
حتى تمنى البَرَاءُ أنهم عندك أسرى في القيد والحلق

وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرت لا أستكثر كثيرك، ولا أستقل قليلك؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أكثر من كثيرك، ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك.

وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ قال: ياأمير المؤمنين، المديح كله دون قدرك، والشعر فيك فوق قدري، ولكني أستحسن قول العتابي:

ماذا عسى مادح يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فُتَّ المدادحَ إلا أن ألسُننا مُستنطقات بما تخفى الضمايير

مدح خالد بن صفوان رجلا فقال: قريع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتاً قئولا، يهنأ الجرَب، ويداوي الدَّبَر[1]، ويُقلّ الحزّ، ويُطَبِّقُ المفْصَل، لم يكن بالبَرِم في مروءته، ولا بالهذر في منطقه، متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار

دخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يُضاحك ابنه المأمون، فقال: اللَّهُمَّ زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده؛ فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأجوده، ومن الحديث أصحَّهُ وأبلغه، ومن البيان أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ قال سهل: ياأمير المؤمنين، ما ظننت أن أحداً تقدمني سبقني إلى هذا

---

(١) الدَّبَرَ: جمع دبرة وهي قرحة الدابة.

المعنى؛ فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتُك أمسَ خير بني لُؤيّ ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضِعْفاً ... كذاك تزيد سادةُ عبد شمسِ

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: ياأمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحَدٌ أخفَّ على الحجاج ولا أحبَّ إليه منه.

حدث الشيباني قال:

أقام المنصور صالحاً ابنه، فتكلم في أمر فأحسن، فقال شبيب بن شيبة: تالله ما رأيت كاليوم أبين بياناً، ولا أعرب لساناً، ولا أربط جأشاً، ولا أبَلَّ ريقاً، ولا أحسن طريقاً، وحق لمن كان المنصور أباه، والمهديُّ أخاه، أن يكون كما قال زهير:

هو الجواد فإن يَلْحَقْ بشأوهما ... على تكاليفه فمثله لحِقَا
أو يسبقاه على ما كان من مَهَلٍ ... فمثل ما قَدَّمَا من صالحٍ سَبَقَا

وخرج شبيب بن شيبة من دار الخلافة يوماً فقيل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

وقيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدُّ له، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح. قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعّده المِنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: فمنها الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبَه منه صولتَهُ ومَضَاءَه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءَه، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حُسنه وبهاءه، ثم نزل.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تَكلم بحاجتك؛ قال: ياأمير المؤمنين، بُهر الدَّرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك؛ قال: فعَلى رِسلك، فإنا

لا نحب مدح المُشاهدة، ولا تزكية اللقاء؛ قال: ياأمير المؤمنين، لست أمدحك، ولكن أحمد الله على النعمة فيك، قال: حسبك فقد أبلغت.

ودخل رجل على المنصور، فقال له: تكلم بحاجتك؛ فقال: يبقيك الله ياأمير المؤمنين؛ قال: تكلم بحاجتك، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين؛ قال: والله ياأمير المؤمنين، ما أستقصر أجلك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتنم مالك، وإن عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزين، وما لأمريء بذل وجهه إليك نقصٌ ولا شين. قال: فأحسن جائزته وأكرمه.

حَدَّثَ العُتبي عن سفيان بن عيينة قال:

قدم على عمر بن عبد العزيز ناسٌ من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوش[1] للكلام، فقال: أكبِرُوا أكبِرُوا؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنه ليس بالسِنِّ، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من هو أسَنُّ منك؛ فقال عمر: صدقت رحمك الله، تكلم؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنَّا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمَّنَنَا الله بِعَدْلِكَ من جورك؛ قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر؛ قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتَهَلَّل، فقال: ياأمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم. فألقى عمر رأسه على صدره.

التنصل والاعتذار

قال النبي ﷺ: «**من لم يقبل من مُتَنَصِّلٍ عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يَرِدْ على الحوض**»[2].

---

(١) يتحوش: يتأهب.

(٢) أورده السيوطي في اللآلي المصنوعة ٢/١٠٤ دار الكتاب العربي بمصر وفي مسند أبي حنيفة بلفظ: «**من لم يقبل عذر مسلم يعتذر إليه فوزره كوزر صاحب مكس**». وقال القاري بعد شرح الحديث والحديث رواه ابن ماجه والضياء عن جودان بلفظ: «**من اعتذر إليه أخوه بمعذرة فلم يقبلها كان** =

وقال ﷺ: «**المعترف بالذنب كمن لا ذنب له**»[١]. وقال: «**الاعتراف يهدم الاقتراف**»[٢].

وقال الشاعر:

إذا ما أمرؤ من ذنبه جاء تائباً ... إليك فلم تغفر له فَلَكَ الذنبُ

واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهديّ فقال: قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب.

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال إبراهيم الموصلي:

سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل مِنْ تأخُّرِ حاجة ضمنها له وهو يقول: أحتجُّ إليك بغالب القضاء، وأعتذر إليك بصادق النيَة.

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جعفر ما أحسنَ العَفْوَ كُلَّهُ ... ولا سِيَّما عن قائلٍ: ليس لي عذر

وقال آخر:

اقبل معاذيرَ من يأتيك معتذرًا ... إن بَرَّ عندك فيما قال أو فَجَرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهِرُهُ ... وقد أجَلَّكَ من يعصيك مستترا
خير الخَليطين من أغضى لصاحبه ... ولو أراد انتصارًا منه لانتصرا

وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعة العذل.

وقال الأحنف بن قيس: رُبَّ ملومٍ لا ذنب له.

وقال آخر:

= عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس». انظر شرح مسند أبي حنيفة ص ٣٧٠

(١) رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود بلفظ «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

قال السخاوي حسنه ابن حجر لشواهده انظر المقاصد الحسنة [٣١٣] وانظر فيض القدير [٣٣٨٥] وصحيح الجامع [٣٠٠٨].

(٢) لم أقف عليه.

لعــل لـه عُـذرًا وأنت تلــومُ

وقال حبيب:

البِرُّ بي منك وَطَّى العُذر عِنْدَكَ لي ... فيــما أتــاك فلم تَقْـبَــلْ ولم تَلُمِ
وقـام علمُـك بي فاحتـج عنـدك لي ... مقــام شاهــدِ عدلٍ غيرَ مُتَّــهَـمِ

وقال آخر:

إذا اعتـذر الجـاني محا العُـذرُ ذَنْبَـهُ ... وكُـلُّ أمريء لا يقبل العُذْرَ مُذْنِبُ

ولنـا في هذا المعنى:

عذيريَ من طُوْل البُكَا لوعةُ الأسى ... وليس لمن لا يقبـل العُـذْرَ من عُذْرِ

وقال آخر:

فهـبـني مسيئـاً كالــذي قلت ظالمـاً ... فعفـواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكـن للعـفــو عنــدك لِلَّذِي ... أتــيــتُ به أهــلاً فأنـت له أهــلُ

ومن الناس من لا يرى الاعتذار ويقول: إياك وما يُعتذر منه.

وقالوا: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبا.

وقال الشاعر محمود الوراق:

إذا كان وجــه العُــذر ليس بِبَــيِّنٍ ... فإن اطّـراح العُـذر خير من العُـذر

قال ابن شهاب الزهري:

دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سِنًّا، فقـال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقـال: لقـد كان أبوك وعَمُّك نَعَّاقين في فتنة ابن الأشعث؛ فقلت: ياأمـير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم يُعدِّد، وإذا صفح لم يُثرِّب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بَحْرٌ لا تكَدِّرُه الدِّلَاءُ. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة ابن الزبير حتى مات.

ودخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور، وكان واجداً عليه، فقال له: تكلم بحُجَّتك؛ فقال: لو كان لي ذنب تكلمت بعذري، ولكن عفو أمير المؤمنين أحب إليَّ من براءتي.

وأتى موسى الهادي برجل، فجعل يُقرِّعه بذنوبه؛ فقال: ياأمير المؤمنين إن اعتذاري مما تقرعني به ردّ عليك، وإقراري به يلزمني ذنباً أجْنِه، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تَزْهَدَنْ عند المعافاة في الأجر

سُعِي بعبد الملك بن الفارسيّ إلى المأمون، فقال له المأمون: إن العدل من عدَّله أبو العباس، وقد كان وصفك بما وصفك به، ثم أتتني الأخبار بخلاف ذلك؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الذي بلغك عني تحميل عليّ، ولو كان كذلك لقلت: نعم، كما بلغك، فأخذت بحظي من الله في الصِّدق، ورجوتُ فضل أمير المؤمنين في سعة عفوه؛ قال: صدقت.

وأقبل المنصور يوماً راكباً والفرجُ بن فضالة جالسٌ عند باب الذهب، فقام الناس إليه ولم يقم، فاستشاط المنصور غيظاً وغضباً ودعا به، فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت، ويسألك عنه لم رضيت، وقد كرهه رسول الله ﷺ: فَسَكَنَ غضبه وقرّبه وقضى حوائجه.

الاستعطاف والاعتراف

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي ـ وهو الذي يقال له ابن شِكْلة ـ أمر بإدخاله عليه، فلما مَثُلَ بين يديه، قال: وَلِيُّ الثأر محكَّمٌ في القِصَاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعل الله كل ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقك. قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك، فأشارا عليَّ به؛ قال: أمَّا أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك، وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله، ثم استعبر باكياً؛ قال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جَذَلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته؛ ثم قال: ياأمير

المؤمنين، إنه وإن كان جُرمي يبلغ سفك دمي، فَحِلْمُ أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب؛ قال المأمون: لو لم يكن في حَقِّ نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك، لبلغك إليه حسن توصلك، ولطيف تنصلك.

وكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحاق والعباس ألطف في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما.

العُتبي قال: حدثنا طارق بن المبارك عن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة قال: جاءت دولة المسوِّدة، وأنا حديث السن كثير العيال متفرق المال، فجعلت لا أنزل قبيلة من قبائل العرب إلا شُهِرتُ فيها، فلما رأيت أمري لا يكتتم، أتيت سليمان بن علي، فاستأذنت عليه قرب المغرب، فأذن لي وهو لا يعرفني، فلما صرت إليه، قلت: أصلحك الله، لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك، فإمَّا قبلتني غانماً، وإما رددتني سالماً؛ قال: ومن أنت؟ فانتسبت له، فعرفني، وقال: مرحباً، اقعد، فتكلَّمْ غانماً؛ قلت: أصلحك الله، إن الحُرمَ اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا، قد خِفْنَ بخوفنا، ومن خاف خيف عليه؛ قال: فاعتمد سليمان على يديه، وسالت دموعه على خديه، ثم قال: يابن أخي، يَحْقِنُ اللهُ دمك، ويستر حرمك، ويسلم مالك إن شاء الله، ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. فلم أزل في جوار سليمان آمنا.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد، ياأمير المؤمنين، فإنَّا إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم، ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دَفَّتْ إليَّ منهم دافة[1]. لم يشهروا سلاحاً، ولم يكثروا جمعاً، وقد أحسن الله إليك فأحْسِن، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أماناً ويأمر بإنفاذه إليَّ فليفعل.

فكتب لهم كتاباً منشوراً، وأنفذه إلى سليمان بن علي في كل من لجأ إليه من بني أميَّة.

(١) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد. ودفت: أتت وأقبلت.

ودخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد، فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد، فقال متمثلا:

أريد حياته ويريد قتلي عَذيرُك من خليلك من مُرادِ

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع[1]، وعارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد وقع، فأقلَعُ عن براجم بلا معاصم[2]، وجماجم بلا غلاصم[3]، فمهلاً مهلا، فبي والله يسهل لكم الوعر. ويصفو لكم الكدر؛ وألقت إليكم الأمور مقاليد أزمتها، فالتدارك التدارك قبل حلول داهيةٍ خَبُوطٍ باليد لَبُوطٍ بالرِّجْل. قال عبدالملك: أفذًّا ما تكلمت أم توأماً ياأمير المؤمنين؟ قال: بل فذّاً؛ قال: اتق الله في ذي رَحِمك، وفي رعيتك التي استرعاك الله، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد محضتُ لك النصيحة، وأدَّيتُ لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يَلَمْلَمْ، وتركت عدوك سبيلاً تتعاوره الأقدام، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، إن الكتاب لنميمةُ واشٍ وبغي باغ، ينهش اللحم، ويلغ في الدم، فكم ليلٍ تمام فيك كابدته، ومقامٍ ضَيِّق فرَّجته، وكنت كما قال الشاعر أخو بني كلاب:

ومقامٍ ضَيِّقٍ فرّجتُه بلساني ومقامي وجَدَلْ
لو يقوم الفيلُ أو فيَّالُهُ زَلَّ عن مثل مقامي وزَحَل

فَرَضِي عنه ورحب به، وقال: وَرِيَتْ بك زنادي.

وبعث بعض الملوك إلى رجل وجد عليه، فلما مَثُل بين يديه قال: أيها الأمير، إن الغضب شيطان، فاستعذ بالله منه، وإنما خُلق العفو للمذنب، والتجاوزُ للمُسيء، فلا تضق عما وَسِعَ الرعية من حلمك وعفوك. فعفا عنه، وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مسلم أبا مجلز على بعض الأمر، قال: أصلح الله الأمير، تثبت

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وهمع: سال وانصب.

(٢) البراجم: مفاصل الأصابع؛ الواحدة: برجمة (بالضم).

(٣) الغلاصم: جمع غلصمة (بالفتح). والغلصمة: رأس الحلقوم، وهي الموضع الناتيء في الحلق.

فإن التثبتَ نصفُ العفو.

وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته. فلما مَثُلَ بين يديه، قال: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر مَنْ بُرْئِي أحبُّ إليه من سقمي، وبراءتي أحبُّ إليه من جرمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَدَ عليه: ياأمير المؤمنين، إن القدرةَ تُذْهِبُ الحفيظة، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة، ونحن مقرون بالذنب، فإن تعفُ عني فأهل ذلك أنت، وإن تعاقبني فأهل ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة رَوْح بن زِنْبَاع، فقال: أَنْشُدُكَ الله ياأمير المؤمنين أن تضع مني خسيسة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها، أو تُشْمِتَ بي عدواً أنت وقمته، إلّا أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي؛ فقال معاوية: خلِّيَا عنه، إذا أراد الله أمرًا يسَّرَه.

دخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي جعفر المنصور بعد ما كتب أمانه، فقال: ياأمير المؤمنين، إن إمارتكم بِكْر، ودولتكم جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنبوهم مرارتها، تخف على قلوبهم طاعتكم، وتسرع إلى أنفسهم محبتكم، ومازلت مستبطئاً لهذه الدعوة. فلما قام قال أبو جعفر: عجباً مِنْ كُلِّ من يأمُرُ بقتل هذا!

قال أحمد بن أبي دُوَاد: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه كان تَغَلَّبَ على شاطيء الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مَثُلَ بين يديه، دعا بالنِّطْعِ والسيف، فأُحْضِرَا؛ فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يصَعِّدُ النظر فيه ويصوبه، وكان جسيماً وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره؛ فقال: ياتميم، إن كان لك عُذرٌ فأت به، أو حجة فأدْلِ بها؛ فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كُلَّ شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ياأمير المؤمنين، إن الذنوب تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة، وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بإمامتك، وأشبههما بخلافتك، ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنِّطْعِ كامِناً ... يُلاحظني من حينما أتلَفَّتُ
وأكبر ظني أنَّكَ اليوم قاتلي ... وأيُّ أمرِيءٍ مما قضى الله يُفلِتُ
ومن ذا الذي يُدْلي بعذرٍ وحُجَّةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يَعِزُّ على الأوس بن تغلب موقفٌ ... يُسَلُّ عليَّ السيفُ فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيءٌ مُؤقَّتُ
ولكن خلفي صبيةٌ قد تركتهم ... وأكبادُهُم من حسرةٍ تتفتت
كأنِّي أراهم حين أُنْعَى إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مِتُّ مُوّتوا
فكم قائلٍ: لا يُبْعِدُ الله روحه ... وآخر جذلان يُسَرُّ ويشمت

قال: فتبسم المعتصم، وقال: كاد والله ياتميم أن يسبق السيف العذل، اذهب فقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية.

أبو الحسن المدائني قال:

لما حج المنصور مَرَّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليَّ بجعفر بن محمد؛ قتلني الله إن لم أقتله، فمطل به، ثم ألح عليه فحضر، فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين يديه، همس جعفر بشفتيه؛ ثم تقرب وسلم؛ فقال: لا سَلَّم الله عليك ياعدو الله، تُعمل عليَّ الغوائل في ملكي، قتلني الله إن لم أقتلك؛ قال: ياأمير المؤمنين، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه، أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظُلِمَ فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحق من تأسى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه ملياً، وجعفر واقف، ثم رفع رأسه فقال: إليَّ أبا عبد الله، فأنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، السليم الناجية، القليل الغائلة، ثم صافحه بيمينه، وعانقه

بشماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله، ثم قال: ياربيع، عجِّل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه. قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه؛ فقال: ما أرانا ياربيع إلا وقد حبسنا؛ فقلت: لا عليك، هذه مِنِّي لا مِنْهُ؛ فقال: هذه أيسر، سَلْ حاجتك؛ فقلت له: إني منذ ثلاثٍ أدفع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلى عنك، وأنا خادم سُلطان، ولا غنى لي عنه، فأحب منك أن تُعلمنيه؛ قال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بحفظك الذي لا يرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها علي قَلَّ لك عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتليت بها قَلَّ عندها صبري فلم تخذلني؛ اللهم بك أدرأ في نحره، وأستعيذ بخيرك من شره، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المدائني قال:

كان يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكرًا، ثم قال: ياأمير المؤمنين، كن كنَبيّ الله ﷺ، ابتلي فصبر، وأُعطي فشكر، وقدر فغفر؛ قال: ومن أنت؟ قال: يزيد ابن راشد. فعفا عنه.

حبس الرشيد رجلًا، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله. فأطلقه.

ومر أسد بن عبد الله القسري، وهو والي خراسان بدار من دور الاستخراج ودهقان يُعَذَّبُ في حبسه، وحول أسد مساكين يستجدونه، فأمر لهم بدراهم تُقسم فيهم؛ فقال الدهقان: ياأسد، إن كنت تُعْطي من يُرْحم فارحم من يُظْلم، فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم؛ يا أسد، احذر من ليس له ناصر إلا الله، واتق من لا جُنة له إلا الابتهال إليه، إن الظلم مصرعه وخيم، ولا تغتر بإبطاء الغيثات من

ناصر متى شاء أن يجيب أجاب، وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً. فأمر أسد بالكف عنه.

وقال عبيد بن أيوب، وكان يطلبه الحجاج لجناية جناها، فهرب منه وكتب إليه:

أذِقني طعمَ النَّومِ أو سَلْ حقيقةً ... عليّ فإن قامت ففصِّل بنانيا
خلعت فؤادي فاستطار فأصبحت ... تَرَامى به البيد القفار تراميا

ولم يقل أحد في هذا المعنى أحسن من قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

أتاني أبيت اللعن أنَّكَ لُمتني ... وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامع
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ ... من الرُّقش في أنيابها السُّم ناقِعُ
أكلَّفْتَني ذنبَ أمرىء وتركتَهُ ... كذي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتعُ
فإنَّك كالليل الذي هو مُدركي ... وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

وقال فيه أيضاً:

ولَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذبُ
فإن أك مظلوماً فعبدٌ ظلمته ... وإن تك ذا عُتْبٍ فمثلك يُعْتِبُ
حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيْبَةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِّى جنايةً ... لُمبلغك الواشي أغشُّ وأكذَبُ
ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب
فإنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكب ... إذا طلعت لم يبْدُ منهنَّ كوكبُ

قال ابن الطثرية:

فهبنى أمرأً إمَّا بريئاً علمتَهُ ... وإمَّا مسيئاً تاب منه وأَعتَبَا
وكنت كذي داءٍ يُبَغِّي لدائه ... طبيباً فلما لم يجده تَطَبَّبَا

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات لما أحسَّ بالموت وهو في حبس المتوكل برُقعة إلى المتوكل، فيها:

هي السبيل فمن يومٍ إلى يوم ... كأنَّه ما تُريك العين في النوم
لا تعجلنَّ رويداً إنما دول ... دُنْيَا تَنَقَّلُ من قومٍ إلى قوم
إنَّ المنايا وإن أصْبَحْتَ ذا فرحٍ ... تحوم حولك حوماً أيما حَوْمِ

فلما وصلت إلى المتوكل وقرأها، أمر بإطلاقه، فوجدوه ميتاً.

جرى بين أبي مسلم صاحب الدعوة وبين قائد من قواده يقال له شهرام كلام، فقال له قائده كلمة فيها بعض الغِلَظ، ثم ندم على ما كان منه، فجعل يتضرع ويتنصل إليه؛ فقال له أبو مسلم: لا عليك، لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب شيطان، وأنا جَرَّأتك عليَّ بطول احتمالي منك، فإن كنت للذنب متعمدًا، فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً، فإن العذر يسَعك، وقد عفونا على كل حال. فقال: أصلح الله الأمير، إن عفو مثلك لا يكون غروراً؛ قال: أجل؛ قال: فإن عظم الذنب لايدع قلبي يسكن، وألح في الاعتذار؛ فقال له أبو مسلم: عجباً لك، إنك أسأتَ فأحسنتُ، فلما أحسنتَ أأسيء!

وقال المنصور لمعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن واعتسافك عليهم إلا حقاً؟ قال: كيف ذلك ياأمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار، وأنشده البيت وهو:

معن بن زائدة الذي زيدت به ... فَخرًا إلى فخر بنو شَيبانِ

قال: نعم ياأمير المؤمنين، قد أعطيته ألف دينار، ليس على هذا البيت، ولكن على قوله:

مازلت يوم الهاشمية معلمًا ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمَنعت حوزته وكنت وقاءهُ ... من وقع كل مهند وسنان

قال: فاستحيا المنصور وجعل ينكت بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد.

تذكير الملوك بذمام متقدم

قال ثمامة بن أشرس للمأمون لما صارت إليه الخلافة: إنه كان لي أملان: أملٌ لك وأملٌ بك، فأما أملي لك فقد بلغتُه، وأما أملي بك فلا أدري ما يكون منك فيه؛ قال: يكون أفضل ما رجوت وأملت، فجعله من سُماره وخاصته.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر كتب إليه رجلٌ من إخوانه:

إنَّا بطانتُك الآلى كُنَّا نكابد ما تكابد
ونُرى فنُعْرَفُ بالعَدَا وة والبِعاد لمن تباعد
ونبيتُ من شفق عليـ ـك ربيئةً والليلُ هاجِد
هذا أوان وفاءِ ما سَبقت به منك المواعِد

فوقع أبو جعفر على كل بيت منها: صدقت صدقت، ثم دعا به وألحقه بخاصته.

وقال حبيب الشاعر في هذا المعنى:

إن أولى الموالي أن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحَزَنِ
إن الكرام إذا ما أسْهَلُوا ذَكَرُوا من كان يألفهم في الموطن الخشن

حسن التخلص من السلطان

كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام إليه أصغر القوم، فقال له: يامعن، أتقتل الأسرى عطاشاً؟ فأمر لهم بالماء، فلما سُقوا، قال: يامعن، أتقتُلُ ضِيفانك؟ فأمر معن بإطلاقهم.

لما أتى عمر بن الخطاب بالهُرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه، فأمر بقتله، فلما عُرض عليه السيف، قال: لو أمرت لي ياأمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظمأ؛ فأمر له بها، فلما صار الإناء بيده قال: أنا آمن حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده، وقال: الوفاء ياأمير المؤمنين نورٌ أبلج؛ قال: لك التوقف حتى أنظر في أمرك، ارفعا عنه السيف؛ فلما رُفع عنه؛ قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقال له عمر: ويحك! أسلمت خيرَ إسلام، فما أخَّرك؟ قال: خشيت ياأمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي إنما كان جزعاً من الموت؛ فقال عُمر: إنّ لفارس حُلومًا بها استحقت ما كانت فيه من المُلك. ثم كان عُمر يشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه.

وأمر مُصْعَبُ بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن يضرب عنقه؛ فقال: أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به، فأتعلق بأطرافك، وأقول: أي رَبِّ، سَلْ هذا فيم قتلني؛ قال: أطلقوه فإني جاعل ما وهبت له من حياته في خفض، أعطوه مائة ألف؛ قال الأسير: بأبي أنت وأمي، أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً؛ قال: ولم؟ قال: لقوله:

إنما مُصعبٌ شهاب من الله ... تَجلَّت عن وجهه الظلماءُ
مُلكه مُلك عِزةٍ ليس فيه ... جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
يَتَّقي الله في الأمور وقد أفـ ... ـلح مَن كان همَّه الاتقاءُ

أمر عبد الملك بقتل رجل؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنك أعزُّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله؛ فعفا عنه.

الهيثمُ بن عدي قال: أُتي الحجاج بحَرُورِيَّة، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير، ونَكِّل بها غيرها. فتبسمت الحرورية؛ فقال لها: لم تبسمت؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فِرعون خيرًا من وزرائك ياحجاج، استشارهم في قتل موسى، فقالوا: أرجِه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي؛ فضحك الحجاج، وأمر بإطلاقها.

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول: إنَّ الحسين بن علي ابن عم رسول الله ﷺ ابن رسول الله، لتأتِيَنِّي بالمخرج مما قلت أو لأضربن عنقك؛ فقال له ابن يعمر: وإن جئت بالمخرج فأنا آمِن؟ قال: نعم؛ قال: اقرأ: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾[1] إلى قوله: ﴿**ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى**﴾[1] إلى قوله: ﴿**وعيسى**﴾[1]. فمن أقرب: عيسى من إبراهيم، وما هو ابن بنته، أو الحسين من محمد ﷺ؟ فقال له الحجاج: والله لكأني ما قرأت هذه الآية قط، وولاَّه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٥.

أبو عوانة عن عاصم بن أبي وائل قال: بعث إليَّ الحجاج فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل إليَّ الأمير حتى عرف اسمي؛ قال: متى هبطت هذا البلد؟ قلت: حين هبط أهله؛ قال: ما تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما لو تبعتهُ كفاني؛ قال: إني أريد أن أستعين بك في عملي؛ قلت: إن تستعن بي تستعن بكبير أخرق ضعيف يخاف أعوان السوء، وإن تدعني فهو أحب إليَّ، وإن تقحمني أتقحَّم؛ قال: إن لم أجد غيرك أقحمتك، وإن وجدت غيرك لم أقحمك؛ قلت: وأخرى، أكرم الله الأمير، إني ما علمت الناس هابوا أميرًا قط هيبتهم لك، والله إني لأتعارّ[1] من الليل فما يأتيني النوم من ذِكرك حتى أصبح، هذا ولست لك على عمل؛ قال: هيه، كيف قلت؟ فأعدت عليه؛ فقال: إني والله لا أعلم على وجه الأرض خلقا هو أجرأ على دَم مني، انصرف. قال: فقُمت فعدلت عن الطريق كأني لا أبصر؛ فقال: أرشدوا الشيخ.

العُتبي قال: دخل جامع المحاربي على الحجاج ـ وكان جامع شيخاً صالحاً خطيباً لبيباً جريئاً على السلطان، وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم. فقال له جامع: أما إنه لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. وقال الحجاج: ما أرى أن أرد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف؛ قال: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار؛ قال الحجاج: الخيار يومئذ لله؛ قال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله؛ فغضب وقال: ياهناه، إنك من محارب؛ فقال جامع:

ولـلحـرب سُمِّينـا وكنـا مُحاربـاً ... إذا ما القَنَا أمسى من الطَّعن أحمرا

فقال الحجاج: والله لقد هممت بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك؛ قال

---

(١) التعارّ: السهر والتقلب على الفراش أو الأرق.

جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن غششناك أغضبنا الله، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله؛ قال: أجل وسكن. وشُغِلَ الحجاج ببعض الأمر، فانسل جامع، فمر بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق، فأبصر كبكبة فيها جماعة من بكر العراق، وقيس العراق، وتميم العراق، وأزد العراق، فلما رأوه اشرأبوا إليه، وقالوا له: ماعندك؟ دفع الله عنك؛ قال: ويحكم؛ عُمُّوه بالخلع كما يعمكم بالعداوة، ودعوا التعادي ما عاداكم، فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاديتم، أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي، وأيها القيسي هو أعدى لك من التغلبي، وهل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم. وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، واستجار بزفر بن الحارث فأجاره.

العتبي قال: لما أُتِيَ بابن هبيرة إلى خالد بن عبد الله القسري وهو والي العراق، أتي به مغلولاً مقيداً في مدرعة، فلما صار بين يدي خالد ألقته الرجال إلى الأرض؛ فقال: أيها الأمير، إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بها على من قبلك، فأنشدك الله أن تستنَّ فيَّ بسُنَّة يَسْنَن بها فيك مَنْ بعدك. فأمر به إلى الحبس؛ فأمر ابن هبيرة غلمانه فحفروا له تحت الأرض سردابا حتى خرج الحفر تحت سريره، ثم خرج منه ليلاً وقد أعدت له أفراس يُداولها، حتى أتى مَسْلَمة بن عبد الملك، فاستجار به فأجاره، واستوهبه مسلمة من هشام بن عبد الملك فوهبه إياه. فلما قدم خالد بن عبد الله القسري على هشام وجد عنده ابن هبيرة، فقال له: إباق العبد أبقت؛ قال له: حين نمت نومة الأمَة.

فقال الفرزدق في ذلك:

لما رأيت الأرض قد سُدَّ ظهرُهَا ... فلم يبق إلا بطنها لك مَخْرَجَا
دعوت الذي ناداه يونس بعد ما ... ثوى في ثلاث مُظلماتٍ فَفَرَّجَا
فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة ... وما سار سَارٍ مثلها حين أدْلَجَا
خرجت ولم تَمنُنْ عليك شفاعةٌ ... سوى حَثِّك التقريب من آل أعوجا

ودخل الناس على ابن هبيرة بعد ما أمنه هشام بن عبد الملك يهنئونه ويحمدون له رأيه، فقال مُتمثلاً:

من يلق خيراً يحمد الناسُ أمره ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما

ثم قال لهم: ما كان قولكم لو عرض لي أو أدركت في طريقي؟

عبد الله بن سوار قال: قال لي الربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مسلمة؟ قلت: نعم؛ قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على وضوئه، فجاءه، فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة؛ قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصُب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح صائح من وراء الرُّواق: أنا بالله وبالأمير؛ فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة، اخرج إليه. فخرجت إليه ورجعت فأخبرته؛ فقال: أدخله، فدخل؛ فإذا رجل يَميد نُعاسا، فقال أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله؛ ثم قال: أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله، حتى قالها ثلاثا؛ ثم قال: أنا بالله، فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضئه وليُصَلِّ، ثم أعرض عليه أحب الطعام إليه فأته به وافرش له في تلك الصُفَّة ـ لصفة بين يدي بيوت النساء ـ ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام، فقال: شربة سَويق، فشرب، وفرشت له فنام؛ وجِئت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: ياأمير المؤمنين، لي حاجة؛ قال: قُضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة؛ قال: رضيت ياأمير المؤمنين، ثم قام منصرفاً، حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: ياأمير المؤمنين، عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء؛ قال: لا استثني عليك؛ قال: فهو ابن هُبيرة. فعفا عنه.

فضيلة العفو والترغيب فيه

كان للمأمون خادم، وهو صاحب وضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه، إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ المأمون عليه، فقال: ياأمير المؤمنين، إن الله يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾. قال: قد كظمت غيظي عنك. قال: ﴿والعافين عن

الناس﴾. قال: قد عفوت عنك. قال: ﴿**والله يحب المحسنين**﴾. قال: اذهب فأنت حر.

أمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: ياأمير المؤمنين، إن الله قد فعل ما تحب من الظفر، فافعل ما يحبه من العفو.

الأصمعي قال: عزم عبد الله بن علي على قتل بني أمية بالحجاز، فقال له عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: إذا أسرعت بالقتل في أكفائك، فمن تباهي بسلطانك، فاعف يعف الله عنك.

دخل ابن خُريم على المهدي، وقد عتب على بعض أهل الشام، وأراد أن يُغزيهم جيشاً، فقال: ياأمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خيرٌ لك من أن تُطيعك طاعة خوف.

أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك، فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق؛ قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان وزر كان عليَّ دونك، فخلى سبيله.

كلم الشعبي ابن هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستهم بباطل فالحق يُطلقهم، وإن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم.

العتبي قال: وقعت دماء بين حيّين من قريش، فأقبل أبو سفيان، فما بقي أحد واضع رأسه إلا رفعه، فقال: يامعشر قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضلُ من الحق؟ قال: نعم، العفو، فتهادن القوم واصطلحوا.

وقال هُزَيم بن أبي طَحْمَة ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب: ما ظُلم أحد ظلمك، ولا نُصر نصرك، فهل لك في الثالثة نَقْلُها؟ قال: وما هي؟ قال: ولا عفا عفوك.

وقال الأحنف بن قيس: أحقُّ الناس بالعَفو أقدرهم على العُقوبة.

وتقول العرب في أمثالها: ملكت فأَسجِح، وارحم ترحم، وكما تدين تُدان، ومن بَرَّ يوماً بُرَّ به.

بُعْد الهمة وشرف النفس

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبيد الله: ألا أوصي بك الأمير زيادًا؟ قال: ياأبت، إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت.

ومن أعز الناس نفساً وأشرفهم هِمماً الأنصار، وهم الأوس والخزرج ابنا قيلة، لم يُؤدوا إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تُبع يدعوهم إلى طاعته، ويتوعدهم إن لم يفعلوا أن يغزوهم. فكتبوا إليه:

العبد تُبَّعُ كم يروم قتالنا ... ومَكانه بالمنزل المُتذلل

فغزاهم تُبع أبو كرب، فكانوا يُقاتلونه نهارًا ويخرجون إليه القِرَى ليلاً، فتذمم من قتالهم ورحل عنهم.

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتجهَّم له كأنه لا يعرفه؛ فقال له الفرزدق: وما تعرفني ياأمير المؤمنين؟ قال: لا؛ قال: أنا من قوم منهم أوفى العرب، وأسود العرب، وأجود العرب، ، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب؛ قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك؛ ولأهدمن دارك؛ قال: نعم ياأمير المؤمنين، أما أوفى العرب، فحاجب بن زُرارة، الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها؛ وأما أسود العرب، فقيس بن عاصم، الذي وفد على رسول الله ﷺ فبسط له رداءه، وقال: هذا سيد الوبر؛ وأما أحلم العرب، فعتاب بن ورقاء الرياحي؛ وأما أفرس العرب، فالحريش بن هلال السعدي؛ أما أشعر العرب، فأنذا بين يديك ياأمير المؤمنين. فاغتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره، وقال: ارجع على عَقبيك، فما لك عندنا شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا ... إليك ولا من قلة في مجاشع

وقال الأحوص في الفخر، وهو أفخر بيت قالته العرب:

ما من مصيبة نكبة أُرْمَى بها ... إلا تُشرفني وترفع شاني
وإذا سألت عن الكِرام وجدتني ... كالشمس لا تَخْفَى بكل مكان

وقال أبو عبيدة: اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر، فأخرج إليهم بُرْدَى محرق، وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما فقام عامر بن أحيمر السعدي فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر؛ فقال له النعمان: بم أنت أعز العرب؟ قال: العِز والعدد من العرب في معد، ثم في نِزار، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فليُنافرني؛ فسكت الناس. ثم قال النعمان: هذه حالك في قومك، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وخال عشرة، وعمّ عشرة؛ وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الأرض، ثم قال: من أزالها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل. فلم يَقُم إليه أحد، فذهب بالبُردين.

وكانت هُنيدة بنت صعصعة عَمَّة الفرزدق تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي يحل لها أن تضع خمارها عندهم فصِرمتي[1] لها: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزِّبرقان بن بَدر، فسميت ذات الخمار.

مراسلات الملوك

زُهير عن أبي الجُويرية الجَرمي قال:

كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قِبلة له، وعمن لا أب له، وعمَّن لا عشيرة له، وعمَّن سار به قبرُه، وعن ثلاثة أشياء لم تُخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وابعث إليّ في هذه القارُورة ببزر كل شيء، فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس. فقال ابن عباس: أما ما لا قِبلة له فالكعبة؛ وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم؛ وأما من سار به قبره فيُونس؛ وأما ثلاثة أشياء لم تُخلق في رَحِم: فكبش إبراهيم، وناقة ثمود، وحيَّة موسى؛ وأما شيء، فالرجل له عقل يَعمل بعقله؛ وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي

(١) الصرمة: (بالكسر) مجموعة الإبل ما بين العشرين والثلاثين.

ذَوي العقول؛ وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره؛ وملأ القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتابُ والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة.

نعيم بن حماد قال:

بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتابًا فيه: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته ابنةُ ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران يُنبتان العُود والألُوة[1] والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثنى عشر ميلا، إلى مَلِك العرب الذي لا يُشرك بالله شيئاً، أما بعد، فإني قد بعثت إليك بهدية وما هي بهدية، ولكنها تحية، وأحببت أن تبعَث إليَّ رجلا يعلمني ويفهمني الإسلام، والسلام، يعني بالهدية الكتاب.

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيوف قَلعية، وكلاب سيورية، وثياب من ثياب الهند؛ فلما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصُفوا صفين، ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحِدَق، وأذن للرسل فدخلوا عليه، فقال لهم: ماجئتم به؟ قالوا: هذه أشرف كسوة بلدنا، فأمر هارون القطاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرة لخيله، فصلب الرسل على وجوههم، وتذمَّموا من ذلك ونكَّسوا رءوسهم؛ ثم قال لهم الحاجب: ما عندكم غيرُ هذا؟ قالوا له: هذه سُيوف قلعيَّة لانظير لها. فدعا هارون بالصَّمصامة سيف عمرو بن معد يكرب، فقطعت به السيوف بين يديه سيفاً سيفا، كما يُقَطُّ الفجل، من غير أن تنثني له شفرة، ثم عرض عليهم حدَّ السيف فإذا لا فل فيه، فصلب القوم على وجوههم؛ ثم قيل لهم: ما عندكم غير هذا؟ قالوا: هذه كلاب سيورية لا يلقاها سبع إلا عقرته؛ فقال لهم هارون: فإن عندي سَبْعًا فإن عقرته فهي كما ذكرتم؛ ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم: فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا:

---

(١) الألوة: ضرب من العود يُتَبَخَّرْ به.

ليس عندنا مثل هذا السبع في بلدنا؛ قال لهم هارون: هذه سِباع بلدنا، قالوا: فنرسلها عليه، وكانت الأكلب ثلاثة، فأرسلت عليه فمزَّقته، فأعجب بها هارون، وقال لهم: تمنَّوا في هذا الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به سُيوفنا؛ قال لهم: ما كان لنبخلَ عليكم، ولكنه لا يجوز في ديننا أن نُهاديكم بالسِّلاح، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف؛ قال: لا سبيل إليه، ثم أمر لهم بتُحف كثيرة وأحسن جائزتهم.

obeikandl.com

obeikandl.com

فرش كتاب الياقوتة في العلم والأدب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبَد ربِّه :

قد مضى قولُنا في مُخاطبة الملوك ومقاماتهم، وما تفنَّنوا فيه من بديع حِكَمهم، والتـزلّف إليهم بحسن التـوصـل ولـطيف المعـاني، وبـارع مَنـطقهم، واختلاف مذاهبهم، ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه في العلم والأدب، فإنهما القُطبان اللذان عليهـا مَدار الدين والدنيا، وفَرْقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان، وما بين الطَّبيعة المَلَكية، والطبيعة البهيمية. وهما مادَّة العقل وسرَاج البدن ونُور القلب وعماد الروح، وقد جَعل الله بلطيف قُدْرته، وعظيم سُلطانه، بعض الأشياء عَمَداً لبعض ومُتولِّداً من بعض، فإجالة الوَهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذِّكر، وخواطر الذكر تنبِّه رَويَّة الفِكْر، وروية الفكر تثير مكامن الإرادة، والإرادة تُحكم أسباب العمل، فكل شيء يقوم في العقل ويمثل في الوهم يكون ذِكرًا، ثم فِكرًا، ثم إرادةً، ثم عملاً. والعقل متقبل للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً. والعلم علمان: علم حُمل، وعلم استعمل، فما حمل منه مُضِرّ، وما استعمل نفع. والدليل على أن العقل إنما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الألوان، والسمع في تقبل الأصوات، أن العاقل إذا لم يُعلَّم شيئاً كان كمن لا عقل له، والطفل الصغير لو لم تُعرِّفه أدباً وتُلقنه كتاباً كان كأبله البهائم وأضلِّ الدواب، فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلاً قليل العلم: فهو يستعمل عقله في قلة علمه، فيكون أشد رأياً، وأنبه فطنةً، وأحسن مواردَ ومصادِرَ

---

(١) يمتاز كتاب الياقوتة في العلم والأدب بكثرة الأحاديث الصحيحة والضعيفة وقد بينا الصحيح منها والضعيف كما هو في كل كتاب وباب. وقد تم حذف بعض الأحاديث الضعيفة التي لم تشتهر بين عامة الناس كذلك تم حذف بعض الأحاديث الصحيحة إما لتكرارها في أبواب أخرى أو لحذف النص أو القصة التي وردت الأحاديث فيها.

من الكثير العلم مع قلة العقل، فإن حجتنا عليه ما قد ذكرناه من حمل العلم واستعماله، فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب.

قيل للمُهلِّب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت، ولم يُدرك ما أدركت، قال: ذلك علم حُمِل، وهذا علم استعمل.

وقد قالت الحكماء: العلم قائد، والعقل سائق، والنفس ذود، فإذا كان قائد بلا سائق هلكت الماشية، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشِمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.

فنون العلم

قال سهل بن هارون يوماً وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغب عن بعض العلم كما يُرغب عن بعض الحلال؛ فقال المأمون: قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم، فإن كان هذا أردت فوجهه الذي ذكرت؛ ولو قلتَ أيضا: إن العلم لايُدرك غوره، ولا يُسبر قعره، ولا تُبلغ غايته، ولا تُستقصى أصوله، ولا تنضبط أجزاؤه، صدقت، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم فالأهم، والأوكد فالأوكد، وبالفرض قبل النفل، يكن ذلك عدلاً قصداً ومذهباً جميلاً. وقد قال بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعاً في غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله؛ فهذا وجهٌ لما ذكرت. وقال آخرون: علم الملوك النسب والخبر، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسِّيَر، وعلم التجار الكتاب والحساب، فأما أن يسمى الشيء علماً وينهى عنه من غير أن يسأل عما هو أنفع منه فلا.

وقال محمد بن إدريس رحمه الله: العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.

وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنًّا واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم.

وقال أبو يوسف القاضي: ثلاثة لا يَسلمون من ثلاثة: من طلب الدين بالفلسفة

لم يسلم من الزندقة، ومن طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الفقر، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: العلم أكثر من أن يُحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمَثَل، قال الشاعر:

وما من كاتب إلا ستَبْقى كتابتُه وإن فنيت يداهُ
فلا تكتُب بكفِّك غير شيء يَسرُّك في القيامة أن تراه

قال الأصمعي: وَصلت بالمُلَح، ونلت بالغريب.

وقالوا: من أكثر من النحو حمَّقه، ومن أكثر من الشعر بذَّله، ومن أكثر من الفقه شرَّفه.

الحض على طلب العلم

قال النبي ﷺ: «**لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الناس عالم ومتعلِّم وسائرهم همج**»(٢).

وعنه ـ ﷺ ـ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب**(٣) **ولمدادُ**

---

(١) لا يصح مرفوعا، وهو مأثور عن بعض السلف.

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود بلفظ: «**الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما**». قال الألباني: موضوع. انظر: الضعيفة (٥٢٢٦). وضعيف الجامع (٥٩٨٢) ويغني عن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وابن ماجة عن معاوية (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**». وقوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**...» رواه ابن ماجة وغيره عن أنس ابن مالك.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة** =

جَرَت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله»(١).

وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام: «لُفَّ العلم حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك».

وقال أيضاً: «اجعل العلم مالك والأدب حليتك».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كلِّ إنسان ما يُحسن.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يَحسُن بالشيخ أن يتعلَّم؟ قال: إن كان يَحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عُروة بن الزبير رحمه الله تعالى لبَنِيه: يابَنِيَّ، اطلبوا العلم فإن تكونوا صغار قوم لا يُحتاج إليكم، فعسى أن تكونوا كبارَ قوم آخرين لا يُستغنى عنكم.

وقال ملك الهند لولده، وكان له أربعون ولداً: يابَنِيَّ، أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً، فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي.

وقال المهلب لبنيه: إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زرَّاد أو ورَّاق أراد الزراد للحرب، والوراق للعلم.

وقال الشاعر:

نعم الأنيسُ إذا خلوتَ كتابُ ... تلهو به إن خانَكَ الأحبابُ
لا مُفشيا سراً إذا استودعتَه ... وتُفاد منهُ حكمةٌ وصَوابُ

وقال آخر:

ولكل طالب لذة متنزَّه ... وألذُّ نزهة عالمٍ في كُتْبِهِ

= لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافر». حَسَّنهُ الألباني. انظر: صحيح الترغيب (٦٨).

(١) لا يصح. أورده ابن الجوزي بعدة طرق وقال: لا تصح. انظر العلل المتناهية ١/ ٨٠ باب وزن حبر العلماء بدم الشهداء.

ومرَّ رجل بعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وهو جالس في المقبرة، وبيده كتاب، فقال له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: إنه لا أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب.

وقال رُؤبة بن العجاج: قال لي النسابة البكري: يارؤبة، لعلك من قوم إن سكتُّ عنهم لم يسألوني، وإن حدثتهم لم يفهموني؟ قلت: إني أرجو أن لا أكون كذلك. قال: فما آفة العلم ونكده وهُجْنته؟ قلت: تخبرني؛ قال: آفته النسيان، ونكده الكذب، وهُجْنَتُه نشره عند غير أهله.

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا(١).

وقال: ذَللتُ طالباً فعزَزتُ مطلوباً.

وقال رجل لأبي هريرة: أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه؛ قال: كفاك بترك طلب العلم إضاعة له.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل لا يُولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.

وأخذه الشاعر فقال:

تعلَّم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهِلُ

ولآخر:

تعلَّم فليس المرء يخلق عالماً ... وما عالمٌ أمراً كمن هو جاهلُ

ولآخر:

ولم أر فرعاً طال إلا بأصله ... ولم أر بَدءَ العلم إلا تعلّما

وقال آخر:

العلم يُحيي قلوب الميتين كما ... تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يَجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجَلِّي سوادَ الظُّلمةِ القَمَرُ

---

(١) أخرجه البيهقي بنحوه عن أنس مرفوعاً وقال الشيخ الوادعي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علة. انظر الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ١/٥٣ وانظر المقاصد الحسنة [١٢٠٦] وصحيح الجامع [٦٦٢٤].

فضيلة العلم

حدثنا أيوب بن سليمان قال: حدثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشمي عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي عن أبي مخنف عن كُميل النَّخعي قال:

أخذ بيدي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجَّبانة، فلما أسحر تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها. فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعَاع، أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. يا كميل: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله. يا كميل: محبَّة العلم دين يُدان به، يُكْسِبُ الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه. ياكميل: مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. إن هاهنا لِعلماً جمًّا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو وجدت له حَمَلة؛ بلى أجد لَقِناً غير مأمون، يستعمل آلة الدِّين للدنيا، ويستظهر بنعم الله على عباده، وبحُججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أو منهوماً باللذة سَلِس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والإدخار، ليسا من رُعاة الدين في شيء، أقربُ شبهاً بهما الأنعامُ السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه؛ اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين؟ أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدرًا، بهم يحفظ الله حججه وبيِّناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما

استوحش منه الجاهلون، وصَبحوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالرفيق الأعلى. ياكميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهٍ آه شوقاً إليهم، انصرف ياكميل إذا شئت.

قيل للخليل بن أحمد: أيهما أفضل، العلم أو المال؟ قال: العلم. قيل له: فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك، والملوك لا يزدحمون على أبواب العُلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحق الملوك، وجهل الملوك بحق العلماء.

وقال النبي ﷺ: «**فضل العلم خير من فضل العبادة**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن قليل العمل مع العلم كثير، كما أن كثيره مع الجهل قليل**»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَحْمِلُ هذا العلم من كل خَلَف عُدولُه، ينفون عنه تحريف القائلين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»(٣).

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذُل ما يصير.

وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حُكَّام على الدنيا، والعلماء حُكَّام على الملوك.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة والحاكم عن حذيفة وعن سعد بن أبي وقاص. ونقل المناوي عن المنذري تحسينه. انظر فيض القدير ٤/٤٣٤ وتكملة نص الحديث: «**وخير دينكم الورع**». كما صححه الألباني. انظر صحيح الترغيب والترهيب [٦٦].

(٢) روي بنحوه أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس. قال العراقي إسناده ضعيف. انظر: تخريج علوم الدين ١/٣٤.

(٣) رواه البيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. قال الألباني: الحديث مرسل لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري تابعي مقل كما قال الذهبي. ولكن الحديث قد روي موصولاً من طريق الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في بغية الملتمس (٣-٤). انظر: المشكاة (٢٤٨). وفي نص الحديث كلمة القائلين وقد وردت: الغالين.

وقال أبو قِلابة: مَثَل العلماء في الأرض مَثَل النجوم في السماء، من تركها ضل، ومن غابت عنه تحيَّر.

وقال سفيان بن عيينة: إنما العالم مثلُ السراج، من جاءه اقتبس من علمه، ولا ينقصه شيئًا؛ كما لا ينقص القابس من نور السراج شيئًا.

وقيل للحسن بن أبي الحسن البصري: لم صارت الحِرفة مقرونة مع العلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتم قليلاً في قليل فأعجزكم. طلبتم المال وهو قليل في الناس في أهل العلم وهم قليل في الناس، ولو نظرتم إلى من احترف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**إنما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلَمَاءُ**﴾[1] ﴿**وما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمُون**﴾[2].

وقيل: لا تمنعوا العلم أهلَه فتظلموهم ولا تعطوه غير أهله فتظلموه. ولبعضهم:

مَنْ مَنَعَ الحكمةَ أربابَها ... أصبح في الحُكم لهم ظالمَا
وواضعُ الحكمة في غيرهم ... يكون في الحكم لها غاشمَا
سمعتُ يوماً مثلاً سائرًا ... وكنتُ في الشعر له ناظمَا:
لا خير في المرء إذا ما غدا ... لا طالباً علماً ولا عالمَا

وقيل لبعض العلماء: كيف رأيت العلم؟ قال: إذا اغتممت سَلْوتي، وإذا سَلَوتُ لذَّتي.

ولأحد الشعراء:

وإذا طلبتَ العلم فاعلم أنه ... حِملٌ فأبصر أي شيء تحملُ
وإذا علمت بأنه متفاضل ... فاشغل فؤادَك بالذي هو أفضلُ

الأصمعي قال:

أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشرُه.

---

(١) سورة فاطر آية (٢٨).
(٢) سورة العنكبوت آية (٤٣).

وأُنشِد:

لا ينفعُ العلمُ قلباً قاسياً أبدًا ... ولا يلين لفكِّ الماضِغ الحجرُ

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلُّمه حَسَنَة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قُرْبَة. والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزَّين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به قومًا فيجعلهم قادةً أئمةً تُقتفي آثارهم، ويُقتدى بفعالهم. والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة. والفكر فيه يَعدِلُ الصيامَ، ومذاكراته القيامَ، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام.

ولابن طَباطبا العلويّ:

حسودٌ مريض القلب يُخفى أنينه ... ويُضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رُحتُ في العلم طالباً ... أُجمِّع من عند الرجال فنونه
فأمْلِكُ أبكار الكلام وعُونَهُ ... وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغِنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظُنونه
فيا لائمي دعني أُغَالِ بقيمتي ... فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونه

ضبط العلم والتثبت فيه

قيل لمحمد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما هذا العلم الذي بِنتَ به عن العالم؟ قال: كنت إذا أخذت كتاباً جعلته مِدرَعة.

وقيل لرقبة بن مَصقلة: ما أكثر شكك؟ قال: محاماة عن اليقين.

وسأل شعبةُ أيوبَ السختيانيّ عن حديث، فقال: أشك فيه. فقال: شَكُّكَ أحب إليَّ من يقيني.

وقال أيوب: إن من أصحابي من أرتجي بركة دعائه، ولا أقبل حديثه.

وقالت الحكماء: علّم علمك من يجهل وتعلَّم ممن يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما عَلِمْت، وعَلِمْتَ ما جهلت.

وسأل إبراهيم النخعي عامراً الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري؛ فقال: هذا والله العالم، سئل عما لا يدري، فقال: لا أدري.

وقال مالك بن أنس: إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: مَن سُئل عما لا يدري فقال: لا أدري، فقد أحرز نصف العلم.

وقالوا: العِلم ثلاثة: حديثٌ مُسْنَد، وآية محكمة، ولا أدري. فجعلوا لا أدري من العلم، إذا كان صواباً من القول.

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره.

وقالوا: عواقب المكاره محمودة.

وقالوا: الخير كله فيما أُكرهت النفوسُ عليه.

انتحال العلم

قال بعض الحكماء: لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾[2].

وقد ذُكر عن موسى بن عمران عليه السلام، أنه لما كلمه الله تعالى تكليما، ودرس التوراة وحفظها، حدثته نفسه: أن الله لم يخلق خلقاً أعلمَ منه. فهوّن الله عليه نفسه بالخِضر عليه السلام[3].

---

(١) سورة الإسراء آية (٨٥). (٢) سورة يوسف آية (٧٦).

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بلفظ: «بينما موسى يمشي في ملأٍ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بل عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيل إليه. . . . إلى آخر الحديث.

وقال مقاتل بن سليمان، وقد دخلته أُبَّهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى. فقام إليه رجل من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش، ولا أسفل الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض، وذكره الله في كتابه، أخبرني عن كلب أهل الكهف، ما كان لونه؟ فأفحمه.

وقال قتادة: ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته، ثم قال: ياغلام، هات نعلي؛ فقال: هُما في رجليك.

وأنشد أبو عمرو بن العلاء في هذا المعنى:

مَن تحلَّى بغير ما هو فيه ... فضحته شواهد الامتحان

وفي هذا المعنى:

مَن تحلَّى بغير ما هو فيه ... شَانَ ما في يديه ما يدّعيه
وإذا قلّل الدعاوى لما فيـ ... ـه أضافوا إليه ما ليس فيه
ومَحَك الفتى سيظهر للنا ... س وإن كان دائبًا يخفيه
بحسب الذي ادَّعَى ما عداه ... أنه عالم بما يفتريه

وقال شبيب بن شيبة لفتى من دوس:

لا تنازع مَن فَوقك، ولا تقل إلا بعلم، ولا تتعاط ما لم تَبْلُ، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك، ولا تدع الأمر إذا أقبل، و لا تطلبه إذا أدبر.

وقال قتادة: حفظتُ ما لم يحفظ أحد، وأُنسيتُ ما لم ينس أحد، حفظت القرآن في سبعة أشهر، وقبضت على لحيتي وأنا أريد قطع ما تحت يدي فقطعت ما فوقها.

وقال عَدي بن الرِّقاع:

وعلمت حتى ما أسائِل عالماً ... عن علم واحدةٍ لكي أزدادها

شرائط العلم وما يصلح له

وقالوا: لا يكون العالم عالماً، حتى تكون فيه ثلاث خصال: لا يحتقر مَن دونه، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على العلم ثمناً.

وقالوا: رأس العلم الخوف من الله تعالى.

وقيل للشعبي: أفتني أيها العالم؛ فقال: إنما العالم من اتّقى الله.

وقال الحسن: يكون الرجل عالماً ولا يكون عابداً، ويكون عابداً ولا يكون عاقلاً وكان مسلم بن يسار عالماً عابداً عاقلاً.

وقالوا: ما قُرن شيء إلى شيء أفضل من حِلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقالوا: من تمام آلة العالم أن يكون شديد الهيبة، رزين المجلس، وقوراً صموتاً، بطيء الالتفات، قليل الإشارات، ساكن الحركات، لا يصخب ولا يغضب، ولا يُبهر في كلامه، ولا يمسح عُثنونه[1] عند كلامه في كل حين؛ فإن هذه كلها من آفات العَيّ.

ومدح خالد بن صفوان رجلاً، فقال: كان بديع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتاً وقوراً، يهنأ الجرب، ويداوي الدَّبر، ويُقلّ الحزّ، ويُطبِّق المفصِل، لم يكن بالزَّمِر المروءة، ولا الهَذرِ المنطِق، متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار

وقال عبد الله بن المبارك في مالك بن أنس رضي الله عنه:

يأبَى الجوابَ فما يُراجَع هيبةً ... فالسائلون نواكس الأذقانِ
هَدْي الوقار وعِزُّ سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطانِ

---

(١) العثنون: اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين.

وقال عبد الله بن المبارك فيه أيضاً:

صَمُـوت إذا ما الصمت زيَّن أهله ... وفتَّـاقُ أبكـار الكـلام المختَّمِ
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ... وسِيطت له الآداب باللحم والدم

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، فقال له: أنىَّ لك هذا؟ فقال: لم أمنع قطُّ ياأمير المؤمنين علماً أفيده، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته.

وقـالوا: لو أن أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا، لكن وضعُوه غير موضعه فقصّر في حقهم أهلُ الدنيا.

حفظ العلم واستعماله

قال عبد الله بن مسعود: تعلّموا فإذا عَلِمْتُم فاعمَلُوا.

وقال مالك بن دينار: العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته عن القلب، كما يزل الماء عن الصفا.

وقالوا: لولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يطلب العمل.

وقال الطائي:

ولم يحمـدوا من عالم غير عامـل ... ولم يحمـدوا من عامـل غير عالم

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله[1].

وقالوا: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجَاوز الآذان.

وروى زياد عن مالك قال: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، وإياك والرابعة فإنها

---

(١) وروى البخاري في صحيحه: قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا». انظر: كتاب الإيمان/باب الاغتباط في العلم والحكمة جـ١ ص٢٨.

مهلكة، ولا تكون عالماً حتى تكون عاملاً، ولا تكون مؤمناً حتى تكون تقياً.

وقال أبو الحسن: كان وكيع بن الجرّاح يستحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث.

وكان الشعبي والزهري يقولان: ما سمعنا حديثاً قط وسألنا إعادته.

رفع العلم وقولهم فيه

قال عبد الله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يُرفع[١].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء**»[٢].

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما، لما ووري زيد بن ثابت في قبره: من سرَّه أن يرى كيف يُقبض العلم فهكذا يقبض.

تحامل الجاهل على العالم

قال النبي ﷺ: «**ويل لعالم أمر من جاهله**»[٣].

وقالوا: إذا أردت أن تفحم عالما فأحضِره جاهلا.

وقالوا: لا تُناظر جاهلاً.

---

(١) روى الديلمي عن أبي هريرة بلفظ أن النبي ﷺ قال: «**تعلموا العلم قبل أن يرفع، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده**» وروى الديلمي بنحوه عن ابن مسعود. انظر كنز العمال [٢٨٨٦٥] [٢٨٨٦٦].

(٢) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساءَ جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

(٣) ورد بلفظ: «**ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه**». قال العراقي: أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١/٥٢٨.

وقالوا: لا تناظر جاهلاً ولا لجوجاً، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر.

وقال النبي ﷺ: «**ارحموا عزيزاً ذل، ارحموا غنياً افتقر، ارحموا عالماً ضاع بين جُهَّال**»(١).

وجاء كيسان إلى الخليل بن أحمد يسأله عن شيء، ففكر فيه الخليل ليجيبه، فلما استفتح الكلام؛ قال له: لا أدري ما تقول؛ فأنشأ الخليل يقول:

ولو كنتَ تعلم ما أقول عذرتَني ... أو كنتُ أجهل ما تقول عذلتُكا
لكن جهِلت مقالتي فعذلتني ... وعلمتُ أنك جاهل فعذرتُكا

تبجيل العلماء وتعظيمهم (٢)

الشعبي قال:

ركب زيد بن ثابت فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال: لاتفعل ياابن عم رسول الله ﷺ؛ فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا. قال زيد: أرني يدك، فلما أخرج يده قبلها، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بابن عم نبينا.

وقالوا: خدمة العالم عبادة.

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة، وعلى القوم عامة، وتجلس قُدَّامه، ولا تشر بيدك، ولا تغمز بعينيك،

---

(١) قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (٨٧٥): رواه ابن عدي عن ابن عباس مرفوعاً، والخطيب عن أنس مرفوعاً، وابن حِبَّان والديلمي وهو موضوع. في أسانيده كذابون ومجهولون. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنما يعرف من كلام الفضيل بن عياض. انظر: ابن الجوزي، الموضوعات ج١ ص ٢٣٦.

(٢) قال ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» وقال: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**» رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي. وقال: حديث حسن غريب صحيح. انظر: تحفة الأحوذي ج٧ ص٤٥٦ [٢٨٢٥].

ولا تقل: قال فلان خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال، فإنما هو بمنزلة النخلة المرطبة، التي لا يزال يسقط عليك منها شيء.

وقالوا: إذا جلست إلى العالم فسَلْ تفقُهاً ولا تسل تعنتاً.

عويص المسائل

الأوزاعيُّ عن عبد الله بن سعد عن الصُّنابحيّ عن معاوية بن أبي سفيان قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأُغلوطات. قال الأوزاعي: يعني صعاب المسائل[1].

وكان ابن سيرين إذا سُئل عن مسألة فيها أغلوطة، قال للسائل: أمسكها حتى نسأل عنها أخاك إبليس.

وسأل عمر بن قيس مالكَ بن أنس عن مُحرِم نزع نَابيَ ثعلب، فلم يرد عليه شيئاً.

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو في خُفّه أو في جبهته من حصى المسجد؛ فقال: ارم بها؛ قال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تُرد إلى المسجد؛ فقال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها؛ فقال الرجل: سبحان الله! ولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[2] كيف هذا الاستواء؟ قال: الاستواء معقول والكيف مجهول، ولا أظنك إلا رجل سوء.

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ قال: يكفيه منها كوكب الجوزاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية. قال الألباني: سنده ضعيف فيه عبدالله بن سعد وهو مجهول كما قاله الذهبي. انظر: المشكاة (٢٤٣) وانظر: ضعيف الجامع (٦٠٣٥).

(٢) سورة طه آية ٥.

وسُئل عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فقال: أين: تُوجب المكان، وكان الله عزّ وجل ولا مكان(١).

التصحيف

وذكر الأصمعي رجلاً بالتصحيف، فقال: كان يسمع فيعي غير ما يسمع، ويكتب غير ما وعى، ويقرأ في الكتاب غير ما هو فيه.

وذكر آخر رجلاً بالتصحيف، فقال: كان إذا نسخ الكتاب مرتين عاد سُريانيا.

طلب العلم لغير الله

وقال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بشر الناس؟ قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: العلماء إذا فسدوا**»(٢).

وقال الفُضيل بن عياض: كان العلماء ربيع الناس، إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً، وقد صاروا اليوم فتنة للناس.

وقال محمد بن واسع: لأن تطلب الدنيا بأقبحَ مما تطلب به الآخرة خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة.

وقال الحسن: العلم علمان، علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذاك حجة الله على عباده.

---

(١) روى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: **كان الله ولم يكن شيء قبله**» انظر شرح الطحاوية ص١٣٣ [٧٩].

(٢) رواه البزار عن معاذ رضي الله عنه بلفظ: «**شرار الناس شرار العلماء في الناس**». كنز العمال (٢٩٠٠٦).

وقال مالك بن دينار: من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة.

وقال النبي ﷺ: «**من طلب العلم لأربع دخل النار: من طلبه ليباهي به العلماء، وليماري به السفهاء، وليستميل به وجوه الناس إليه، أو ليأخذ به من السلطان**»(١).

باب من أخبار العلماء والأدباء

أملى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخُشَني. أن عبد الله بن عباس سئل عن أبي بكر رضي الله عنه، فقال: كان والله خيراً كله مع الحدة التي كانت فيه. قالوا: فأخبرنا عن عمر رضوان الله عليه. قال: كان والله كالطير الحذر الذي نُصب فخٌّ له فهو يخاف أن يقع فيه. قالوا: فأخبرنا عن عثمان رضوان الله عليه. قال: كان والله صوّاماً قوّاماً. قالوا: فأخبرنا عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال: كان والله ممن حوى علماً وحِلماً. حسبك من رجل أعزّته سابقته وقدّمته قرابته من رسول الله ﷺ، فقلما أشرف على شيء إلا ناله. قالوا: يقال إنه كان محدوداً؛ قال: أنتم تقولونه.

وذكروا أن رجلاً أتى الحسن، فقال: أبا سعيد، إنهم يزعمون أنك تُبغض علياً، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وربَّانيَّ هذه الأمة، وذا فضلها، وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنَّئومة عن أمر الله، ولا بالمُلولة في حق الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مُونقة، وأعلام بينة، ذاك علي بن أبي طالب يالُكع.

وسُئل خالد بن صفوان عن الحسن البصري، فقال: كان أشبه الناس علانية بسريرة، وسريرة بعلانية، وآخذَ الناس لنفسه بما يأمر به غيره. ياله من رجل استغنى

---

(١) رواه ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار**». قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترغيب [١٠٤].

عما في أيدي الناس من دنياهم، واحتاجوا إلى ما في يديه من دينهم.

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت والله أحسن منه، إن هذا يؤتي أُكُلَه كل عام، وأنت تؤتي أكلك كل يوم.

وذُكر الصحابة عند الحسن البصري، فقال: رحمهم الله، شهدوا وغبنا، وعلموا وجهِلنا، فما اجتمعوا عليه اتبعنا، وما اختلفوا فيه وقفنا.

وقال جعفر بن سليمان: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: مارأيت أحداً أقشفَ من شُعْبَة، ولا أعبد من سفيان، ولا أحفظ من ابن المبارك.

وقال: ما رأيت مثل ثلاثة: عطاء بن أبي رباح بمكة، ومحمد بن سيرين بالعراق، ورجاء بن حَيوة بالشام.

وقيل لأهل مكة: كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم؟ فقالوا: كان مثل العافية التي لا يُعرف فضلها حتى تُفقد.

وكان عطاء بن أبي رباح أسود أعور أفطس أشلّ أعرج ثم عمى، وأمُّه سوداء تسمى بَرَكة.

وكان الأحنف بن قيس أعور أعرج، ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه.

وقال الشعبي: القضاة أربعة: عُمر، وعليٌّ، وعبد الله، وأبو موسى.

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيهاً شاعرًا، وكان أحد السبعة من فقهاء المدينة.

وقال الزُّهري: كنت إذا لقيت عُبيد الله بن عبدالله، فكأنما أفجُر به بحراً.

وقال عمر بن عبد العزيز: وددت لو أن لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود لم يفُتني.

ولقيه سعيد بن المسيب فقال له: أنت الفقيه الشاعر؟ قال: لابد للمصدور أن ينفُث.

وكتب عبيد الله بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز، وبلغه عنه شيء يكرهه:

أبا حفصٍ أتاني عنك قولٌ ... قُطعتُ به وضاق به جوابي
أبا حفص فلا أدري أرغمي ... تريد بها تحاول أم عتابي
فإن تك عاتباً نُعتِب وإلاّ ... فما عُودي إذاً ببراع غاب
وقد فارقتُ أعظم منك رُزءاً ... وواريت الأحِبة في التراب
وقد عزُّوا عليَّ وأسلموني ... معاً فلبست بعدهم ثيابي

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم عالماً كثير الدراسة للكتب وربما قال الشعر، ومن قوله:

هل أنت منتفع بعِلـ ... ـمك مَرةً والعلم نافع
ومِنَ المشير عليك بالـ ... ـرأي المسدَّد أنت سامع
الموت حوضٌ لا محا ... لة فيه كل الخلق شارع
ومن التُّقى فازرع فإنَّـ ... ـك حاصدٌ ما أنت زارع

وكان حَيوة بن شُريح يقعد للناس، فتقول له أمه: قم ياحيوة ألق الشعير للدجاج، فيقوم.

وقال الحسن: كان يحيى بن اليمان يصلي بقومه، فتعصب عليه قومٌ منهم. فقالوا: لا تصل بنا، لا نرضاك، إن تقدمت نحيَّناك: فجاء بالسيف فسل منه أربع أصابع ثم وضعه في المحراب، وقال: لا يدنو مني أحدٌ إلا ملأت السيف منه؛ فقالوا: بيننا وبينك شَريك؛ فقدموه إلى شريك فقالوا: إن هذا كان يصلي بنا وكرهناه؛ فقال لهم شريك: من هو؟ قالوا: يحيى بن اليمان؛ فقال: ياأعداء الله، وهل بالكوفة أحد يُشبه يحيى؛ لا يصلي بكم غيره. فلما حضرته الوفاة، قال لابنه داود: يابني، كاد ديني يذهب مع هؤلاء، إن اضطروا إليك بعدي فلا تُصلِّ بهم.

وقال يحيى بن اليمان: تزوجت أم داود وما كان عندي ليلة العرس إلا بطيخة؛ أكلت أنا نصفها وهي نصفها، وولدت داود، فما كان عندنا شيء نلفه فيه، فاشتريت له كُسوة بحبَّتين، فلففناه فيها.

وقال الحسن بن محمد: كان لعلي ضفيرتان[١]، ولابن مسعود ضفيرتان.

وذكر عبد الملك بن مروان رَوْحاً، فقال: ما أُعطى أحدٌ ما أُعْطِي أبو زرعة، أُعْطِي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام.

وقال ابن أبي الحَوَاريّ: قلت لسفيان: بلغني في قول الله عز وجل: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[٢] أنه الذي يلقى الله وليس في قلبه أحدٌ غيره. قال: فبكى وقال: ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا.

وكان يجلس إلى سفيان فتى كثير الفكرة، طويل الإطراق، فأراد سفيان أن يحركه ليسمع كلامه، فقال: يافتى، إن من كان قبلنا مرُّوا على خيل عِتاق وبقينا على حَمير دَبِرَة. قال: ياأبا عبد الله، إنا كُنَّا على الطريق فما أسرع لحوقنا بالقوم.

وكان إبراهيم النخعي في طريق فلقيه الأعمش فانصرف معه، فقال له: ياإبراهيم، إن الناس إذا رأونا قالوا: أعمش وأعور؛ قال: وما عليك أن يأثموا ونُؤجر؛ قال: وما عليك أن يسلموا ونسلم.

وقال محمد بن مُناذِر:

ومن يَبغِ الوَصاةَ فإنَّ عندي ... وصاةً للكُهُول وللشباب
خذوا عن مالك وعن ابن عون ... ولا ترووا أحاديث ابن داب

وقال آخر:

أيها الطالب علماً ... إيتِ حمَّادَ بن زيد
فاقتبس حِلماً وعلماً ... ثم قَيِّده بقيد

---

(١) الضفيرة: الضفر: نسج الشعر ومثله التضفير. والضفير: العقيصة.

(٢) سورة الشعراء آية (٨٩).

قولهم في حَمَلة القرآن

وقال رجل لإبراهيم النخعي: إني أختم القرآن كل ثلاث؛ قال: ليتك تختمه كل ثلاثين وتدري أي شيء تقرأ.

وقال الحارث الأعور: حدثني عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي مَن تركه مِن جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدْى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر العظيم، والصراط المستقيم**»، خذها إليك يا أعور[1].

وقيل للنبي ﷺ، عجَّل عليك الشيبُ يارسول الله؛ قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»[2].

وقال عبد الله بن مسعود: الحواميم ديباج القرآن[3].

وقال: إذا رتعتُ رتعت في رياض دَمثة أتأنَّق فيهن.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تنزل علينا الآية في عهد رسول الله ﷺ فنحفظ حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، قبل أن نحفظها[4].

---

(١) رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال. وقال المباركفوري: وأخرجه الدارمي وإسناده مجهول. انظر تحفة الأحوذي/ باب ما جاء في فضل القرآن ٨/٢١٨.

(٢) قال العجلوني رواه الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن عقبة بن عامر. كشف الخفا [١٥٧٢] وقال الحوت: «له عدة طرق منها مرسل ومنها مرفوع فهو حسن» انظر أسنى المطالب [٧٩٧] وانظر صحيح الجامع [٣٧٢٠] والصحيحة [٩٥٥].

(٣) رواه الحاكم عن ابن مسعود موقوفاً. قال الألباني: موضوع. انظر: الضعيفة [٣٥٣٧]

(٤) روى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل. وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله =

وقال ﷺ: «سيكون في أُمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هم شر الخلق والخليقة»(١).

وقال: إن الزبانية لأسرع إلى فُسَّاق حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان؛ فيشكون إلى ربهم، فيقول: ليس من علم كمن لم يعلم(٢).

وقال الحسن: حملة القرآن ثلاثة نفر: رجل اتخذه بضاعة ينقله من مِصْر إلى مصر يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه، وضيّع حدوده، واستدر به الولاة، واستطال به على أهل بلده، وقد كثر هذا الضرب في حملة القرآن، لا كثّرهم الله عز وجل، ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليلته، وهملت عيناه، وتسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن، ووالله لهذا الضرب من حَمَلَة القرآن أقلَّ من الكِبريت الأحمر، بهم يسقي الله الغيث، ويُنزِّل النصر، ويدفع البلاء.

العقـــل

وقال سحبان وائل: العقل بالتجارب، لأن عقل الغريزة سُلَّم إلى عقل التجربة.

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.

= عنه قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه، فقيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم. انظر: حياة الصحابة للعلامة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ج٣ ص١٧٦ الطبعة السادسة ـ ١٤١٠هـ ـ دار القلم ـ دمشق.

(١) رواه مسلم عن أبي ذر (رضي الله عنه) بنحوه. انظر: صحيح مسلم/كتاب الزكاة [١٥٨].
«هُمْ شرُّ الخلق والخليقة» الخلق الناس والخليقة البهائم. وقيل: هما بمعنى واحد، ويريد بهما جميع الخلائق.

(٢) قال الشوكاني: «قال ابن حبان هو موضوع. وفي إسناده من يتهم بالوضع. وقد ذكر له في اللآلىء طرقاً لا يصح منها شيء» انظر الفوائد المجموعة [٩٢٦].

وعلى العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه مالكاً للسانه مقبلاً على شانه.

وقال الحسن البصري: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكَّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الأحمق من وراء لسانه فإذا أراد أن يقول قال، فإن كان له سكت، وإن كان عليه قال.

وقال محمد بن الغاز:

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك، فتكلم عنده بكلام أعجب سليمان، فأراد أن يختبره لينظر أعقله على قدر كلامه أم لا، فوجده مضعوفاً فقال: فضْل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هُجْنَة، وخير الأمور ما صدَّق بعضها بعضاً، وأنشد:

وما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلق مُصوَّرُ
فإن تر منه ما يروق فربَّما ... أمرَّ مذاقُ العود والعودُ أخضرُ

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول زهير:

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعْجب ... زيادتُه أو نقصُه في التكلُّم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فقال: كان والله أفضل من أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدع، وهو القائل: لست بِخَبٍّ والخبُّ لا يخدعني.

وقال زياد: ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر احتال له، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه.

وقيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذكر ابن عباس رضي الله عنهما فقال: لقد كان ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق.

وقالوا: العاقل فطن متغافل.

وقال معاوية: العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل.

وقال المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ عزله عن كتابة أبي موسى: أعن عجز عزلتني أم عن خيانة؟ فقال: لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك.

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه؛ فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط أريد الخروج منه.

وقال الأصمعي:

ما سمعت الحسن بن سهل مذ صار في مرتبة الوزارة يتمثل إلا بهذين البيتين:

وما بقيَتْ من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا ذُكروا قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ من القليل

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر، ويروى لمحمود الورَّاق:

لعمرك ما بالعقل يُكتسَبُ الغِنَى ... ولا باكتساب المال يُكْتَسَبُ العقلُ
وكم من قليل المال يُحمد فضله ... وآخر ذي مال وليس له فضْل
وما سبقت من جاهل قطُّ نِعمةٌ ... إلى أحدٍ إلا أضرَّ بها الجهلُ
وذو اللبِّ إن لم يُعْطِ أحمدتَ عقله ... وإن هو أعطى زانه القولُ والفعلُ

وقال محمد بن مُناذر:

وترى الناس كثيراً فإذا ... عُدَّ أهلُ العقل قَلُّوا في العددْ
لا يَقِلُّ المرء في القصد ولا ... يعدم القلة من لم يقتصد
لا تَعِدْ شراً وعِدْ خيراً ولا ... تُخلف الوعد وعجّل ما تَعِدْ
لا تقل شعراً ولا تَهْمُم به ... وإذا ما قلت شعراً فأَجِدْ

ولآخر:

يُعرف عقل المرء في أربعٍ ... مِشيتُه أولُها والحَرَك
ودَوْرَ عينيه وألفاظُه ... بعدُ عليهن يدور الفلك

وربما أخْلَفْنَ إلا التي آخرها منهنَّ سُمِّين لك
هذي دليلات على عقله والعقل في أركانه كالملك
إن صحَّ صَحَّ المرءُ من بعده ويهلك المرء إذا ما هَلَك
فانظر إلى مخرج تدبيره وعقلِه ليس إلى ما ملك

وكان هَوذة بن علي الحنَفيّ يجيز لَطيمة كسرى في كل عام ـ واللطيمة عِيرٌ تحمل الطِّيب والبَزّ ـ فوفد على كسرى، فسأله عن بنيه، فسمى له عدداً؛ فقال: أيهم أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يرجع، والمريض حتى يُفيق.

وبالعقل أدرك الناس معرفة الله عز وجل، ولا يشك فيه أحد من أهل العقول، يقول الله عز وجل في جميع الأمم: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله﴾[1]. وقال أهل التفسير في قول الله: ﴿قسمٌ لذي حجر﴾[2] قالوا: لذي عقل.

وقال الحسن البصري: لو كان للناس كُلِّهم عقولٌ خربت الدنيا.

وقال الشاعر:

يُعدّ رفيع القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقل في بلدةٍ بغريب

وقالوا: العاقل يَقِي ماله بسلطانه، ونفسه بماله، ودينه بنفسه.

وقال الأحنف بن قيس: أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل.

وكان يقال: العقل ضربان: عقل الطبيعة وعقل التجربة، وكلاهما يُحْتَاجُ إليه ويؤدي إلى المنفعة.

وكان يقال: لا يكون أحدٌ أحبَّ إليك من وزير صالح وافر العقل كامل الأدب حنيك السن بصير بالأمور، فإذا ظَفِرتَ به فلا تُباعده، فإن العاقل ليس يمانعك نصيحته وإن جَفتْ.

---

(١) سورة الزخرف آية (٨٧).

(٢) سورة الفجر آية (٥).

وكان يقال: أجلُّ الأشياء أصلاً وأحلاها ثمرة، صالح الأعمال، وحسن الأدب، وعقل مستعمل.

وكان يقال: التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في الزيادة. ومما يؤكد هذا قول الشاعر:

ألم تر أنَّ العقل زَيْنٌ لأهله وأنَّ كمال العقل طولُ التجاربِ

ومكتوب في الحكمة: إن العاقل لا يغترّ بمودة الكذوب ولا يثق بنصيحته.

ويُقال: من فاته العقل والفتوة فرأس ماله الجهل.

ويقال: من عيّر الناس الشيء ورضِيه لنفسه فذاك الأحمق نَفْسُه.

وكان يقال: العاقل دائم المودَّة، والأحمق سريع القطيعة.

وكان يقال: صديق كل امريء عقله، وعدوه جهله.

وكان يقال: المُعْجِبُ لحوح والعاقل منه في مؤونة. وأما العُجب فإنه الجهل والكِبر.

وقيل: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

ويقال: ما شيء بأحسن من عقل زانه حلم، وحِلم زانه علم، وعلم زانه صدق، وصدق زانه عمل، وعمل زانه رفق.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ليس العاقل من عرف الخير من الشر، بل العاقل من عرف خير الشرَّين.

ويقال: عدو عاقل أحب إليّ من صديق جاهل.

وكان يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل إليه، وإياك وفراقه إذا كان كريماً، ولا عليك أن تصحب العاقل وإن كان غيرَ محمود الكرم، لكن احترس من شَين أخلاقه وانتفع بعقله؛ ولا تَدَع مواصلة الكريم وإن لم تحمد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، وفرَّ الفرار كله من الأحمق اللئيم.

وكان يقال: قطيعة الأحمق مثل صلة العاقل.

وقال الحسن : ما أودع الله تعالى امرأً عقلاً ما إلا استنقذه به يوماً ما .

وقال النبي ﷺ : «**كرم الرجل دِيْنُه ، ومروءته عقله ، وحسبه خُلُقه**»(١) .

وقال بُزرجمهر: لا ينبغي للعاقل أن ينزل بلداً ليس فيه خمسة : سلطان قاهر، وقاض عدْل، وسوق قائمة، ونهر جار، وطبيب عالم .

وقال أيضا: العاقل لا يرجو ما يُعنِّف برجائه، ولا يسأل ما يخاف منعه، ولا يمتهن ما لا يستعين بالقدرة عليه .

سُئل أعرابي: أي الأسباب أعون على تذكية العقل وأيها أعون على صلاح السيرة؟ فقال: أعونها على تذكية العقل التعلم، وأعونها على صلاح السيرة القناعة .

وسئل عن أجود المواطن أن يُختبر فيه العقل، فقال: عند التدبير.

وسئل: هل يعمل العاقل بغير الصَّواب؟ فقال: ما كل ما عمل بإذن العقل فهو صواب .

وسئل: أي الأشياء أدل على عقل العاقل؟ قال: حُسْنُ التَّدبير.

وسئل: أي منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب .

وقال بُزُرجَمهر: أفْرَهُ ما يكون من الدواب لا غنى بها عن السَّوْط، وأعفُّ من تكون من النساء لا غنى بها عن الزوج، وأعقل من يكون من الرجال لا غنى به عن مشورة ذوي الألباب .

سئل أعرابي عن العقل متى يُعرف؟ قال: إذا نهاك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل .

ومن جلالة قدر العقل أن الله تعالى لم يخاطب إلا ذوي العقول فقال عز وجل: ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾(٢). وقال: ﴿ **لينذر من كان حياً**﴾(٣). أي: عاقلاً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وهو ضعيف قاله الألباني، انظر ضعيف الجامع [٤١٦٨] والضعيفة [٢٣٦٩]. وانظر أسنى المطالب [١٠٧١].

(٢) سورة الرعد آية (١٩).

(٣) سورة يس آية (٧٠).

وقال: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[١]. أي: لمن كان له عقل.

وقال ﷺ: «قِوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[٢].

وإذا كان العقل أشرف أعلاق النفس، وكان بقدر تمكنه فيها يكون سموها لطلب الفضائل وعلوها لابتغاء المنازل، كانت قيمة كل امريء عقله، وحليته التي يَحسُن بها في أعين الناظرين فضله.

ولعبد الله بن محمد:

تأمل بعيْنَيْك هذا الأنام ... وكُنْ بعض من صانَهُ نُبلُه
فحِليةُ كلِّ فتى فضلُه ... وقيمة كل امريء عقله
ولا تتكل في طِلَابِ العُلا ... على نسبٍ ثابتٍ أصلهُ
فما من فتى زانه أهله ... بشيء وخالفه فعله

ويقال: العقل إدراك الأشياء على حقائقها، فمن أدرك شيئًا على حقيقته فقد كَمُل عقله.

وقيل: العقل مرآة الرجل. أخذه بعض الشعراء فقال:

عقل هذا المرء مِرآ ... ةٌ ترى فيها فِعالَه
فإذا كان عليها ... صدأ فهو جَهَالَه
وإذا أخلصه الله ... صقالاً وصفا له
فهي تعطي كل حيٍّ ... ناظرٍ فيها مثالَه

ولآخر:

لا تراني أبداً أُكْـ ... ـرِمُ ذا المال لمالِه
لا ولا تُزرِي بمن يعـ ... ـقل عندي سوءُ حاله
إنما أقضى على ذا ... ك وهذا بفعاله

---

(١) سورة ق آية (٣٧).

(٢) ذكره السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة (ص٦) وقال الحوت: «تفرد به حامد بن آدم متهم بالوضع كما ذكره مخرجه البيهقي» انظر اسنى المطالب [١٠٠٣] وانظر الضعيفة [٣٧٠].

أنا كالمرآة ألقى كل وجه بمثاله
كيفما قلَّبني الدهر يجدني من رجاله

ولبعضهم :

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه وإن كان ذا نبل على الناس هيِّنُ
وإن كان ذا عقل أُجِلَّ لعقله وأفضل عَقْلٍ عَقْلُ من يتديَّنُ

وقال آخر:

إذا كنت ذا عقل ولم تك ذا غنى فأنت كذي رَحْل وليس له بغلُ
وإن كنت ذا مال ولم تك عاقلاً فأنت كذى بغل وليس له رَحْلُ

ويقال: إن العقل عين القلب، فإذا لم يكن للمرء عقل كان قلبه أكْمَه.

وقال صالح بن جَناح:

ألا إن عقل المرء عينا فؤاده وإن لم يكن عقل فلا يبصر القلبُ

ولعبد الله بن محمد :

ثلاثٌ من كُنَّ فيه حوى الفضل وإن كان راغباً عن سواها: صحة العقل والتمسك بالعدل وتنزيه نفسه عن هواها.

ولمحمد بن الحسن بن دُريد:

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقلُه فقد نجا

وقال مَسلمة بن عبد الملك: ما قرأت كتاباً قط لأحد إلا عرفت عقله منه.

وقال يحيى بن خالد: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها.

واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً، فقيل له: إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك؛ فأخذ العهد منه وقال: ما أراك تضبط عملك لحداثتك؛ فقال الفتى:

وليس يزيد المرءَ جهلاً ولا عمى إذا كان ذا عقل حداثةُ سِنِّه

فقال عمر: صدق، ورد عليه عهده.

وقال جَثّامة بن قيس يصف عاقلاً:

بصيرٌ بأعقابِ الأمور كأنَّما ... تخاطبه من كل أمْرٍ عواقبُه

ولغيره في المعنى:

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنَّما ... يرى بصواب الرأي ما هو واقع

وقال شَبيبُ بن شيبة لخالد بن صفوان: إني لأعرف أمرًا لا يتلاقى فيه اثنان إلا وجب النُّجح بينهما؛ قال له خالد: ما هو؟ قال العقل، فإن العاقل لايسأل إلا ما يجوز، ولا يُردُّ عما يمكن.

وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد، يابنيّ احذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدواً؛ ويوشك الجاهل أن تورِّطك مشورتُه في بعض اغترارك فيسبق إليك مكر العاقل؛ وإياك ومعاداة الرجال، فإنك لا تَعْدَمَ منها مكر حليم عاقل، أو معاندة جاهل.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا مالَ أعودُ من عقل، ولا فقر أضرَّ من جهل.

ويقال: لا مروءة لمن لا عقل له.

وكان يقال: بالعقل تُنال لذة الدنيا، لأن العاقل لا يسعى إلا في ثلاث: مَزِيَّة لمعاش، أو منفعة لمعاد، أو لذة في غير مُحَرَّم.

ولبعضهم:

إذا أحببت أقواماً فلاصق ... بأهل العقل منهم والحياءِ

فإنَّ العقل ليس له إذا ما ... تفاضلت الفضائلُ من كِفاء

لمحمد بن يزيد:

وأفضل قَسْم الله للمرء عقلُه ... وليس من الخيرات شيء يُقاربُه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقلَهُ ... فقد كمُلت أخلاقة ومآربه

يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه

ومن كان غلَّاباً بعقل ونجدة ... فذو الجَدِّ في أمر المعيشة غالبه

فزَين الفتى في الناس صِحَّةُ عَقْلِه وإن كان محصوراً عليه مكاسبه
وشَين الفتى في الناس قِلَّة عقلِه وإن كرُمت أعراقُه ومَنَاسِبُه

ولبعضهم :

العقل يأمر بالعفاف وبالتقى وإليه يأوي الحِلم حين يؤولُ
فإن استطعت فخذ بفضلك فضله إن العقول يُرى لها تفضيل

ولبعضهم :

إذا جُمِّع الآفات فالبخل شرُّهَا وشَرٌّ من البُخْلِ المواعيدُ والمَطلُ
ولا خير في عقل إذا لم يكن غنى ولا خير في غِمدٍ إذا لم يكن نَصْلُ
وإن كان للإنسان عقل فعقله هو النصل والإنسان من بعده فَضْلُ

ولبعضهم :

يُمثِّل ذو العقل في نفسه مصائبَه قبل أن تَنْزلا
فإن نزلت بغتةً لم تَرُعْه لما كان في نفسه مثَّلا
رأى الهَمَّ يُفضى إلى آخر فصيَّر آخرهْ أوَّلا
[وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا]

الحكمة

قال عليه الصلاة والسلام: «**الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي من أي وعاء خرجت**»(١).

وقال الحكماء: لا يطلب الرجل حكمة إلا بحكمة عنده.

وقالوا: إذا وجدتم الحكمة مطروحة على السِّكك فخذوها.

وقال زياد: أيها الناس لا يمنعكم سوءُ ما تعلمون منَّا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منَّا، فإن الشاعر يقول:

اعمل بعِلْمي وإن قصَّرتُ في عملي ينفعك قولي ولا يضرُرْك تقصيري

(١) لا يصح أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها**».
وقال الترمذي: هذا حديث غريب،وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: هذا حديث لا يصح.

نوادر من الحكمة

قيل لقُس بن ساعدة: ما أفضل المعرفة؟ قال معرفة الرجل نفسه؛ قيل له: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه؛ قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه.

وقال الحسن: التقدير نصف الكسب، والتؤدة نصف العقل، وحسن طلب الحاجة نصف العلم.

وقالوا: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كحُسْن الخُلُق، ولا غنى كرضا عن الله، وأحق ما صُبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

وقالوا: أفضل البر الرحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقوق مكاتمة الأَذْنين، ورأس العقل الإصابة بالظن.

وقالوا: التفكُّر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والعلم حياة، والأوّل سابق، والآخر لاحق، والسعيد من وُعظ بغيره.

حَدَّث أبو حاتم قال: حدثني أبو عبيدة قال: حدثني غير واحد من هوازن من أُولي العلم، وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية أو جدُّه، قالوا: اجتمع عامر بن الظرب العدواني، وَحُمَمَة بن رافع الدَّوْسي ـ ويزعم النساب أن ليلى بنت الظرب أم دَوْس، وزينب بنت الظَّرب أم ثقيف وهو قيسي ـ عند ملك من ملوك حمير، فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان. فقال عامر لحممة: أين تحب أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرَّثْية العَديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستَضعف الهضيم. قال: من أحق الناس بالمقت؟ قال: الفقير المختال، والضعيف الصوّال، والعييّ القوّال، قال: فمن أحق الناس بالمنع؟ قال: الحريص الكانِد، والمستميد الحاسد، والملحف الواجِد. قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟ قال: من إذا أُعطي شكر، وإذا مُنع عذر، وإذا مُطل صبر، وإذا قَدُمَ العهدُ ذكر. قال: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إذا قرُب مَنح، وإذا بَعُد مدح، وإذا ظُلم صفح، وإذا ضُويق سمح.

قال: من ألأم الناس؟ قال: من إذا سأل خضع، وإذا سُئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره جشع، وباطنه طبع. قال: فمن أحلم الناس؟ قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تُطْغِهِ عِزَّة الظَّفر. قال: فمن أحزم الناس؟ قال: من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نُصب عينيه، ونبذ التهَيُّب دبر أذنيه. قال. فمن أخرق الناس؟ قال: من ركب الخطار، واعتسف العِثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار. قال: من أجود الناس؟ قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المعهود. قال: من أبلغ الناس؟ قال: من جلَّى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبَّق المفصل قبل التحزيز. قال: من أنعم الناس عيشاً؟ قال: من تحلَّى بالعفاف، ورضي بالكَفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف. قال: فمن أشقى الناس؟ قال: من حسد على النِّعم، وسخط على القِسَم، واستشعر الندم، على فوت ما لم يحتم. قال: من أغنى الناس؟ قال: من استشعر اليأس، وأظهر التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم. قال: فمن أحكم الناس؟ قال: من صمت فادَّكر، ونظر فاعتبر، ووُعظ فازدجر. قال: من أجهل الناس؟ قال: من رأى الخُرْق مغنماً، والتجاوز مغرماً.

وقال أبو عبيدة: الخَلَّة: الحاجة، والخُلَّة: الصداقة. والكاند: الذي يكفر النعمة، والكنود: الكفور، والمستميد مثل المستمير وهو المستعطى. ومنه اشتقاق المائدة. لأنها تُماد. وكنع: تقبَّض؛ يقال منه: تكنَّع جلدُه، إذا تقبَّض. يريد أنه مُمسك بخيل. والجشع: أسوأ الحرص. والطبع: الدَّنس. والاعتساف: ركوب الطريق على غير هداية، وركوب الأمر على غير معرفة. والمزيز: من قولهم: هذا أمزّ من هذا، أي أفضل منه وأزيد. والمطبِّق من السيوف: الذي يصيب المفاصل لا يجاوزها.

وقال عمرو بن العاص: ثلاثٌ لا أناة فيهن: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكُفء.

وقالوا: ثلاثة لا بقاء لها: ظلُّ الغمام، وصُحْبة الأشرار، والثناء الكاذب.

وقالوا: ثلاثة لا تكون إلا في ثلاثة: الغنى في النفس، والشرف في التواضع، والكرم في التقوى.

وقالوا: ثلاثة لا تُعرف إلا عند ثلاثة ذو البأس لا يعرف إلا عند اللقاء، وذو الأمانة لا يعرف إلا عند الأخذ والعطاء، والإخوان لا يُعرفون إلا عند النوائب.

وقالوا: من طلب ثلاثة لم يسلم من ثلاثة: من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الإفلاس، ومن طلب الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة، ومن طلب الفقه بغرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقالوا: عليكم بثلاث: جالسوا الكبراء، وخالطوا الحكماء، وسائلوا العلماء.

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أخوف ما أخاف عليكم شُحٌّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وقال الرِّياحي في خطبته بالمِربَد: يا بَني رِياح، لا تَحْقِروا صغيراً تأخذون عنه، فإني أخذتُ من الثعلب روغانه، ومن القرد حكايته، ومن السِّنَّور ضَرَعَه، ومن الكلب نُصرتَه. ومن ابن آوى حَذَرَهُ؛ ولقد تعلمت من القمر سير الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين.

وقال أبو عمرو بن العلاء: خُذْ الخير من أهله، ودع الشرَّ لأهله.

وقالوا: إذا قَدُمت المصيبة تُرِكَتْ التعزية، وإذا قدُم الإخاء سَمُج الثناء.

وفي كتاب للهند: ينبغي للعاقل أن يدع التماس ما لا سبيل إليه، لئلا يُعّد جاهلاً، كرجل أراد أن يُجْرِي السفن في البر والعِجْل في البحر، وذلك ما لا سبيل إليه.

وقالوا: إحسان المسيء أن يكف عنك أذاه، وإساءة المحسن أن يمنعك جدواه.

وقال الحسن البصري: اقدعوا هذه النفوس فإنها طُلعة، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدُّثور، فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية.

يقول حادثوها بالحكمة كما يحادث السيف بالصِّقال، فإنها سريعة الدثور يريد الصدأ الذي يعرض للسيف. واقدعوها: من قدعتَ أنف الجمل، إذا دفعتـه. فإنها طُلَعَة، يريد متطلِّعَة إلى الأشياء.

البلاغة وصفتها

قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلَّغك الجنة، وعدل بك عن النار؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فما بصَّرك مواضع رشدك، وعواقب غَيِّك؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يُحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع؛ ومن لم يحسن أن يسمع لم يحسن أن يسأل، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي ﷺ: «**إنا معشر النَّبيِّين بكاء**»[1] أي قليلو الكلام، وهو جمع بكيء ـ وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فكأنك تريد تخيُّرَ الألفاظ في حُسن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنك إن أردت تقرير حُجَّة الله في عقول المكلَّفين، وتخفيف المئونة على المستمعين، وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسنة رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسُّنَّة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: إيجازُ الكلام، وحذف الفُضول، وتقريب البعيد.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: أن لا يُؤتى القائل من سُوء فهم السامع، ولا يُؤتى السامع من سوء بيان القائل.

وسمع خالد بن صفوان رجلاً يتكلم ويُكْثِر فقال: اعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بحفَّة اللسان، وكثرة الهَذَيان، ولكنها بإصابة المعنى، والقصد إلى الحُجَّة. فقال له: أبا صفوان، ما من ذنب أعظم من اتفاق الصنعة.

ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يُقِلُّ الحَزّ ويُطبِّق المِفْصَل. وذلك أنهم شبَّهُوا البليغ الموجِزْ الذي يَقِلُّ الكلام، ويصيب الفُصُول والمعاني، بالجزار الرفيق يقل حَزَّ اللحم ويصيب مفاصله.

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر بلفظ: «**نحن معاشر الأنبياء فينا بكاء**» أي قلة الكلام الا فيما يحتاج إليه. يقال بكأت الناقة والشاة اذا قل لبنها فهي بكيء وبكيئة.

ومثله قولهم:

يضـع الهِنَـاء مواضـع النُّقـب

أي لا يتكلم إلا فيما يجب فيه الكلام، مثل الطالي الرَّفيق الذي يضع الهِنَاء مواضع النقب. والهِنَاء: القَطِران. والنُّقب: الجَرَب.

وقولهم: قَرْطَس فلان فأصاب الثغرة، وأصاب عين القرطاس. كُلُّ هذا مَثَلٌ للمُصِيب في كلامه الموجزُ في لفظه.

قيل للعَتَّابي: ما البلاغة؟ قال: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.

وقيل لأعرابي: من أبلغُ الناس؟ قال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: نشر الكلام بمعانيه إذا قَصُر، وحسن التأليف له إذا طال.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ فقال: قرع الحُجَّة ودُنُوُّ الحاجة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عَجْز، والإطناب في غير خَطَل.

وقيل لغيره: ما البلاغة؟ قال: إقلال في إيجاز، وصواب مع سرعة جواب.

وقيل لبعضهم: من أبلغُ الناس؟ قال: من ترك الفُضُول واقتصر على الإيجاز.

وكان يقال: رسول الرجل مكان رأيه، وكتابه مكان عقله.

وقال جعفر بن محمد رحمه الله: سُمِّي البليغ بليغاً لأنه يَبْلُغ حاجته بأهون سعيه.

وسئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معاني كثيرة فأداها بألفاظ قليلة، وأخذ معاني قليلة فولد منها لفظاً كثيراً، فهو بليغ.

وقالوا: البلاغة ما حَسُن من الشعر المنظوم نثره، ومن الكلام المنثور نظمه.

وقالوا: البلاغة ما كان من الكلام حسناً عند استماعه، موجزاً عند بديهته.

وقيل: البلاغة: لمحة دالة على ما في الضمير.

وقال بعضهم: إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عِيّ، وإنما يَحْسُنُ الإيجاز إذا كان هو البيان:

ولبعضهم:

خير الكلام قليلٌ على كثير دليلُ
والعِيُّ معنىً قصيرٌ يحويه لفظٌ طويلُ

وقال بعض الكتاب: البلاغة معرفة الفصل من الوصل. وأحسن الكلام القصد وإصابة المعنى.

قال الشاعر:

وإذا نطقت فلا تكن أَشِرًا وَاقْصِد فخير الناس من قصدَا

وقال آخر:

وما أحدٌ يكون له مقالٌ فيسلم من ملامٍ أو أثامِ

وقال:

الدهر ينقص تارة ويطولُ والمرءُ يصمتُ مرة ويقول
والقول مختلفٌ إذا حصَّلْته بعضٌ يُردُّ وبعضه مقبول

وقال:

إذا وضحَ الصوابُ فلا تَدَعْهُ فإنَّكَ كلما ذقت الصوابَا
وجدت له على اللهوات بَرْدًا كبرد الماء حين صَفَا وطابا

وجوه البلاغة

البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكل مقام مقال، ولكل كلام جواب، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ. فأما الخط والإشارة فمفهومان عند الخاصة وأكثر العامة. وأما الدلالة: فكل شيء دلَّك على شيء فقد أخبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كُلٌّ يؤدي عنك الحُجَّة، ويشهد لك بالربوبية.

وقال آخر: سَل الأرض فقل: من شق أنهارَكِ، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؛

فإن لم تجبك إخباراً، أجابتك اعتبارًا.

وقال الشاعر:

لقد جئت أبغي لنفسي مجيراً فجئت الجبال وجئت البُحورَا
فقال لي البحر إذ جئتُه وكيف يُجير ضريرٌ ضريرًا

وقال نُصيب بن رباح:

فعاجوا فأثنَوا بالذي أنت أهلُه ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

يريد: لو سكتوا لأثنت عليك حقائب الإبل التي يحتقبها الركب من هباتك. وهذا الثناء إنما هو بالدلالة لا باللفظ.

وقال حبيب.

الدار ناطقةٌ وليست تَنْطِقُ بدثُورهَا أنَّ الجديدَ سَيخلُقُ

وهذا في قديم الشعر وحديثه، وطارف الكلام وتليده، أكثر من أن يحيط به وصف، أو يأتي من ورائه نعت.

وقال رجل للعتّابي: ما البلاغة؟ قال: كل من بلَّغَك حاجته وأفهمك معناه، بلا إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة، فهو بليغ. قالوا: قد فهمنا الإعادة والحُبْسَة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عُثْنونه، أو يفتِل أصابعه، أو يُكثر التفاته من غير موجب، أو يتساعل من غير سُعلة، أو ينبهر في كلامه.

وقال أبْرويز لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع: إن التُمس لها خامسة لم توجد، وإن نقصت منها واحدة لم تتم، وهي: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت فأسْجِحْ، وإذا سألت فأوضِح، وإذا أمرت فأحْكِم، وإذا أخْبَرتَ فحقِّق. واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. يريد الكلام الذي تقل حروفه، وتكثر معانيه.

وقال ربيعة الرأي: إني لأسمع الحديث عُطْلاً فأُشنِّفه وأُقرّطه فيَحْسُن، ومازدت فيه شيئاً ولا غيَّرتُ له معنى.

وقالوا: خير الكلام ما لم يُحتج بعده إلى كلام.

وقال يحيى: الكلام ذو فنون، وخيره ما وُفِّق له القائل، وانتفع به السامع.

وللحسن بن جعفر:

عجبت لإدلال العَييّ بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالحق أعلما
وفي الصمت ستر للعَييّ وإنما ... صحيفة لُبِّ المرء أن يتكلما

وصف أعرابيٌّ بليغاً فقال: كأن الألسن رِيضت فما تنعقد إلا على وُدِّه، ولا تنطق إلا ببيانه.

وصف أبو الوجيه بلاغة رجل فقال: كان والله يَشُول بلسانه شولان البَرُوق ويتخلل به تخلُّل الحيّة.

وللعرب من مُوجز اللفظ ولطيف المعنى، فصولٌ عجيبة، وبدائع غريبة، وسنأتي على صدر منها إن شاء الله تعالى.

فصول من البلاغة

قدم قتيبة بن مسلم خُراسان والياً عليها فقال: من كان في يده شيءٌ من مال عبد الله بن خازم فَلْيَنبِذهُ، وإن كان في فِيه فليلفِظه، وإن كان في صدره فلينْفُثه. فعجب الناس من حُسن ما فصّل.

وقيل لشبيب بن شَيبة عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

قال حسان بن ثابت في عبد الله بن عباس:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بمُلتقَطاتٍ لا نرى بينها فَضْلاَ
كفَى وشَفَى ما في النفوس ولم يَدَعْ ... لذى إرْبة في القول جدّاً ولا هزلاَ

وقال مُجاشع النهشلي: الحق ثقيل، فمن بلغه اكتفى، ومن جاوزه اعتدى.

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كم بين المشرق والمغرب؟

فقال: مسيرة يوم للشمس؛ قيل له: فكم بين السماء والأرض؟ قال: مسيرة ساعة لدعوة مستجابة.

وقيل لأعرابي: كم بين موضع كذا وموضع كذا؟ قال: بياض يوم وسواد ليلة.

وقيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟ قال: الأجل؛ قيل له: فما أبعد شيء؟ قال: الأمل؛ قيل له: فما أوحش شيء؟ قال: الميت؛ قيل له: فما آنس شيء؟ قال: الصاحب المواتى.

مرَّ عمرو بن عبيد بسارق يُقطع، فقال: سارق السَّريرة يقطع سارق العلانية.

وقيل للخليل بن أحمد: مالك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: لأني كالمِسَنّ، أشحذ ولا أقطع.

وقيل لعقيل بن عُلَّفة: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومر خالد بن صفوان برجل صلبه الخليفة، فقال: أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية.

ومر أعرابي برجل صلبه السلطان، فقال: من طلق الدنيا فالآخرة صاحبته، ومن فارق الحق فالجِذْع راحلته.

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وقال رجل لخالد بن صفوان: إنك لتكثر؛ قال: أكثر لضربين، أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإنَّ حَبْسه يُورث العُقلة.

وإنما اللسان عضو إذا مرنته مَرَن، وإذا تركته لكِنَ، كاليد تُخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما أشبهه، والرِّجل إذا عُوِّدت المشي مشت.

وذكر شبيب بن شيبة خالد بن صفوان فقال: ليس له صديقٌ في السر، ولا عدوٌ في العلانية. وهذا كلام لا يعرف قدره إلا أهل صناعته.

وكان عبد الله بن عباس بليغاً، فقال فيه معاوية:

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف لعِيٍّ ولم يَثْنِ اللسان على هُجْرِ
يُصرِّفُ بالقول اللسانَ إذا انتحى وينظر في أعطافه نَظَر الصَّقرِ

وتكلم صعصعة بن صُوحان عند معاوية فعرِق، فقال له معاوية: بَهرك القول؛ قال: الجياد نضَّاحة بالعرق.

وكتب ابن سيابة إلى عمرو بن بانة: إن الدهر قد كلح فجرح، وطمح فجمح، وأفسد ما صلح، فإن لم تُعن عليه فضح.

ومدح رجل من طيء كلام رجل فقال: هذا الكلام يكتفى بأولاه، ويشتفى بأخراه.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: إن رِفدَك لنجيح، وإن خيرك لصريح، وإن منعك لمريح.

ومن الأسْجاع قول ابن القِرِيَّة، وقد دُعي لكلام فاحتبس القول عليه فقال: قد طال السمر، وسقط القمر، واشتد المطر، فما أنتظِر. فأجابه فتى من عبد القيس: قد طال الأرق، وسقط الشفق، فلينطق من نطق.

قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت على المأمون وبيده كتاب لعمرو بن مَسْعدة، وهو يُصعِّد في ذُراه ويقوم مرة ويقعد أخرى، ففعل ذلك مراراً ثم التفت إليّ فقال: أحْسَبُك مفكرًا فيما رأيت؟ قلت: نعم، وقى الله عز وجل أمير المؤمنين المكاره؛ فقال: ليس بمكروه، ولكن قرأتُ كلاماً نظير خبر خَبَّرني به الرشيد، سمعته يقول: إن البلاغة لتُقاربُ من المعنى البعيد وتُباعدُ من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير. فلم أتوهم أن هذا الكلام يستتبُّ على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب، فكان استعطافاً على الجند وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين أيَّده الله، ومَن قِبَلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقُهم، واختلت أحوالهُم. فأمر بإعطائهم ثمانية أشهر.

ووقّع جعفر البرمكي إلى كُتَّابه: إن استطعتم أن تكون كتبكُم توقيعات فافعلوا.

وأمره هارون الرشيد أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتَم ويأخذه إليه عزلاً لطيفاً.

فكتب إليه: قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك، فكتب إليه الفضل: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك، ولا خصّتك دوني.

قال الفضل بن يحيى لأبيه: ما لنا نُسدي إلى الناس المعروف فلا نرى من السرور في وجوههم عند انصرافهم ببرِّنا ما نراه في وجوههم عند انصرافهم ببرِّ غيرنا؟ فقال له يحيى: إن آمال الناس فينا أطولُ منها في غيرنا، وإنما يُسَرُّ الإنسان بما بلّغه أمله.

قيل ليحيى: ما الكرم؟ قال: مَلِك في زي مسكين؛ قيل: فما الفرعنة؟ قال: مسكين في بطش عِفريت؛ قيل: فما الجود؟ قال: عفو بعد قدرة.

قالت أم جعفر زبيدة بنت جعفر للمأمون حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي ادّخرك لي لَمَّا أَثْكَلَني ولدي، ما ثكِلتُ ولداً كنتَ لي عوضاً منه. فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما ظننت أن نساءً جُبلن على مثل هذا الصبر.

وقال أبو جعفر لعمرو بن عُبيد: أعنِّي بأصحابك ياأبا عثمان، قال: ارفع علم الحق يتبعك أهله.

آفات البلاغة

قال محمد بن منصور كاتب إبراهيم، وكان شاعرًا راويًا وطالباً للنحو عّلامة، قال: سمعت أبا داود بن جرير الإيادي، وجرى شيء من ذكر الخُطب وتمييز الكلام، فقال: تلخيص المعاني رِفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادُق في غير أهل البادية نقص، والنظر في عيون الناس عِيّ، ومَسُّ اللحية هَلَع، والخروج عما بُني عليه الكلامُ إسهاب.

قال: وسمعته يقول: رأس الخطابة الطَّبْع، وعمودها الدُّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه. وأنشدني بيتًا في خطباء إياد:

يرمون بالخُطب الطوال وتارةً ... وَحْي الملاحظ خِيفة الرُّقباءِ

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وتكلم ابن السمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنَه! لولا أنك تُكثر ترداده! قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن تُفَهِّمه من لم يفهمه يكون قد مَلَّه من فهمه.

باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَع بالتي هي أحْسَنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلَقَّاهِا إلاَّ الذين صبروا وما يُلَقَّاهَا إلا ذو حظٍ عظيم**﴾[1].

وقال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرَّغنَّ لك؛ قال: هُنالك وقعت في الشُّغْل؛ قال: كأنك تهدّدني، والله لئن قلت لي كلمة لأقولن لك عشرًا؛ قال: وأنت والله لئن قلت لي عشرًا لم أقل لك واحدة.

وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأسُبَّنك سبّاً يدخل القبر معك؛ قال: معك يدخل لا معي.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك اليوم أيوب السِّخْتِياني حتى رحمناك؛ قال: إياه فارحموا.

وشتم رجل الشَعبيّ، فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وشتم رجل أبا ذرّ فقال: ياهذا، لا تُغرق في شتمنا ودع للصُّلح موضعاً، فإنا لا

---

(١) سورة فصلت الآيتان (٣٤-٣٥) وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ قال: الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم كأنه وليٌ حميم قريب. رواه البخاري تعليقاً. انظر مشكاة المصابيح [٥١١٧].

نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

وعن النبي ﷺ: «**ما تجرّع عَبْدٌ في الدنيا جِرْعَةً أحبَّ إلى الله من جرعة غيظٍ رَدَّهَا بحِلْم، أو جَرْعَة مصيبة رَدَّها بصبر**»(١).

وكتب رجل إلى صديق له، وبلغه أنه وقع فيه:

لئن ساءَني أن نلتني بمساءةٍ ... لقد سَرَّني أني خطرتُ ببالكَ

وأنشد طاهر بن عبد العزيز:

إذا ما خليلي أسا مَرةً ... وقد كان فيما مضى مُجمِلا
ذكرت المقدَّم من فعله ... فلم يفسد الآخِرُ الأوّلا

صفة الحلم وما يصلح له

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلَّمت الحِلم؟ قال: من قيس بن عاصم المِنقري، رأيته قاعداً بفناء داره مُحتبياً بحمائل سيفه يُحدِّث قومَه؛ حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك؟ فوالله ما حلَّ حبوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال له: يابن أخي، أثِمتَ بربك، ورميتَ نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: قم يابُنيّ فَوَارِ أخاك، وحُلّ كِتاف ابن عمك، وسُق إلى أُمِّه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني آمرؤ لا شائنٌ حَسَبي ... دَنَسٌ يُهجِّنه ولا أفْنُ
من مِنقرٍ في بيت مكرُمة ... والغُصن ينبُت حوله الغصنُ
خطباءُ حين يقول قائلُهم ... بيضُ الوجوه أعِفَّة لُسُنُ
لا يفطنون لعيب جارهمُ ... وهم لحفظ جواره فُطُنُ

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**ماتجرع عبد جرعة أفضل عند الله عز وجل من جرعة غيظ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى**». انظر المسند ٢/١٢٨ [٦١١٤-٦١١٦] ج٤ وانظر مشكاة المصابيح [٥١١٦] وروى الحديث ابن ماجة في كتاب الزهد باب الحلم [٤١٨٩].

وقال رجل للأحنف بن قيس: علِّمني الحلم ياأبا بحر؛ قال: هو الذل يابن أخي، أفتصبر عليه؟

وقال الأحنف: لستُ حليماً ولكني أتحالم.

وقيل له: من أحْلَمُ: أنت أم معاوية؟ قال: تالله ما رأيت أجهل منكم، إن معاوية يَقْدِر فيحلم، وأنا أحلُم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أُدانيه؟!

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئتَ أخبرتك بخُلَّة، وإن شئت بخُلَّتين، وإن شئت بثلاث؛ قال: فما الخلة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه؛ قال: فما الخلتان؟ قال: كان مُوقَّى الشر مُلقَّى الخير؟ قال: فما الثلاث؟ قال: كان لا يجهل ولا يبْغِي ولا يبخل.

وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عَمَّن ظلمك.

وقالوا: ما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقال لقمان الحكيم: ثلاثة لا تعرفهم إلا في ثلاثة: لا تعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت إليه.

وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حين الرضا ... إنما الأحلامُ في حين الغَضب

وقال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جُهل عليه، وتلا قول الله عز وجل: ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾[1].

وقال معاوية: إني لأستحي من ربي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو عورة لا أواريها بسَتري.

وقال مُؤرِّق العِجلي: ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في الرضا.

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما غضبي في نعليَّ، فإذا سمعتُ ما أكره أخذتُهما ومضيت.

وقيل للأحنف: ما الحِلْم؟ فقال: قولٌ إن لم يكن فعل، وصمتٌ إن ضرَّ قول.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَن لانت كلمته، وجبت محبته.

وقال: حلمك على السفية يُكثرُ أنصارك عليه.

وقال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات.

وقال: رُبَّ غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه، وأنشد:

رضيتُ ببعض الذُّلِّ خوف جميعه ... كذلك بعضُ الشر أهونُ من بَعْضِ

وأسمع رجلٌ عمرَ بن عبد العزيز بعض ما يكره، فقال: لا عليك، إنما أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا، انصرف إذا شئت.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

لن يدرك المجدَ أقوامٌ وإن كرَموا ... حتى يَذِلُّوا وإن عزُّوا لأقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوانَ كاسفةً ... لا ذُلَّ عجز ولكن ذُلَّ أحلام

وأحسن بيت في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعرِض عن الجهل والخَنى ... أصبتَ حلماً أو أصابك جاهلُ

وقال الأحنف: آفة الحلم الذل.

وقال: لا حلم لمن لا سفيه له.

وقال: ما قلَّ سُفهاء قوم إلا ذلُّوا. وأنشد:

لابد للسُّودَد من رماح ... ومن رجالٍ مُصَّلَتي السِّلاحِ
يدافعون دونه بالرَّاح ... ومن سفيهٍ دائم النُّباح

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادرُ تحمي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أورد الأمرُ أصدرا

ولما أنشد هذين البيتين للنبي ﷺ، قال: «لا يَفْضُض الله فاك»، قال: فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له ثَنيَّة.

وقالوا: لايظهر الحلم إلا مع الانتصار، كما لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار.

وللأشنَنْدَانيّ:

وفي اللِّين ضعفٌ والشراسةُ هيبةٌ ... ومن لا يُهَب يُحْمَل على مركبٍ وَعْرِ
وللفقرُ خيرٌ من غنى في دناءةٍ ... وللْمَوتُ خيرٌ من حياةٍ على صُغر
وما كُلَّ حينٍ ينفعُ الحلمُ أهلَه ... ولا كلُّ حال يَقْبُح الجهلُ بالصبر
وما بي على من لان لي من فظاظة ... ولكنني فَظٌّ أبيٌّ على القَسْرِ

وقال آخر في مدح الحلم:

إني أرى الحِلْم محموداً عواقبُه ... والجهل أفنى من الأقوام أقواماً

ولسابق:

ألم تر أن الحلم زينٌ مُسوِّدٌ ... لصاحبه والجهل للمرء شائنُ
فكن دافناً للجهل بالحلم تسترح ... من الجهل إن الحلم للجهل دافنُ

ولغيره:

ألا إن حلم المرء أكبرُ نِسبةٍ ... يُسامي بها عند الفخار كريمُ
فيارب هب لي منك حِلْماً فإنني ... أرى الحِلْم لم يندم عليه حليمُ

وقال بعض الحكماء: ما حلا عندي أفضل من غيظ أتجرعه.

وقال بعضهم:

وفي الحلم ردع للسَّفيه عن الأذى ... وفي الخُرق إغراءٌ فلا تكُ أخرَقا
فتندمَ إذ لا تنفَعَنْكَ ندامةٌ ... كما نَدِمَ المغبونُ لما تفرَّقا

وقال علي رضي الله عنه: أول عِوَض الحليم عن حلمه أن الناس أنصارُه على الجاهل.

وقال معاوية لخالد بن المُعَمَّر: كيف حُبُك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال:

أحبه لثلاث خصال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد.

وكان يقال: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الظلم والباطل، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطَأطِيء لها حتى تتخطاك.

وقال الحسن: إنما يُعرف الحِلم عند الغضب. فإذا لم تغضب لم تكن حليمًا.

وقال الشاعر:

وليس يَتِمُّ الحلم للمرء راضياً ... إذا هو عند السخط لم يَتَحلَّمِ
كما لا يتمُّ الجودُ للمرء مُوسراً ... إذا هو عند العُسر لم يتجشَّم

وقال بعض الحكماء: إن أفضل وادٍ تُرى به الحلم، فإذا لم تكن حليمًا فتحلم، فإذا لم تكن عليمًا فتعلم، فقلما تشبّه رجلٌ بقوم إلا كان منهم.

وقال بعضهم: الحلم عُدَّةٌ على السفيه، لأنك لا تقابل سفيهًا بالإعراض عنه والاستخفاف بفعله إلا أذللته.

ويقال: ليس الحليم من ظُلم فَحَلِم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم ثم قدر فعفا.

وللأحنف أو غيره:

ولربَّما ضحك الحليمُ من الأذى ... وفؤاده من حَرِّه يتأوَّه
ولرُبَّما شكل الحليمُ لسانَه ... حَذر الجواب وإنَّه لمفوَّه

وقال الأحنف: وجدت الحلم أنصرَ لي من الرجال.

وقال بعضهم: إياك وعِزة الغضب فإنها تُصَيِّرك إلى ذل الاعتذار.

وقيل: من حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

وقال الأحنف: ما نازعني أحد قط إلا أخذت أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقي

عرفتُ قدَره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضّلت عليه.

ولقد أحسن الذي أخذ هذا المعنى فنظمه فقال:

إذا كان دُوني من بُليتُ بجهله ... أبيَتُ لنفسي أن تُقارع بالجهلِ
وإن كان مثلي ثم جاء بزَلَّةٍ ... هويتُ لصفحي أن يُضاف إلى العدلِ
وإن كنتُ أدنى منه قدرًا ومنصباً ... عرفت له حقَّ التقدم والفضل

ولأصرم بن قيس، ويقال إنها لعلي رضي الله عنه:

أصمُّ عن الكَلِم المُحفِظات ... وأحلُم والحلم بي أشبهُ
وإنِّي لأترك جُلّ الكلام ... لئلا أُجاب بما أكره
إذا ما اجترت سِفاه السفيه ... عليَّ فإنِّي أنا الأسفه
فلا تغترر برُواء الرجال ... وما زخرفوا لك أو موَّهوا
فكم من فتى يُعجب الناظرين ... له ألسُنٌ وله أوجُه
ينام إذا حضر المكرُمات ... وعند الدناءة يَستنَبه

وللحسن بن رجاء:

أحب مكارم الأخلاق جَهْدي ... وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفحُ عن سِباب الناس حِلْمًا ... وشرُّ الناس من يهوَى السبابا
ومن هاب الرجالَ تهيَّبوه ... ومن حقر الرجال فلن يُهابا
ومن قَضَت الرجالُ له حقوقاً ... ولم يقضِ الحقوق فما أصابا

وقال محمد بن علي رضوان الله عنهما: من حَلِمَ وقى عرضه، ومن جادت كفُّه حَسُنَ ثناؤه، ومن أصلح مالَه استغنى، ومن احتمل المكروه كثرت محاسنه، ومن صبر حُمد أمرُه، ومن كظم غيظه فشا إحسانُه، ومن عفا عن الذنوب كثرت أياديه، ومن اتقى الله كفاه ما أهمّه.

ولمحمود بن الحسن الوراق:

إني وهبتُ لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على عِلْمِ
ورأيته أسدى إليَّ يداً ... لما أبان بجهله حلمي

رجَعتْ إساءتُه عليه وإحـ ـساني إليّ مُضاعف الغُنْم
وغدوت ذا أجرٍ ومحمدةٍ وغدا بكسب الظلم والإثم
وكأنما الإحسانُ كان له وأنا المسيء إليه في الحكم
ما زال يظلمني وأرحمه حتى رثيتُ له من الظلم

ولمحمد بن زياد يصف حلماء:

نخالُهم في الناس صُمًّا عن الخَنى وخُرساً عن الفحشاء عند التهاجُرِ
ومرضى إذا لُوقوا حياءً وعِفّةً وعند الحفاظ كاللُّيوث الخَوادِرِ
كأنَّ لهم وصمًا يخافون عارَه وما ذاك إلا لاتقاء المعايرِ

وله أيضا:

وأرفع نفسي عن نفوس وربَّما تذلَّلتُ في إكرامها لنُفُوسِ
وإن رامني يوماً خسيسٌ بجهله أبى الله أن أرضى بعِرض خسيس

ولبعضهم:

وإذا استشارك من تَوَدُّ فقل له أَطِع الحليم إذا الحليمُ نَهاكَا
واعلم بأنك لن تسود ولن ترى سُبل الرشاد إذا أطعتَ هَواكا

وقال آخر:

وكُن معدِناً للحِلْم واصفح عن الأذى فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حُبّاً مُقارِباً فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغض إذا أبغضت غير مُباين فإنك لا تدري متى أنت رَاجِعُ

باب السودد

وقيل لقيس بن عاصم: بم سَوَّدك قومك؟ قال: بكفِّ الأذى، وبذل الندى، ونصر المولى.

وقال رجل للأحنف، بم سوَّدك قومُك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجها، ولا أحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يابن أخي؛ قال: وماذاك؟ قال:

بتركي من أمرك ما لا يعنيني كما عَناك من أمري ما لا يعنيك.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: مَن سيِّدُ قومِك؟ قال: أنا؛ قال: كذبت، لو كنت كذلك لم تقُله.

وقال ابن الكلبي: قدم أوس بن حارثة بن لأم الطائي وحاتم بن عبد الله الطائي على النعمان بن المنذر، فقال لإياس بن قَبيصة الطائي: أيهما أفضل؟ قال: أَبيْتَ اللعن أيها الملك. إني من أحدهما، ولكن سَلْهما عن أنفسهما فإنهما يخبرانك. فدخل عليه أوس، فقال أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن، إن أدنى ولد حاتم أفضل مني، ولو كنت أنا وولدي ومالي لحاتم لأَنهبَنَا في غداة واحدة. ثم دخل عليه حاتم، فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيت اللعن، إن أدنى ولدٍ لأوس أفضل مني. فقال النعمان: هذا والله السُّودد، وأمر لكل واحد منهما بمائة من الإبل.

وسأل عبد الملك بن مروان روحَ بن زِنْباع عن مالك بن مسمع، فقال: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحد منهم: لم غضبت؟ فقال عبدالملك: هذا والله السُّودد.

ونظر رجل إلى معاوية، وهو غلام صغير، فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه، فسمعته أمه هند فقالت: ثَكِلتُه إذاً إن لم يسُد غير قومه.

ودخل ضَمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر، وكانت به دَمامة شديدة، فالتفت النعمان إلى أصحابه، وقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال: أيها الملك، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإن قال قال ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان قال: صدقت، وبحقِّ سودك قومك.

وقيل لعَرابة الأَوْسي: بم سوَّدَكَ قومُك؟ قال: بأربع خلال: أَنْخَدع لهم في مالي، وأذِل لهم في عرضي، ولا أَحْقِر صغيرهَم، ولا أحسد كبيرهم.

وفي عرابة الأوسي يقول الشمَّاخ، وهو ابن ضرار:

رأيتُ عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القَرين
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ ... تلقَّاها عرابَةُ باليمين

وقالوا: يسود الرجل بأربعة أشياء: بالعقل والأدب والعلم والمال.

وكان سَلم بن نوفل سيد بني كنانة فوثب رجل على ابنه وابن أخيه، فجرحهما، فأتى به، فقال له: ماأَمَّنك من انتقامي؟ قال: فلم سَوَّدْنَاك إذاً؟ إلا أن تكظم الغيظ، وتحلُمَ عن الجاهل، وتحتمل المكروه؛ فخلّى سبيله، فقال فيه الشاعر:

يُسوَّد أقوامٌ وليسوا بسادة ... بل السيد الصِّنديد سَلم بنُ نوفلِ

وقال ابن الكلبي: قال لي خالد العنبري: ما تعدُّون السُّودَد؟ قلت: أما في الجاهلية فالرياسة، وأما في الإسلام فالولاية، وخير من ذا وذاك التقوى؛ قال: صدقت؛ كان أبي يقول: لم يدرك الأولُ الشرفَ إلا بالعقل، ولم يدرك الآخرُ إلا بما أدرك به الأول؛ قلت له: صدق أبوك، إنما ساد الأحنف بن قيس بحلمه، ومالك ابن مِسمع بحُبِّ العشيرة له، وقتيبة بن مسلم بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال كلها.

ودخل عمرو بن العاص مكة، فرأى قوماً من قريش قد تحلَّقوا حلقة، فلما رأوه رمَوا بأبصارهم إليه، فعدَل إليهم، فقال: أحسبكم كنتم في شيء من ذكري؟ قالوا: أجل، كُنَّا نماثل بينك وبين أخيك هشام، أيكما أفضل. فقال عمرو: إن لهشام عليَّ أربعةً: أُمُّه ابنة هشام بن المغيرة، وأمي من قد عرفتم؛ وكان أحب الناس إلى أبيه مني، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد؛ وأسلم قبلي، واستُشهد وبقيت.

قال قيس بن عاصم لبنيه لما حضرته الوفاة: يابَنيَّ، احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، أما إذا أنا متُّ فسوِّدوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم.

وقال الأحنف بن قيس: السُّودد مع السَّوَاد.

وهذا المعنى يحتمل وجهين من التفسير: أحدهما، أن يكون أراد بالسواد سواد الشَّعْر، يقول: من لم يَسُدْ مع الحداثة لم يَسُد مع الشيخوخة. والوجه الآخر أن يكون أراد بالسواد سواد الناس ودهماءهم، يقول: من لم يَطِرْ له اسم على ألسنة العامة بالسُّودد لم ينفعه ما طار له في الخاصة.

الهيثم بن عدي قال: لما انفرد سفيان بن عُيينة ومات نظراؤه من العلماء تكاثر

الناس عليه، فأنشأ يقول:

خلت الدِّيارُ فَسُدت غير مُسَوَّد ... ومن الشقاء تفرُّدي بالسُّوددِ

سودد الرجل بنفسه

قال قُسُّ بن ساعدة: من فاته حَسَبُ نفسه لم ينفعه حسب أبيه.

وقالوا: إنما الناس بأبدانهم.

وقال الشاعر:

نفسُ عصامٍ سوّدت عِصاما ... وعلَّمته الكَرَّ والإقداما

وقال عبد الله بن معاوية:

لسْنَا وإن كَرُمَت أوائلُنا ... يوما على الأحساب نتَّكلُ
نبني كما كانت أوائلُنا ... تبني ونفعلُ مثل ما فعلوا

وقالت عائشة رضي الله عنها: كُلُّ كرمٍ دونه لؤم فاللؤمُ أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به.

تريد أن أولى الأمور بالإنسان خصال نفسه، فإن كان كريماً وآباؤه لئام لم يضره ذلك، وإن كان لئيماً وآباؤه كرامٌ لم ينفعه ذلك.

وقال عامر بن الطفيل العامري:

وإني وإن كنتُ ابن سَيِّد عامرٍ ... وفارسَها المشهورَ في كُلِّ مَوْكب
فما سَوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ ... أَبَى الله أن أسمو بجَدٍّ ولا أبَ
ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رَمَاهَا بمَنكبي

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلَّ مذهب، فأعجب عبدالملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابنُ من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي ياأمير المؤمنين التي بها توصّلتُ إليك؛ قال: صدقت.

فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

مالِيَ عقلي وهِمَّتي حَسَبي ... ما أنا مولى ولا أنا عربي
إذا انتمى مُنتَمٍ إلى أحدٍ ... فإنني منتمٍ إلى أدبي

المروءة

قال ربيعة الرأي: المروءة ست خصال: ثلاثة في الحضَر وثلاثة في السفر، فأما التي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبة الرفيق؛ وأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعَفاف الفَرْج.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرِّياش، والمروءة الباطنة العفاف.

وقدِم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدُّون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة؛ قال: اسمع يا يزيد

وقيل لأبي هريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى الله وتفقُّد الضَّيْعة.

وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العِفّة والحِرفة.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنَّا معشرَ قريش لانعدُ الحلم والجود سُودداً، ونعد العفاف وإصلاح المال مروءة.

قال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سودد لبخيل، ولا ورع لسيِّء الخلق.

وقال النبي ﷺ: «**تجاوزوا لذوي المروآت عن عثراتهم، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم ليعْثُر وإن يده لَبيَدِ الله**»(١).

وقال العُتْبي عن أبيه: لا تتمُّ مروءة الرجل إلا بخمس: أن يكون عالماً، صادقاً، عاقلاً، ذا بيان، مستغنياً عن الناس.

---

(١) رواه الإمام أحمد ٦/١٨١ وابوداود ٤/١٨٩ والبخاري في الأدب المفرد [٤٦٥] والبيهقي ٨/٣٣٤ وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا في الحدود**». قال المناوي: ضعيف وله شواهد ترقيه إلى الحسن ومن زعم وضعه كالقزويني أفرط أو حسنه كالعلائي فرط. انظر فيض القدير [١٣٦٣] وانظر أجوبة ابن حجر عن أحاديث المصابيح [الحديث الخامس] والسخاوي في المقاصد الحسنة [١٤٣] والعجلوني في كشف الخفا [٤٨٨] والألباني في صحيح الأدب المفرد [٣٦٢] والصحيحة [٦٣٨].

وقال الشاعر:

ومـا المـرءُ إلا حيث يجعل نفسَه ... ففي صالح الأخلاق نفسَك فاجْعلِ

وقيل لعبد الملك بن مروان: أكان مصعب بن الزبير يشرب الطِّلاء؟ فقال: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

طبقـات الرجـال

قال خالد بن صفوان: الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء، وطبقة خطباء، وطبقة أدباء؛ ورجْرجة بين ذلك يُغْلُون الأسعار، ويُضيِّقون الأسواق، ويُكدِّرون المياه.

وقال الحَسن: الرجال ثلاثة: فرجل كالغذاء لا يُستغنى عنه، ورجل كالدواء لا يحتاج إليه إلا حيناً بعد حين، ورجلٍ كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: الناس ثلاثة: ناسٌ ونَسْناس وناس غُمِسوا في ماء الناس.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: فرجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فَسَلُوه، ورجل يدري ولا يدرى أنه يدرى فذلك النَّاسي فذكِّروه، ورجل لايدري ويدري أنه لا يدري، فذلك الجاهل فعلِّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمق فارفضوه.

وقال الشاعر:

ألـيس من البَلْوى بأنـك جاهـلٌ ... وأنـك لا تدري بأنـك لا تدري
إذا كنت لا تدري ولست كمن درَى ... فكيف إذاً تدري بأنـك لا تدري

ولآخر:

ومـا الـداءُ إلا أن تُعلِّم جاهـلاً ... ويـزعُم جهـلاً أنـه منـك أعْلَمُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، ورَعَاع هَمَجٌ يميلون مع كل ريح.

وقالت الحكماء: الإخوان ثلاثة: فأخ يُخلص لك ودَّه، ويبذل لك رِفده،

ويستفرغ في مُهمِّك جُهده؛ وأخٌ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته دون رفده ومعونته، وأخ يتملَّق لك بلسانه ويتشاغل عنك بشانه، ويوسعك من كذبه وأيمانه.

وقال الشعبي: مَرَّ رجلٌ بعبد الله بن مسعود، فقال لأصحابه: هذا لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، ولا يتعلم ممن يعلم.

الغوغاء

الغوغاء: الذَّبا، وهي صغار الجراد، وشُبِّه بها سوادُ الناس.

وذُكر الغوغاء عند عبد الله بن عباس فقال: ما اجتمعوا قط إلا ضرُّوا، ولا افترقوا إلا نفعوا.

وقيل له: قد علمنا ما ضَرَّ اجتماعهم، فما نفع افتراقهم؟ قال: يذهب الحجَّام إلى دُكانه، والحداد إلى أكياره، وكلُّ صانع إلى صناعته.

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قوم يَتْبعُون رجلا أُخذ في رِيبَة، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلا في كُلِّ شر.

وقال حبيب بن أوس الطائي:

إن شئت أن يَسوَدَّ ظنُّك كُلُّه ... فأَجِلهُ في هذا السواد الأعظمِ

وقال دِعبل:

ما أكثر الناس لابل ما أقلَّهم ... الله يعلم أنِّي لم أقُل فَنَدَا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

الثقلاء

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: نزلت آية في الثقلاء: ﴿**فإذا طعِمتُم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث**﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

وقال سهل بن هارون: من ثقُل عليك بنفسه، وغمَّك بسؤاله، فأعِرْه أذناً صماء، وعيناً عمياء.

وكان أبو هريرة إذا استثقل رجلاً، قال: اللهم اغفر له وأرحنا منه.

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيلٌ يقول:

فما الفِيلُ تحمِلُهُ ميِّتاً بأثقلَ من بعض جُلاّسِنا

ونقش رجل على خاتمه: أبرَمتَ فقُم. فكان إذا جلس إليه ثقيلٌ ناوله إياه وقال: اقرأ ما على هذا الخاتم.

أهدى رجلٌ من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جَملاً، ثم نزل عليه حتى أبرمه، فقال فيه:

يا مُبرمًا أهْدَى جملْ خذ وانصرِف ألفَي جَملْ
قال: وقَدْ أثقَلتُكم قلت له فوق الثقل
قال فإنِّي راحلٌ قلت العَجَل ثم العَجَل

ولحبيب الطائي في رجل مَقيت:

يا من تبرَّمتْ الدنيا بطلعته كما تبرَّمَت الأجفانُ بالرَّمدِ
يمشي على الأرض مختالاً فأحسَبُه لبُغض طلعته يمشي على كَبدي
لو أن في الأرض جزءًا من سماجته لم يَقْدُمِ الموتُ إشفاقاً على أحد

وقال حبيب أيضاً:

وصاحبٍ لي مللتُ صُحبته أفقدني الله شخصه عَجِلا
سرقتُ سِكِّينه وخاتمه أقطع ما بيننا فما فعلا

التفاؤل بالأسماء

لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسروق بن الأجْدَع، فقال له: من أنت؟ قال: مسروق بن الأجدع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأجْدَعُ شيطان**»[1].

(١) رواه أبو داود وابن ماجة وقال الألباني: إسناده ضعيف. مشكاة المصابيح [٤٧٦٧].

وروى سفيان عن هشام الدَّستُوائي عن يحيى بن أبي كثير قال: كَتب رسول الله ﷺ إلى أمرائه: «**لا تُبردوا بريداً إلاَّ حَسَن الوجه، حَسَن الاسم**»(١).

ولما فرغ المهلب بن أبي صُفرة من حرب الأزارقة وجّه بالفتح إلى الحجاج رجلاً يقال له مالك بن بشير؛ فلما دخل على الحجاج، قال له: ما اسمك؟ قال: مالك ابن بشير، قال: مُلك وبِشارة.

وقال سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي: قَدِم جَدِّي حَزْن بن أبي وهب على النبي ﷺ، فقال له: كيف اسمك؟ قال: حزن، قال له رسول الله ﷺ: بل سَهل؛ قال: ما كنت لأدع اسمًا سمتني به أمي. قال: سعيد: فإنا لنجد تلك الحزونة في أخلاقنا إلى اليوم(٢).

باب الطـيرة

قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لايكاد يسلم منهن أحد: الطِّيرةُ، والظَنُّ والحسَد، قيل: فما المخرج منهنَّ يارسول الله؟ قال: إذا تطيَّرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا حسدت فلا تبغ**»(٣).

وقال النبي ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة**»(٤).

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفي إسناد الطبراني عمر بن راشد وثقه العجلي وضعفه جمهور الأئمة وبقية رجاله ثقات، وطرق البزار ضعيفة. انظر مجمع الزوائد ٨/٥٠ باب الأسماء وماجاء في الأسماء الحسنة. وانظر المقاصد الحسنة [١٦١] وفيض القدير [٣٣٧] والموضوعات ١/١٦٠ والأسرار المرفوعة ص ٤١٧.

(٢) رواه البخاري بنحوه.

(٣) رواه الطبراني بنحوه وللحديث شاهدان مرسلان. انظر غاية المرام [٣٠٢].

(٤) رواه مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**لا عدوى ولا طيرة وأحب الفأل الصالح**».

وقال ﷺ: «ليس منا من تَطَيَّر»[١].

وقال ﷺ: «إذا رأى أحدُكم الطِّيرة فقال: اللهم لا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا خَيْرَ إلا خيرك، ولا إله غيرك، لم تضره».[٢]

وقد كانت العرب تتطير، ويأتي ذلك في أشعارهم، وقال بعضهم:

وما صدقَتْك الطير يوم لَقِيتَنا ... وما كان مَن دَلّاك فينا بخابِر

وقال حسان رضي الله تعالى عنه:

يا ليت شعري وليت الطَّير تُخبرني ... ما كان بين عليٍّ وابن عفَّانا

لتسمعنَّ وشِيكا في ديارهمُ ... الله أكبر يا ثاراتِ عُثمانا

وقال الشيباني: لما قدم قتيبة بن مسلم واليًا على خراسان، قام خطيبًا، فسقطت المِخصَرة من يده فتطيرَّ بها أهل خراسان، فقال: أيها الناس، ليس كما ظننتم ولكنه كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

روى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام: يابني لا تَستقلّ عدواً واحداً ولا تستكثر ألف صديق، ولا تستبدل بأخٍ قديم أخًا مستحدثًا ما استقام لك.

وفي الحديث المرفوع: «المرءُ كثيرٌ بأخيه»[٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عمران بن الحصين ورواه البزار والطبراني في الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً به، ويشهد له أيضاً حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً به. انظر الصحيحة [٢١٩٥].

(٢) أخرجه أحمد والطبراني بنحوه عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً وأخرجه البزار عن بريدة. انظر تمييز الطيب [٢١٩] والمقاصد [١٧٤].

(٣) رواه الديلمي والقضاعي عن أنس، قال الألباني: ضعيف. انظر الضعيفة [١٨٩٥]. وانظر الشوكاني/ الفوائد المجموعة ص٢٦٠.

وقال شبيب بن شيبة: إخوان الصَّفاء خير مكاسب الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةٌ في البلاء، ومعونة على الأعداء.

وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرُك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن إخوانَ الصفاءِ الذخائرُ

وقال الأحنف بن قيس: خير الإخوان إن استغنيت عنه لم يزدك في المودَّة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن كُوْثرتَ عَضَّدَك، وإن استرفدت رفدك، وأنشد:

أخوك الذي إن تَدْعُهُ لِمُلمَّة ... يُجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

ولآخر:

أخاك أخاك إنّ مَن لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهيجَا بغير سلاح
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جناحُه ... وهل ينهض البازِي بغير جناح

ومما يجب للصديق على الصديق النصيحةُ جَهده. فقد قالوا: صديق الرجل مرآته تُريه حسناته وسيئاته.

وقالوا: الصديق من صدقك وُده، وبذل لك رِفده.

وقالوا: أربعة لا تعرف إلا عند أربعة: لا يعرف الشجاع إلا عند الحرب، ولا الحليم إلا عند الغضب، ولا الأمين إلا عند الأخذ والعطاء، ولا الإخوان إلا عند النوائب.

وقالوا: خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك.

وقال الشاعر:

فإنَّ أوْلَى الموالي أن تُواليَهُ ... عند السرور لمن واسَاك في الحَزَنِ
إن الكرام إذا ما أَسْهَلُوا ذَكَرُوا ... من كان يألفهم في المنزل الخَشِن

ولآخر:

البرُّ من كرم الطبيعة ... والمنُّ مفسدة الصنيعة
تَرْكُ التعهد للصديـ ... ـق يكونُ داعيةَ القطيعة

وقيل لبعض الولاة: كم صديقاً لك؟ قال: لاأدري، الدنيا مقبلة عليّ والناس كلهم أصدقائي، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عني.

أصناف الإخوان

قال العَتّابي: الإخوان ثلاثة أصناف: فرع بائنٌ من أصله، وأصلٌ مُتَّصلٌ بفرعه، وفرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله، فإخاءٌ بُني على مودة ثم انقطعت فحُفظ على ذمام الصحبة؛ وأما الأصل المتصل بفرعه، فإخاء أصله الكرم وأغصانه التقوى؛ وأما الفرع الذي لا أصل له، فالمُموَّه الظاهر الذي ليس له باطن.

ويقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ولعدوه عدوًا.

يقول العتابي:

تَـوَدُّ عَـدُوِّي ثـم تزعـم أنـني ... صديقك إن الرأي عنك لعازبُ
ولـيس أخـي من ودّني رَأيَ عينـه ... ولَـكِـنْ أخي من وَدَّني وهـو غائب

وقال لآخر:

كم من أخٍ لك لم يلده أبـوكَـا ... وأخٍ أبُـوه أبُـوكَ قد يجفـوكـا
صافِ الكـرام إذا أردتَ إخاءهم ... واعلم بأن أخـا الحِفـاظ أخـوكـا
والنـاس ما استغنيتَ كنتَ أخاهُمُ ... وإذا افـتـقـرت إليهمُ رفضـوكـا

وقال آخر:

إن كنـت متـخـذاً خليـلاً ... فَتَـنـقَّ وانـتـقـد الخـليـلاَ
مـن لـم يكـن لـك منـصفـاً ... فـي الـودِّ فابـغِ بـه بديـلا
ولـقَـلَّمـا تلْقـى الـلئيـ ... ـمَ عليـك إلا مسـتـطيـلا

وكتب العباس بن جرير إلى الحسن بن مخلد:

ارعَ الإخـاء أبـا محمَّـ ... ـدَ للذي يصـفـو وصُـنـهُ
وإذا رأيـت منـافـسـاً ... في نيـل مكـرُمَـةٍ فَكُـنـه
إن الـصـديـق هـو الـذي ... يرعـاك حيـث تغيـب عنـه
فـإذا كشـفـت إخـاءَه ... أحمـدت ما كشَّـفـت منـه
مثـل الحُـسـام إذا انـتـضـا ... ه أخـو الحفيـظـة لم يخنـه

يسعى لما تسعى له ... كرماً وإن لم تستعنه

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشار:

من لم يُردك فلا تُرِدْهُ ... لِتَكُنْ كَمَنْ لم تستفِدْهُ
باعد أخاك لبُعْدِهِ ... وإذا دنا شبراً فزده
كم من أخ لك يا بن بشـ ... ـار وأمُّك لم تلِده
وأخي مناسبة يسو ... ءك، غيبه لم تفتقده

فأجابه محمد بن بشار:

غلط الفتى في قوله: ... من لم يردك فلا ترده
من يأنس الإخوان لم ... يَبْدَ العِتاب ولم يُعده
عاتب أخاك إذا هفا ... واعطف بودِّك واستعِده
وإذا أتاك بعيبه ... واشٍ فقل لم تعتمده

معاتبة الصديق واستباء مودته

قالت الحكماء: مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته، والتجاوز عن سيئاته، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبته بلا إكثار، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استعتاب.

وقال أبو الدرداء: مَن لك بأخيك كُلِّه.

وقال بشَّار العقيلي:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئتَ وأيُ الناس تصفو مشاربُه

وقالوا: معاتبة الأخ خيرٌ من فقده.

وقال الشاعر:

إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ ... ويبقى الوُدُّ ما بقي العِتابُ

لمحمد بن أبان:

إذا أنَا لم أَصْبِرْ على الذَّنب مِن أخٍ ... وكنتُ أُجازيه فأين التفاضُلُ
إذا ما دعاني مِفْصلٌ فقطعتُه ... بقيتُ وما لي للنُهوض مَفاصل
ولكنْ أداويه فإن صَحَّ سَرَّني ... وإنْ هو أعْيا كان فيه تَحَامُل

وقال الأحنف: من حق الصديق أن يتحمل ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالّة، وظلم الهفوة.

لعبد الله بن معاوية:

ولستُ ببَادي صاحبي بقطيعةٍ ... ولسْتُ بمُفْشٍ سرَّه حين يغضبُ
عليك بإخوان الثِّقات فإنهم ... قليل فصِلْهُمْ دونَ من كُنْتَ تَصْحَبُ
وما الخِدْن إلا من صفا لك وُدّه ... ومن هو ذو نصحٍ وأنت مُغيَّبُ

ومما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من لانَتْ كلمتُه وجَبَتْ محبته. وأنشد:

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ مما ... يُنبت الودُّ في فؤاد الكريم

وعلى الصديق ألا يلقى صديقه إلا بما يحب، ولا يؤذي جليسه، فيما هو عنه بمعزل، ولا يأتي ما يعيب مثله، ولا يعيب ما يأتي شَكْلَه. وقد قال المتوكل الليثي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث تثبت لك الود في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتُوسِّعَ له في المجلس، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه.

وقال: ليس شيء أبلغ في خَيْرٍ ولا شَرٍّ من صاحب.

لعَديّ بن زيد:

عن المرء لا تَسْأل وسَلْ عن قرينه ... فكُلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يقتدِي

ولعمرو بن جميل التغلبي:

سأصبر من صديقي إن جفاني ... على كل الأذى إلا الهوانا
فإن الحُرَّ يأنفُ في خَلاءٍ ... وإن حَضَرَ الجماعةَ أن يُهانا

وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتك خاطبًا مودتك؛ قال: قد زوجتكها على شرط أن تجعل صَداقها أن لا تسمع فِيَّ مقال الناس.

ولابن أبي حازم:

إن ساءني صاحبي احتملتُ وإن ... سرّ فإني أخوه شاكرُه
أصفحُ عن ذنبه وإن طلب الـ ... ـعُذرَ فإني عليه عاذرُه

ولأبي عبد الله بن عُرْفَة:

همومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ ... وهَمِّي من الدنيا صديقٌ مُساعِدُ
يكون كروحٍ بين جسمين فُرِّقا ... فجسماهما جسمان والروحُ واحدُ

قال بعض الحكماء:

الإخاء جوهرة رقيقة، وهي ما لم تُوقِّها وتحرسها معرضة للآفات، فَرُض الإخاء بالحدِّ له حتى تصل إلى قُرْبه، وبالكَظْم حتى يعتذرُ إليك مَن ظلمك، وبالرضى حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير.

لمحمود الوراق:

لا برَّ أعظمُ من مساعدةٍ ... فاشكرْ أخاكَ على مساعدتهْ
وإذا هفا فأَقِلْه هفوتَهُ ... حتَّى يعودَ أخًا كعادته
فالصفح عن زلل الصديق وإن ... أعياك خيرٌ من معاندته

لعبد الصَّمد بن المعذَّل:

من لم يُردك ولم ترده ... لم يستفدك ولم تُفدْهُ
قرِّب صديقك ما نأى ... وزِدِ التقارب واستزده
وإذا وَهَتْ أركان ودٍّ ... من أخي ثقة فشِدْه

فضل الصداقة على القرابة

قال أكثم بن صيفيّ: القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة.

وقال عبد الله بن عباس: القرابة تُقطع، والمعروف يُكفر، وما رأيت كتقارب القلوب.

وقالوا: إياكم ومَن تكرهه قلوبكم، فإن القلوب تجاري القلوبا.

وقال حبيب الطائي:

ولقد سَبَرتُ الناس ثم خبرتُهم ... ووصفت ما وَصَفُوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعاً ... وإذا المودة أقرب الأنساب

وللمبرد:

ما القرب إلا لمن صحَّت مودتُه ... ولم يخنك وليس القرب للنسب
وكم من قريب دويّ الصَّدْر مُضطَغِن ... وكم بعيدٍ سليم غير مقترب

وقالت الحكماء: رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك.

وقالوا: القريب من قَرُب نفعه.

وقالوا: رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب.

وقال آخر:

رُبَّ بعيدٍ ناصحِ الجَيْبِ ... وابن أبٍ مُتهم الغَيبِ

وقال آخر:

أخو ثقة يُسَرُّ ببعض شأني ... وإن لم تُدنِه منِّي قرابة
أحَبُّ إليّ من ألفَيْ قريب ... تبيتُ صدورهم لي مسترابة

وقال آخر:

فَصِلْ حبال البعيد إنْ وَصَلَ الـ ... ـحَبْل واقصِ القريبَ إن قطعهْ
وقد يجمع المال غيرُ آكله ... ويأكل المال غيرُ من جَمَعَه
فارْضَ من الدَّهْر ما أتاك به ... من قرّ عينًا بعيشه نَفَعه

وقال :

لكل شيء من الهموم سَعَةْ ... والليل والصبح لا بقاء معهْ
لا تحقرن الفقير علَّك أن ... تَرْكَعَ يوماً والدهر قد رَفَعَهْ

وقال ابن هَرْمة :

لله درُّك من فتى فجعت به ... يوم البقيع حوادثُ الأيام
هَشٌّ إذا نزل الوفودُ ببابه ... سهل الحجاب مؤدب الخُدّام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدرِ أيُّهما أخو الأرحام

التحبب إلى الناس

في الحديث المرفوع : «**أحبُّ الناس إلى الله أكثرهم تحبُّباً إلى الناس**»(١) .

وفيه أيضا : «**إذا أحب الله عبداً حبّبه إلى الناس**»(٢) .

ومن قولنا في هذا المعنى :

وجهٌ عليه من الحياء سكينةٌ ... ومحبَّةٌ تجرى مع الأنْفَاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبدَهُ ... ألقى عليه محبَّة للناس

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص : إن الله إذا أحب

---

(١) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم أو يكشف عنه كربة أو يقضي عنه ديناً أو يطرد عنه جوعاً** . . .» إلى آخر الحديث وقد صححه الألباني وقال رواه ابو اسحاق المزكي وابن عساكر عن عبدالله بن عمر، انظر الصحيحة [٩٠٦] وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» .

(٢) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» .

عبداً حبَّبهُ إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقال أبو دُهْمان لسعيد بن مسلم ووقف إلى بابه فحجبه حينًا، ثم أذن له، فَمَثُلَ بين يديه وقال: إن هذا الأمر الذي صار إليك وفي يديك، قد كان في يدَيْ غيرك فأمسى والله حديثًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فَتحبّب إلى عباد الله بحسن البِشْر، وتسهيل الحجاب، ولين الجانب، فإنَّ حُبَّ عباد الله موصول بحُبَّ الله، وبغضُهُم موصولٌ ببغْض الله، لأنهم شهداء الله على خلقه، ورقباؤه على من أعوجّ عن سبيله.

وقال الجارود: سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخلُّ العسل.

وقيل لمعاوية: من أَحبُّ الناس إليك؟ قال: من كانت له عندي يدٌ صالحة؛ قيل له: ثم من؟ قال: من كانت لي عنده يد صالحة.

وقال محمد بن يزيد النحوي: أتيتُ الخليل فوجدته جالساً على طُنْفسة صغيرة فوسَّع لي وكرهت أن أُضيِّق عليه، فانقبضت، فأخذ بعَضُديَّ وقرّبني إلى نفسه، وقال: إنه لا يضيق سَمُّ الخياط بمتحابين، ولا تسع الدنيا متباغضين.

مواصلتك لمن كان يواصل أباك

من حديث ابن أبي شيبة عن النبي ﷺ: «**لا تقطع من كان يواصل أباك تطفىء بذلك نُوْرَهُ، فإن وُدَّك وُدُّ أبيك**»(١).

وقال عبد الله بن مسعود: مِن بر الحي بالميت أن يصل من كان يصل أبُوه.

وقال أبو بكر: الحب والبغض يُتوارثان.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد بنحوه موقوفاً على عبدالله بن سلام. قال الألباني: ضعيف الإسناد. انظر ضعيف الأدب المفرد ٤٢/٧ وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُد أبيه بعد أن يولي**». [كتاب البر والصلة].

وقال الشاعر:

ترجو الوليدَ وقد أعياكَ والدُه ... وما رَجَاؤك بعد الوالد الوَلَدَا

الحسد[١]

قال علي رضي الله عنه: لا راحة لحسود، ولا إخاء لملول، ولا محب لسيء الخلق.

وقال الحسن: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، نَفَسٌ دائم، وحُزْنٌ لازم، وغَمٌّ لا ينفد.

وقال النبي ﷺ: «**كاد الحسد يَغْلِبُ القدر**»[٢].

وقال معاوية: كُلُّ الناس أقْدِر أرضيهم إلا حاسدَ نعمةٍ، فإنه لا يُرضِيْه إلا زوالُها.

وقال الشاعر:

كل العداوة قد تُرجى إماتتُها ... إلا عداوةَ من عاداك من حَسَدِ

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعَادُوا نعم الله؛ قيل له: ومن يُعَادي نعم الله؟ قال: الذي يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. يقول الله في بعض الكتب: الحَسُود عدو نعمتي، مُتسخِّط لقضائي، غيرُ راضٍ بقسمتي.

ويقال: الحسد أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض؛ فأما في السماء فحسدُ إبليسَ لآدم، وأما في الأرض فَحَسدُ قابيل هابيل.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**».

(٢) في الحلية لأبي نعيم والشعب للبيهقي عن أنس مرفوعاً «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر» وفي سنده يزيد الرقاشي وهو ضعيف وله شواهد ضعيفه. انظر المقاصد الحسنة [٧٨٧] و[٧٧٩]. وانظر ابن الديبع / تمييز الطيب من الخبيث [٩٧٥].

وقال بعض أهل التفسير، في قوله تعالى: ﴿ربنا أرنا اللّذَيْن أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾[1]. إنه أراد بالذي من الجن إبليس، والذي من الإنس قابيل، وذلك أن إبليس أول من سَنَّ الكُفْر، وقابيل أول من سَنَّ القتل؛ وإنما كان أصل ذلك كله الحسد.

ولأبي العتاهية:

فيارب إن الناس لا يُنْصفونني ... وكيف ولو أنصفتهُم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدَّوْا لأخذه ... وإن جئتُ أبغي سَيْبهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم ... وإن أنا لم أبذُل لهم شَتَموني
وإن طَرقَتْني نِقمةٌ فرحوا بها ... وإن صحِبتني نعمةٌ حسدوني
سأمنع قلبي أن يحنَّ إليهمُ ... وأحجبُ عنهم ناظري وجُفُوني

أبو عبيدة معمر بن المثنى قال: مَرَّ قيس بن زُهير ببلاد غَطَفان، فرأى ثروة وعدداً، فكره ذلك؛ فقيل له: أيسُوءك ما يسرُّ الناس؟ قال: إنك لا تدري أن مع النعمة والثروة التحاسُدَ والتخاذلَ، وأن مع القلة التحاشُدَ والتناصُرَ.

وكان يقال: ما أثرى قوم قطُّ إلا تحاسدوا وتخاذلوا.

وقال بعضُ الحكماء: ألزم الناس للكآبة أربعةٌ: رجل حَديد، ورجل حَسُود، وخليط الأدباء وهو غير أديب، وحكيم مُحقَّر لدى الأقوام.

علي بن بشر المُروزي قال: كتب إليّ ابنُ المبارك هذه الأبيات:

كُلُّ العداوة قد ترجى إماتَتُهَا ... إلا عداوة من عاداك من حسد
فإن في القلب منها عقدةً عُقدتْ ... وليس يفتحها راقٍ إلى الأبدِ
إلا الإله فإنْ يرحم تُحَلّ به ... وإنْ أبَاهُ فلا ترجوه من أحَدِ

سُئل بعض الحكماء: أي أعدائك لا تحب أن يعود لك صديقًا؟ قال: الحاسد الذي لا يرده إلى مودتي إلا زوال نِعمتي.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٢٩).

وقال سليمان التَّيمِي: الحسد يُضعف اليقين، ويسهر العين، ويكثر الهم.

الأحنف بن قيس صَلَّى على حارثة بن قُدامة السَّعدي، فقال: رحمك الله، كنت لاتحسد غنيًا ولا تَحْقِر فقيرًا.

وكان يقال: لا يوجد الحُرُّ حريصاً، ولا الكريم حسودًا.

وقال بعض الحكماء: أجهدُ البلاء أن تظهَر الخلَّة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقاً مولِّيًا، وابن عم شامتًا، وجارًا حاسداً، ووليًا قد تحول عدوًا، وزوجة مُختلِعة[1]، وجارية مُستَبيعة[2]، وعبداً يحقِرك، وولداً يَنتهرك، فانظر أين موضع جهدك في الهرب.

لرجل من قريش:

حَسَدُوا النعمة لمَّا ظهرت ... فرمَوْها بأباطيل الكَلِمْ
وإذا ما الله أسدى نعمةً ... لم يضِرْها قول أعداء النعم

وقيل: إذا سرك أن تَسْلَمَ من الحاسد فعَمِّ عليه أمرك.

وكانت عائشة رضي الله عنها تتمثل بهذين البيتين:

إذا ما الدهر جرَّ على أناس ... حوادثَه أناخَ بآخرينا
فقُل للشَّامِتينَ بنا أفيقوا ... سيَلقى الشامتون كما لقينا

وقال الحسن: أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول الثلاثة: الحسد، والحرص، وحب الدنيا. والفروع الستة: حُب النوم، وحب الشِّبع، وحب الراحة، وحُب الرئاسة، وحب الثناء، وحُبُّ الفَخر.

وقال الحسن: يحسُد أحدهم أخاه حتى يقع في سريرته وما يعرف علانيته، ويلومه على ما لا يعلمه منه، ويتعلّم منه في الصداقة ما يُعَيِّره به إذا كانت العداوة، والله ما أرى هذا بمُسلمٍ.

ابن أبي الدنيا قال: بلغني عن عُمر بن ذَرّ أنه قال: اللهم من أرادنا بِشَرٍّ فاكفِناه

---

(١) المختلعة: التي تطلب الخلع والطلاق من زوجها.

(٢) المستبيعة: التي تطلب أن تباع لتخرج من ملك سيدها.

بأيّ حُكْمَيك شِئت، إما بتوبة وإما براحة. قال ابن عباس: ما حسدت أحداً على هاتين الكلمتين.

وقال ابنُ عباس: لا تحقِرنَّ كلمة الحكمة أن تسمعها من الفاجر، فإنها مَثَلُه كما قال الأول: رُبَّ رَمية من غير رامٍ.

وقال بعض الحكماء: ما أمحقَ للإيمان، ولا أهتك للستر من الحسد، وذلك أن الحاسد مُعاند لحكم الله. باغٍ على عباده، عاتٍ على ربه، يعتدُّ نعم الله نِقَمًا، ومزيده غِيَرًا، وعدل قضائه حَيْفاً، للناس حالٌ وله حال، ليس يهدأ ليلُه، ولا ينام جشعُه، ولا ينفعه عيشه، محتقر لنعم الله عليه، مُتَسَخِّطٌ ما جرت به أقداره، لا يبرد غليلُه، ولا تُؤمن غوائله، إن سالمته وَتَرَك، وإن واصلته قطعك، وإن صرمته سبقك.

أنشدني فتى بالرَّملة[1]:

اصبر على حَسَد الحسُو ... د فإن صبرك قاتلُهْ
النَّار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وقال المنصور لسليمان بن معاوية المهلبي: ما أسرع الناسَ إلى قومك! فقال: يا أمير المؤمنين:

إن العَرَانين تلقاها مُحسَّدةً ... ولن ترى للئام الناس حُسّادا

وقال آخر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسِدُوا
فَدَام لي ولهم ما بي وما بهمُ ... وما أكثرُنا غيظاً بما يجد

وقال حبيب الطائي:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ ... طُويت، أتاح لها لسان حسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيبُ عَرْف العُودِ

وقيل لأبي عاصم النَّبيل: إن فلاناً يحسدُك وربما قرضك، فأنشأ يقول:

فلستَ بحيٍّ ولا ميِّتٍ ... إذا لم تُعادَ ولم تُحسدِ

(١) الرملة في مدينة قرطبة.

محاسدة الأقارب

كتب عُمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: مُر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاورُوا.

وقال أكثم بن صَيفي: تباعدوا في الدار تقاربوا في المودة.

وقال يحيى بن سعيد: من أراد أن يَبين عملُه؛ ويظهر علمه، فليجلس في غير مجلس رهطه.

وقيل لعطاء بن مصعب: كيف غلبتَ على البرامكة وكان عندهم من هو آدب منك؟ قال: كنت بعيد الدار منهم، غريب الاسم، عظيم الكِبْر، صغير الجِرْم، كثير الالتواء، فقربني إليهم تبعُّدي منهم، ورغبهم فيّ رغبتي عنهم، وليس للقرباء طرافة الغرباء.

وقال آخر:

ولقد سبرتُ الناس ثم خبرتهم ... ووصفتُ ما وصَفُوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرّب قاطعاً ... وإذا المودةُ أقربُ الأنساب

المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه

قالوا: أقرب القرابة المشاكلة، وقالوا: الصاحب المناسب.

وقال حبيب:

وقلت أخي؟ قالوا أخٌ من قرابة؟ ... فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ

وقال أيضا:

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة ... وإخوتي أسوةٌ عندي وإخواني
عصابة جاورتْ آدابُهم أدبي ... فَهُمْ وإنْ فُرِّقوا في الأرض جيراني

وقال أيضا:

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا ... أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

أو نختلف فالوصل منا ماؤه عذبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ

وقال آخر:

إن النفوس لأجنادٌ مجنّدة بالإذن من ربنا تجري وتختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ وما تناكر منها فهو مُختلف

وقال رسول الله ﷺ: «الأنفس أجنادٌ مجندة، وإنها تَتَشَامّ في الهوى كما تَتَشَامّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

وقال آخر:

إذا كنت في قوم فصَاحِبْ خيارهم ولا تصحب الأردى فتَردَى مع الرَّدِي
عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارَن يقتدي

وقال آخر:

اصحب ذوي الفضل وأهل الدينِ فالمرءُ منسوبٌ إلى القرينِ

السعاية والبغي

قال الله تعالى ذكره: ﴿يا أيُّها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ثم بُغِي عليه لينصرنَّه الله﴾[3].

وقال الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ ببَغْيٍ فإن البغيَ مَصْرَعُه وخيمُ

وقال العتابي:

بغيتَ فلم تقع إلا صريعاً كذاك البغي يصرع كل باغِي

---

(١) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». ومعنى تتشام أي تُختبر وتُكشف وهي مفاعلة من الشم.
ورواه مسلم بلفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر مختصر صحيح مسلم [١٧٧٢].

(٢) سورة يونس: الآية (٢٣). (٣) سورة الحج: الآية (٦٠).

وقال المأمون يومًا لبعض ولده: إياك وأن تصغي لاستماع قول السعاة، فإنه ما سعى رجل برجل إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً.

ووقَّع في رُقعة ساعٍ: سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين.

ووقع في رقعة رجلٍ سعى إليه ببعض عُماله: قد سمعنا ما ذكره الله عز وجل في كتابه، فانصرفْ رحمك الله.

فكان إذا ذُكر عنده السُّعاة، قال: ما ظنُّكم بقوم يلعنهم الله على الصدق؟.

وسعى رجل إلى بلال بن أبي بُردة، فقال له: انصرف حتى أكشِفَ عما ذكرت. ثم كشف عن ذلك فإذا هو لغير رِشدة، فقال: أنا أبو عمرو وما كذبت ولا كُذِبت.

وسأل رجل عبد الملك الخَلْوة، فقال لأصحابه: إذا شِئتم فقوموا. فلما تهيأ الرجل للكلام، قال له: إياك أن تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني، فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليّ بأحد، وإن شئت أقلتك؛ قال: أَقِلْني.

ودخل رجل على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دمشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة؛ فقال: إن كانت لنا فاذكرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها؛ قال: جارٌ لي عَصَى وفرَّ من بَعثه؛ قال: أما أنت فتخبر أنك جار سوء، وإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تاركناك؛ قال: تارِكني.

وقال الشاعر:

إذا الواشي نعى يوماً صديقاً فلا تدَع الصديق لقول واشِي

وقال ذو الرِّياستين: قبول النميمة شر من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيء كمن قَبِله وأجازه.

ذُكر السعاة عند المأمون، فقال رجل ممن حضر: لو لم يكن من عيبهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون إلى الله تعالى لكَفَاهُم.

وعاتب مصعب بن الزبير الأحنف في شيء، فأنكره، فقال: أخبرَني الثقةُ؛ قال: كلا، إن الثقة لا يُبلِّغ.

وقد جعل الله السامع شريك القائل. فقال: ﴿سمَّاعون للكذب أكَّالون للسُحت﴾[١].

وقيل: حسبك من شرٍ سماعُه.

وقال الشاعر:

لعمرك ما سبَّ الأميرَ عدوُّه ... ولكنما سَبَّ الأميرَ المُبلِّغُ

الغِيبَة

قال النبي ﷺ: «**إذا قلتَ في الرجل ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بَهتَّه**»[٢].

ومر محمد بن سيرين بقوم، فقام إليه رجل منهم فقال: أبا بكر، إنا قد نِلْنا منك فحلِّلنا؛ فقال: إني لا أُحلُّ لك ما حرم الله عليك، فأما ما كان إليَّ فهو لك.

وكان رَقَبة بن مَصْقَلة جالساً مع أصحابه فذكروا رجلاً بشيء، فاطلع ذلك الرجل، فقال له بعض أصحابه: ألا أخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبة؟ قال: أخبره حتى تكون نميمة.

اغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم، فقال له قتيبة: أَمْسِك عليك أيها الرجل، فوالله لقد تلمظت بمُضْغة طالما لَفِظَها الكرام.

محمد بن مسلم الطائفي قال: جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال له: بلغني أنك نلت مني، قال: نفسي أعزُّ عليّ من ذلك.

وعاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، أما سمعت قول الشاعر:

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٢).

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه». صحيح مسلم/كتاب البر والصلة باب: النهي عن الغيبة.

لا تهتكنْ من مساوي الناس ما سَتَرُوا ... فيهتكُ اللهُ سترًا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
وابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وقال محمد بن السمَّاك: تجنب القول في أخيك لخَلَّتين: أما واحدة، فَعَلَّك تعيبه بشيء هو فيك؛ وأما الأخرى، فإن يكُن الله عافاك مما ابتلاه به كان شكرك الله على العافية تعييراً لأخيك على البلاء.

وقيل لبعض الحكماء: فلانٌ يعيبك؛ قال: إنما يقرض الدرهمَ الوازنُ.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك؛ قال: إياه فارحموا.

وقال ابن عباس: اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، ودع منه ما تحب أن يَدَعَ منك.

وقال الحسن البصري: لا غيبة في ثلاثة: فاسقٍ مجاهر بالفسق، وإمامٍ جائر، وصاحبِ بدعة لم يَدَعْ بدعته.

مداراة أهل الشر

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**شر الناس من اتقاه الناس لشَرِّه**»(١).

وقال الأحنف: رُبَّ رجلٍ لا تغيب فوائده وإن غاب، وآخر لا يسلم منه جليسه وإن احترس.

---

(١) متفق عليه عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «**إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من وَدَعه ـ أو تركه ـ الناس اتقاء فحشه**» واللفظ لمسلم كتاب البر والصلة والآداب/ باب مداراة من يتقى فحشه وفي صحيح البخاري كتاب الأدب/ باب مايجوز من اغتياب أهل الفساد والريب/ وباب المداراة مع الناس وفي مسند الإمام أحمد ٦/٣٨.

وقال كثير بن هَرَاسة: إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم، وتهون عندهم إذا خاصصتهم، ليس لرضاهم موضعُ تعرفه، ولا لسُخطهم موضع تحذره، فإذا عرفتَ أولئك بأعيانهم فابذل لهم موضع المودة، واحرمهم موضع يَكُن ما بذلت لهم من المودة حائلاً دون شرهم، وما حَرمتَهُم من الخاصة، قاطعا لحرمتهم.

وأنشد العُتبي:

لي صديقٌ يرى حقوقي عليه ... نافلاتٍ وحقَّهُ الدهرَ فرْضَا
لو قطعتُ البلاد طولاً إليه ... ثم من بعد طولها سِرتُ عرضَا
لرَأى ما فعلتُ غير كثير ... واشتهى أن يزيد في الأرض أرضا

وفي هذه الطبقة من الناس يقول دعبل الخزاعي:

اسقِهم السُّمَّ إن ظَفِرت بهم ... وامزج لهم من لِسَانِكَ العَسَلا

وقال صالح بن عبد القدوس:

تجنَّبْ صديقَ السوء واصرِم حبالَه ... وإن لم تجد عنه محيصاً فدارِهِ
ومن يطلب المعروف من غير أهله ... يجده وراء البحر أو في قرارِه
ولله في عرض السموات جَنَّةٌ ... ولكنها محفوفةٌ بالمكاره

عُرض على أبي مسلم صاحب الدعوة فرسٌ جواد، فقال لقُوّاده: لماذا يصلح مثل هذا الفرس؟ قالوا: إنا نغزو عليه العدوّ؛ قال: لا، ولكن يركبه الرجل فيهرب عليه من جار السوء.

ذم الزمان

قالت الحُكماء: جُبل الناس على ذم زمانهم وقلة الرضا عن أهل عصرهم، فمنه قولهم: رضا الناس غايةٌ لا تدرك. وقولهم: لاسبيل إلى السلامة من ألسنة العامّة.

هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: رحم الله لَبيداً كان يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلَفٍ كجِلد الأَجْرَبِ

فكيف لو أبصر زماننا هذا؟!.

قال عروة: ونحن نقول: رحِم الله عائشة، فكيف لو أدركتْ زمانَنا هذا؟!.

دخل مسلم بن يزيد بن وهب على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أيُّ زمان أدركت أفضل؛ وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامًّا، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً، وكُلُّهُم يذُمُّ زمانه لأنه يُبلي جديدَهم، ويُفرق عديدَهُم، ويُهْرِم صغيرهم؛ ويُهلك كَبيرَهم.

أبو جعفر الشيباني قال: أتانا يومًا أبو ميَّاس الشاعر ونحن في جماعة، فقال: ما أنتم فيه؟ وما تتذاكرون؟ قلنا: نذكر الزمان وفسادَهُ؛ قال: كلا، إنما الزمان وعاء وما أُلقِي فيه من خير أو شر كان على حاله، ثم أنشأ يقول:

أرى حُللاً تُصان على أناسٍ ... وأخلاقاً تُداسُ فما تُصانُ
يقولون الزمانُ به فسادٌ ... وهم فَسَدُوا وما فَسَدَ الزمانُ

وقال حبيب الطائي:

لم أبك في زمنٍ لم أرضَ خَلَّته ... إلا بكيتُ عليه حين يَنصرِمُ

فساد الإخوان

قال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه.

الخُشني قال: أنشدني الرياشي:

إذا ذهب التكرُّم والوفاءُ ... وبَادَ رجالُه وبَقِي الغُثاءُ
وأسلمني الزمانُ إلى رجالٍ ... كأمثال الذئاب لها عُواءُ
صديقٌ كلما استغنيتُ عنهم ... وأعداءٌ إذا جَهَدَ البلاءُ
إذا ما جئتُهم يتدافعوني ... كأني أجربُ آذاه داء
أقول - ولا أُلام على مقالٍ - ... على الإخوان كُلهم العَفاء

وقالت الحُكماء: لا شيء أضيع من مودةِ مَن لا وفاء له، واصطناع من لا شكر عنده، والكريم يَوَدُّ الكريم عن لُقْية واحدة، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة.

وقال أبو العتاهية :

أرى قوماً وُجُوهُهم حِسانٌ ... إذا كانت حوائجُهم إلينا
وإن كانت حوائجُنا إليهم ... يُقبِّح حُسْنُ أوجهِهم علينا
فإنْ منَع الأشحَّةُ ما لديهم ... فإنا سوف نمنحُ ما لدينا

وقال ابن أبي حازم :

وصاحب كان لي وكنتُ له ... أشفقَ من والدٍ على وَلَدِ
كُنَّا كساقٍ تَسعى بها قَدَمٌ ... أو كَذِراعٍ نِيطت إلى عضُد
حتى إذا دبَّت الحوادث في ... عظمي وحلَّ الزمانُ من عُقَدي
ازْوَرَّ عَنِّي وكان ينظرُ مِن ... طَرْفٍ ويرمي بساعِدي ويَدي

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأنت أخي ما لم تكن لي حاجةٌ ... فإن عرضتْ أيقنتُ أنْ لا أخا لِيَا
فلا زاد ما بيني وبينك بعدَ ما ... بلوتُك في الحاجات إلا تماديا
كِلانا غنيٌ عن أخيه حياتَه ... ونحن إذا متنا أشدُّ تَغانيا
وعينُ الرضا عن كل عيب كليلةٌ ... كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ومن قولنا في هذا المعنى :

أبا صالحٍ جاءت على الناس غفلةٌ ... على غفلةٍ بانَتْ بكلِّ كريمِ
فليت الألَى باتوا يُفَادَوْنَ بالألَى ... أقاموا فيُفدَى ظاعنٌ بمقيم
ويا ليتها الكبرى فتُطوى سماؤنا ... لها وتمدّ الأرض مدَّ أديم
فما الموت إلا عيش كل مُبخَّل ... وما العيشُ إلا موتُ كُلِّ ذَميم
وأعذر ما أدمى الجفونَ من البُكَا ... كريمٌ رأى الدنيا بكفِّ لئيمِ

ومثله في هذا المعنى :

أبا صالح أين الكرام بأسْرِهم ... أَفِدْني كريمًا فالكريم رِضاءُ
أحقًّا يقول الناس في جود حاتم ... وإنَّ سناناً كان فيه سخاءُ
عذيريَّ من خَلْقٍ تخلَّق منهمُ ... غباءٌ ولؤم فاضح وجفاء

حجارَةُ بُخلٍ ما تجود وربَّما ... تَفجَّر من صُمِّ الحجارة ماءُ
ولو أن موسى جاء يضرب بالعصا ... لما انبجست من ضربه البُخلاءُ
بقاءُ لئامِ الناس موتٌ عليهم ... كما أن موتَ الأكرمين بقاءُ
عزيزٌ عليهم أن تجودَ أكفُّهُم ... عليهم من الله العزيز عَفاءُ

وقال مُؤمِّل بن سعيد في هذا المعنى:

إنما أزرى بقدري أنني ... لستُ من نابهِ أهل البلدِ
ليس منهم غير ذي مَقْلية ... لذوي الألباب أو ذي حَسَدِ
يتحامَون لقائي مثل ما ... يتحامون لقاءَ الأسد
طلعتي أثقلُ في أعينهم ... وعلى أنفسهم من أُحُد

باب في الكِبْر

قال النبي ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته وأهنته**»(١).

وقال ﷺ: «**لا يدخل حضرة القدس متكبر**»(٢).

وقال: «**فضل الإزار في النار**»(٣). معناه: من سحب ذيله في الخيلاء، قادَهُ ذلك إلى النار.

---

(١) رواه الإمام أحمد [٢/ ٤١٤] بنحوه عن أبي هريرة.
وقال العراقي: رواه ابوداود وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة والحاكم في المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم. انظر المغني عن حمل الأسفار [١١٧] [٣٤٤٧] [٣٤٥٠].
وأخرجه مسلم في صحيحه [٢٦٢٠] والبخاري في الأدب المفرد/ باب الكبر عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة بلفظ: «**العزة والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**».

(٢) لم أقف عليه ويغني عنه ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»

(٣) روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطراً**» / كتاب اللباس والزينة وقال ﷺ: «**ماأسفل الكعبين من الإزار ففي النار**» رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة.

وقال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني: إياك والكِبرَ، وليكن فيما تستعين به على تركه: عِلْمُك بالذي منه كنت، والذي إليه تصير، وكيف الكبر مع النُّطْفَةِ التي منها خُلقت، والرحم التي منها قُذفت، والغذاء الذي به غُذيت.

وقال يحيى بن حيان: الشريف إذا تقوَّى تواضع، والوضيع إذا تَقَوَّى تكبر.

وقال بعض الحكماء: كيف يستقر الكِبْر فيمن خُلِقَ من تُراب، وطُوِي على القَذَر، وجرى مجرى البول.

وقال الحسن: عجبًا لابن آدم، كيف يتكبر وفيه تِسعُ سموم كلها يؤذي.

وذكر الحسن المتكبرين فقال: يُلفَى أحدهم ينصُّ رقبَته نصّاً، ينفض مِذْرويه، ويضرب أصْدَريه، يملُخ في الباطل ملخاً، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني؛ قد عرفناك ياأحمق، مقتك الله ومقتك الصالحون.

العُتبيّ قال: رأيتُ مُحرزاً مولى باهلة يَطوف على بغلة بين الصَّفا والمَروة، ثم رأيتُه بعد ذلك على جسر بَغداد راجلاً، فقلتَ له: أراجلٌ أنت في مِثل هذا المَوضع؟ قال: نعم، إنّي ركبتُ في موضع يمشي الناسُ فيه، فكان حقيقاً على الله أن يُرَجِّلني في موضعٍ يركب الناس فيه.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، عليك بالترحيب والبِشْر، وإياك والتقطيب والكبر، فإن الأحرار أحبُّ إليهم أن يُلقَوا بما يحبون ويُحرموا، من أن يلقوا بما يكرهون ويُعطَوا. فانظر إلى خَصْلة غطّت على مثل اللؤم فالزمها، وانظر إلى خصلة عفَّت على مثل الكرم فاجتنبها. ألم تسمع قول حاتم الطائي:

أُضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصِبُ عندي المحَلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثُرَ القِرى ... ولكنَّما وجهُ الكريم خصيبُ

وقال محمود الوراق:

التِّيه مفسدة للدِّين مَنْقصةٌ ... للعقل مجلبةٌ للذَمِّ والسَّخَطِ

مَنْعُ العطاءِ وبَسْطُ الوجهِ أحْسَنُ مِنْ ... بذل العطاء بوجهٍ غيرِ مُنبسط

وقال أيضا:

بِشْرُ البخيل يكاد يُصلح بُخلَه ... والتيه مفسدةٌ لكلِّ جوادِ
ونقيصةٌ تبقى على أيامه ... ومَسَبَّةٌ في الأهل والأولاد

وقال آخر في الكبر:

مع الأرض يا بن الأرض في الطيران ... أَتَأْمُلُ أن ترقى إلى الدَّبَرَانِ
فوالله ما أبصرت يوماً مُحلّقاً ... ولو حَلَّ بين الجَدْي والسرطان
حَمَاهُ مكانُ البُعْدِ من أن تناله ... بسهم من البَلْوَى يدُ الحَدَثَان

التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة

قالوا: مَن أبْطره الغنى أذله الفقر.

وقالوا: من وَلي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيَّر لها، ومن ولي ولاية يراها أكبر من نفسه تغير لها.

وقال يحيى بن حيان: الشريف إذا تقوَّى تواضع، والوضيع إذا تقوَّى تكبر.

وقال كسرى: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابيّ:

لقد عَجِبَت منه الليالي لأنه ... صبورٌ على عَضلاء تلك البلابلِ
إذا نال لم يفرح وليس لنكبةٍ ... ألمتْ به بالخاشع المُتضائل

ما جاء في ذم الحمق والجهل

قال النبي ﷺ: «الجاهل يظلم من خالطه، ويعتدي على من هو دونه، ويتطاول على من فوقه، ويتكلم بغير تمييز، وإن رأى كريمةً أعرض عنها، وإن عرضت فتنة أَرْدَته وتهوَّر فيها»(١).

(١) لم أقف عليه في المصادر التي بين يدي.

وقال أبو الدرداء: علامة الجاهل ثلاث: العُجب، وكثرة المنطق، وأن ينهى عن شيء ويأتيه.

وقيل: لا تصطحب الجاهل، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

ولبعضهم:

لكل داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ به ... إلا الحماقةَ أعيت من يُداويها

ولأبي العتاهية:

احذر الأحمق أن تَصْحَبَهُ ... إنَّما الأحمقُ كالثوب الخَلَقْ
كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعتْه الريح يوماً فانخرق
أو كصدع في زجاجٍ فاحشٍ ... هل ترى صدع زجاجٍ يلتصق
فإذا عاتبتَه كي يَرْعَوي ... زاد شرًّا وتمادى في الحمق

باب في التواضع

قال النبي ﷺ: «**من تواضع لله رفَعَهُ الله**»(١).

قالت الحكماء: كُلُّ نعمة يُحْسَدُ عليها إلا التواضع.

وقال عبد الملك بن مروان رفعه إلى النبي ﷺ: أفضل الرجال من تواضع عن رفْعَة، وزَهَدَ عن قُدْرَة، وأنصَفَ عن قوة(٢).

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويدُه على المُعلَّى بن الجارود العبدي، فلقيته امرأة من قريش، فقالت له: يا عمر، فوقف لها؛ فقالت: كنا نعرفك مدةً عُمَيْراً، ثم صرت من بعد عُمير عُمر، ثم صرت من بعد عُمر أمير المؤمنين، فاتق الله يا بن الخطاب وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد قَرُبَ عليه البعيد، ومن خاف الموت خَشِي الفوت. فقال المُعلى: إيْهًا يا أمة الله، فقد أبكيت أمير

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**».

(٢) لم أقف عليه ولعله من كلام الخليفة عبد الملك بن مروان رحمه الله والله أعلم.

المؤمنين. فقال له عُمر: اسكت، أتدري من هذه؟ ويحك، هذه خَوْلة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه، فعُمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي به[١].

وقال أبو عَبَّاد الكاتب: ما جلس إليَّ رجل قط إلا خُيِّل إليَّ أني سأجلس إليه.

وسُئل الحسن عن التواضع فقال: هو أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: علمني التواضع؛ فقال: إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والعمل السيء، فأنا شرٌّ منه.

وقال أبو العتاهية:

يا من تشرَّف بالدنيا وزينتها ... ليس التشرُّف رَفعَ الطين بالطين
إذا أردت شريفَ الناس كُلَّهُمُ ... فانظر إلى مَلِك في زيِّ مسكين
ذاك الذي عظُمت في الناس همَّته ... وذاك يصلح للدنيا وللدين

الرفق والأناة

قال النبي ﷺ: «**مَن أُوتي حظَّه من الرفق فقد أُوتي حظه من خير الدنيا والآخرة**»[٢].

وقالت الحكماء: يُدْرَك بالرفق ما لا يُدْرَكُ بالعُنْف، ألا ترى أن الماء على لِينه يقطع الحجر على شدته؟

وقال أشجع بن عمرو السُّلمي لجعفر بن يحيى بن خالد:

ما كان يُدرَك بالرجال ولا ... بالمال ما أدركت بالرفق

---

(١) قال ابن كثير: هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب، وقد رُوي من غير هذا الوجه. انظر تفسير القرآن العظيم سورة المجادلة ٤/٣١٨.

(٢) رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «**إنه من أُعطي حظَّهُ من الرفق فقد أعطي حظَّهُ من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق وحسن الجوار يُعَمِّران الديار ويزيدان في الأعمار**». قال الألباني: إسناده صحيح. انظر: الصحيحة [٥١٩].

وقال النابغة:

الرفق يُمْنٌ والأناة سَعَادَة ... فاستَأنِ في رفقٍ تُلاقِ نَجَاحَا

وقالوا: العجل بريد الزَّلل.

أخذ القطامي التغلبي هذا المعنى فقال:

قد يدرك المتأنِّي بعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكون مع المستَعْجِلِ الزَّلَلُ

استراحة الرجل بمكنون سرِّه إلى صديقه

تقول العرب: أفضيتُ إليك بشُقُوري. وأطلعتك على عجرَي وبجرَي. ولو كان في جسدي بَرَصٌ ما كَتمتُه.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكل نبأ مُستقَر﴾[1].

وقالت الحكماء: لكل سر مستودع.

وقالوا: مُكاتمة الأذْنين صريحُ العُقوق.

وقال الشاعر:

وأبثثتُ عُمْراً بعض ما في جوانحي ... وجرَّعْتُه من مُرِّ ما أتجرَّعُ

ولابُدَّ من شكوى إلى ذي حفيظةٍ ... إذا جعلتْ أسرارُ نفس تطلَّعُ

وقال حبيب:

شكوتُ وما الشَّكْوَى لمثلي عادةٌ ... ولكن تَفِيضُ النَّفْسُ عند امتِلائِها

وقال آخر:

إذا لم أُطِق صبراً رجعت إلى الشَّكْوَى ... وناديتُ تحت الليل يا سامعَ النَّجوى

وأمطرتُ صَحْنَ الخدِّ غيثًا من البُكا ... على كبدٍ حرَّى لترَوْىَ فما تروى

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٦٧).

الاستدلال باللحظ على الضمير

قالت الحكماء: العينُ بابُ القلب، فما كان في القلب ظهر في العين.

أبو حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد قال:

إني لأعرف في العين إذا عَرَفَتْ، وأعرف فيها إذا أنْكَرَت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر، أما إذا عرفت فتخواصّ، وأما إذا أنكرت فتجحَظْ، وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فَتَسْجُو.

وقال محمود الوراق:

إن العيون على القلوب شواهدٌ ... فبغيضُها لك بَيِّنٌ وحبيبُها
وإذا تلاحَظَتِ العيونُ تفاوضت ... وتحدَّثت عمَّا تُجِنُّ قلوبُها
ينطقن والأفواهُ صامتةٌ فما ... يخفى عليك بريئها ومُريبها

الاستدلال بالضمير على الضمير

كتب حكيم إلى حكيم: إذا أردت معرفة مالك عندي فضع يدك على صدرك فكما تجدني كذلك أجدك.

وقالوا: إياكم ومن تُبغضه قلوبُكم، فإن القلوب تُجازي القلوب.

وقال ذو الإصبع:

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم ... ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

وقال محمود الوراق:

لا تسألنَّ المرء عما عنده ... واسْتَمل ما في قلبه من قلبكا
إن كان بغضاً كان عندك مثلُه ... أو كان حُبّاً فاز منك بحُبكا

الإصابة بالظن

قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ قال: الإصابة بالظَّنّ ومعرفة ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لم ينفعه ظَنُّه لم ينفعه يقينه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لله درُّ ابن عباس، إنْ كان لينظر إلى الغيب من سِتر رَقيق.

وقال الشاعر:

وقَلَّما يفجَأ المكروهُ صاحبَه ... حتى يرى لوجوه الشرِّ أسبابَا

وإنما ركبَّ الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن، ويفهم الكثير بالقليل.

تقديم القرابة وتفضيل المعارف

قال الشاعر:

أقول لجاري إن أتاني مُخاصمًا ... يُدِلُّ بحَقٍّ أو يُدِلُّ بباطلِ
إذا لم يَصِلْ خيري وأنت مجاوري ... إليك فما شرِّي إليك بواصلِ

وولي ابن شبرمة قضاء البصرة وهو كاره، فأحسن السيرة. فلما عُزل اجتمع إليه أهل خاصته ومودته، فقال لهم: والله لقد وَليتُ هذه الولاية وأنا كاره، وعزلت عنها وأنا كاره؛ وما بي من ذلك إلا مخافة أن يلي هذه الوجوهَ مَن لا يعرف حَقَّها. ثم تمثل بقول الشاعر:

فما السجن أبكاني ولا القيد شفَّني ... ولا أنني من خشية الموت أجزَعُ
بلى إن أقواماً أخافُ عليهمُ ... إذا مِتُّ أن يُعطوا الذي كنتُ أمنع

وقال الشاعر:

إذا كان الأمير عليك خَصْماً ... فليس بقابلٍ منكَ الشُّهودَا

وقال زياد: أُحب الولايةَ لثلاث، وأكرهها لثلاث: أُحِبُّها لنفع الأولياء، وضَرِّ الأعداء، واسترْخاص الأشياء؛ وأكرهها لروعة البريد، وقرب العزل، وشماتة العدو.

ويقول الحُكماء: أحق من شاركك في النعمة شركاؤك في المصيبة.

أخذه الشاعر فقال:

وإن أولى الموالي أن تُواسيَهُ ... عند السرور لَمن آساك في الحَزنِ
إنَّ الكرامَ إذا ما أسهَلوا ذَكَرُوا ... من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

وقال حبيب:

قبَح الإلهُ عداوةً لا تُتَّقَى ... ومودةً يُدلَى بها لا تنفعُ

فضل العشيرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عشيرة الرجل خيرٌ للرجل من الرجل للعشيرة، إن كفَّ عنهم يدًا واحدةً كفُّوا عنه أيدياً كثيرة، مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم. إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وسأتلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل فيما حكاه عن لوط: ﴿**لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد**﴾[1] يعني العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة. فول الذي نفسي بيده ما بعث الله نبياً من بعده إلا في ثروةٍ من قومه، ومَنَعةٍ من عشيرته، ثم ذكر شعيباً إذ قال له قومه: ﴿**إنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رَهْطُكَ لرجمناك**﴾[2]، وكان مكفوفاً، والله ما هابوا الله ولا هابوا إلا عشيرته.

---

(١) سورة هود: آية ٨٠.

(٢) سورة هود: آية ٩١.

الدَّيْن(١)

من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدَّيْنُ يَنْقُص ذا الحَسب**»(٢).

قال الشاعر:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْن لم يكن قضاءً ولكن كان غُرْماً على غُرْم

وقال سفيان الثوري: **الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار**(٣)، فإذا أراد الله أن يُذل عبداً جعله قلادة في عنقه.

ورأى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً مُتقنِّعاً، فقال له: كان لقمان الحكيم

---

(١) ونورد بعض الأحاديث تحت هذا العنوان ومنها:

ـ قوله ﷺ: «**الدَّين دَيْنَان، فمن مات وهو ينوي قضاءه فأنا وليه، ومن مات ولا ينوي قضاءه فذاك الذي يؤخذ من حسناته، ليس يومئذ دينار ولا درهم**» رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر قال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع [٣٤١٨].

ـ وقال ﷺ: «**الدَّيْنُ قبل الوصية، وليس لوارث وصية**» رواه البيهقي في سننه عن علي رضي الله عنه. وقال الألباني: حديث حسن، انظر المصدر السابق [٣٤١٩] وانظر الإرواء [١٦٥٥].

ـ وقال ﷺ: «**من أخذ دَيْناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عز وجل**» أخرجه النسائي عن ميمونة رضي الله عنها. وله طرق أخرى، قال الألباني صحيح بمجموع الطرق. انظر الصحيحة [١٠٢٩].

ـ وقال ﷺ: «**إن الله مع الدائن [أي المديُون] حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكره الله**» أخرجه الدارمي وابن ماجه والحاكم وأبونعيم وابن عساكر عن عبدالله بن جعفر، وزادوا إلا الحاكم: «قال: وكان عبدالله بن جعفر يقول لخازنه: اذهب فخذ لي بدين فإني أكره أن أبيت ليلة إلا والله معي، بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ، فذكر الحديث وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر الصحيحة [١٠٠٠].

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس بنحوه عن عائشة رضي الله عنها، قال الألباني: موضوع. انظر ضعيف الجامع [٣٠٣٤] وانظر الضعيفة [٣٦٢] و[٣٧٤].

(٣) روى الديلمي عن عائشة رضي الله عنها: «**الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار**» قال الألباني: ضعيف جدًا. انظر ضعيف الجامع [٣٠٣٣] والضعيفة [٣٦١٩].

يقول: القِنَاع رِيبةٌ بالليل ذُلٌّ بالنهار؛ فقال الرجلُ: إنّ لُقمان الحكيم لم يكن عليه دَيْن.

وقال المُقَنَّع الكِنْدي:

يعاتبني في الدِّين قومي وإنما ... تَداينتُ في أشياء تُكْسِبهم حَمْدَا
إذا أكلوا لَحْمي وَفَرتُ لحُومهم ... وإن هَدَمُوا مَجْدِي بنيتُ لهم مَجْدَا

مجانبة الخُلف والكذب

وقال النبي ﷺ: «**الكَذِب مُجانب الإيمان**»(١).

وقالت الحُكماء: لَيس لكَذّاب مُروءة.

وقالوا: مَن عُرف بالكَذِب لم يَجُزْ صِدْقه.

وقال النبي ﷺ: «**لا يُجوز الكَذِب في جِدّ ولا هَزْل**»(٢).

وقال: «**لا يكون المؤمن كَذّابًا**»(٣).

وقال عبدالله بن عُمر: خُلْف الوَعْدِ ثُلُث النِّفاق.

وقال حبيب الطائي في عَيّاش:

يا أكثرَ الناسِ وَعْدًا حَشْوهُ خُلْفُ ... وأكثرَ الناسِ قولاً حَشْوُه كَذِبُ

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «**الكذب يُجانب الإيمان**» وأخرجه عنه مرفوعًا وقال: الصحيح موقوف، انظر ابن حجر / فتح الباري ١٠/٥٠٨.

(٢) رواه الإمام أحمد بنحوه (١/٤١٠) والدارمي في سننه / باب في الكذب عن أبي الأحوص عن عبدالله مرفوعًا.

(٣) روى مالك عن صفوان بن سُلَيْم أنه قال: «قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ فقال: لا». انظر الموطأ [كتاب الجامع ـ ما في الصدق والكذب].

ومن قولنا في هذا المعنى:

صَحِيفَةٌ أُفنِيَتْ ليتٌ بها وعسى ... عُنْوانها راحةُ الرَّاجي إذا يَئِسَا
وَعْدٌ لها هاجسٌ في القَلْب قد بَرِمتْ ... أَحشاءُ صَدْري به من طُول ما انحبسا
مَوَاعِدٌ غَرَّني منها وَمِيضُ سَنَى ... حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتَبِسا
فَصادفتْ حَجَرًا لو كنتَ تَضْرِبه ... مِن لُؤْمه بعَصَا مُوسى لما انْبَجَسا
كأنما صِيغ من بُخل ومن كَذِب ... فكان ذاكَ لهُ رُوحاً وذا نَفَسا

التنزه عن استماع الخنا والقول به

اعلم أن السامع شَرِيك القائل في الشر. قال الله تعالى: ﴿سمَّاعون للكذب﴾[1].

وقال العُتبى: حَدّثني أبي عن سَعد القصير قال: نَظر إليَّ عمرو بن عُتبة ورجل يَشْتُم رجلاً بين يديّ، فقال لي، ويلك ـ وما قال لي ويلك قبْلها ـ نَزِّه سَمْعك عن استماع الخَنا كما تُنزِّه لسانَك عن الكلام به، فإن السامعَ شريكُ القائل، وإنه عَمد إلى شرٍّ ما في وعائه فأَفْرغه في وِعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل في فِيهِ لَسَعِدَ رادُّها كما شَقي قائلُها.

باب في الغُلُوِّ في الدين

تُوُفِّي رجل في عَهد عمرَ بن ذَرّ ممن أَسرَف على نفسه في الذنوب، وجاوَزَ في الطُّغيان، فتَحَامَى الناسُ عن جنازته، فحضرَها عمرُ بن ذرّ وصلّى عليه، فلما أدْلِيَ في قبره قال: يَرْحمك الله أبا فُلان، صَحِبْت عُمْرك بالتوحيد، وعَفَّرت وجهك لله بالسُّجود، فإن قالوا مُذْنِب وذُو خَطايا، فَمَن منَّا غيرُ مُذنب وذِي خطايا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَات واعمَلوا صالحًا إني بما تَعْملون عَلِيم﴾**[١]، **وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كلوا من طيِّبَات ما رَزَقْنَاكُمْ﴾**[٢]، **ثم ذكر الرجل يُرى أشعثَ أغبرَ يَمُدُّ يديه إلى السماء يقول: يارَب يارَبّ، ومَطْعَمه حَرَام ومشْرَبه حَرام ومَلْبسه حَرام، فأنّى يُستجاب له؟**»[٣].

وقال ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوْغل فيه برفق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطع ولا ظَهْرًا أَبقى**»[٤].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خَير هذه الأمَّة هذا النَّمط الأوْسط، يَرْجع إليهم الغالي ويَلحق بهم التّالي.

وقال سلمان الفارسي: القصد والدَّوام فأنت الجَواد السابق.

وقالوا: طالب العِلم وعاملُ البِرِّ كآكِل الطَّعام، إن أكل منه قوتاً عَصمه وإن أسْرَف منه أَبْشَمه.

ونظير هذا أن رُفْقة من الأشعريين كانوا في سَفر، فلما قَدِموا قالوا: ما رأينا يارسولَ الله بعدَك أفضلَ من فلان، كان يَصُوم النهار، فإذا نزَلنا قام من الليل حتى نرتحل، قال: **فَمَن كان يَمْهَن له ويكفُله؟** قالوا: كلّنا؛ قال: **كلّكم أفضلُ منه**[٥].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٣) رواه مسلم بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر صحيح مسلم / كتاب الزكاة [٦٥].

(٤) رواه البزار عن جابر وهو ضعيف قاله الألباني، انظر ضعيف الجامع [٢٠٢٢] وانظر الضعيفة ١/٢١، ٢٤٨٠ ويغني عنه ما رواه البخاري والنسائي والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «**إن هذا الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربُوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجة**»

(٥) ضعيف قال الألباني: «لم أجده في كتب السُّنَّة وإنما أخرجه ابن قتيبة في عيون الأخبار بسند ضعيف». انظر الضعيفة [٨٤].

ويغني عن هذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنّا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم =

وقيل للزُّهري: ما الزّهد في الدنيا؟ قال: أمّا إنه ما هو بتَشعيث اللِّمَّة، ولا قَشَف الهيئة، ولكنَّه ظَلَف النَّفس عن الشَّهوة.

عليٌّ بن عاصم عن أبي إسحاق الشيباني قال:

رأيت محمد بن الحنفيَّة واقفًا بعَرفات على بِرْذَوْن وعليه مُطْرَف خز أصْفَر.

السُّدِّي عن ابن جُريج عن عثمان بن أبي سليمان: أن ابن عباس كان يَرْتدي رِدَاء بألْف.

إسماعيل بن عبدالله بن جعفر عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ عليه ثوبان مَصْبُوغان بالزَّعفران: رداء وعمامة(١).

أبوحاتم عن الأصمعي: أن ابن عَوْن اشترى بُرْنساً فمرَّ على مُعاذَة العَدَويَّة، فقالت: مِثلُك يَلْبس هذا؟ فذكرتُ ذلك لابن سيرين، قال: أفَلاَ أخبرتَها أن تميمًا الدارمي اشترى حُلَّة بألف فصلّى فيها.

أبوالحسن المدائني قال: دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مُسلم وَالي خُراسان في مِدْرَعة صوف، فقال له: ما يدعوكَ إلى لِباس هذه؟ فسكَت؛ فقال له قتَيبة: أكلّمك ولا تُجيبني؟ قال: أكرَه أن أقولَ زُهدًا فأزَكّي نفسي، أو أقولَ فَقْرًا فأشكو ربي، فما جوابُك إلا السُّكوت.

= ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصُّوَّام فقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسَقُوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**». رواه البخاري ومسلم.

(١) قال الهيثمي رواه أبويعلى (٦٧٨٩) وفيه عبدالله بن مصعب الزهري ضعفه ابن معين. انظر مجمع الزوائد ج٥ كتاب اللباس / باب ما جاء في الصباغ. تحقيق محمد عبدالله الدرويش، ويغني عنه ما رواه البخاري عن أنس قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتزعفر الرجل» كتاب اللباس / باب التزعفر للرجال. وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: «**إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها**». كتاب اللباس والزينة / باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.

قال ابن السِّماك لأصحاب الصُّوف: والله لئن كان لباسُكم وَفْقاً لسرائركم فقد أَحبَبْتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لها فقد هَلكتم.

وكان القاسمُ بن محمد يَلبس الخزّ، وسالم بن عبدالله يَلْبس الصُّوف، ويَقْعُدان في مجلس المدينة، فلا يُنكر هذا على هذا شيئاً ولا ذا على هذا.

وصلّى الأعمشُ في مسجد قوم فأطال بهم الإمام، فلما فَرغ، قال له: ياهذا، لا تُطِلْ صلاتك، فإنه يكون خَلْفك ذو الحاجة والكَبير والضَّعيف؛ قال الإمام: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين؛ فقال له الأعمش: أنا رسولُ الخاشعين إليك، إنهم لا يَحتاجون إلى هذا منك.

العُتْبيّ قال: أصابت الربيعَ بن زياد نُشَابةٌ في جبينه، فكانت تنتقض عليه كل عام، فأتاه عليُّ بن أبي طالب عائداً، فقال له: كيف تَجدك يا أبا عبدالرحمن؟ قال: أجدُني لو كان لا يذهب ما بي إلا بذَهاب بَصَري لتمنّيت ذهابَه، قال له: وما قيمة بَصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدُّنيا فديتُه بها؛ قال: لا جَرم، ليُعطينّك الله على قَدْر الدُّنيا، لو كانت لك لأنفقتها في سبيله، إن الله يُعطي على قَدْر الألم والمُصيبة، وعنده بعدُ تَضْعيفٌ كثير. قال له الرَّبيع: يا أميرَ المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد؟ قال: وما له؟ قال: لَبِسَ العَباء، وتَرَك المُلاَء، وغَمّ أهْلَه، وأحْزن وَلَده؛ قال: عليَّ عاصمًا. فلما أتاه عَبس في وَجْهه، وقال: ويْلك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره منك أخْذَك منها، أنت أهونُ على الله من ذلك، أو ما سمعْته يقول: ﴿**مَرَجَ البحرين يلتقيان بينما برزخٌ لا يَبْغيان**﴾[1] حتى قال: ﴿**يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمَرْجان**﴾[2]. وتالله لابتذال نِعَم الله بالفِعال، أحبُّ إليَّ من ابتذالها بالمَقال، وقد سمعته يقول: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾[3] وقوله: ﴿**قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾[4]. قال عاصم: فعلام اقتصرتَ أنت يا

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان، ١٩ و٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

أمير المؤمنين؟ على لِبْس الخشن وأكل الحَشف؟ قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدِّروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع بالفقير فقره. قال: فما برح حتى لبس المُلاَء وترك العباء.

محمد بن حاطب الجمحي قال: حدثني من سمع عمرو بن شُعيب، وكنت سمعته أنا وأبي جميعاً، قال: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبدالله ابن مسعود قال: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم أمَّ عبدالله بن عمرو بن العاص، وكانت امرأة تلْطُف برسول الله ﷺ، فقال: «**كيف أنتِ يا أمَّ عبدالله؟**» قالت: كيف أكونُ وعبدالله بن عمرو رجلٌ قد تخلّى من الدنيا، قال لها: «**كيف ذلك؟**» قالت: حرّم النوم فلا ينام، ولا يُفطر، ولا يَطْعم اللحم، ولا يؤدِّي إلى أهله حقَّهم؛ قال: «**فأين هو؟**» قالت: خرج ويُوشك أن يَرْجع الساعة، قال: «**فإذا رجع فاحبسيه عليَّ**». فخرج رسولُ الله ﷺ، وجاء عبدُالله وأوْشك رسولُ الله ﷺ في الرَّجعة، فقال: «**يا عبدالله بن عمرو، ماهذا الذي بلغني عنك**»، قال: وما ذاك يارسولَ الله؟ قال: «**بَلَغني أنك لا تنام ولا تُفْطر؟**» قال: أردتُ بذلك الأمنَ من الفزع الأكبر؛ قال: «**وبلغني أنك لا تَطْعم اللَّحم**»؛ قال: أردتُ بذلك ما هو خيرٌ منه في الجنة؛ قال: «**وبلغني أنك لا تؤدِّي إلى أهلك حقَّهم**»؛ قال: أردتُ بذلك نساء هنَّ خير منهن. فقال رسول الله ﷺ: «**يا عبدالله بن عمرو، إن لك في رسول الله أُسْوة حسنة، فرسولُ الله يَصوم ويُفطر ويأكل اللَّحم، ويُؤدِّي إلى أهله حقوقَهم. يا عبدالله بن عمرو، إن لله عليك حقّاً، وإن لبدنك عليك حقّاً، وإن لأهلك عليك حقّاً**»، فقال: يارسول الله، ما تأمرني أن أصوم خمسة أيام وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فأصوم أربعة وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فأصوم ثلاثة وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فيومين وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فيوماً وأُفْطر يوماً؟ قال: «**ذلك صيام أخي داود، يا عبدالله بن عمرو، كيف بك إذا بَقِيت في حُثالة من الناس قد مَرِجَتْ[1] عهودُهم ومواثيقُهم فكانوا هكذا ـ وخالف بين أصابعه ـ**» قال: فما تأمرني

(١) مرجت: فسدت.

به يارسول الله؟ قال: «**تأخذ ما تَعرف، وتَدَع ما تُنكر، وتَعمل بخاصَّة نَفْسك، وتَدع الناس وعوامَّ أمرهم**». قال: ثم أخذه بيده وجعل يمشي به حتى وضَع يده في يد أبيه. «**أطع أباك**». فلما كان يومُ صِفّين، قال له أبوه عمرو: يا عبدالله، اخرج فقاتل؛ فقال: يا أبتاه، أتأمُروني أن أخرج فأقاتل وقد سمعتُ من رسول الله ﷺ ما سمعت وعَهِد إليَّ ما عهد؟ قال: أنشدك الله، ألم يكن آخر ما قال لك أن أخذ بيدك فوضعها في يدي، وقال لك: أطِعْ أباك؟ قال: اللهم بلى؛ قال: فإني أعزم عليك أن تَخْرج فتقاتل. قال: فخرج فقاتل متقلِّداً بسيفين[1].

القول في القَدَر

أتى قومٌ من أهل القدر مُحَمَّدَ بن المُنْكدر. فقالوا له: أنت الذي تقول: إن الله يُعذِّب الخلق على ما قدَّر عليهم؟ فصرف وجهه عنهم ولم يُجبهم. فقالوا له: أصلحك الله، إن كنت لا تُجيبنا فلا تُخْلِنا من بركة دعائك؛ فقال: اللهم لا تُرْدِنا بعُقوبتك، ولا تَمكُر بنا حِيلتك، ولا تُؤاخذنا بتَقْصيرنا عن رضاك، قليل أعمالنا تَقبّل، وعظيم خطايانا اغفر، أنت الله الذي لم يكن شيء قبلك، ولا يكونُ شيء بعدك، وليّ الأشياء، ترفع بالهُدى من تشاء؛ لا مَن أحسن استغنى عن عَونك، ولا مَن أساء غَلَبك، ولا استبدَّ شيء عن حُكومتك وقُدرتك، لا ملجأ إلا إليك، فكيف لنا بالمعرفة وليست إلَّا في يديك، وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك، حفيظ لا ينسى، قديم لا يَبلى، حيّ لا يموت، بك عرفناك، وبك اهتدينا إليك، ولولا أنت لم نَدْرِ ما أنت، سُبحانك وتعاليت. فقال القوم: قد والله أخبر وما قَصّر.

وقال: ذُكر القَدَر في مجلس الحسن البصريّ، فقال: إن الله خلق الخلق للابتلاء،

---

(١) قال الهيثمي: في الصحيح أوله ـ رواه الطبراني من رواية عبدالملك بن قدامة الجمحي عن عمرو بن شعيب وعبدالملك، وثَّقَهُ ابن معين وغيره وضَعَّفَهُ أبوحاتم وغيره. انظر مجمع الزوائد (٧/٢٤٢) مؤسسة المعارف ـ بيروت.

لم يُطيعوه بإكراه، ولم يَعْصُوه بغَلبة، لم يُهملهم من المُلْك، وهو القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملَّكهم إياه، فإن يأتمر العِباد بطاعة الله لم يكن الله مُثَبِّطاً لهم، بل يزيدهم هدى إلى هداهم، وتقوى إلى تقواهم، وإن يأتمروا بمعصية الله، كان الله قادرًا على صرفهم إن شاء، وإن خَلّى بينهم وبين المعصية، فمن بعد إعذار وإنذار.

مروان بن موسى قال: حدثنا أبوضمرة[١] أن غيلان قدم بكلمة قد صاغها حتى وقف على ربيعة[٢]، فقال له: أنت الذي تزعم أن الله أحبَّ أن يُعْصَى؟ فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أن الله يُعصى كَرهاً؟ فكأنما ألقمه حجراً.

قال الأصمعي: سألت أعرابيًا فقلت له: ما فضلُ بني فلان على بني فلان؟ قال: الكتاب، يعني القَدَر.

وقال الله عز وجل: ﴿**إنَّا كُلَّ شيء خلقناه بقَدَر**﴾[٣]. وقال: ﴿**كُلٌّ في كتاب مبين**﴾[٤]. وقال: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾[٥] يعني القَدَر. وقال: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا**﴾[٦].

قال الخُشني أبوعبدالله محمد بن عبدالسلام: شاعران من فُحُول الجاهلية لهما بَيْتان ذَهب أحدهما في بيته مَذْهب العَدْلية، والآخر ذَهب مَذْهب الجَبْرية، فالذي ذهب مذهب العدلية أعشى بكر حيث يقول:

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولَّى الملامة الرَّجلا

والذي ذهب مذهب الجبرية لبيد بن ربيعة حيث يقول:

إنَّ تقوى ربِّنا خَيْرُ نَفَل وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ

---

(١) هو أنس بن عياض الليثي المدني.

(٢) هو ربيعة الرأي أبوعثمان بن عبدالرحمن.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٦.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٧١.

(٦) سورة طه، الآية: ١٢٩.

من هَدَاهُ سُبُلَ الخير اهتدى ... نَاعِمَ البال ومنْ شَاءَ أضَل

وقال إياس بن معاوية: كلَّمتُ الفرق كلها ببعض عقلي، وكلَّمت القدري بعقلي كله، فقلت له: دخولك فيما ليس لك ظلم منك؛ قال: نعم؛ قلت: فإن الأمر كله لله.

ومن قول الله عز وجل في القدر: ﴿**قل فلله الحجَّةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾[1]. وقال: ﴿**يَمُنُّونَ عليك أن أسْلَمُوا قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾[2].

ابن شهاب قال: أنزل الله على نبيه آية في القَدَرِيَّة: ﴿**الذين قالوا لإخوانهم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾[3] وقال: ﴿**قل لو كُنْتُم في بيُوتِكُم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهم**﴾[4].

وقال محمد بن سيرين: ما يُنكر القَدَرِيَّة أن يكون الله قد عَلِمَ من خلقه علماً فكتبه عليهم.

وقال رجلٌ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما تقول في القَدَر؟ قال: ويْحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟ قال: نعم؛ قال علي: أسْلَم صاحبُكم وقد كان كافراً؟ فقال الرجل له: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها وقوَّم خلقي، أقوم وأقعد، وأقبِضُ وأبْسُط؟ قال له علي: إنك بعدُ في المشيئة؛ أما إني أسألك عن ثلاث؛ فإن قلت في واحدة منهن لا، كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت، فمدَّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال له علي: أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء؛ قال: فخلقك الله لما شئت أو لما شاء؟ قال: بل لما شاء، قال: فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ قال: بل بما شاء، قال: قُمْ فلا مشيئة لك.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان هشام بن عبدالملك قد أنكر على غَيْلَان التكلم في القدر، وتقدم إليه في ذلك أشد التَقَدُّم، وقال له في بعض ما توعده به من الكلام: ما أحسبك تنتهي حتى تنزل بك دعوة عمر بن عبدالعزيز إذا احتجّ عليك في المشيئة بقول الله عز وجل: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾[1]، فزعمت أنك لم تُلْقِ لها بالاً؛ فقال عمر: اللهم إن كان كاذباً فاقطع يده ورجله ولسانه واضرب عنقه، فانتَه أوْلى لك، ودع عنك ما ضَرُّهُ إليك أقربُ من نَفْعِه، فقال له غَيْلان، لحيْنه وشقوته: ابعث إليَّ يا أمير المؤمنين من يكلمني ويحتج علي، فإن أخَذْتُهُ حُجَّتي أمسكتَ عَنِّي فلا سبيل لك إليَّ، وإن أخَذَتني حُجَّتُه، فسألتك بالذي أكرمك بالخلافة إلا نفَّذت فيَّ ما دعا به عمر عليَّ. فغاظ قوله هشاماً، فبعث إلى الأوزاعي فحكى له ما قال لغَيْلان، وما رَدَّ غَيْلانُ عليه، فالتفت إليه الأوزاعي، فقال له: أسألك عن خمس أو عن ثلاث؟ فقال غيلان: بل عن ثلاث؛ قال الأوزاعي: هل علمتَ أن الله أعان على ما حرَّم؟ قال غيلان: ما علمت، [وعَظُمَتْ عنده]. قال: فهل علمتَ أن الله قَضى على ما نَهى؟ قال غيلان: هذا أعظمُ! ما لي بهذا من عِلْم؛ قال: فهل علمتَ أن الله حال دون ما أمر؟ قال غيلان: حال دون ما أمر؟ ما علمتُ؛ قال الأوزاعي: هذا مرتاب من أهل الزَّيغ. فأمر هشامُ بقطع يده ورجله، ثم أُلقي في الكُناسة. فاحْتَوشه[2] الناسُ، يَعجبون من عَظيم ما أنزل الله به من نقمته. ثم أقبل رجلٌ كان كثيراً ما يُنْكر عليه التكلّم في القَدَر، فتخلّل الناس حتى وَصل إليه، فقال: يا غيلانُ، اذكُر دُعاء عمر رحمه الله؛ فقال غيلان: أفلح إذًا هشام، إن كان الذي نَزَل بي بدُعاء عمر أو بقضاء سابق فإنه لا حَرج على هشام فيما أمر به، فبلغت كلمته هشامًا، فأمر بقطع لسانه وضرب عُنقه لتمام دَعْوة عمر. ثم التفت هشام إلى الأوزاعي وقال له: قد قلت يا أبا عمرو فَفَسِّر؛ فقال: نعم، قَضى على ما نَهى عنه، نَهى آدم عن أكل الشجرة، وقضى عليه بأكلها؛ وحال دُون ما أمر،

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) احتوشه الناس، أي جعلوه وسطهم.

أمر إبليس بالسُّجود لآدم، وحال بينه وبين ذلك؛ وأعان على ما حرَّم، حرَّم المَيْتة، وأعان المُضطر على أكلها.

الرَّياشي عن سعيد بن عامر عن جُوَيرية عن سَعيد بن أبي عَرُوبة، قال: لما سألتُ قتادةَ عن القَدَر، فقال: رأْيَ العرب تُريد فيه أم رأْي العَجم؟ فقلت: بل رَأْيَ العرب؛ قال: فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلا وهو يُثْبت القدر، وأنشد:

ما كان قَطْعِي هَوْلَ كلِّ تَنُوفة ... إلا كتاباً قد خلا مَسْطُورَا

وقال أعرابيّ: الناظرُ في قَدَر الله كالناظر في عَين الشمس، يعرف ضَوْءها ولا يَختم على حدودها.

وقال كعب بن زُهَير:

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعجَبني ... سَعْيُ الفَتَى وهو مَخْبُوءٌ له القَدَرُ
يَسْعى الفتَى لأمور ليس يُدْركها ... فالنَّفْس واحدةٌ والهمُّ مُنْتشر
والمَرْءُ ما عاش مَمْدُودٌ له أَمَل ... لا تَنْتهي العينُ حتى يَنْتهي الأثر

وقال آخر:

والجَدّ أَنْهض بالفتَى من عَقْله ... فانهضْ بجَدٍّ في الحَوادث أو ذَر
ما أَقربَ الأشْياء حين يَسُوقها ... قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تُقْدَر

عبدالرحمن القَصِير قال: حدّثنا يونس بن بلال عن يَزيد بن أبي حَبيب، أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: يارسول الله، أيقدّر الله عليَّ الشرّ ثم يُعذِّبني عليه؟ قال: «**نعم، وأنت أَظْلم**»(١).

وحدّث أبوعبدالرحمن المُقْريء، يَرْفعه إلى أبي هُريرة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله قال: «**لا تجالسوا أهل القَدَر ولا تُفاتحوهم**»(٢).

---

(١) الحديث مرسل حيث إن يزيد بن أبي حبيب تابعي.

(٢) رواه أبوداود بسند ضعيف فيه حكيم بن شريك الهزلي وهو مجهول، ومن طريقه رواه أحمد في المسند وفي السُّنَّة. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية [٢١٨].

ومن حديث عبدالله بن مسعود، قال: ما كان كُفْر بعد نُبوة قط، إلا كان مِفْتاحه التَّكذيب بالقَدَر[١].

ثمامة بن أَشْرَس قال: دَخل أبوالعتاهية على المأمون لما قَدِم العراق، فأمر له بمال، وجعل يحادثه، فقال له يوماً: ما في الناس أجهل من القدرية؛ فقال له المأمون: أنت بصناعتك أبصر، فلا تتخطَّها إلى غيرها؛ قال له: يا أمير المؤمنين، أجمع بيني وبين من شئت منهم. فأَرسَلَ إليَّ، فدخلت عليه، فقال لي: هذا يزعم أنك وأصحابك لا حُجَّة عندكم. قلت: فليسأل عما بدا له، فحرك أبوالعتاهية يده وقال: من حَرَّك هذه؟ قلت: من ناك أمه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، شتمني؛ قلت له: نقضت أصلك يا ماصّ بَظْر أمّه؛ فضحك المأمون؛ فقلت له: يا جاهل، تُحرِّك يدك، ثم تقول: مَن حَرَّكها؟ فإن كان الله حركها، فلم أشتُمك، وإن كنت أنت المُحَرك لها، فهو قولي[٢]؛ قال له المأمون: عندك زيادةٌ في المسألة.

قال الكندي في الفن التاسع من التوحيد: اعلم أن العالم كله مسوس بالقضاء والقدر ـ أعني بالقضاء ـ ما قُسم لكل مَعْلول مما هو أصلح وأحْكَم وأتقن في بِنْية الكُل، لأنه ـ جل ثناؤه ـ خَلَق وأبدع مُضطرًّا ومُختارًا بتمام القُدْرة، فلما كان المختار غيرَ تام الحكمة، لأن تمام الحكمة لمُبدع الكُلّ، كان لو أُطلقَ واختيارَهُ لاختارَ كثيرًا مما فيه فَسادُ الكُلّ، فقَدَّر ـ جل ثناؤه ـ بِنْيةً للكل تقديراً محكمًا. فصيّر بعضه سوانحَ لبعض، يختار بإرادته ومشيئته غير مقهور مما هو أصلح وأحكم في بنية الكل، فتقدير هذه السَّوانح هو القَدَر، فبالقضاء والقَدَر ساس ـ جل ثناؤه ـ جميع ما أبدع بهذه السِّياسة المُحكمة المُنظمة، التي لا يَدْخلها زَلَل ولا نَقْص، فاتَّضَح أن كل مَعْلول فيما قَسم له ربُّه من الأحوال لا خارج عنها، وأن بعضَ ذلك باضطرار وبعضَه

---

(١) لم أقف عليه. وقد أورد ابن الجوزي حديثاً حول هذا المعنى عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما كانت زندقة قط إلا أصلها التكذيب بالقدر**» وبلفظ آخر عن سهل بن سعد مرفوعاً. وقال هذا حديث موضوع. انظر الموضوعات ١/ ٢٧٤.

(٢) فهو قولي: أي شتمه إياه.

باختيار، وأن المُختار عن سَوانح قَدَره اختار، وبإرادته لا بالكَرْه منه فَعل.

سُئل أعرابيّ عن القَدَر فقال: ذاك عِلْم اختَصَت فيه الظُّنون، وكَثر فيه المُختلفون، والواجب علينا أن نَرُد ما أَشْكل من حُكْمه إلى ما سبق في عِلْمه.

واصْطَحب مَجوسي وقَدَري في سفر، فقال القدريّ للمجوسي: ما لك لا تُسلم؟ قال: إن أذن الله في ذلك كان؛ قال: إن الله قد أذن إلا أن الشيطان لا يدعك؛ قال: فأنا مع أقواهما.

وقال رجل لهشام بن الحكم: أنت تزعم أنت الله في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نُطيقه، ثم يُعذِّبنا عليه؟ قال هشام: قد والله فعل، ولكن لا نستطيع أن نتكلم.

اجتمع عمرو بن عُبيد مع الحارث بن مسكين بمِنَى، فقال له: إن مِثلي ومثلك لا يجتمعان في مثل هذا الموضع، فيَفترقان من غير فائدة، فإن شِئتَ فُقلْ، وإن شئتَ فأنا أقول؛ قال له: قل؛ قال: هل تعلم أحداً أقبلَ للعذر من الله عز وجل؟ قال: لا؛ قال: فهل تعلم عذرًا أبينَ من عُذْر من قال لا أقدر، فيما تعلم أنت أنه لا يقدر عليه؟ قال: لا؛ قال: فلِمَ لا يقبل ـ من لا أقْبَلَ للعذر منه ـ عُذْر من لا أبْيَنَ من عُذْره؟ فانقطع الحارث بن مسكين فلم يَرُدّ شيئًا.

رد المأمون على الملحدين وأهل الأهواء

قال المأمون للثَّنوي الذي تكلّم عنده: أسألك عن حَرْفين لا أزيد عليهما، هل نَدِم مُسيء قطُّ على إساءته؟ قال: بلى؛ قال: فالنَّدم على الإساءة إساءةٌ أم إحسان؟ قال: بل إحسان؛ قال: فالذي نَدِم هو الذي أساء أم غَيْره؟ قال: بل هو الذي أساء؛ قال: فأرَى صاحب الخَيْر هو صاحب الشر؟ قال: فإني أقول: إن الذي نَدِم غير الذي أساء. قال: فنَدِم على شيء كان منه أم على شيء كان من غَيْره؟ فسكت.

قال له أيضًا: أخبرني عن قولك باثنين، هل يستطيع أحدُهما أن يَخلُق خلقاً لا يَستعين فيه بصاحبه؟ قال: نعم؛ قال: فما تَصنع باثنين؟ واحدٌ يخلق كل شيء خيرٌ لك وأصح.

وقال المأمون للمُرتد الخُراساني الذي أسلم على يديه وحمله معه إلى العراق فارتدَّ عن الإسلام: أخبرني ما الذي أوْحَشك مما كنتَ به آنساً من ديننا؟ فوالله لأن أستحْييك بحق، أحبَّ إليَّ من أن أقتلُك بحق، وقد صرت مسلماً بعد أن كنت كافرًا، ثم عدت كافرًا بعد أن صرت مسلماً، وإن وجدت عندنا دواء لدائك تداويت به، وإن أخطأك الشِّفاء، وتباعد عنك، كنتَ قد أبليتَ العُذْر في نفسك، ولم تُقصِّر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناك في الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار واليقين، ولم تُفَرِّط في الدُّخول من باب الحزْم؛ قال المرتد: أوْحشني منكم ما رأيتُ من كثرة الاختلاف في دينكم؛ قال المأمون: لنا اختلافان: أحدُهما كاختلافنا في الآذان، وتكبير الجنائز، وصلاة العيدين، والتشهّد، والتَّسليم من الصلاة، ووُجوه القرآت، واختلاف وُجوه الفُتيا، وما أشبه ذلك، وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير وتَوْسعة وتخفيف من السنَّة، فمن أذَّن مثنى وأقام مثنى لم يأْثم، ومن ربَّع لم يأثم. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبينا، مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان إنما أوْحشك هذا، فينبغي أن يكون اللفظُ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تأويله كما يكون متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلافٌ في شيء من التأويلات، ولو شاء الله أن يُنزِّل كُتبه مُفَسَّرة، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُختلف في تأويله لفعل، ولكنَّا لم نجد شيئًا من أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طُولِ البحث والتحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك لسَقَطت البَلْوى والمِحن، وذَهَب التفاضُل والتبايُن، ولما عُرف الحازم من العاجز، ولا الجاهل من العالم، وليس على هذا بُنيت الدنيا. قال المُرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبدالله، وأن محمدًا صادق، وأنك أمير المؤمنين حقًا.

وقال المأمون لعلي بن موسى الرِّضا: بم تَدَّعُون هذا الأمر؟ قال: بقرابة عليّ من رسول الله ﷺ وعلى آله، وبقرابة فاطمة منه؛ فقال له المأمون: إن لم يكن هاهنا إلا القرابة، فقد خَلَّف رسول الله ﷺ من أهل بيته من كان أقرب إليه من عَليّ، أو من

في مثل قُعْدُده[١]، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ، فإن الحقَّ بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيَّان، فإذا كان الأمر كذلك، فإن عليًّا قد ابتزَّهما حقّهما وهما صحيحان، واستولى على ما لا يجب له. فما أجابه علي ابن موسى بشيء.

كتب واصل بن عَطاء الغزّال إلى عمرو بن عبيد: أما بعد، فإن استلاب نعمة العبد وتعجيل المعاقبة بيد الله، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثار، والمجاورة للجدال الذي يحول بين المرء وقلبه، وقد عرفتُ ما كان يُطعن به عليك ويُنسب إليك ونحن بين ظَهْراني الحسن بن أبي الحسن رحمه الله، لاستبشاع قُبْح مذهبك، نحن ومن قد عرفته من جميع أصحابنا، ولُمَّة إخواننا، الحاملين الواعين عن الحسن، فلله تلكم لُمَّة وأوعياء وحفظة، ما أدمث الطبائع، وأرْزن المجالس، وأبينَ الزُّهد، وأصدقَ الألسنة، اقتدوا والله بمن مَضى شبهاً بهم، وأخذوا بهديهم. عهدي والله بالحسن وعهدكم به أمس في مَسْجد رسول الله ﷺ بشرقيّ الأجنحة، وآخر حديث حدثنا إذ ذَكر الموت وهول المُطَّلع، فأسف على نفسه واعترف بذنبه، ثم التفت والله يمنة ويَسرة مُعتبرًا باكيًا، فكأني أنظر إليه يمسَح مُرْفض العَرَق عن جبينه، ثم قال: اللهم إني قد شَددْت وَضِين[٢] راحلتي، وأخذت في أهبة سَفَري إلى محلّ القبر وفَرْش العَفْر، فلا تؤاخذني بما ينسبون إليَّ من بعدي، اللهم إني قد بلَّغْتُ ما بَلغني عن رسولك، وفسَّرت من مُحْكم تأويلك ما قد صَدَّقه حديثُ نبيّك، ألا وإني خائفٌ عَمْراً، ألا وإني خائف عَمْرا، شكاية لك إلى ربِّه جَهرًا، وأنت عن يمين أبي حُذيفة أقربنا إليه؛ وقد بلغني كبير ما حمّلته نفسَك، وقلّدته عنقك، من تَفسير التنزيل، وعبارة التأويل، ثم نظرتُ في كتبك، وما أدّته إلينا روايتك من تنقيص المعاني، وتفريق المَباني، فدلَّت شكاية الحسن عليك بالتَّحقيق بظهور ما ابتَدَعت، وعظيم ما تحمَّلت، فلا يَغْرُرك [أي أخي] تَدْبيرُ مَن حولك، وتعظيمهم طولَك، وخَفضهم أعينهم عنك إجلالاً

(١) قعدده، أي قرب نسبه.

(٢) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، أو لا يكون إلا من جلد.

لك، غداً والله تمضى الخُيلاء والتفاخر، وتُجْزى كلّ نَفْس بما تَسعى، ولم يكُن كتابي إليك، وتَجليبي عليك، إلا لَتـذْكيرك بحديث الحسن رحمه الله، وهو آخر حَديث حدّثناه، فأدِّ المَسموع، وأنطق بالمفرُوض، ودَعْ تأويلك الأحاديث على غير وَجْهها، وكن من الله وَجِلاً.

باب من أخبار الخوارج

لما خرجت الخوارج على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا من أصحابه، وكان من أمر الحكَمَيْن ما كان، واختداع عمرو لأبي مُوسى الأشعري، قالوا: لا حُكْم إلا لله. فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه نداءهم، قال: كلمة حق يُراد بها باطل، وإنما مَذْهبهم أن لا يكون أمير، ولابُدَّ من أمير بَرّاً كان أو فاجراً. وقالوا لعليّ: شككت في أمرك، وحكَّمت عدوّك في نَفْسك. وخرجوا إلى حَرُوراء، وخرج إليهم عليٌّ رضي الله عنه، فَخَطبهم متوكِّئًا على قَوْسه، وقال: هذا مَقامُ مَن أفلح فيه أفلح يوم القيامة، أنْشُدكم الله، هل عَلِمتم أنْ أحداً كان أكرَه للحكومة منّي؟ قالوا: اللهم لا؛ قال: أفعلمتم أنكم أكـرهتمـوني عليهـا حتى قِبلتُها؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: فعلام خالفتُموني ونابذتموني؟ قالوا: إنَّا أتينا ذنباً عظيماً فتُبْنا إلى الله منه، فتُب إلى الله منه، واستغفره نعُدْ إليك. فقال عليٌّ: إني أستغفر الله من كل ذنب، فرَجَعوا معه وهم في ستّة آلاف. فلما استقرُّوا بالكوفة أشاعُوا أن عليّاً رَجع عن التَّحْكيم، وتاب منه، ورآه ضلالاً. فأتى الأشعثُ بن قيس عليّاً رضي الله عنه؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيتَ الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كُفرًا وتُبْت. فخطب عليٌّ الناس فقال: من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فهو أضـل منها. فخرجت الخوارج من المسجد فحكّمت، فقيل لعلي: إنهم خارجون عليك؛ فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون.

فوجـه إليهم عبدالله بن العباس، فلما سار إليهم رحَّبوا به وأكرموه، فرأى لهم

جباهاً قرحة لطول السجود، وأيديًا كثَفِنات[١] الإبل، وعليهم قمُص مُرْحَضة[٢] وهم مُشمِّرُون، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ قال: جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه، وأعلمنا بربه وسنة نبيه، ومن عند المهاجرين والأنصار؛ فقالوا: إنا أتينا عظيماً حين حَكّمنا الرجالَ في دين الله، فإن تاب كما تُبْنا ونهض لمُجَاهدة عدوّنا رَجعنا. فقال ابن عباس: نَشدتكم الله إلا ما صَدَقتم أنفسكم أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تُساوي رُبع درهم تُصَادُ في الحرم، وفي شقاق رجل وامرأته؟ فقالوا: اللهم نعم؛ قال: فأنشدكم الله، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية؟ قالوا: نعم، ولكن عليّاً محا نفسه من خلافة المسلمين. قال ابن عباس: ليس ذلك يُزيلها عنه، وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة، وقال سهيل بن عمرو: لو علمتُ أنك رسول الله ما حاربتُك، فقال للكاتب: «**اكتُب: محمد بن عبدالله**». وقد أخذ على الحَكَمَين أن لا يجورا، وإن يَجُورا، فعليٌّ أوْلى من مُعاوية وغيره؛ قالوا: إن مُعاويةَ يدَّعي مثلَ دعوى عليّ؛ قال فأيُّهما رأيتُموه أوْلى فولُّوه؛ قالوا: صدقتَ. قال ابن عباس: ومتى جار الحَكَمان فلا طاعة لهما ولا قَبُول لقولهما فاتَّبعه منهم ألفان وبَقي أربعة آلاف[٣].

فصلّى بهم صلاتَهُم ابنُ الكَوّاء، وقال: متى كانت حرب فرئيسُكم شَبَث بن رِبْعِي الرِّياحي فلم يزالوا على ذلك حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرَّاسبيّ، فخرج بهم إلى النَّهروان، فأوقع بهم عليّ، فقتل منهم ألفين وثمانمائة، وكان

---

(١) الثفنات: جمع ثفنة، وهي من البعير الركبة، وما مس الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه.

(٢) مرحضة: مغسولة.

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/١٦٦) كتاب أهل البغي وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال ابن حجر: «أخرج النسائي في الخصائص صفة مناظرة ابن عباس لهم بطولها» انظر فتح الباري ١٢/٢٩٦. وانظر الوادعي/المسند الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ١/٤٩٦.

عددُهم ستة آلاف، وكان منهم بالكوفة زُهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمره، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌّ رضي الله عنه: ارجعوا وادفعُوا إلينا قاتل عبدالله بن خَبّاب؛ قالوا: كلنا قتله وشرِك في دَمه، وذلك أنهم لما خرجوا النهروان لقوا مسلمًا ونصرانيًا، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيرًا، وقالوا: احفظُوا ذمّة نبيكم. ولُقوا عبدالله بن خَبّاب، وفي عنقه المصحف ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك، فقال لهم: أحيوا ما أحيا القرآن، أميتوا ما أمات القرآن، قالوا: حدثنا عن أبيك، قال: حدثني أبي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، فكُن عبدالله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل**»[1] قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيرًا، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان؟ فأثنى خيرًا، قالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول: إن عليّاً أعلمُ بكتاب الله منكم، وأشد تَوقّياً على دينه وأبعد بصيرة؛ قالوا: إنك لست تتّبع الهدى بل الرجال على أسمائها، ثم قَرَّبوه إلى شاطيء البحر فذبحوه، فامذَقَرَّ دمُه، أي جَرى مستقيمًا على دقة وسامُوا رجلاً نَصْرانيًا بنَخلْه، فقال: هي لكم هِبَة؛ قالوا: ما كنا نأخذها إلا بثَمن؛ فقال: ما أعجب هذا! أتقتلون مثل عبدالله بن خباب، ولا تقبلون منا جنَى نخلة إلا بثَمن!

ثم افترقت الخوارج على أربعة أضرب: الإباضية، أصحاب عبدالله بن إباض؛ والصُّفرية، واختلفوا في نَسبهم، فقال قوم: سُمُّوا بابن الصَّفار، وقال قوم: نهكتهم العبادة فاصفرّت وجوهُهم؛ ومنهم البَيْهسية، وهم أصحاب ابن بَيْهس؛ ومنهم الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكانوا قبلُ على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشيء الشاذ.

---

(١) أورده ابن حجر بنحوه. انظر المصدر السابق ١٢/٢٩٧.
وقال ابن الديبع له شواهد يتقوى بعضها ببعض. انظر تمييز الطيب من الخبيث [١٠٥٣]، وأيضاً قاله السخاوي انظر المقاصد الحسنة [٨٤٦]، وانظر أرواء الغليل ٨/١٠٠ [٢٤٥١].

رد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه على شوذب الخارجي

الهيثم بن عدي قال: أخبرني عوانة بن الحكم عن محمد بن الزُّبير قال: بعثني عمر بن عبدالعزيز مع عون بن عبدالله بن مسعود إلى شوذب الخارجي وأصحابه إذ خرجوا بالجزيرة، وكتب معنا كتابًا، فقدمنا عليهم ودفعنا كتابه إليهم، فبعثوا معنا رجلاً من بني شيبان ورجلاً فيه حبشية يقال له شوذب. فقدما معنا على عمر وهو بخناصرة[1]، فصعدنا إليه، وكان في غرفة ومعه ابنه عبدالملك وحاجبه مُزاحم، فأخبرناه بمكان الخارجيَّيْن؛ فقال عمر: فتِّشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما، فلما دخلا قال: السلام عليكم، ثم جلسا؛ فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم عن حُكمي هذا وما نقمتم علي؟ فتكلَّم الأسود منهما، قال: إنا والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وتحريك العدل والإحسان إلى من وليت، ولكن بيننا وبينك أمرًا إن أعطيتناه فنحن منك وأنت مِنَّا، وإن منعتناه، فلست مِنَّا ولسنا منك؛ قال عمر: ما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أهل بيتك وسمَّيتها مظالم وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هُدى وهم على ضلال فالعنهم وابرأ منهم؛ فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يُفرِّق. فتكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، وإني سائلُكما عن أمر، فبالله أصدقاني فيه مبلغ علمكما؛ قالا: نعم؛ قال: أخبراني عن أبي بكر وعُمر، أليسا من أسلافكما، ومن تتولَّيان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا: اللهم نعم؛ فهل علمتما أن أبابكر حين قُبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري؟ قالا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها؟ قالا:

---

(١) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذى قنسرين.

نعم؛ قال: فهل بريء عمر من أبي بكر أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟ قالا: لا؛ قال: فأخبراني عن أهل النهروان، أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: نعم؛ قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفُّوا أيديهم، فلم يسفكوا دمًا، ولم يُخيفوا آمنًا، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعَر بن فُديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبدالله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقونهم في قُدور الأقط[1] وهي تفور؟ قالا: قد كان ذلك؛ قال: فهل بريء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا؛ قال: فهل تبرءون أنتم من إحدى الفئتين؟ قالا: لا؛ قال: أفرأيتم الدِّين، أليس هو واحد، أم الدِّين اثنان؟ قالا: بل واحد؛ قال: فهل يسعكم منه شيء يعجزني؟ قالا: لا؛ قال: فكيف وسعكم أن تولَّيتم أبابكر وعمر وتولَّى كلُّ واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة وتولَّى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: الدماء والفُروج والأموال؛ ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي والتبرُّؤ منهم؟ أورأيتَ[2] لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها؟ فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ قال: ما أذكر أني لعنته؛ قال: ويحك! أيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق، ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جُهَّال أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تردُّن على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ، بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلا أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وأمِنَ به عند رسول الله ﷺ، وكان إسوة المسلمين، وكان حسابه على الله، أفلستم تلقون من خَلَع الأوثان، ورَفَضَ الأديان، وشَهِدَ أن لا إله

---

(١) الأقط (مثلثة ككتف، وفيها لغات أخرى): طعام يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل.

(٢) يلاحظ أنه أفرد الضمير هنا وفيما سيأتي، ولعله يخاطب شوذبًا الخارجي.

إلا الله وأن محمدًا رسول الله تستحلون دمه وماله، ويلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرِّمون دمه وماله [ويأمن عندكم]؛ فقال الأسود: ما سمعتُ كاليوم أحداً أبين حُجّة، ولا أقرب مأخذاً، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأني بريءٌ ممن بريء منك. فقال عمر لصاحبه: يا أخا بني شَيبان، ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما قُلْتَ ووصفتَ، غير أني لا أفتات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت وأنظر ما حجتهم؛ قال: أنت وذاك. فأقام الحبشي مع عمر، وأمر له بالعطاء فلم يلبث أن مات، ولحق الشيباني بأصحابه، فقُتل معهم بعد وفاة عمر [رضي الله عنه].

القول في أصحاب الأهواء

وذُكر رجلٌ عند النبي ﷺ، فذَكروا فضلَه وشدَّة اجتهاده في العبادة. فبينما هم في ذِكْره حتى طَلع عليهم الرجلُ، فقالوا: يارسول الله، هو هذا؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أما إني أرى بين عينيه سفعة من الشيطان**»، فأقبل الرجل حتى وقف فسلم عليهم، فقال: «هل حدثتك نفسك إذ طلعت علينا أنه ليس في القوم أحسنُ منك»؟ قال: نعم، ثم ذهب إلى المسجد فصفّ بين قدميه يصلِّي. فقال النبي ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله؟**» فقال أبوبكر: أنا يارسول الله. فقام إليه فوجده يصلي فهابه فانصرف؛ فقال: ما صنعتَ؟ قال: وجدته يصلِّي يارسول الله فهبته. فقال النبي ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله**»؟ فقال عمر: أنا يارسول الله. فقام إليه فوجده يصلِّي فهابه فانصرف، فقال: يا رسول الله، وجدته يصلي فهبته. فقال رسول الله ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله؟**» قال عليٌّ: أنا يارسول الله؛ قال: «**أنت له إن أدركته**». فقام إليه فوجده قد انصرف. فقال النبي ﷺ: «**هذا أول قَرْنٍ يَطلُعُ في أمتي، لو قتلتموه ما اختلف بعده اثنان، إن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه**

الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي الجماعة»[١].

الرافضة

إنما قيل لهم رافضة، لأنهم رفضوا أبابكر وعمر ولم يرفضهما أحدٌ من أهل الأهواء غيرهم، والشيعة دونهم، وهم الذين يفضلون عليًّا على عثمان، ويتولون أبابكر وعمر. فأما الرافضة فلها غلو شديد في عليّ، ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح، وهم السَّبئية أصحاب عبدالله بن سبأ، عليهم لعنة الله، وفيهم يقول السيد الحميري:

قومٌ غلوا في عليٍّ لا أبا لهمُ ... وأجشَمُوا أنفُسا في حُبِّه تَعَبا
قالوا هو الله، جَلَّ الله خالقُنا ... من أن يكون ابنَ شيء أو يكون أبا

وقد أحْرقهم عليٌّ رضي الله عنه بالنَّار.

ومن الرَّوافض: المغيرة بن سعد مولى بَجيلة. قال الأعمش: دخلتُ على المُغيرة بن سعد، فسألتُه عن فضائل عليّ؛ فقال: إنك لا تَحْتملها؛ قلتُ: بلى. فَذَكر آدم صلوات الله عليه، فقال: عليٌّ خير منه، ثم ذكر مَن دونه من الأنبياء، فقال عليٌّ خير منهم، حتى انتهى إلى محمد ﷺ، فقال: عليٌّ مثلُه، فقلت: كذبت، عليك لعنة الله؛ قال: قد أعلمتُك أنك لا تحتملها.

ومن الروافض: من يزعُم أن عليّاً رضي الله عنه في السحاب، فإذا أطلَّت عليهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن. وقد ذكرهم الشاعر فقال:

بَرِئتُ من الخوارج لستُ منهم ... من الغَزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذَكروا عليًّا ... يردُّون السلامَ على السَّحاب

---

(١) قال ابن الجوزي هذا حديث لا يصح انظر العلل المتناهية [١٣٦٠] ج٢ ص٨١٢. وأما افتراق الأمة فقد وردت أحاديث صحيحة تبين ذلك.

ولكنّي أُحِبُّ بكلّ قَلْبي ... واعْلم أن ذاك من الصواب
رسولَ الله والصِّدِّيقَ حَقًّا ... به أرجو غدًا حُسن الثَّواب

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم: المنصورية. وهم أصحاب أبي منصور الكِسْف، وإنما سُمِّي الكِسْف لأنه كان يتأوَّل في قول الله عز وجل: ﴿وإن يروا كِسْفاً من السماء سَاقِطاً يقولوا سَحَابٌ مركوم﴾(١)، فالكِسْفُ عليٌّ وهو في السحاب.

وكان المغيرة بن سعد من السَّبئية الذين أحْرقهم عليٌّ رضي الله تعالى عنه بالنار، وكان يقول: لو شاء عليٌّ لأحيا عادًا وثمودَ وقرونًا بين ذلك كثيرًا. وقد خرج على خالد بن عبدالله، فقتله خالدُ وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر.

ومن الرَّوافض كُثيِّر عَزَّة الشاعر. ولما حضرته الوفاة، دعا ابنةَ أخٍ له، فقال: يا بنتَ أخي، إن عمك كان يحب هذا الرجل فأحبِّيه ـ يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ فقالت: نصيحتك يا عم مردودة عليك، أحبُّه والله خلافَ الحُبِّ الذي أحببتَه أنت؛ فقال لها: برئت منك، وأنشد يقول:

برئت إلى الإله من ابن أَرْوى ... ومن قولِ الخوارج أجمعينَا
ومن عُمرٍ برئتُ ومن عَتيق ... غداةَ دُعي أميرَ المؤمنينا

ابنُ أروى: عثمان.

والرَّوافض كلها تؤمن بالرَّجعة، وتقول: لا تقوم الساعةُ حتى يخرج المهديُّ، وهو محمد بن عليّ، فيملؤها عَدْلًا كما مُلِئتْ جَوْرًا، ويُحيى لهم موتاهم فيَرْجعون إلى الدنيا، ويكون الناسُ أمةً واحدة. وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا إنَّ الأئمة من قريش ... وُلاةَ العَدْل أربعةٌ سَواء
عليٌّ والثلاثةُ مِن بَنيه ... همُ الأسباط ليس بهم خَفاء
فَسِبْطٌ سِبطُ إيمانٍ وبِرٍّ ... وسِبْط غَيَّبته كَرْبلاء

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، وهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٤.

ومن الروافض: السيد الحِميري، وكان يُلقَى له وسائد في مسجد الكوفة يجلس عليها، وكان يؤمن بالرَّجعة، وفي ذلك يقول:

إذا ما المرْء شابَ له قَذالٌ ... وعَلَّله المَواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودَى ... فقُم بأبيك فابكِ على الشَّباب
فليس بعائدٍ ما فاتَ منه ... إلى أحدٍ إلى يوم المَآب
إلى يومٍ يؤوب النَّاسُ فيه ... إلى دُنْياهُمُ قَبْلَ الحساب
أدين بأن ذاك كذاك حقًّا ... وما أنا في النشور بذي ارتياب
لأن الله خَبَّر عن رجالٍ ... حَيُوا من بعد دَسٍّ في التُّراب

وقال يرثي أخاه:

يا ابن أمِّي فدتك نفسي ومالي ... كنتَ رُكني ومَفْزعي وجَمالي
ولعمري لئن تركتك مَيْتاً ... رهن رمس ضَنْك عليك مُهالَ
لوشيكاً ألقاك حيّاً صحيحاً ... سامعاً مُبْصرًا على خير حال
قد بُعثتم من القبور فأبتم ... بعد ما رَمَّت العظام البَوالي
أو كسبعين وافداً مع موسى ... عاينوا هائلاً من الأهوال
حين راموا من خبثهم رؤية اللـ ... ـه وأنى برؤية المتعالي
فرماهم بصعقة أحرقتهم ... ثم أحْيَاهُمُ شديدُ المِحال

دخل رجل من الحِسْبانيَّة على المأمون، فقال: لثُمامة بن أشرس: كلمه؛ فقال له: ما تقول وما مذهبك؟ فقال: أقول إن الأشياء كلها على التوهُّم والحِسْبان، وإنما يُدْرك منها الناس على قَدْر عقولهم، ولا حقَّ في الحقيقة. فقام إليه ثُمامة، فلطمه لطمة سودت وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين، يفعل بي مثل هذا في مجلسك! فقال له ثمامة: وما فعلت بك؟ قال: لطمتني قال: ولعل إنما دهنتُك بالبان، ثم أنشأ يقول:

ولعلَّ آدمَ أُمُّنا ... والأب حوّا في الحِساب
ولعلَّ ما أبصرتَ من ... بيض الطيور هو الغُراب
وعَسَاك حين قَعَدْتَ قُمـ ... ـتَ وحين جئت هو الذهاب

وعسى البنفسج زئبقاً وعسى البهار هو السَّذاب[1]
وعساك تأكل من خَرَا ك وأنتَ تَحْسبه الكَباب

ومن حديث ابن أبي شيبة أن عبدالله بن شداد قال: قال لي عبدالله بن عباس: لأخبرنَّك بأعجب شيء: قَرَع اليومَ على الباب رجلٌ لما وضعتُ ثيابي للظَّهيرة، فقلتُ: ما أتى به في مثل هذا الحين إلا أمرٌ مهمّ، أدخلوه. فلما دخل قال: متى يُبعث ذلك الرجل؟ قلت: أي رجل؟ قال: عليّ بن أبي طالب؛ قلت: لا يُبعث حتى يَبعث الله من في القبور؛ قال: وإنك لتقول بقول هذه الجَهلة! قلت: أخرجوه عني لعنه الله.

ومن الروافض الكَيْسانية، قلتُ: وهم أصحاب المُختار بن أبي عُبيد، ويقولون إن اسمه كَيْسان.

ومن الرافضة الحُسينية، وهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر، وكانوا يطوفون بالليل في أزقَّة الكوفة وينادون: يا ثارات الحُسين؛ فقيل لهم: الحُسينية.

ومن الرافضة الغُرابية: سمِّيت بذلك لقولهم: عليٌّ أشبه بالنبي من الغُراب بالغراب.

ومن الرافضة الزيدية، وهم أصحاب زيد بن علي المقتول بخراسان، وهم أقلُّ الرافضة غُلوًا، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج.

مالك بن معاوية قال: قال لي الشعبي، وذكرنا الرافضة: يا مالك لو أردت أن يعطوني رقابهم عبيداً وأن يملئوا بيتي ذهبًا عليَّ على أن أكذب لهم على عليّ كذبة واحدة لقبلوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبداً، يا مالك، إني درست الأهواء كلها فلم أر قومًا أحمق من الرافضة، فلو كانوا من الدواب لكانوا حميرًا، أو كانوا من الطير لكانوا رَخَمًا. ثم قال: أحذِّرك الأهواء المضلة شرُّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يُبغضون الإسلام، كما يُبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبَغْيًا عليهم، وقد أحرَقهم عليٌّ بن أبي طالب

(١) السذاب: نوع من البقول.

رضي الله عنه بالنار، ونفاهم إلى البُلدان، منهم: عبدالله بن سبأ، نفاه إلى ساباط، وعبدُالله بن سباب، نفاه إلى الجازر[١]، وأبوالكَرَوَّس، وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل دواد، وقالت الرافضة: لا جهادَ في سبيل الله حتى يخرجُ المهديُّ، وينْزل سبَب من السماء، واليَهود يُؤخِّرون صلاةَ المغرب حتى تشتبك النُّجوم، وكذلك الرافضة، واليهود لا ترى الطَّلاق الثلاث شيئًا، وكذا الرافضة، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذلك الرافضة، واليهود تستحل دم كلِّ مسلم، وكذلك الرافضة، واليهود حَرّفوا التوراة وكذلك الرافضة حَرّفت القرآن، واليهود تُبْغض جبريلَ وتقول: هو عَدوُّنا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غَلِط جبريلُ في الوَحْي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب، واليهود لا تأكل لحم الجزور، وكذلك الرافضة. ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرافضة في خصلتين، سُئِل اليهود من خَيْر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسُئلت النصارى، فقالوا: أصحاب عيسى، وسُئلت الرافضة: من شرّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد، أمرهم الله بالاستغفار لهم[٢] فَشَتَموهم، فالسيفُ مَسْلول عليهم إلى يوم القيامة، لا تَثبُت لهم قدم، ولا تَقومُ لهم راية، ولا تُجمع لهم كلمة، دَعْوتُهم مَدْحورة، وكَلِمتهم مُختلفة، وجَمْعهم مُفرَّق، كلما أَوْقدُوا نارًا للحرب أطْفأها الله.

وذكرت الرافضةُ يومًا عند الشَّعبي فقال: لقد بغَّضُوا إلينا حديثَ عليّ بن أبي طالب.

وقال الشعبي: ما شَبَّهتُ تأويل الروافض في القرآن إلا بتأويل رَجل مَضْعوف من بني مَخْزوم من أهل مكة وجدته قاعداً بفناء الكَعْبة، فقال يا شعبي: ما عندك في

---

(١) الجازر: قرية من نواحي النهروان، من أعمال بغداد قرب المدائن.

(٢) أمرهم، أي أمر الله الناس ومنهم الرافضة بالاستغفار لهم، أي لأصحاب محمد.

تأويل هذا البيت؟ فإن بني تميم يغلطون فيه ويزعمون أنه إنما قيل في رجل منهم، وهو قول الشاعر:

بيْتاً زُرَارَةُ مُحتَبٍ بفِنائه ومُجاشِعٌ وأبو الفَوارس نَهْشَلُ

فقلت له: وما عِندك أنت فيه؟ قال: البيتُ هو هذا البيت، وأشار بيده إلى الكعبة، وزرارة الحجر، زُرِّر حول البيت؛ فقلت له: فَمُجاشع؟ قال: زمزم جشعت بالماء؛ قلت: فأبوالفوارس؟ قال: هو أبوقُبيس جبل مكة؛ قلت: فنهشل؟ ففكر فيه طويلاً ثم قال: أصبتُه، هو مصباح الكعبة طويلٌ أسود، وهو النهشل.

باب في الحياء

قال النبي ﷺ: «**الحَيَاءُ خيرٌ كلَّه**»(١). «**الحياء شُعْبَةٌ من الإيمان**»(٢).

وقال عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى يحب الحيي الحليم المتعفف، ويكره البذيء السَّأَّل المُلْحِف**»(٣).

وقال عون بن عبدالله: الحياء والحلم والصَّمتُ من الإيمان.

وقال ابن عمر: الحياء والإيمان مقرونان جميعاً، فإذا رُفع أحدهما ارتفع الآخر معه.

وذكر أعرابيٌّ رجلاً حيّاً فقال: لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى به عنك وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المُسيء.

---

(١) رواه مسلم وأبوداود عن عمران بن حصين، انظر مختصر مسلم [٣١].

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إلـه إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» انظر مختصر مسلم [٣٠].

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه. وفيه سوار بن مصعب وهو متروك انظر المعجم الكبير ١٠/٢٤١ والمجمع ٨/١٦٩ ـ ١٧٠.

لليلي الأخيلية:

فتى هو أحْيَا من فَتَاةٍ حييَّةٍ ... وأشجَعُ من ليثٍ بخِفَّان خادِر

ولابن قيس أيضاً:

تَخَالُهم للحِلْم صُمّاً عن الخَنَا ... وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجر

ومرضى إذا لوقُوا حياءً وعفَّةً ... وعند الحِفاظِ كالليوث الخوادر

وقال الشعبي: تعاشر الناس فيما بينهم زماناً بالدِّين والتَّقوى، ثم رُفع ذلك فتعاشروا بالحياء والتذمُّم، ثم رُفع ذلك، فما يتعاشر الناس إلا بالرَّغبة والرَّهبة، وسيجيء ما هو شر من ذلك.

ولبعضهم:

فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياء[1]

وقال آخر:

إذا رُزق الفتى وجهاً وَقاحاً ... تقلَّب في الأمور كما يشاء

ولم يكُ للدَّواء ولا لشيء ... تعالجه به فيه غَناء

ورُبَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني ... وبين رُكُوبها إلا الحَياء

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: قُرنت الهيبةُ بالخَيْبة، والحياء بالحِرْمان.

وقد قيل:

ارفع حياءَكَ فيما جئتَ طالبَه ... إن الحياء مع الحرمان مَقرونُ

قال الحسن: من استتر بالحياء[2] لبس الجهل سِرْباله، فقطَّعوا سرابيل الحياء، فإنه مَن رقّ وجهه رق عِلْمه.

وَصَف رجل الحياء عند الأحنف فقال: إن الحياء لَيَتمُّ لمقدار من المقادير، فما زاد على ذلك فسمِّه بما أحببت[2].

---

(١) هذا البيت لأبي تمام من شعر له في التعريض ببعض بني حميد، أوله:

إذا جاريت في خلق دَنِيّاً ... فأنْتَ ومَن تُجاريه سَواء

(٢) المقصود هنا بالحياء الخجل، فإنه مذموم عند الرجال، أما الحياء فكله خير.

وللشّماخ:

أُجاملُ أقواماً حياءً وقد أرى ... صدورهم بادٍ عليَّ مراضُها

ولابن أبي حازم:

وإني ليَثْنيني عن الجهل والخنا ... وعن شَتْم ذي القُربى خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلام وتَقْوى وأنَّني ... كريم ومِثْلي قد يَضُرُّ ويَنْفع

وقال آخر:

إذا حُرم المرءُ الحَياءَ فإنه ... بكلّ قبيح كان منه جديرُ
له قِحة في كل أمر وسِرُّه ... مُباح وجدواه جفاً وغرور
يَرى الشَّتْم مَدْحاً والدناءة رِفْعة ... وللسَّمْع منه في العِظات نُفور
فرجِّ الفتى ما دام حيّاً فإنهُ ... إلى خيرِ حالات المُنيب يَصير

باب جامع الآداب

أدب الله لنبيه ﷺ

قال أبوعُمر أحمد بن محمد: أوّل ما نبدأ به أدبُ النبي ﷺ، ثم أدبه ﷺ لأمته، ثم الحكماء والعُلماء، وقد أدّب الله نبيه بأحسن الآداب كلها، فقال له: ﴿**ولا تجعَلْ يَدَك مَغْلُولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فتقعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[1]. فنهاه عن التَّقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسّط الحالين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿**والذين إذا أنفقُوا لم يُسرفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَامًا**﴾[2]، وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ جوامع الكَلِم في كتابه المُحكم، ونَظَم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات منه، فقال: ﴿**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عَنِ الجَاهِلين**﴾[3]. ففي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

أخذه العفو صلة من قطعه، والصفح عمن ظلمه، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج. ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدَّبه باللين في عريكته والرفق بأمته فقال: ﴿واخفِضْ جَنَاحَك لمن اتَّبعَكَ من المؤمنين﴾[١]. وقال: ﴿ولو كُنْتَ فظًّا غليظَ القَلب لانفَضُّوا من حَوْلك﴾[٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿لا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَع بالتي هي أحسَنُ فإذَا الذي بينك وبينَهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حَمِيم. وما يُلَقَّاهَا إلاَّ الذين صَبَروا ومَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حظٍّ عظيم﴾[٣]. فلما وعى عن الله عز وجل وكملت فيه هذه الآداب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عَليكُم بالمؤمنين رءوفٌ رَحيم. فإن تَولَّوا فَقُل حَسْبي الله لا إله إلا هو عليه توكَّلتُ وهو رَبُّ العرشِ العَظِيم﴾[٤].

باب أدب النبي ﷺ لأمّته

قال النبي ﷺ فيما أدّب به أمته وحضَّها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام: «**أوصاني ربي بتسع وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عَمَّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عِبَراً**»[٥].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٥) أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين [٥٣٨] بنحوه دون ذكر السند، والحديث لم يصح عن النبي ﷺ والله أعلم.

وقد قال ﷺ: «**نهيتكم عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال**»(١).

وقد قال ﷺ: «**لا تقعدوا على ظهور الطرق، فإن أبيتم فغضُّوا الأبصار، وأفشوا السلام، واهدوا الضال، وأعينوا الضعيف**»(٢).

وقد قال ﷺ: «**أَوْكُوا السِّقاء، واكْفَئُوا الإناء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقًا، ولا يحل وكاء ولا يكشف الإناء**»(٣).

وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بشَرِّ الناس؟ قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: من أكل وحده وَمَنَعَ رِفْدَه، وجَلَدَ عَبْدَه**» ثم قال: «**ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**من لا يُقيل عثرة ولا يقبل معذرة**» ثم قال: «**ألا أنبئكم بشر من ذلك؟**» قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: «**من يُبغض الناس ويُبغضونه**»(٤).

وقال ﷺ: «**حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداوُوا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء**»(٥).

---

(١) رواه البخاري بنحوه (كتاب الاستئذان) ومسلم (كتاب الأقضية) وأحمد ج٤ ص٢٥٠ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) روى البخاري في (كتاب الاستئذان) ومسلم في (كتاب السلام) عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس بالطرقات**» فقالوا: يارسول الله ما لنا من مجالسنا بُدّ نتحدث فيها فقال: «**إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**»، قالوا: وما حق الطريق يارسول الله؟ قال: «**غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» (واللفظ للبخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا خير في جلوس في الطرقات إلا لمن هدى السبيل، وردَّ التحية، وغَضَّ البصر، وأعان على الحمُولَة**» المشكاة ٤٦٦١ كتاب الآداب.

(٣) أخرجه البخاري بنحوه «كتاب الاستئذان / باب غلق الأبواب بالليل» ومسلم «كتاب الأشربة / باب الأمر بتغطية الإناء» والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٠١) (٣/٣٧٤) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن عساكر عن معاذ بنحوه، وهو ضعيف قاله الألباني، انظر الضعيف [٢١٧٣].

(٥) رواه الطبراني في الكبير وأبونعيم في الحلية عن ابن مسعود. وقال الألباني: ضعيف جداً انظر الضعيف [٢٧٢٤] وانظر الضعيفة [٣٤٩٢]. وأما مداواة المرضى بالصدقة فقد روى أبوالشيخ في =

وقال ﷺ: «ما قَلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألْهى»[١].

وقال ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤُهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»[٢].

وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السُّفلى»[٣].

وقال ﷺ: «وابدأ بمن تعول»[٣].

وقال ﷺ: «لا تَجْنِ يمينُكَ على شمالك، (ولا يُلدغ المؤمن من جُحر مرَّتين)»[٤].

وقال ﷺ: «المرء كثيرٌ بأخيه»[٥].

= الثواب عن أبي أمامة «داووا مرضاكم بالصدقة» قال الألباني: حسن. انظر صحيح الجامع [٣٣٥٨].

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني وأبونعيم والحاكم والبيهقي والخطيب في كتاب البخلاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الهيثمي: رجال أحمد وبعض رجال أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد / كتاب الزهد (١٠/٤٤٨) طبعة دار الفكر تحقيق عبدالله الدرويش. وقد صححه الألباني بشواهده انظر الصحيحة (٩٤٧).

(٢) أخرجه أبوداود والنسائي عن علي رضي الله عنه بلفظ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يَدٌ على من سواهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده». كما رواه ابن ماجه عن ابن عباس. قال الألباني: صحيح، انظر المشكاة [٣٤٧٥] [٣٤٧٦].

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله».

(٤) أول الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، وأما ما بين الأقواس فهو متفق عليه عن أبي هريرة بلفظ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان عن سهل بن سعد. قال الألباني: ضعيف. انظر الضعيفة [١٨٩٥] وضعيف الجامع [٥٩٢٢].

وقال ﷺ: «**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة واحدة، والناس كلهم سواء كأسنان المشط**»(١).

وقال ﷺ: «**رحم الله عبداً قال خيراً فغَنِم، أو سَكَتَ فَسَلِم**»(٢).

وقال ﷺ: «**خير المال سِكَّة مأبُورَة، ومُهرة مأمورة، وخير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة**»(٣).

وقال ﷺ: «**ما أملق تاجر صدوق**(٤) **وما أقفر بيت فيه خَلّ**»(٥).

وقال ﷺ: «**قَيِّدوا العِلم بالكتابة**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما / كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن خالد بن أبي عمران مرسلاً بلفظ: «**رحم الله عبداً قال خيرًا فغنم أو سكت** عن **سوء فسلم**» وحَسَّنه الألباني بمجموع طرقه، انظر الصحيحة [٨٥٥] وصحيح الجامع [٣٤٩٦].

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة بلفظ: «**خير مال المرء له مُهْرة مأمورة أو سِكَّة مأبورة**». وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، انظر مجمع الزوائد [٥/٢٥٨] وسكت عنه الحافظ في الفتح [٨/٣٩٥] والسِكَّة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة. والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج، وأما بقية الحديث الذي أورده ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ فلم أجده في المصادر التي بين يدي والله أعلم.

(٤) عزاه صاحب موسوعة أطراف الحديث إلى الجامع الكبير / المخطوط الجزء الثاني (٢/٤٧٥).

(٥) رواه الإمام أحمد (٣/٣٥٣) عن جابر (رضي الله عنه) قال الألباني: إسناده جيد، انظر الصحيحة [٢٢٢٠].

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم عن ابن عمرو رضي الله عنهما وقد رُوي بطرق أخرى وأورده ابن الجوزي في العلل، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع [٤٤٣٤].

وقال ﷺ: «**افصِلُوا بين حديثكم بالاستغفار، (واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)**»[١].

وقال ﷺ: «**لا يُؤَم ذو سُلْطان في سُلْطانه، ولا يُجْلس على تَكْرمته إلا بإذنه**»[٢].

وقال ﷺ: «**يقول ابنُ آدم مالي مالي، وإنما له من ماله ما أكلَ فأفنى، أو لبس فأبلى، أو وهب فأمضى**»[٣].

وقال ﷺ: «**ستحرصون على الإمارة، فنعمت المُرْضعة وبئست الفاطمة**»[٤].

وقال ﷺ: «**لا يَحْكم الحاكم بين اثنَين وهو غَضْبان**»[٥].

وقال ﷺ: «**لو تكاشفتم ما تدافنتم**[٦]**، وما هلك امرؤ عَرَفَ قَدْرَه**»[٧].

---

(١) أول الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، وأما ما بين الأقواس فقد أخرجه الطبراني في الكبير وأبونعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**».
كما رُوي بطرق أخرى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ونقل عن الإمام أحمد ويحيى بن معين رحمهما الله أنهما قالا: هو موضوع ليس له أصل. وقد سبق الكلام على هذا الحديث في باب «استنجاح الحوائج».

(٢) رواه مسلم بنحوه (١/١٨٦) وأحمد (٥/٢٧٢) والترمذي في سننه [باب ما جاء من أحق بالإمامة] وأبوداود (١/٢٢٨) والنسائي (١/١٢٦) وابن ماجة (١/١٦٠).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**يقول العبد: مالي مالي، وإن ما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**» (كتاب الزهد والرقائق).

(٤) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة بنحوه. وقد مر بنا الحديث في باب الولاية والعزل.

(٥) متفق عليه عن أبي بكرة مرفوعًا بلفظ: «**لا يقضين حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**» وفي لفظ لمسلم: «**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**» انظر صحيح مسلم كتاب الأقضية.

(٦) ليس بحديث وينسب للحسن البصري. انظر الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث [١٥٢] طبعة الراية.

(٧) لم أجده في المصادر التي بين يدي، والله أعلم.

باب في آداب الحكماء والعلماء
منه في فضيلة الأدب

أوصى بعضُ الحكماء بنيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعةً، وأنْفسها قيمةً، يَرْفع الأحساب الوَضيعة، ويُفيد الرَّغائب الجليلة ويُعِزّ بلا عشيرة، ويُكثر الأنصار بغَيْر[1] رزيَّة، فالبَسُوه حُلّة، وتزيَّنُوه حِلية، يُؤْنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة[2].

ومن كلام عليٍّ [رضي الله عنه]: فيما يُروى عنه أنه قال: مَن حَلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حُرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرِّآسة صبر على السِّياسة، ومن أبصر عيب نفسه عَمِيَ عن عَيب غيره، ومن سلَّ سيف البغْي قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن نسي زلَّته استعظم زلّة غيره، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللُّجج غرق، ومن أُعجب برأيه ضلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ، ومن تجبَّر على الناس ذَلَّ، ومن تعمَّق في العمل مَلَّ؛ ومن صاحَب الأنذال حُقِّر، ومن جالس العلماء وُقِّر؛ ومن دخل مداخل السوء أُتُّهم، ومن حَسَنُ خُلقه، سهُلَت له طرقه، ومن حسَّن كلامه، كانت الهيبة أمامه، ومن خشي الله فاز، ومن استقاد الجهل، ترك طريق العدل، ومن عرف أجله، قصر أمله، ثم أنشأ يقول:

ألبِسْ أخاك على عيُوبِه ... واستُر وغطِّ على ذُنوبه
واصْبر على بهت السفيه ... وللزمان على خُطوبه
ودَع الجوابَ تفضُّلاً ... وكِلِ الظَّلوم إلى حسيبه

---

(١) بغير رزية، أي بغير أن يرزءوك شيئا تتكلفه لهم كفاء نصرهم إياك.

(٢) ينطبق هذا الوصف على العلم الشرعي.

وقال شبيب بن شيبة: اطُلبوا الأدب فإنه مادة للعقل، ودليل على المروءة، وصاحب في الغربة، ومُؤنس في الوحشة، وحِلْيَة في المجلس، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفَّع: إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يعجبك ذلك، فإن الكرامة تزول بزوالهما، ولكن ليُعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأسُ الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنية.

وقال مصقلة الزبيري: لا يستغنى الأديب عن ثلاثة واثنين؛ فأما الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحُسن العبارة. وأما الاثنان، فالعلم بالأثر والحفظ للخبر.

وقال: الحَسب مُحتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بُزُرْجَمِهْر: ما وَرَّث الآباء الأبناء شيئاً خيرًا من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه.

وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قَدْرَه.

وقالوا: حُسْن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال سفيان الثوري: من عَرَف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه.

وقال أنوشروان للمُوبَذ، وهو العالم بالفارسية: ما كان أفضلُ الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العِلْم بالإشارة، وكما يموت البَذْر في السِّباخ[1]، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة، قال: صدقتَ، ونحن لهذا قلّدناك ما قلّدناك.

---

(١) السباخ: جمع سبخة (مُحَرَّكَة ومُسَكَّنَة) وهي أرض ذات نَزّ وملح.

وقيل لأرْدَشير: الأدب أغلب أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب، والطبيعة أملك، لأن بها الاعتقاد، ونماء الغراسة، وتمام الغِذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أعْوَنُ للعقل بعد الطبيعة المولودة؟ قال: أدب مُكتسب.

وقالوا: الأدب أدَبان: أدبُ الغَريزة وهو الأصل، وأدب الرِّواية وهو الفَرْع، ولا يتفرَّع شيء إلا عن أصله، ولا يَنْمى الأصل إلا باتصال المادة.

وقال الشاعر:

ولم أرَ فَرْعاً طال إلا بأصْله ... ولم أرَ بَدْء العِلْم إلا تَعَلُّما

وقال حبيبت:

وما السيفُ إلا زُبْرَةٌ[1] لو تركتَه ... على الحالة الأولى لما كان يَقْطعُ

وقال آخر:

ما وهب الله لامريء هِبةً ... أفضلَ من عَقْله ومن أدبهْ
هُما حياةُ الفَتى فإن فُقِدَا ... فإن فَقْد الحياة أحسنُ به

وقال ابن عباس: كَفَاك من عِلْم الدّين أن تَعْرف ما لا يَسعك جهلُه، وكفاكَ من عِلْم الأدب أن تَرْوي الشاهد والمثالَ.

قال ابن قُتيبة: إذا أردتَ أن تكون عالماً فاطلب فَنّاً واحداً، وإذا أردتَ أن تكون أديبًا فتفنَّن في العلوم.

وقالت الحُكماء: إذا كان الرجل طاهرَ الأثواب، كثيرَ الآداب، حسنَ المذْهب، تأدَّب بأدبه وصَلُح لصلاحه جميع أهله وولده. قال الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المَرْء يُصْلح أهلَه ... ويُفسدهم ربُّ الفَساد إذا فَسَدْ
يُعظَّم في الدنيا لِفَضْل صَلاحه ... ويُحْفَظ بعد الموت في الأهْل والوَلد

---

(١) الزبرة: القطعة من الحديد.

وفي رقة الأدب

قال أبوبكر بن أبي شيبة: قيل للعباس بن عبدالمطلب: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: هو أكبر مني وأنا أسنّ منه[١].

وقيل لأبي وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنّاً، وهو أكبر مني عقلاً.

وقال أبان بن عثمان لطويس المغني: أنا أكبر أم أنت؟ قال: جعلت فداك، لقد شهدت زفاف أمك المباركة على أبيك الطيب. انظر إلى حذقه ورقة أدبه كيف لم يقل أمك الطيبة إلى أبيك المبارك.

وقيل لعمر بن ذَرّ: كيف برّ ابنك بك؟ قال: ما مَشَيت نهاراً قطُّ إلا مَشى خَلْفي، ولا ليلاً إلا مَشى أمامي، ولا رَقى عليّة وأنا تحته.

ومن حديث عائشة، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يُبجِّل أحداً تبجيله لعمّه العباس[٢].

وكان عمر وعثمان إذا لقيا العباس نزلا إعظاماً له، إذا كانا راكبَيْن[٣].

ومن قولنا في رقة الأدب:

أدبٌ كمثْل الماء لو أفْرغتَه ... يوماً لسال كما يَسيلُ الماء

وقال عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عِشْرَةً من أبيك، سَمَرتُ عنده ليلة، فبينا نحن كذلك إذا عَشى المصباحُ ونام الغلام، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، قد عَشى المصباح ونام الغلام، فلو أذنتَ لي

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة عن أبي رزين قال: قيل للعباس أنت أكبر أو رسول الله ﷺ؟ قال: هو أكبر مني وولدت أنا قبله. انظر المصنف في الأحاديث والآثار ج٨ كتاب الأدب [٦٣٠٧].

(٢) لم أجده في المصادر التي بين يدي، ولكن أورد ابن حجر، عن أبي سفيان بن الحارث عن أبيه قال: كان العباس أعظم الناس عند رسول الله ﷺ. انظر ابن حجر / الإصابة ج٤ ص٣٠.

(٣) أورد ذلك ابن عبدالبر (رحمه الله) انظر الاستيعاب ج٢ ص ٨١٤.

أصلحتُه، فقال: إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفَه، ثم حط رداءه عن منكبيه، وقام إلى الدَّبَّة فصبَّ من الزيت في المصباح وأشْخص الفتيلة، ثم رجع وأخذ رداءه وقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

العتبي عن أبيه قال: صوَّت رجل عند عمر بن الخطاب في المسجد، فلما كانت الصلاة قال عمر: عَزَمتُ على صاحب الصوت إلا قام فتوضأ؛ فلم يَقُم أحدٌ. فقال جرير بن عبدالله: يا أمير المؤمنين، اعزم علينا كلّنا أن نقوم فنتوضأ، قال: صدقت، ولا عَلِمتُك إلا سيداً في الجاهلية، فقيهاً في الإسلام، قوموا فتوضئوا[١].

الرياشي عن الأصمعي قال: حدثني عثمان الشحَّام، قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد، قال: لبيِّك؛ قلت: أتقول لي لبيك؟ قال: إني أقولها لخادمي.

وقال الشاعر[٢]:

يا حبَّذا حين تُمسي الريحُ بادرةً ... وادِي أُشيٍّ[٣] وفتيانٌ به هُضمُ[٤]
مُخَدَّمون كرامٌ في مجالسهم ... وفي الرحال إذا جرَّبتهم خَدم
وما أُصاحب من قوم فأذكُرهم ... إلا يزيدهمُ حُبّاً إليَّ هُم

---

(١) قال الألباني: أخرجه الطبراني في الكبير عن مجالد موقوفاً على عمر رضي الله عنه وفي إسناده مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال عنه الحافظ في التقريب «ليس بالقوي وقد تغير في آخر عهده» وأشار الألباني إلى خطأ الهيثمي حول سند الحديث.
وقال الألباني: رواه ابن عساكر عن مجاهد مرفوعاً وقال عن الحديث باطل وذكر أن سنده ضعيف مسلسل بالعلل: الإرسال من مجاهد وضعف واصل بن أبي جميل والبابلتي. انظر الضعيفة [١١٣٢].

(٢) نسب هذا الشعر في معجم البلدان عند الكلام على «أشي» وفي لسان العرب (مادتي هضم وأشي) لزياد بن منقذ التميمي، أخو المرار. ونسب في الشعر والشعراء للمرار بن منقذ.

(٣) وادي أشي موضع بالوشم في نجد.

(٤) هضم: جمع هضيم، وهو الضامر اللطيف الكشح. يعني أنهم يجودون في وقت الجدب وضيق العيش، وأضيق ما كان عيشهم في زمن الشتاء.

الأدب في الحديث والاستماع

وقالت الحُكماء: رأسُ الأدب كلِّه حُسنُ الفَهم والتفهّم والإصغاءِ للمتكلّم.

وذكر الشّعبي قوماً فقال: مارأيتُ مثلهم أسدَّ تَناوباً في مَجلس، ولا أحسن فَهْماً من مُحدِّث.

وقال الشعبي، فيما يَصِف به عبدَ الملك بن مروان: والله ما علمتُه إلا آخذاً بثلاث، تاركاً لثلاث، آخذاً بحُسن الحديث إذا حَدّث، وبحُسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأَيْسر المؤونة إذا خُولف، تاركاً لمجاوبة اللئيم، ومماراة السَّفيه، ومُنازعة اللجُوج.

وقال بعض الحُكماء لابنه: يابُني، تعلّم حُسن الاستماع كما تتعلّم حُسن الحديث، وليعلم الناسُ أنك أحرصُ على أن تَسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تُسرع في القَول فيما تُحِبّ عنه الرُّجوع بالفِعْل، حتى يعلم الناسُ أنك على فِعل ما لم تَقُل أقربُ منك إلى قَوْل ما لم تَفْعل.

وقالوا: من حُسن الأدب أن لا تُغالب أحداً على كلامه، وإذا سُئِل غيرُك فلا تُجب عنه، وإذا حَدَّث بحديث فلا تُنازعه إياه، ولا تَقتحم عليه فيه، ولا تُره أنك تعلمه، وإذا كلّمت صاحبك فأخذته حُجتك فحسِّن مخرج ذلك عليه، ولا تُظهر الظَّفر به، وتَعلّم حُسنَ الاستماع، كما تعلم حُسنَ الكلام.

وقال الحسنُ البَصري: حَدِّثوا الناسَ ما أقبلوا عليكم بوجُوههم.

وقال أبو عبَّاد الكاتب: إذا أنكر المُتكلِّم عين السامع فَليسأله عن مَقاطع حديثه، والسبَب الذي أُجرى ذلك له؛ فإن وَجده يقف على الحقّ أتم له الحديث، وإلاّ قطعه عنه وحَرمه مُؤانسته، وعَرّفه ما في سُوء الاستماع من الفُسُولة والحِرمان للفائدة.

الأدب في المجالسة

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة: أن النبيّ ﷺ قال: «**لا يَقُم الرجلُ للرجلِ من مجلسه ولكن ليوسِّعْ له**»(١).

وكان عبدُ الله بن عمر إذا قام له الرجلُ عن مجلسه لم يجلس فيه(٢)؛ وقال: لا يقم أحد لأحد عن مجلسه، ولكن افسَحوا يَفْسَحِ الله لكم.

أبو أُمامة قال: خرج إلينا النبيُّ ﷺ فقمنا إليه؛ فقال: **لا تقوموا كما يقوم العجم لعُظمائها**. فما قام إليه أحد منّا بعد ذلك(٣).

ومن حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: **إن خرجتُ عليكم وأنتم جُلوس فلا يَقُومنَّ أحدٌ منكم في وجهي، وإن قمت فكما أنتم، وإن جلست فكما أنتم، فإنّ ذلك خُلُقٌ من أخلاق المشركين**(٤).

وقال ﷺ: **الرّجل أحقُّ بصَدر دابَّته، وصَدر مجلسه، وصَدر فراشه، ومن قام عن مجلسه وَرَجع إليه فهو أحقّ به**(٥).

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**لا يُقِيْمُ الرجلُ الرجلَ من مقعده ثم يجلس فيه. ولكن تفسحوا وتوسعوا**».

(٢) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم/ كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه.

(٣) رواه أبو داود عن أبي أمامة بنحوه. قال الألباني ضعيف، انظر ضعيف سنن أبي داود [باب في قيام الرجل للرجل] وانظر الضعيفة [٣٤٦] والمشكاة [٤٧٠٠].
ويغني عنه ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سَرَّهُ أن يتمثَّلَ له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**» رواه الترمذي وأبو داود. وقال الألباني إسناده صحيح، انظر تخريج المشكاة [٤٦٩٩].

(٤) لم أقف عليه وماقبله يغني عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «**الرجل أحق بصدر دابته وأحق بمجلسه إذا رجع**». حَسَّنه الألباني في صحيح الجامع [٣٥٤٣] وفي لفظ آخر «**الرجل أحق** =

وقال ﷺ: «إذا جلس إليك أحد فلا تقم حتى تستأذنه»[١].

وجَلس رجلٌ إلى الحسن بن عليّ عليهما الرّضوانُ، فقال له: إنك جلستَ إلينا، ونحن نريد القيام؛ أفتأذَنُ؟

وقال سعيدُ بنُ العاص: مامددتُ رجلي قَطُّ بين يَدَي جليسي، ولا قمتُ عن مجلسي حتى يقوم.

وقال إبراهيمُ النَّخعيّ: إذا دخل أحدُكم بيتاً فليَجلس حيثُ أجلسه أهلُه.

وطَرح أبو قِلابة لِرَجُل جَلَس إليه وسادةً فَرَدَّها؛ فقال: أَمَا سَمِعتَ الحديثَ: لا تَرُدَّ على أخيك كرامَته؟[٢]

وقال علي بن أبي طالب رضوانُ الله عليه: لا يأبى الكرامةَ إلا حِمار[٣].

وقال سَعِيد بن العاص: لجليسي عَلَيَّ ثلاثٌ: إذا دنَا رَحَّبتُ به، وإذا جَلَس وَسَّعتُ له، وإذا حَدَّث أقبلتُ عليه. وقال: إنّي لأكره أن يمرّ الذُّباب بجليسي مخافَة أن يُؤذيه.

الهيثمُ بن عديّ عن عامر الشَّعبي قال: دَخل الأحنفُ بنُ قيس على مُعاوية فأشار إليه إلى وسادة فلم يَجلس عليها، فقال له: ما مَنعك ياأَحنف أن تَجلس على الوسادة؟ فقال: ياأمير المؤمنين، إنَّ فيما أوصى به قيس بن عاصم ولده أن قال: لا تَسْعَ

= **بمجلسه، وإن خرج لحاجته ثم عاد فهو أحق بمجلسه»** أخرجه الترمذي [٤/٦] عن وهب ابن حذيفة، قال الألباني إسناده صحيح، انظر صحيح الجامع [٣٥٤٤] والإرواء [٤٩٤].

(١) ذكره ابن عبدالبر القرطبي دون ذكر سند الحديث. انظر بهجة المجالس ١/٤١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/١٥٠ عن أنس مرفوعاً بلفظ **«من أكرمه أخوه المسلم فليقبل كرامته فإنما هي كرامة الله فلا تردوا على الله كرامته»** وهذا الحديث ضعيف في إسناده سعيد بن عبدالله بن دينار قال أبو حاتم مجهول.

ويغني عنه مارواه الترمذي في كتاب الآدب عن ابن عمر مرفوعاً **«ثلاثة لا ترد الوسائد والدهن واللبن»** قال ابن حجر في الفتح اسناده حسن إلا أنه ليس على شرط البخاري. فتح الباري ج٥ ص ٢٤٧ كتاب الهبة/ باب مالا يرد من الهبة.

(٣) قال العجلوني «رواه الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً ثم قال ويقال انه من قول علي» قال السخاوي وهو كذلك انظر كشف الخفا ٣٠٩٨ والمقاصد الحسنة ١٣١٧.

للسُّلطان حتى يَمَلَّك، ولا تقطعه حتى يَنساك، ولا تَجلِس له على فراش ولا وسادة، واجعل بَينك وبينه مَجلسَ رجل أو رجلين.

وقال الحسنُ: مُجالسة الرَّجل من غير أن يُسأل عن اسمه واسم أبيه مُجالسة النَّوكى[1].

ولذلك قال شَبيب بن شَيبة لأبي جعفر، ولَقِيه في الطَّواف وهو لا يعرفه، فأعجبه حسن هَيئته وسَمته: أصلحك الله، إنِّي أُحب المعرفةَ، وأُجلك عن المسألة؛ فقال: أنا فُلان بنُ فلان.

قال زياد: ما أتيتُ مجلساً قطّ إلا تركتُ منه ما لو جلستُ فيه لكان لي، وتَرْكُ ما لي أحبُّ إليَّ من أخذ ما ليس لي.

وقال: إيّاكَ وصُدورَ المَجالس وإن صَدَّرك صاحبُها، فإنها مجالس قُلَعة[2].

وقال الشعبي: لأن أُدعَى مِن بُعد إلى قُرب أحبُّ إليَّ من أُقصى من قُرب إلى بُعد.

وذكروا أنه كان يوماً أبو السَّمراء عند عبد الله بن طاهر، وعنده إسحاقُ بن إبراهيم، فاستدنَى عبدُ الله إسحاقَ فَناجاه بشيء، وطالت النَّجوى بينهما. قال: فاعترَتني حَيرَةٌ فيما بين القُعود على ما هما عليه والقيام، حتى انقطع ما بينهما وتنحَّى إسحاق إلى مَوقفه، ونظر عبدُ الله إليَّ، فقال: يا أبا السَّمراء:

إذا النَّجيَّان سرَّا عنك أمرَهما ... فانزح بِسَمعك تَجهَلْ ما يَقُولانِ
ولا تُحَمِّلهما ثِقْلاً لخوفهما ... على تَناجيهما بالمجلس الدَّاني

فما رأيتُ أكرَم منه، ولا أرفق أدباً، ترك مُطالبتي في هَفوتي بحق الأمراء، وأدَّبني أدبَ النُّظراء.

---

(١) النَّوكَي: جمع أَنْوَكُ وهو الأحمق. والنُّوْكُ (بالضم): الحمق، قال قيس بن الخطيم:

وداءُ الجسم ملتمس شفاء ... وداء النُّوكِ ليس له دواءُ

انظر ابن منظور/ لسان العرب مادة «نوك».

(٢) أي لا يثبت صاحبها فيها.

وقال النبيُّ ﷺ: [**إنما أحدُكم مِرآة أخيه، فإذا رأى عليه أذى فَليُمِطه عنه**][1]، **وإذا أخذ أحدُكم على أخيه شيئاً فليقل: لا بك السُّوء، وصرَف الله عنك السُّوء**[2].

وقالوا: إذا اجتمعت حُرمتان، أسقطت الكبرى الصُّغرى.

وقال المُهلَّب بن أبي صُفرة: العيش كلّه في الجَليس المُمتع.

الأدب في المماشاة

وَجَّه هِشامُ بن عبد الملك ابنَه على الصَّائفة، ووجَّه معه ابنَ أخيه، وأوصى كلَّ واحد منهما بصاحبه؛ فلما قَدِما عليه، قال لابن أخيه: كيف رأيتَ ابنَ عمّك؟ فقال: إن شئتَ أجملتُ، وإن شئتَ فسّرتُ؛ قال: بل أجمل؛ قال: عرضت بيننا جادَّة فتركها كلُّ واحد منَّا لصاحبه، فما رَكِبناها حتى رَجعنا إليك.

وقال يحيى بن أكثم: ما شيتُ المأمون يوماً من الأيام في بُستان مُؤنسة بنت المهدي، فكنتُ من الجانب الذي يَستُرُه من الشَّمس، فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع، وأردتُ أن أدور إلى الجانب الذي يَسْتُرُه من الشمس، فقال: لا تفعل، ولكن كُن بحالك حتى أسترك كما سَترتني، فقلت: ياأمير المؤمنين، لو قدرتُ أن أقيك حَرَّ النار لفعلتُ فكيف الشمسُ؟ فقال: ليس هذا من كرم الصُّحبة، ومَشى ساتراً لي من الشّمس كما سترتُه.

---

(١) ما بين القوسين قال الألباني: ضعيف جداً، رواه عبد الله بن المبارك في الزهد، وعنه رواه الترمذي وابن أبي شيبة والسمناني وأبو الحسن الحربي وابن عساكر عن يحيى بن عبيد الله قال سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول مرفوعاً. ويحيى هذا متروك. انظر الضعيفة [١٨٨٩]. ويغني عنه ما أخرجه ابن وهب في الجامع وعنه أبو داود والبخاري في الأدب المفرد من طريق كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه**». قال العراقي سنده حسن. انظر المغني عن حمل الأسفار [١٨٢٤] وانظر صحيح الأدب المفرد ١٧٨ / ٢٣٩ والصحيحة [٩٢٦].

(٢) ما بعد القوس لم أجده في المصادر التي بين يدي.

وقيل لعُمَر بن ذر: كيف برُّ ابنك بك؟ قال: ما مشيتُ نهاراً قط إلا مَشى خَلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رَقِى سَطحاً وأنا تحته.

وقيل لزياد: إنك تَستخلص حارثة بن بَدر وهو يُواقع الشَّراب؛ فقال: وكيف لا أستخلصه وما سألته عن شيء قط إلا وجدتُ عنده منه عِلماً، ولا استودعتُه سِراً قطَّ فضَيَّعه، ولا راكبني قطُّ فمسَّت رُكبتي رُكبته.

محمد بن يزيد بن عُمر بن عبد العزيز قال: خرجتُ مع موسى الهادي أمير المُؤمنين من جُرجان؛ فقال لي: إمّا أن تَحملني، وإمّا أن أحملك، فعلمتُ ما أراد، فأنشدتهُ أبياتَ ابن صِرمة:

أُوصِيْكُمُ بالله أولَ وَهلةٍ ... وأَحسابكم والبرُّ بالله أَوَّلُ
وإن قومُكم سادُوا فلا تَحسدُوهمُ ... وإن كُنتُم أَهلَ السيادة فاعدِلوا
وإن أنتُمُ أعوزتُمُ فتعفَّفُوا ... وإن كان فَضلُ المال فيكم فأَفضِلوا
وإن نزلت إحدى الدَّواهي بقَومكم ... فأنفُسَكم دون العَشيرة فاجعلوا
وإن طَلبوا عُرفاً فلا تَحرموهُمُ ... وما حَمَّلوكم في المُلمّات فاحملوا

قال: فأمر لي بعشرين ألف دِرهم.

وقيل: إن سعيد بن سَلم راكب موسى الهادي، والحَربةُ بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تَسفي التراب، وعبدُ الله يَلحظ موضع مَسير مُوسى، فيتكلَّف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبلَ على سَعيد بن سَلم، فقال: أما ترى ما نَلْقى من هذا الخائن؟ قال: والله ياأميرَ المؤمنين ما قَصَّر من الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق.

باب السلام والإذن

قال النبي ﷺ: «**أطِيبُوا الكلام، وأفشُوا السلام، وأطعِموا الأيتام، وَصَلُّوا بالليل والناسُ نِيام**»(١).

وقال ﷺ: «**إن أبخل الناس الذي يبخل بالسلام**»(٢).

وأتى رجلٌ النبيَّ ﷺ، فقال: عليك السلامُ يارسول الله؛ فقال: «**لا تقُل: عليك السلام، فإنها تحيَّة الموتى، وقل: السَّلام عليك**»(٣).

وقال صاحبُ حَرس عمر بن عبد العزيز: خرج علينا عمرُ في يوم عِيد وعليه قميصُ كتَّانٍ وعمامة على قلنسوة لاطئة، فقُمنا إليه وسَلَّمنا عليه؛ فقال: مَه، أنا واحدٌ وأنتم جماعة، السلامُ عليّ والردُّ عليكم. ثم سلّم ورَددنا عليه ومشى، فمشينا معه إلى المسجد.

قال النبي ﷺ: «**يُسَلِّم الماشي على القاعد، والراكب على الرَّاجِل، والصغير على الكبير**»(٤).

ودخل رجلٌ على النبي ﷺ فقال له: أبي يُقرِئك السلام؛ فقال: **وعليك وعلى أبيك السلام**(٥).

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي بنحوه عن عبد الله بن سلام، ورواه الترمذي وابن ماجه بنحوه عن عبد الله بن عمر.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بَخِل بالسلام**» قال العجلوني ورجاله رجال الصحيح انظر كشف الخفا [٦٦٧] وصححه الألباني انظر الصحيحة [٦٠١] وصحيح الجامع [١٠٤٤].

(٣) رواه أبو داود عن جابر بن سليم، وللحديث بقية، وروى الترمذي منه حديث السلام.
قال الألباني: إسناده صحيح. انظر مشكاة المصابيح [١٩١٨]. والرجل الذي سلَّم على النبي ﷺ هو جابر بن سليم رضي الله عنه.

(٤) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير**».

(٥) رواه أبو داود. وانظر مشكاة المصابيح [٤٦٥٥].

إبراهيم عن الأسود قال: قال لي عبدُ الله بن مسعود: إذا لقيتَ عُمرَ فاقرأ عليه السلام قال: فلقيتُه فأقرأته السلام؛ فقال: عليك وعليه السلام.

دخل مَيون بن مِهران على سُليمان بن هِشام، وهو والي الجزيرة، فقال: السلام عليكم؛ فقال له سُليمان: ما مَنعك أن تُسَلِّم بالإمرة؟ فقال: إنما يُسلَّم على الوالي بالإمرة إذا كان عنده الناس.

أبو بكر بن أبي شَيبة قال: كان الحَسن وإبراهيم وميمون بن مِهران يَكرهون أن يقول الرجلُ: حيَّاك الله حتى يقول السَّلام.

وسُئل عبد الله بن عُمر عن الرجل يَدخل المَسجدَ أو البيتَ ليس فيه أحد؛ قال يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ومرّ رجل بالنبي ﷺ وهو يَبول، فسلّم عليه، فلم يرد عليه السلام(١).

وقال رجلٌ لعائشة رضي الله عنها: كيف أصْبَحْتِ ياأم المؤمنين؟ قالت: بنِعمة من الله.

وقال رجل لشُرَيح: كيف أصبحتَ؟ قال: بنعمة، ومَدَّ إصبعه السَّبابة إلى السماء.

وقيل لمحمد بن وكيع: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ طويلاً أملي، قصيراً أجلي، سيئاً عملي.

وقيل لسُفيان الثَّوريّ: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ في دار حارت فيها الأدِلَّاء.

واستأذن رجلٌ من بني عامر على النبيّ ﷺ وهو في بيت، فقال: أَلِجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «**أخرُج إلى هذا فعَلِّمه الاستئذان، وقُل له يقول: السَّلام عليكم، أَدْخُل؟**»(٢).

---

(١) أخرجه الجماعة إلا البخاري عن ابن عمر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انظر المباركفوري/ تحفة الأحوذي/ الطهارة ٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٧٧) من طريق ربعي، قال الألباني إسناده صحيح، انظر الصحيحة [٨١٩] المكتب الإسلامي.

جابر بن عبد الله قال: استأذنتُ على النبيّ ﷺ، فقال: مَن أنت؟ فقلت: أنا؛ قال: **أنا أنا**(١).

وقال النبي ﷺ: **الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلاَّ فارجع**(٢).

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الأولى إذن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمة، إما أن يأذنوا وإما أن يردّوا.

باب في تأديب الصغير

قالت الحُكماء: مَن أَدَّبَ ولدَه صغيراً، سُرَّ به كبيراً.

وقالوا: اطبَع الطِّين ما كان رَطبا، واغمِز العُود ما كان لَدْنا.

وقالوا: مَن أدَّب ولدَه غَمّ حاسدَه.

وقال ابنُ عبّاس: مَن لم يَجلِس في الصِّغر حيثُ يَكره لم يَجلِس في الكِبَر حيث يُحبّ.

قال الشاعر:

إذا المَرءُ أعيَتْه المُروءةُ ناشِئاً ... فَمَطلَبها كَهلاً عليه شديدُ

وقالوا: ما أشدَّ فِطامَ الكبير وأعسرَ رياضةَ الهَرِم.

قال الشاعر:

وتَرُوض عِرسَك بعد ما هَرِمت ... ومِن العَناء رياضةُ الهَرِمِ

وكتب شُرَيح إلى معلِّم ولده:

تَركَ الصلاةَ لأكْلُبٍ يَسعى بها ... يَبغِي الهِرَاشَ مع الغُواة الرُّجَّسِ

فَليَأتينَّك غُدوةً بصحيفة ... كُتِبت له كصحيفة المُتَلمِّس(٣)

---

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه، انظر التجريد الصحيح [١٩٦٩] وانظر مختصر مسلم [١٤٢٣].

(٢) رواه مسلم والترمذي عن أبي موسى وأبي سعيد.

(٣) صحيفة المتلمس: تضرب لمن يحمل كتاباً فيه حتفه. وذلك أن عمرو بن المنذر حَمَّل المتلمس وطرفة كتابين إلى أحد عماله، يأمره فيهما بقتلهما، فأما المتلمس فعرف ما فيه فلم يذهب. وذهب طرفة بالكتاب فقُتل.

فإذا أتاكَ فَعَضَّه بمَلامةٍ ... وعظَتْهُ مَوعِظةُ الأديب الكَيِّس
فإذا هَمَمتَ بضَربه فبدِرَّةٍ ... وإذا بلغتَ بها ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنّك ما أتيتَ فَنَفْسُه ... مع ما تُجَرِّعُني أعزُّ الأنفس

وقال صالح بن عبد القدّوس :

وإنَّ مَن أدَّبتَهُ في الصِّبا ... كالعُود يُسقَى الماءَ في غَرسِه
حتى تَراهُ مُورِقاً ناضِراً ... بَعد الذي أبصرتَ من يُبْسِه
والشيخُ لا يَترك أخلاقَه ... حتى يُوارَى في ثَرى رَمسه
إذا أرعوى عادَ له جَهلُه ... كذي الضَّنَى عاد إلى نُكسِه
ما يَبلغُ الأعداءُ من جاهل ... ما يَبلغ الجاهلُ من نَفسه

وقال عمرو بن عُتبة لمعلِّم ولده : ليكُن أوّلَ إصلاحك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنَّ عُيونهم مَعقودة بعَينك، فالحَسَنُ عندهم ما صَنعتَ، والقبيح عندهم ما تَركت. علِّمهم كتابَ الله ولا تُكرههم عليه فيَملّوه، ولا تَتركهم منه فيهجروه؛ رَوِّهم من الحديث أشرفَه، ومن الشعر أعفّه، ولا تَنقُلهم من عِلم إلى علم حتى يُحكِموه، فإنّ ازدحام الكلام في القَلب مَشْغَلةٌ للفهم، وعَلِّمهم سُنَن الحكماء، وجَنِّبهم مُحادثة النِّساء، ولا تَتَّكل على عُذر منّي لك، فقد اتكلتُ على كِفاية منك.

باب في حُب الوَلَد

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: ياأبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: ياأمير المؤمنين، ثمار قُلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم أرضٌ ذَليلة، وسماء ظَليلة؛ فإن طلبوا فأعطِهم، وإن غَضبوا فأرضهم؛ يمنحوك وُدَّهم، ويُحبوك جَهْدَهُم؛ ولا تكن عليهم ثقيلاً فيَملُّوا حياتك، ويُحبُّوا وفاتك. فقال: لله أنت ياأحنف، لقد دخلتَ عليّ وإني لمملوء غَضباً على يزيد فسَلَلْتَه من قلبي. فلما خرج الأحنفُ من عنده، بعث مُعاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيدُ إلى الأحنف بمائة ألف دِرهم ومائة ثوب، شاطره إياها.

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كلَّ مَذهب، حتى لامه الناسُ فيه، فقال:

يَلُومونني في سالم وألومهم ... وجِلدةُ بين العَين والأنف سالمُ

وقال: إن ابني سالماً ليُحِب الله حُبًّا لو لم يَخَفه لم يَعصه.

وكان يحيى بن اليمان يَذهب بولده داود كلَّ مَذهب، حتى قال يوماً: أئمةُ الحَديث أربعة، كان عبد الله، ثم كان عَلقمة، ثم كان إبراهيم، ثم أنت يا داود.

وقال تزوجْتُ أمَّ داود، فما كان عندنا شيءٌ أُلفّه فيه، حتى اشتريتُ له كُسوة بدانِق[1].

وقال زيدُ بنُ عليٍّ لابنه: يابُنيَّ، إن الله لم يَرضك لي فأوصاك بي، ورَضيني لك فحذَّرنيك؛ واعلم أنَّ خيرَ الآباء للأبناء مَن لم تَدعه المَودَّةُ إلى التَّفريط، وخَيْرَ الأبناء للآباء مَن لم يَدعه التَّقصير إلى العُقوق.

وفي الحديث المَرفوع: «**ريح الوَلد من ريح الجنَّة**»[2].

ودخل عمرو بن العاص على مُعاوية وبين يديه بنته عائشة، فقال: مَن هذه ياأمير المؤمنين؟ فقال: هذه تُفَّاحة القَلب؛ فقال له: انبذها عنك ياأمير المؤمنين، فوالله إنّهن لَيَلِدنَ الأعداء، ويُقرِّبن البُعَداء، ويُورِّثن الضّغائن. قال: لا تَقُل ذاك ياعمرو، فوالله ما مَرّض المَرضى، ولا نَدَب الموتى، ولا أعان على الأحزان مِثْلهُنّ، ورُبَّ ابن أُخت قد نَفَع خاله.

وقال المُعلّى الطائيّ:

لولا بُنيات كزُغْب القَطا ... حُطِطْنَ من بَعْض إلى بَعض
لكان لي مُضطَرَبٌ واسعٌ ... في الأرض ذاتِ الطّول والعَرض
وإنما أولادُنا بَيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرض

---

(١) الدانق: سُدسُ الدرهم.

(٢) رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عثمان بن سعيد، وهو ضعيف، انظر المقاصد الحسنة [٥٣٣] وانظر محمد الحوت/ أسنى المطالب [٧١٧] وانظر ضعيف الجامع [٣١٤٥] والضعيفة [٢٤٩٩].

إنْ هَبَّت الريحُ على بَعضهم ... لم تَشبع العينُ من الغَمْضِ

وقال عبد الله بن أبي بَكرة: مَوتُ الوَلد صَدْع في الكَبد، لا ينجبر آخرَ الأبد.

ونظر عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى رجل يحمل طِفلاً على عُنقه، فقال: ما هذا منك؟ قال: ابني ياأمير المؤمنين؛ قال: أما إنه إن عاش فَتَنَك، وإن مات حَزَنك.

وكانت فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ تُرَقِّص الحُسين بن علي رضي الله عنهما وتقول:

إنّ بُنيَّ شَبَهَ النبي ... ليس شَبيهاً بِعَلي

وكان الزُّبير يُرَقص ولده عُروَة ويقول:

أبيَضُ من آل أبي عَتِيقِ ... مُبارَك مِن وَلد الصِّدِّيقِ

أَلذُّه كما أَلذّ رِيقي

وقال أعرابي وهو يُرَقّص ولده:

أُحبُّه حُبَّ الشّحيح مالَهْ ... قد كان ذاقَ الفَقر ثمَّ نالَه

إذا يُريد بذلَه بدالَه

وقال آخر وهو يُرقِّصُ ولده:

أعرف منه قلَّة النُّعاس ... وخِفّةً في رَأسه من راسِي

وكان رجلٌ من طيّء يَقطع الطّريق، فمات وتَرك بُنياً رضيعاً، فجعلت أُمه تُرقصه وتقول:

ياليتَه قد قطع الطّريقا ... ولم يُرد في أمره رَفيقاً

وقد أخاف الفَجَّ والمضيقا ... فقَلَّ أن كان به شَفيقاً

وقال عبدُالملك بن مروان: أضرَّبنا في الوليد حُبُّنا له فلم نُؤَدِّبه، وكأنَّ الوليدَ أدَّبنا.

وقال هارون الرشيد لابنه المعتصم: ما فعل وصيفك فلان؟ قال: مات فاستراح من الكُتَّاب؛ قال أو بلغ منك الكتّاب هذا المبلغ! والله لا حضرْته أبداً، ووجَّهَهَ إلى البادية، فتعلّم الفصاحة، وكان أُمِّيًّا، وهو المعروف بابن ماردة.

وفي بعض الحديث أنّ إبراهيم خليل الرَّحمن صلوات الله عليه كان من أَغْيَر

النَّاس، فلما حضَرَتْه الوفاة، دخل عليه ملك الموت في صُورة رجل أنكره فقال له: مَن أدخلك داري؟ قال الذي أسكنك فيها منذُ كذا وكذا سنة؛ قال: ومَن أنت؛ قال: أنا ملك الموت، جئت لقَبض رُوحك؛ قال: أتاركي أنت حتى أودِّع ابني إسحاق؟ قال: نعم، فأرسل إلى إسحاق، فلما أتاه أخبره، فتعلّق إسحاق بأبيه إبراهيم وجعل يتقطّع عليه بُكاءً؛ فخرج عنهما ملك الموت، وقال: ياربَّ ذبيحُك إسحاق متعلِّق بخليلك؛ فقال له الله: قل له إني قد أمهلتك، ففعل، وانحلَّ إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه، فقبض ملك الموت روحَه وهو نائم.[1]

بابُ الاعتضاد بالولد

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن عَبْدِه زكريَّا ودُعائه إليه في الولد: ﴿وَزَكَرِيا إِذ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرنِي فَرداً وَأَنتَ خَيرُ الوَارِثِين﴾[2]. وقال: ﴿وَإِنِّي خِفتُ المَوالِيَ مِن وَرَائِي وَكانت امرأتي عاقراً فَهَب لِي مِن لَدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يعقُوبَ وَاجعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[3]. والمَوالِي هاهنا بنو العم.

وقال الشاعر:

مَن كان ذا عَضُد يُدرك ظُلامته ... إنّ الذّليل الذي لَيست له عَضدُ
تَنْبو يداه إذا ما قَلَّ ناصرُه ... وَيَأنَفُ الضّيم إن أثرى له عدد

العُتبي قال: لمّا أسنَّ أبو بَراء عامرُ بن مالك، وضَعَّفه بنو أخيه وخَرَّفوه ولم يكن له ولد يَحميه، أنشأ يقول:

دَفعتُكمُ عنِّي وما دَفعِ راحةٍ ... بشيءٍ إذا لم تَسْتَعِن بالأنامل
يُضَعّفني حِلمي وكثرةُ جَهلكم ... عليّ وأني لا أَصُول بجاهل

وقال آخر:

تَعْدُو الذِّئاب عَلَى من لا كلابَ لَه ... وتَتَّقي سَورةَ المُستنفِر الحامِي

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٩.

(٣) سورة مريم الآيتان ٥، ٦.

بابٌ في التجارب والتأدُّب بالزمان

قالت الحُكماء: كَفى بالتّجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عِظَة.

وقالوا: كَفى بالدَّهر مُؤَدِّباً، وبالعَقل مُرْشداً.

وقال حبيب:

أحاولتَ إرشادي فعَقلِيَ مُرْشِدي ... أم استَمت[1] تَأديبي فدَهري مُؤَدِّبي

وقال إبراهيم بن شَكلة:

مَن لم يؤدِّبهُ والداه ... أَدَّبه الليلُ والنَّهارُ

كم قد أذلَّ كَريمَ قَومٍ ... ليس له منهما انتصارُ

مَن ذا يَدُ الدهر لم تَنَله ... أو اطمأنَّت به الدِّيارُ

كُلٌّ عن الحادِثات مُغضٍ ... وعنده للزّمان ثارُ

وقال اخر:

وما أبقت لك الأيامُ عُذْراً ... وبالأيَّام يَتَّعظ اللّبِيب

وقالوا: كفَى بالدهر مُخبراً بما مَضى عما بَقي.

وقالوا: كفَى مخبراً لذَوي الألباب ما جَرَّبوا.

وقالوا لعيسى بن مريم عليهما السلام: مَن أدَّبك؟ قال: ما أَدَّبني أحد، رأيتُ الجَهل قبيحاً فاجتنبتُه.

باب في صُحْبَة الأيام بالموادَعَة

قالت الحُكَماء: أصْحَب الأيام بالمُوادعة ولا تُسابق الدهرَ فتَكْبُو.

وقال الشاعر:

مَن سابَق الدهرَ كَبا كَبْوةً ... لم يَستَقِلها من خُطا الدَّهرِ

فاخطُ مع الدَّهر إذا ما خَطا ... واجرِ مع الدهر كما يَجْرِي

---

(١) استمت: أردت.

وقال بشّار العُقَيلي:

أعاذِلُ إنّ العُسْرَ سَوف يُفِيق ... وإنّ يَساراً من غدٍ لخليُق
وما كنتُ إلا كالزّمان إذا صَحَا ... صحوتُ وإن مَاقَ الزّمان أَمُوقُ[1]

وقال آخر:

تحامَق مَع الحَمْقى إذا ما لَقيتَهم ... ولاقِهمُ بالجهل فِعْلَ ذوي الجَهْلِ
وَخَلِّط إذا لاقيْتَ يوماً مُخَلِّطاً ... يُخَلِّط في قولٍ صحيحٍ وفي هَزلِ
فإنّي رأيتُ المَرْءَ يَشقى بعَقله ... كما كان قبلَ اليومِ يَسْعَدُ بالعقل

وقال آخر:

إنّ المَقَادِيرَ إذا ساعَدَتْ ... أَلحقَتِ العاجِزَ بالحازِمِ

وقال الآخر:

والسَّبب المانعُ حظّ العاقل ... هو الذي سَبَّب حظّ الجاهِلِ

ومن أمثالهم في ذلك قولُهم: تطامن لها تَخْطُك.

ومن قولنا في هذا المعنى:

وتطَامن للزّمان يجزكَ عَفواً ... وإن قالوا ذَليلٌ قُلْ ذليلُ

وقال حَبيب:

وكانت لَوْعَةً ثم اطمأنّت ... كذاك لكلّ سائلة قَرارُ

وقال آخر:

ماذا يُريك الدَّهْرُ من هَوانِه ... ارْفِن[1] لِقرْد السَّوْء في زَمانِه

ولآخر:

الدّهرُ لا يَبْقَى على حالةٍ ... لابُدَّ أن يُقبلَ أو يُدْبِرْ
فإن تَلقّاكَ بِمكْروهةٍ ... فاصبِر فإنَّ الدَّهرَ لا يَصْبِر

---

(١) ماق: حمق.

(١) زفن: (من باب ضرب): رقص.

ولآخر:

آصْبِرْ لِدَهرٍ نال مِنْكَ ... فهكذا مَضَتْ الدُّهورُ
فَرَحاً وحُزْناً مّرةً ... لا الحُزنُ دَامَ ولا السُّرورُ

ولآخر:

عَفَا الله عَمَّن صَيَّر الهمّ واحداً ... وأيْقَنَ أنَّ الدَّائرات تَدُورُ
تَرُوحُ لنا الدُّنيا بغير الذي غَدَت ... وتَحْدُث مِن بعد الأمور أُمورُ
وتَجْري الليالي باجتماع وفُرْقة ... وتَطْلُع فيها أنجمٌ وتَغُورُ
وتَطْمَع أن يَبقى السُّرُورُ لأهله ... وهذا مُحال أن يَدُوم سُرُور

ولآخر:

سأنتظرُ الأيّامَ فيك لعلّها ... تَعود إلى الوَصل الذي هو أَجْمَلُ

باب التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلاً

قالت الحكماء: إيَّاك وما يُعتذر منه.

وقالوا: مَن عَرَّض نَفْسه للتُّهم فلا يأمَن مِن إساءة الظَّن.

وقالوا: حَسْبك من شرٍّ سماعُه.

وقالوا: كفى بالقَوْل عاراً وإن كان باطلاً.

وقال الشاعر:

ومَن دعا الناسَ إلى ذَمِّه ... ذَمُّوه بالحقّ وبالباطلِ
مَقالة السَّوء إلى أهلها ... أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائل

وقال آخر:

قد قِيل ذلك إن حقّاً وإن كَذِباً ... فما آعتذارُك من قَوْلٍ إذا قِيلا

وقال أرسطاليس للإسكندر: إنّ الناس إذا قَدروا أن يقُولوا قدروا أن يفعلوا، فاحترِس من أن يقولوا تَسلم من أن يفعلوا.

وقال آمرؤ القيس: وجُرح اللسان كجُرح الْيَد

وقال الأخطل: والقول يَنْفُذ ما لا تَنفذ الإبرُ

وقال يَعقوب الحَمْدونيّ:

وقد يُرْجَى لجُرْح السَّيف بُرْءٌ ... ولا بُرْءٌ لما جَرَحَ اللِّسَانُ

ولآخر:

قالوا ولَوْ صَحَّ ما قالُوا لفُزْتُ به ... مَن لي بتَصْدِيق ما قالوا وتَكْذِيبي

بابُ الأدب في تشميت العاطس

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: قال النبي ﷺ: «**لا تُشَمِّت العاطس حتى يَحمَدَ الله، فإن لم يَحمده فلا تُشَمِّته**»(١).

وقال: «**إذا عَطَس أحدُكم فحمِدَ الله فشَمِّتوه، وإن لم يحمد فلا تُشَمِّتُوه**»(٢).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يُشَمَّت العاطس إلى ثلاث، فإن زاد فهو داء يَخْرج من رأسه.

عَطَس ابن عمر، فقالوا له: يَرْحمك الله؛ فقال: يَهديكم الله ويُصْلح بالكم(٣).

وعَطَس عليُّ بن أبي طالب فحمِد الله، فقيل له: يرْحمك الله؛ فقال: يَغفر الله لنا ولكم.

وقال عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه: إذا عَطَس أحدُكم فشَمِّتوه ثلاثاً؛ فإن زاد فقولوا: إنك مَضْنوك(٤).

وقال بعضُهم: التَّشْميت مرّة واحدة.

---

(١) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ومعناه صحيح يشهد له مابعده.

(٢) رواه مسلم بنحوه عن أبي موسى رضي الله عنه. / كتاب الزهد والرقائق/ باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب.

(٣) روى الإمام مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا عطس فقيل له: يرحمك الله. قال: يرحمنا الله وإياكم: ويغفر لنا ولكم. الموطأ/كتاب الجامع.

(٤) روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فقل: إنك مضنوك. فقال عبد الله بن أبي بكر: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة.؟ المصدر نفسه.

بابُ الإذْن في القُبْلَة (١)

من حديث الشعبي قال: لقي النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقَبَّلَ بين عينيه (٢).

وقال إياسُ بن دغفل: رأيت أبا نضرة (٣) يقبل خد الحسن (٤).

---

(١) تم حذف ما ورد في تقبيل اليد ومن كره ذلك من الملوك لتكرارها تحت عنوان «قُبْلَة اليد» في هذا الجزء، وفيه تعليق على تقبيل اليد وما ورد فيها من أحاديث، ورأي العلماء حول هذه المسألة.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي في شُعَب الإيمان مرسلاً. قال الألباني إسناده ضعيف. انظر مشكاة المصابيح [٤٦٨٦] وانظر ضعيف أبي داود [١١١٦] وقد روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رجل: يارسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: **لا**. قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: **لا**. قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «**نعم**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وله طرق جمعها وخَرَّجها الشيخ الألباني في الأحاديث الصحيحة. انظر الصحيحة [١٦٠] ومشكاة المصابيح [٤٦٨٠] ورياض الصالحين [٨٩٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم لا يُرحم**». متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه سَمْتاً وهَدْياً ودَلاً. وفي رواية: حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه، قام إليها، فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده فقَبَّلته وأجلسته في مجلسها. رواه أبو داود، وقال الألباني: إسناده جيد.

والسَّمْت: الهيئة والطريق. والدلُّ: حسن الخلق ولطف الحديث. انظر المشكاة [٤٦٨٩] باب المصافحة والمعانقة. وعن البراء قال: دخلت مع أبي بكر رضي الله عنهما أول ما قدم المدينة، فإذا عائشة ابنته مضطجعة، قد أصابتها حُمَّى، فأتاها أبو بكر فقال: كيف أنت يابنية؟ وقبَّل خدها. رواه أبوداود. وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ أتى بصبي فقبَّله فقال: «**أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله**». ومعنى مبخلة مجبنة: أي يحملون آباءهم على البخل والجبن: انظر المشكاة [٤٦٩١].

(٣) هو المنذر بن مالك العبدي.

(٤) رواه أبوداود في سننه/ باب في قبلة اليد وأورد ابن قيم الجوزية تعليق المنذري على هذا الحديث. انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٤/١٣١.

باب الأدب في العِيَادَة

مَرض أبو عمرو بن العلاء، فدخل عليه رجل من أصحابه فقال له: أريد أن أُساهرَك الليلةَ؛ قال له: أنت مُعافًى وأنا مُبْتَلى، فالعافية لا تَدَعك أن تَسهر، والبلاءُ لا يَدَعني أن أنام، وأسأل الله أن يَهب لأهل العافية الشُّكر، ولأهل البلاء الصَّبر.

وكتب رجلٌ من أهلِ الأدب إلى عَليل:

نُبِّئْتُ أنّكَ مُعْتَلٌّ فقلتُ لهم ... نَفسي الفِداءُ لهُ من كلّ مَحذورِ
ياليتَ عِلْتَه بي ثمَّ كان له ... أجرُ العَليل وأنّي غيرُ مأجورِ

وكتب آخر إلى عليل:

وَقَيْناك لو نُعطَى الهوى فيك والمُنَى ... لكان بنا الشَّكوى وكان لك الأجْرُ

وكان شاعرٌ يختلف إلى يحيى بن خالد بن بَرمك ويمتدحه، فغاب عنه أياماً لعلّة عرضت له، فلم يَفتَقده يحيى ولم يَسأل عنه، فلما أفاق الرجلُ من عِلّته كتب إليه:

أيهذا الأمير أكرمك الله ... وأبقاكَ لي بَقاء طَويلاً
أَجَميلاً تراه أصلحك الله ... لكَيما أراه أيضاً جَميلاً
أنّني قد أقمتُ عَنك قَليلاً ... لا تُرَى مُنْفذاً إليَّ رَسُولا
أَلذَنب فما عَلمتُ سوى الشُّكر ... لما قد أَوْليتنيه جَزيلاً
أَم مَلالاً فما عَلِمْتُك للحظ ... مِثْلي على الزَّمان مَلولاً
قد أتى الله بالصَّلاح فما أنكرْتُ مما عَهِدْتُ إلاّ قَليلاً
وأكلتُ الدُّرَّاج وهو غِذاء ... أَفلت عِلّتي عليه أُفولاً
وكَأنّي قدمتُ قبلك آتيك غداً إن أجِدْ إليك سَبيلا

فكتب إليه الوزير يعتذر:

دَفَعَ الله عنكَ نائبةَ الدَّهر ... وحاشاك أن تكون عَليلاً
أُشهدُ الله ما علمتُ وما ذاكَ من العُذْر جائزاً مَقْبولاً
ولَعَلّي لو قد عَلِمْتُ لعاودْتُكَ شَهراً وكان ذاك قَليلاً

فاجعلنْ لي إلى التعلّق بالعُذْ ... ر سَبيلاً إن لم أَجد لي سَبيلاً
فقديماً ما جاء ذو الفَضْل بالفَضْـ ... ـل وما سامَح الخَليلُ خَليلاً

وكتب المُعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

أَعْزِزْ عليَّ بأن أراك عَليلاً ... أو أن يكون بك السَّقامُ نزيلاً
فَوَدِدْتُ أنِّي مالكٌ لسَلامَتي ... فأُعيرَها لك بُكرةً وأَصيلاً
فتكونَ تَبقى سالماً بسلامتي ... وأكونَ مما قد عَرَاكَ بَديلاً
هذا أخٌ لك يَشْتكي ما تشتكي ... وكذا الخليل إذا أَحَبَّ خَليلاً

ومَرض يحيى بن خالد فكان إسماعيل بن صُبيح الكاتب إذا دَخل عليه يَعوده وقف عند رأسه ودَعا له، ثم يَخْرُج فيسأل الحاجبَ عن مَنامه وشَرَابه وطَعامه، فلما أفاق، قال يحيى بنُ خالد: ما عادني في مرضي هذا إلا إسماعيلُ بن صُبيح .

وقال الشاعر:

عِيادة المَرْء يومٌ بين يَوْمين ... وجَلسةٌ لك مِثْل اللَّحظ بالعين
لا تُبْرِمَنَّ مَريضاً في مُساءلة ... يكفيك من ذاكَ تَسْآل بحرفين

وقال بكر بنُ عبد الله لقوم عادوه في مرضه فأطالوا الجلوسَ عنده: المريض يُعاد والصحيح يُزار.

وقال سُفيان الثّوري: حُمْق العُوّاد أشدُّ على المَرضى من أمراضهم، يجيئون في غير وقت ويُطيلون الجلوس.

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز يَعوده في مرضه، فسأله عن علّته، فلما أخبره قال: مِن هذه العلة مات فلان ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدت المَرْضى فلا تَنْعَ إليهم المَوْتى، وإذا خرجتَ عنّا فلا تَعُد إلينا.

وقال ابن عبّاس: إذا دخلتم على الرَّجل وهو في الموت فبشِّرُوه ليلقى ربَّه وهو حَسن الظن، ولقّنُوه الشهادة ولا تُضْجروه[1].

---

(١) أخرج مسلم وابوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه في الجنائز عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة تؤمن على ماتقولون». =

وَمرض الأعمش فأبرمه الناس بالسُّؤال عن حاله، فكَتب قصَّته في كِتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحدٌ، قال: عندك القِصَّة في الكتاب فاقرأها.

ومَرض محمدُ بن عبد الله بن طاهر، فكتبَ إلى أخيه عُبيد الله بن عبد الله:

إنِّي وجدتُ عَلَى جَفَا ... ئك من فِعالك شاهِدَا
إني اعتللت فما فَقَدْ ... تُ سِوى رَسولك عائدا
ولو آعتللتَ فلم أَجِدْ ... سَبباً إليك مُساعدا
لاستشعرتْ عيني الكَرَى ... حتى أُعُودَك راقِدَا

فأجابه:

كُحلت مُقْلتي بشَوْك القتَاد[1] ... لم أذق مُذْ حُمِمْتَ طَعْم الرُّقادِ
يا أَخي الباذل المودّة والنا ... زلَ من مُقلتي مكانَ السواد
مَنَعَتْني عليك رِقَّةُ قلبي ... من دُخولي إليك في العُوّاد
لوْ بأُذْني سمعتُ منكَ أنيناً ... لتَفَرَّى مع الأنين فؤادي

وكتب أبو تمام الطائي إلى مالك بن طَوْق في شَكاة له:

كم لَوْعةٍ للنَّدَى وكم قَلق ... للمجد والمَكْرمات في قَلَقِكْ
أَلبَسكَ الله منهُ عافية ... في نومك المُعْترى وفي أرقك
تُخْرج عن جِسْمك السَّقامَ كما ... أُخْرج ذَمّ الفَعال من عُنقك

وقال آخر في بعض الأمراء:

واعتلّ فاعتلّت الدنيا لعِلّته ... واعتلَّ فاعتلَّ فيه البأسُ والكرمُ
لما استقَلَّ أنار المَجْد وانقشعت ... عنه الضَّبابة والأحْزان والسَّقم

= وروى ابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنه من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوماً من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ماأصابه» وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع [٥١٥٠].

(١) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر وله وريقة غبراء وثمرة تنبت معها غبراء كأنها عجمة النوى. وفي المثل: من دون ذلك خرط القتاد. والإبل لا تأكل القتاد إلا في عام جدب فيجيء الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله، ويسمى ذلك التقتيد. انظر لسان العرب (مادة قتد).

ومن قولنا في هذا المعنى:

رُوح النَّدى بين أثواب العُلا وَصِب ... يَعْتنُّ[1] في جَسد للمجْد مَوْصوبِ
ماأنت وحدَك مكسُوًّا شُحوبَ ضَنى ... بل كلّنا بك من مُضنىً ومشحوبِ
يا مَن عليه حِجَابٌ من جَلالته ... وإن بدا لك يوماً غير مَحجوبِ
أَلْقَى عليك يداً للضُرّ كاشفةً ... كَشَّافُ ضُرّ نبي الله أيُّوبِ

ومثله من قولنا:

لا غرْو إن نال منك السُّقْمُ والضررُ ... قد تُكْسف الشمسُ لابل يُخْسَف القمرُ
يا غُرّة القمر الذّاوي غَضارتُها ... فِدًا لنُورك منِّي السَّمعُ والبَصر
إن يُمْس جسمُك موعوكاً بصاليةٍ[2] ... فهكذا يُوعَكُ الضرغامة الهَصِر
أنتَ الحُسام فإن تُفْلَلْ ضَاربُه ... فقبلَه ما يُفَلّ الصّارم الذّكَر
رُوح من المَجْد في جُثمان مَكْرُمة ... كأنما الصُّبْح من خَدَّيه يَنْفجر
لو غال مَجْلودَه شيءٌ سِوَى قَدَرٍ ... أكبرتُ ذاك ولكن غالَه القَدرُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

لا غرْوَ إن نال منك السُّقْمُ ما سألَا ... قد يُكسَفُ البدرُ أحياناً إذا كَمُلَا
ما تَشْتَكي عِلّةً في الدهر واحدةً ... إلا آشتكى الجُود من وَجْدٍ بها عِلَلا

الأدبُ في الاعتناق

أبو بكر بن محمد قال: حدّثنا سعيد بن إسحاق عن عليّ بن يونس المَدينيّ قال: كنتُ جالساً عند مالك بن أنس فإذا سُفيان بن عُيينة يَستأذن بالباب، فقال مالك: رجلٌ صالح صاحب سُنَّة، أدخِلوه؛ فدخل فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ السلام؛ فقال: سلامٌ خاص وعامّ عليك يا أبا عبد الله ورحمةُ الله؛

(١) يعتن: يعترض. وفي بعض الأصول: «يفتن».
(٢) يريد بالصالية: الحمى، لما فيها من حرارة وسخونة.

فقال مالك: وعليك السلامُ ياأبا محمد ورحمةُ الله، فصافَحه مالك، وقال: ياأبا محمد، لولا أنها بدعة لعانقناك؛ فقال سُفيان: قد عانق مَن هو خيرٌ منَّا، رسول الله ﷺ؛ فقال مالك: جعفراً؟ قال: نعم؛ فقال مالك: ذاك حديثٌ خاص ياأبا محمد ليس بعامّ؛ فقال سفيان: ما عمَّ جعفراً يَعُمنا وما خصه يخُصنا إذا كنَّا صالحين، أفتأذن لي أن أُحدِّث في مجلسك؟ قال: نعم ياأبا محمد: فقال: حدّثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس، أنه لما قَدِم جعفرٌ من أرض الحبشة اعتنقه النبيُّ ﷺ، وقَبَّل بين عينيه، وقال: **جعفر أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً**(١).

بابُ الأدب في إصلاح المعيشة

قالوا: مَن أشبع أرضَه عملاً أشبعت بيته خُبزاً.

وقالوا: يقول الثَّوب لصاحبه: أكْرِمني داخلاً أُكرِمك خارجاً.

وقال عمر بن الخطاب: لا تَنهَكوا وجه الأرض، فإن شَحمها في وَجهها.

وقال: فَرِّقوا بين المَنايا واجعلوا من الرأس رَأسين.

وقال: أَملِكوا العجين فإنه أحد الرَّيعين.

وقال أبو بكر لغُلام له كان يتَّجر بالثياب: إذا كان الثوبُ سابغاً فانشرُه وأنت قائم، وإذا كان قَصيراً فانشُره وأنت جالس، وإنما البيع مِكَاس.

وقال عبد الملك بن مَروَان: مَن كان في يده شيءٌ فليُصلحه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأوّل ما يَبذُل دينه.

---

(١) سبق التعليق على هذا الحديث في باب قُبْلَة اليد، وقد أوردنا حديث أنس حول المصافحة. وكان أنس رضي الله عنه يقول: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قَدِمُوا من سفر تعانقوا». رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح كما قال المنذري (٣/ ٢٧٠) والهيثمي (٨/ ٣٦) ويقول الألباني معلقاً على هذا الحديث: «يمكن أن يقال: إن المعانقة في السفر مستثنى من النهي لفعل الصحابة ذلك». انظر الصحيحة [١٦٠] المكتب الإسلامي.

بابُ الأدب في المؤاكلة

قال النبيُّ ﷺ: «**إذا أكل أحدُكم فليأكل بيمينه وليَشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**»(١).

وحدّث إبراهيمُ بن السِّندي قال: كان فتى من بني هاشم يَدخل على المنصور كثيراً، يُسلِّم من بعيد ويَنصرف. فأتاه يوماً فأدناه، ثم دعاه إلى الغداء، فقال: قد تغديتُ. فأمهله الربيعُ حاجب المنصور حتى ظنَّ أنه لم يفهم الخطيئة، فلما انصرف وصار وراء السِّتر دَفع في قفاه. فلما رأى من الحاجب دفعه في قَفاه شَكا الفتى حالَته وما ناله إلى عُمومته، فأقبلوا من غد إلى أبي جعفر، وقالوا: إنَّ الرَّبيع نال من هذا الفتى كذا وكذا؛ فقال لهم أبو جعفر: إنَّ الربيع لا يُقدم على مثل هذا إلا وفي يده حُجَّة، فإن شئتم أمسكنا عن ذلك وأغضينا، وإن شئتم سألتُه وأسْمَعْتُكُم؛ قالوا: بل يَسأله أميرُ المؤمنين ونسمع. فدعاه فسأله فقال: إنّ هذا الفتى كان يأتي فيُسلِّم ويَنصرف من بعيد، فلما كان أمس أدناه أميرُ المؤمنين حتى سلَّم من قُرب، وتبذَّل بين يديه ودعاه إلى غدائه، فبلغ من جهله بحق المرتبة التي أحلّه فيها أن قال: قد تغدّيتُ، وإذا هو ليس عنده لمن أكل مع أمير المؤمنين وشاركه في يده إلا سَدُّ خَلّة الجوع، ومثل هذا لا يُقوِّمه القولُ دون الفعل. فسكت القومُ وانصرفوا.

وقال بكر بن عُبيد الله: أحقُّ الناس بلَطمةٍ مَن أتى طعاماً لم يُدعَ إليه؛ وأحقُّ الناس بلطمتين من يقول له صاحب البيت اجلس ها هنا، فيقول: لا، هاهنا؛ وأحقُّ الناس بثلاث لطمات من دُعي إلى طعام فقال لصاحب المنزل: ادعُ رَبّة البيت تأكل معنا.

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه. فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**». كتاب الأشربة/ باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

وعن عمر بن أبي سلمة، قال: كنت غلاماً في حِجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيشُ في الصحفة. فقال لي رسول الله ﷺ: «**سمِّ الله وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك**». متفق عليه.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لا ينبغي للفتى أن يكون مُكحْلا ولا مُقبِّباً ولا مُكوكباً ولا شُكامداً ولا حرامداً ولا نُقامدا، ثم فسّره فقال: أما المكحل فالذي يتعرق العظم حتى يَدعه كأنه مُكحلة عاج، والمُقبِّب فالذي يُركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قُبة. والمُكوكب: الذي يَبصق في الطِّست ويتَنَخّم فيها حتى يصير بُصاقه كأنه الكواكب في الطَّست. والحرَامد: الذي يأتي في وقت الغَداء والعَشاء فيقول: ما تأكلون؟ فيقولون من بُغضه: سُمًّا، فيُدخل يده ويقول: حرام العيش بعدكم. والشُّكامد: الذي يُتبع اللقمة بأُخرى قبل أن يُسيغها فيَختنق كأنه ديك قد ابتلع فأرة. والنُّقامد: الذي يضع الطعامَ بين يديه ويأكل من بين يدي غيره.

ومن الأدب: أن يبدأ صاحبُ الطعام بغَسْل يده قبل الطعام، ثم يقول لجلسائه: من شاء منكم فليغسل، فإذا غُسلَ بعد الطعام فَلْيُقدِّمهم ويتأخَّر.

أدبُ الملــوك

وقال العلماء: **لا يُؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تَكرمته إلا بإذنه**[1].

وقال زِياد: لا يُسَلَّم على قادمٍ بين يدي أمير المؤمنين.

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية، ووسَّع له إلى جنبه، وأقبل عليه يُسائله ويحادثه، وزياد ساكت، فقال له ابن عبّاس: كيف حالُك أبا المُغيرة، كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هِجرة؟ فقال: لا، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين، قال ابن عبّاس: ما أدركت الناس إلا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم. فقال له مُعاوية: كُفَّ عنه يابن عبّاس، فإنك لا تَشاء أن تَغْلِبَ إلا غلبت.

الشّيباني قال: بَصَق ابنُ مروان فقَصَّر في بصقته، فوقعت في طرف البساط؛ فقام رجل من المجلس فمسَحه بكُمّه. فقال عبدُ الملك بن مروان: أربعة لا يُستحى من خدمتهم: الإمام والعالِم والوالد والضيف.

---

(١) هو حديث رواه مسلم بنحوه (١/١٨٦) وأحمد (٥/٢٧٢) والترمذي في سننه [باب ما جاء من أحق بالإمامة] وأبو داود (١/٢٢٨) والنسائي (١/١٢٦) وابن ماجه (١/١٦٠).

وقال يحيى بن خالد: مُساءَلة المُلوكِ عن حالها من تحيَّة النَّوكَى[١] فإذا أردتَ أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقُل: صَبَّح الله الأميرَ بالنِّعمة والكرامة؛ وإن كان عليلاً فأردتَ أن تَسأله عن حاله، فقُل: أنزل الله على الأمير الشِّفاء والرّحمة.

وقالوا: من تمام خِدمة الملوك أن يُقَرِّب الخادم إليه نَعْلَيْه، ولا يَدَعه يَمشي إليهما، ويَجعل النعلَ اليُمنى قُبالة الرِّجْل اليمنى، واليُسرى قُبالة الرِّجْل اليُسرى، وإذا رأى مُتَّكأ يَحتاج إلى إصلاح أَصْلَحَه، ولا يَنتظر فيه أمرَه، ويَتفقد الدَّواة قبلَ أن يَأمره، ويَنفُض عنها الغبار إذا قَرَّبها إليه، وإن رأى بين يديه قِرطاساً قد تباعد عنه قَرّبه إليه وَوَضَعه بين يديه على كِسره.

وقال أصحابُ معاوية لمُعاوية: إنّا ربما جَلَسنا عندك فوقَ مِقدار شَهوتك، فأنت تَكره أن تَستَخفَّنا فتأمرنا بالقيام، ونحن نكره أن نُثقِل عليك في الجُلوس، فلو جعلتَ لنا علامة نَعرف بها ذلك؟ فقال: علامةُ ذلك أن أقولَ: إذا شِئتم.

وقيل مثلُ ذلك ليزيدَ بن مُعاوية. فقال: إذا قلتُ على بَركة الله.

وقيل مثلُ ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعتُ الخَيزُرانة.

وما سمعت بألطف معنى، ولا أكمل أدباً، ولا أحسنَ مَذهباً في مُساءلة الملوك من شَبيب بن شَيبة، وقوله لأبي جعفَر: أصلحك الله إني أُحِب المعرفة، وأُجلك عن السُّؤال. فقال له: فُلان بن فُلان.

بابُ الكناية والتعريض

ومن أَحسن الكِناية اللَّطيفة عن المعنى الذي يَقبحُ ظاهرُه: قيل لعُمَر بن عبد العزيز وقد نَبت له حِبنٌ[٢] تحت أُنثييه[٣]: أين نبَتَ بك هذا الحِبن؟ قال بين الرانفة والصَّفن[٤].

---

(١) النَّوكَي: أي الحمقى، انظر لسان العرب (مادة: نوك).

(٢) الحبن (بالكسر): الدمل.

(٣) الأنثيان: الخصيتان.

(٤) الرانفة: أسفل الألية إذا كنت قائما: والصَّفن (بالفتح ويحرك): وعاء الخصية.

وقال آخر ونَبت به حِبن في إبطه: أين نبت بك هذا الحِبن؟ قال: تحت مَنكِبيّ.

وقد كَنَى الله تعالى في كتابه عن الجماع بالمُلامسة، وعن الحدث بالغائط فقال: ﴿أو جَاءَ أحدٌ مِنكم من الغَائِط﴾(١)، والغائط: الفَحْص، [وهو المُطمئن من الأرض]؛ وجَمعه: غِيطان. ﴿وقَالوا مَا لهذا الرّسول يأكُلُ الطَّعام﴾(٢). وإنما كنّى به عن الحَدث. وقال تعالى: ﴿واضمُم يَدَك إلى جَناحِك تَخرُج بَيضَاء مِن غير سُوء﴾(٣). فكنى بالسوء عن البرَص.

ودخل الرّبيع بن زياد على النُّعمان بن المُنذر وبه وضَح، فقال: ماهذا البَياض بك؟ فقال: سيف الله جلاه.

ودخل حارثةُ بن بَدر على زياد وفي وجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثر الذي في وَجهك؟ قال: رَكبت فَرَسي الأشقر فجمح بي، فقال: أما إنك لو رَكِبت الأشهب لما فعل ذلك. فكنّى حارثة بالأشقر عن النَّبيذ، وكنى زياد بالأشهب عن اللبن.

وكان في المدينة رجلٌ يُسمى جعدة يُرجِّل شعره ويتعرض للنساء المعزبات، فكتب رجلٌ من الأنصار كان في الغَزو إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألا أبلغ أبا حَفص رسولاً ... فدى لك من أخي ثِقَة إزَاري
قَلائِصُنا هداك الله إنَّا ... شُغلنا عنكم زمنَ الحصار
يُعقِّلُهُنَّ جَعْدُ شَيْظَمِيٌّ ... وبئس مُعَقِّلُ الذَّود الظُّؤار(٤)

فكنَّى بالقلائص عن النساء. وعرَّض برجل يقال له جَعدَة. فسأل عنه عمرُ، فَدُلّ عليه، فجزّ شَعره، ونَفَاه عن المدينة.

---

(١) سورة النساء آية ٤٣.

(٢) سورة الفرقان آية ٧.

(٣) سورة طه آية ٢٢.

(٤) الشيظمي: الفتى من الإبل. والذود: من ثلاثة أبعرة إلى العشرة؛ وقيل غير ذلك. والظؤار: جمع ظئر، وهو العاطفة على ولد غيرها.

وسمع عمرُ بن الخطاب امرأة في الطّواف تقول:

فمِنهُن من تُسقى بعَذب مُبرَّد ... نُقاخ فتِلْكُمْ عند ذلك قرَّت
ومنهنّ من تُسْقَى بأخضرَ آجن ... أُجاجٌ ولولا خشيةُ الله فَرَّت

ففهم شكواها، فبَعث إلى زوجها، فوجده متغيِّر الفم. فخيَّره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقِها. فاختار الدَّراهم، فأعطاه وطَلّقها.

ودخل على زياد رجلٌ من أشراف البصرة فقال له زياد: أين مَسكنك من البَصرة؟ قال: في وَسطها، قال له: كم لك من الولد؟ قال: تِسعة، فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الوَلد إلا واحدٌ، وهو ساكن في طَرف البصرة. فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك، فقال له: ما كذبتُك، لي تسعة من الولد قدّمت منهم ثمانية فهم لي، وبقى معى واحد، فلا أدري أَلي يكون أم عليَّ، ومنزلي بين المدينة والجَبَّانة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة؛ قال: صدقت.

الكناية يُوَرى بها عن الكذب والكفر

لما هَزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقتل أصحابه وأسَرَ بعضهم، كتب إليه عبد الملك بن مروان أن يَعرض الأسرى على السَّيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر خلَّى سبيله، ومن أبي يَقتله. فأُتي منهم بعامر الشَّعبى ومطرِّف بن عبد الله بن الشِّخير وسعيد بن جبير؛ فأما الشعبي ومطرِّف فذهبا إلى التعريض والكناية ولم يصرحا بالكفر، فَقَبلَ كلامهما وعفا عنهما؛ وأما سعيد بن جبير فأبى ذلك فقُتل.

وكان مما عرَّض به الشعبي، فقال: أصلح الله الأمير، نَبا المنزل، وأحْزَنَ[1] بنا الجَناب، واستَحْلَسْنَا[2] الخوفَ، واكتحلنا السهر، وخبَطَتْنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فَجَرة أقوياء. قال: صدق والله، ما بَرُّوا بخروجهم علينا ولا قَووا، خَليا

(١) أحزن: غلظ.
(٢) استَحْلَسْنا الخوف: نفارقه.

عنه. ثم قُدِّم إليه مُطرِّف بن عبد الله، فقال له الحجّاج: أتُقر على نفسك بالكفر؟ قال: إن من شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر؛ قال: خلّيا عنه. ثم قُدّم إليه سعيد بن جبير، فقال له: أتقِر على نفسك بالكُفر؟ قال: ما كفرتُ بالله مُذْ آمنت به؛ قال: اضربوا عُنقه.

ولما وَلي الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دُوَاد للمحنة في القُرآن ودعا إليه الفُقهاء، أُتي فيهم بالحارث بن مِسكين، فقيل له: أتَشهد أنّ القرآن مخلوق؟ قال: أشهدُ أن التوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومَدَّ أصابعه الأربع، فعرَّض بها وكنَّى عن خلق القرآن وخَلَّص مُهجته من القتل: وعجز أحمد بن نصر فقيهُ بغداد عن الكناية فأباها، فقُتل وَصُلِب.

ودَخل بعض النُساك على بعض الخُلفاء فدعاه إلى طعامه، فقال له: الصائم لا يأكل ياأمير المؤمنين، وما أُزكِّي نفسي بل الله يُزكي من يشاء؛ وإنما كره طعامَه.

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر قال: بينما ابنُ عِرباض يَمشي مُقدماً لِطيَّته[1]، إذ استقبلتـه الخوارج يَحزُّون الناسَ بسيوفهم؛ فقال لهم: هل خرج إليكم في اليهود شيء؟ قالوا: لا؛ قال: فامضُوا راشِدين، فمضَوا وتركوه.

ولقى شيطانُ الطاق[2] رجلاً من الخوارج وبيده سيفٌ، فقال له الخارجي: والله لأقتلنَّك أو تبرأ من عليّ؛ فقال له: أنا من عليّ، ومن عثمان بريء[3].

الكناية عن الكذب في طريق المدح

المدائنيّ قال: أُتي العُريان بن الهَيثم بغلام سكران، فقال له: مَن أنت؟ فقال:

أنـا آبنُ الـذي لا يَنْزلُ الدَّهرَ قِدرُه ... وإن نزلـت يومـاً فسـوف تَعـودُ

---

(١) الطية: النية.

(٢) الطاق: حصن بطبرستان، سكن به محمد بن النعمان أبو جعفر الأحول، الملقب بشيطان الطاق، وإليه تنسب الطائفة النعمانية من غلاة الشيعة.

(٣) يريد أنه من علي، وبريء من عثمان. كما أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار.

ترى الناسَ أفواجاً إلى ضَوء ناره فمنهم قِيامٌ حولها وقُعود

فظنّه ولداً لبعض الأشراف، فأمر بتخليته. فلما كُشف عنه، قيل له: إنه ابن باقلاّني.

ودخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُبرُمة القاضي، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ ـ وكان رُمي عنده بريبة ـ فقال: نعم، إن له بيتاً وقَدَماً وشرَفاً، فخلى سبيلَه، فلما انصرف ابن شبرمة قال له أصحابهُ: أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرفتُ أن له بيتاً يأوي إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرَفُه أُذناه ومَنكباه.

وخطب رجل لرجل إلى قوم، فسألوه: ما حِرفته؟ فقال: هو نخَّاس الدوَاب، فزوّجوه، فلما كُشف عنه وجدوه يبيع السَّنانير، فلما عنَّفوه في ذلك قال: أوَ ما السنانير دواب؟ ما كذبتكم في شيء.

ودخل مُعلَى الطائي على ابن السرَّيّ يعوده في مرضه، فأنشده شعراً يقول فيه:

فأُقْسِمُ إن منَّ الإلهُ بصحَّة ونَال السَّرِيُّ بن السَّرِيِّ شفاءَ
لأرتحلنَّ العِيس شهراً بحجَّة وأُعتق شُكراً سالماً وصَفَاء

فلما خرج من عنده قال له أصحابُه: والله ما نعلم عبدَك سالماً ولا عبدك صَفاء، فمن أردت أن تُعْتَق؟ قال: هما هِرَّتان عندي، والحجّ فريضة واجبة، فما عَلَيَّ في قولي شيء إن شاء الله تعالى.

باب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة

سُئل ابن سيرين عن رجل، فقال: تُوفِّي البارحة، فلما رأى جَزع السائل، قال: ﴿الله يَتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في مَنامها﴾[1] وإنما أردت بالوَفاة النوم.

ومَرض زيادُ فدخَل عليه شُريح القاضي يعوده. فلما خرج بعث إليه مَسرُوق بن الأجدَع يسأله: كيف تركتَ الأمير؟ قال: تركتُه يأمر وينهى؛ فقال مَسروق: إن

(١) سورة الزمر آية ٤٢.

شُريحاً صاحب تعريض عَوِيص فاسألوه، فسألوه فقال: تركتُه يأمر بالوصية وينهى عن البكاء.

وشاور زياد رجلاً من ثِقاته في امرأة يتزوَّجها، فقال: لا خير لك فيها، إني رأيت رجلاً يُقبِّلها، فتركها؛ وخالفَه الرجل إليه وتزوجها. فلما بلغ زياداً خبرُه أرسل إليه وقال له: أما قلتَ لي إنك رأيت رجلاً يُقبِّلها؟ قال: نعم، رأيتُ أباها يُقبِّلها.

وقال أعرابيٌّ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ياأمير المؤمنين، احملني[1] وسُحَيما[2] على جمل؛ فقال: نَشدتك الله ياأعرابيّ، أسُحيم هـذا زِق؟ قال: نعم؛ ثم قال: مَن لم يَنفعه ظَنُّه، لم يَنْفَعهُ يَقينُه.

وودَّع رجلٌ رجلاً كان يُبغِضُه، فقال: امض في سرٍ مِن حِفظ الله، وحِجاب من كلاءته[3]. فَفطِن له الرجل، فقال: رَفع الله مكانك، وشَدَّ ظهرك، وجَعلك مَنظوراً إليك[4].

باب في الصمت

كان لُقمان الحكيم يجلس إلى داود ﷺ مُقتَبساً، وكان عبداً أسود، فوجده وهو يَعمل دِرعاً من حديد؛ فعجب منه ولم يَرَ دِرعاً قبل ذلك، فلم يسأله لُقمان عما يَعمل ولم يُخبره داود، حتى تمَّت الدِّرع بعد سنة، فقاسها داودُ على نَفسه، وقال: زِرد طافا

---

(١) في الكنايات للجرجاني: «وقسم عمر رضي الله عنه مرة الغنيمة فقال له رجل: أعطني لي ولأخي والحبشي» ويريد بالحبشي: الزِق. وقد ورد تشبيه الزِق بالحبشى في الشعر، من ذلك قول بعض الشعراء:

عجبت من حبشي لا حراك به ... لا يدرك الثأر إلا وهو مذبوح

(٢) في اللسان «مادة سحم». قال: «وسُحَيْم تصغير أسْحَم، أراد به الزق لأنه أسَود، وأوهمه أنه اسم رجل».

(٣) يدعو عليه بالبعد من حفظ الله وكلاءته.

(٤) يدعو عليه بالصلب، إذ المصلوب يكون على شيء مرتفع، مشدود الظهر إليه، منظوراً إليه من الناس.

ليوم قِرَافا. تفسيره: درع حَصينة ليوم قِتال. فقال لُقمان: الصَّمت حُكم وقَليل فاعلُه.

وقال أبو عُبيد الله كاتبُ المهدى: كُن على التماس الحظّ بالسكوتِ، أحرصَ منك على التماسه بالكلام، إن البلاء مُوكّلٌ بالمنطق.

وقال أبو الدَّرداء: أنصِف أُذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أُذنان اثنان وفَم واحد لتسمع أكثر مما تقول.

ابن عَوف عن الحسن، قال: جلسوا عند مُعاوية فتكلموا وسكت الأحنف؛ فقال مُعاوية: ما لك لا تتكلم أبا بحر؟ قال: أخافُك إن صدقتُ، وأخاف الله إن كذبتُ.

وقال المُهلَّب بن أبي صُفرة: لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليَّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقال سالم بنُ عبد الملك: فَضْلُ العَقل على اللسان مُرُوءة، وفَضْلُ اللسان على العقل هُجنة.

وقالوا: مَن ضاق صدرُه اتسع لسانه، ومن كَثُر كلامه كَثُر سَقَطُه، ومن ساء خُلقه قَلَّ صديقُه.

وقال هَرم بن حيَّان: صاحب الكلام بين إحدى منزلتين، إن قصَّر فيه خُصم[1]، وإن أغرق فيه أثِم.

وقال شبيب بن شيبة: مَن سمع الكلمة يَكرهها فسكتَ عنها انقطع ضَرُّها عنه.

وقال أكثمُ بن صَيفيّ: مَقتل الرجل بين فَكيه.

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحُسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

يَمـوت الفتَى من عَثـرة بلسـانِـه ... وليس يمـوتُ المرءُ من عَثْرة الرِّجْل
فعثـرَتُـه مِن فيـه تَرمِي برأسـه ... وعثـرتُـه بالـرِّجـل تبرأ على مهـلِ

---

(١) خُصِمَ: أي غلبه الخصم.

وقال الشاعر:

الحِلم زينٌ والسُّكوتُ سَلامةٌ ... فإذا نَطقت فلا تَكُن مِكثارَا
ما إن نَدِمتُ على سكوتي مَرّةً ... لكن نَدمتُ على الكلام مِرَارا

وقال لحسن بن هانيء:

خَلِّ جَنبيك لِرَامِي ... وأمضِ عنه بسَلَامِ
مُت بداء الصَّمت خيرٌ ... لك من داء الكلام
ربَّ لفظٍ ساق آجا ... ل فِئَام وفئَام[1]
إنما السالِمُ من أَلْـ ... ـجَم فاهُ بِلِجَام

وقال بعض الحكماء: حَظّي من الصَّمت لي، ونفعُه مقصور عليَّ. وحظي من الكلام لغيري، وَوَباله راجع عَلَيَّ.

وقالوا: إذا أعجبك الكلامُ فاصمُت.

وقال رجلٌ لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيتَ أن تَصمُت؛ قال: فمتى أصمُت؟ قال: إذا اشتهيتَ أن تتكلّم.

وقال النبيُّ ﷺ: «**ما أُعطى العبدُ شرًّا من طَلاقة اللسان**»[2].

وسَمِع عبد الله بن الأهتم رجلًا يتكلم فيُخطيء، فقال: بكلامك رُزق الصمتُ المحبةَ.

باب في المنطق

قال الذين فَضَّلوا المنطقَ: إنما بُعثَت الأنبياء بالكلام ولم يُبعثوا بالسُّكوت. وبالكلام وُصِف فَضل الصَّمت، ولم يوصف القولُ بالصمت، وبالكلام يُؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُعظَّم الله ويسبح بحمده، والبيان من الكلام هو الذي

---

(١) الفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه.

(٢) رواه الديلمي عن ابن عباس بلفظ: «**ماأعطي عبد شيئاً شراً من طلاقة لسانه**» قاله العراقي انظر تخريج أحاديث علوم الدين [٢٥٦٠] والهندي في كنز العمال [٧٨٩٢]. وقال ابن السبكي: =

مَنَّ الله به على عِباده، فقال: ﴿خَلقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان﴾[١]. والعِلم كلُّه لا يُؤديه إلى أوعية القُلوب إلا اللسان، فنفع المنطق عام لقائله وسامعه ومن بلغه، ونفع الصمتِ خاص بفاعله.

وأعدلُ شيء قِيل في الصمت والمَنطق قولهم: الكلامُ في الخير كلِّه أفضلُ من الصمت، والصمت في الشرِّ كله أفضلُ من الكلام.

وقال عبد الله بن المُبارك صاحبُ الرَّقائق يَرثي مالك بن أنس المَدَنيّ:

صَمُوتٌ إذا ما الصمتُ زَيَّن أهله ... وفَتَّاق أبكار الكلام المُخَتَّم
وَعَى ما وَعَى القرآنُ من كلِّ حِكمَة ... وسِيْطَت[٢] له الآدابُ باللحم والدَّمِ

وقال عمرُ بن الخطاب [رضي الله عنه]: ترك الحركة غفلة.

وقال بكرُ بن عبد الله المُزنيّ: طُول الصمت حُبْسَة.

وقالوا: الصمتُ نَوم، والكلام يَقظة.

وقالوا: ما شيء ثُني إلا قصُر، إلا الكلام فإنه كلما ثُني طال.

وقال الشاعر:

الصَّمتُ شِيمتُه فإنْ ... أبدَى مَقالاً كان فَضْلاً
أبدَى السكوتَ فإن تَكَلَّم لم ... لم يَدَعْ في القول فَضْلا

باب في الفصاحة

محمدُ بن سِيرين قال: ما رأيتُ عَلى امرأة أجمل من شَحم، ولا رأيتُ عَلى رَجُل أجمل من فصاحة.

وقال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن نبيه موسى ﷺ واستيحاشه بعدم الفصاحة: ﴿وَأخِي هَـرونُ هو أفْصَحُ مني لِسَاناً فأرسِلْهُ معيَ رِدْءًا يُصَدِّقُني﴾[٣].

= حديث: «ماأوتي رجل شراً من فضل في لسان» ذكره ابن أبي الدنيا في الصمت منقطع الإسناد من وسطه غير موصول انظر تخريج أحاديث علوم الدين [٢٥٦٠].

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٣، ٤. (٢) سيطت: خلطت. (٣) سورة القصص آية ٣٤.

آفات المنطق

تكلّم ابنُ السَّمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تردّده؛ قال: أردده ليفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه.

الأصمعي قال: قال مُعاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّماط: ياأمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رُتَّة العراق، وتياسَرُوا عن كَشْكَشَة بكر، وتيامَنُوا عن شَنْشَنة تَغلب، ليس فيهم غَمْغَمة قُضاعة، ولا طُمطمانيّة حِمير. قال: مَن هم؟ قال: قومُك ياأمير المؤمنين قُريش؛ قال: صدقتَ، فمن أنت؟ قال: مِن جَرْم. قال الأصمعي: جَرْم فُصحَى الناس.

قال أبو العباس محمد بن يزيد النَّحوي. التَّمتمة في المَنطق: التردُّد في التاء، والعُقْلة: هي التواء اللسان عند إرادة الكلام؛ والحُبْسة: تعذُّر الكلام عند إرادته؛ واللَّفف: إدخالُ حَرف في حَرف؛ والرُّتة: كالرَّتَج تَمَنُّع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل به. والغمغمة: أن تسمع الصوت ولا يَبين لك تقطيعُ الحروف. وأما الرُّتة: فإنها تكون غريزية، وقال الراجز:

يأيُّها المُخلّط الأَرَتّ

ويقال إنها تكثر في الأشراف. وأما الغَمغمة: فإنها قد تكون من الكلام وغيره. لأنها صَوت من لا يفهم تقطيع حُروفه.

قال عنترة:

وصاحب ناديته فغَمْغَما ... يُريدُ لَبيَّك وما تكلَّما
قد صار من خَوْف الكلام أعجَمَا

والطَّمْطمة: أن يكون الكلام مُشبها لكلام العجم؛ واللُّكنة: أن تَعترض في الكلام اللغةُ الأعجمية ـ وسنفسِّر هذا حرفاً حرفاً، وما قيل فيه إن شاء الله ـ واللَّثغة: أن يُعدل بحَرف إلى حَرف؛ والغُنّة: أن يُشرب الحرفُ صوتَ الخَيشوم؛

والخُنَّة: أشد منها؛ والتّرخيم: حَذف الكلام؛ والفأفأة: التردد في الفاء؛ يقال: رجل فأفاء، تقديره فاعل، ونظيره من الكلام ساباط[١] وخاتام، قال الراجز:

يامَيُّ ذات الحَورب المُنشَقّ أخذتِ خاتامي بغير حَقّ

وقال آخر:

ليس بفأفاء ولا تَمتام ولا مُحب سَقطَ الكلام

وأما كشكشة تميم[٢]: فإن بني عمرو بن تميم إذا ذَكرت كاف المؤنّث فوقفت عليها أبدلت منها شيئا، لقُرب الشين من الكاف في المخرج، وقال راجزُهم:

عل لكِ أن تَنْفَعِي وأنْفَعِشْ فتُدخلين اللَّذ مَعِي في اللَّذ مَعَش

وأما كسكسة بكر[٢]: فقوم منهم يُبدلون من الكاف سيناً كما فعل التميميون في الشين. وأما طُمطمانية حِمير: ففيها يقول عَنترة:

تَأوي له قُلُص النَّعام كما أَوَتْ حِزَقٌ يمانِيَةٌ لأعجمَ طِمْطِمِ

وكان صُهيب أبو يحيى رحمه الله يَرتضخ لُكنة روميّة.

وقال رسول الله ﷺ: **صُهيب سابق الروم**[٣].

وكان عُبيد الله بن زياد يرتضخُ لكنة فارسية مِن قِبَل زوج أُمه شيرويه الأسواريّ.

وكان زياد الأعجم، وهو رجل من بني عبد القيس. يَرتضخ لكنة أعجمية، وأنشد المُهلّب في مَدحه إياه:

فتى زاده السُّلتان في الحمد رغبةً إذا غيَّر السُّلْتان كلَّ خَليلِ

يريد السلطان ـ وذلك أن بين التاء والطاء نسباً، لأن التاء من مخرج الطاء. وأما

---

(١) الساباط: سقيفة بين حائطين، أو بين دارين، من تحتها طريق نافذ.

(٢) في القاموس المحيط أن الكسكسة لغة لتميم لا لبكر. انظر تاج العروس ٤/٣٢٤، وفي فقه اللغة: الكسكسة لتميم، والكشكشة لبكر.

(٣) قال المناوي: رواه البزار والطبراني في الكبير والحاكم عن أنس والطبراني عن أم هاني وابن عدي عن أبي أمامة، انتهى. ولفظ الحديث: «**السُّبَّاق أربعة أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة**».

قال الذهبي: هذا حديث منكر فرد والأظهر أن بلالاً ليس بحبشي وأما صهيب فعربي من النمر ابن قاسط. انظر سير أعلام النبلاء ٨/٥٣٠ وفيض القدير [٤٧٩٣] وضعيف الجامع [٣٣٣٣].

الغُنة فتُستحسن من الجارية الحديثة السن. قال ابن الرّقاع في الظبية:

تُزجي أغَنَّ كأنَّ إبرةَ رَوْقِه[1] قلمٌ أصاب من الدَّواة مِدَادها

وقال ابن المُقَفع: إذا كثر تقليب اللسان رقَّت حواشيه ولانت عَذَبَتُه.

وقال العتّابي: إذا حُبس اللسانُ عن الاستعمال اشتدَّت عليه مخارج الحروف.

وقال الراجز:

كأن فيه لَفَفا إذا نَطَقْ من طُول تَحبِيسٍ وَهَمٍّ وأرَقْ

باب في الإعراب واللَّحن

أبو عُبيدة قال: مَرَّ الشعبيُّ بقَوم من الموالي يتذاكرون النحو، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأوَّل من أفسده.

قال أبو عُبيدة: ليته سَمِعَ لحن صَفوان وخالد بن صَفوان وخاقان والفتح ابن خاقان والوليد بن عبد الملك.

وقال عبد الملك بن مروان: اللَّحنُ في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثوب، والجُدري في الوجه.

وقيل له: لقد عَجِل عليك الشيبُ ياأمير المؤمنين، قال: شَيَّبني ارتقاء المنابر، وتوقّع اللَّحن.

وقال الحجَّاج لابن يَعْمَر: أتسمعني أَلحن؟ قال: لا، إلا أنه ربما سَبَقَكَ لسانُك ببعضه في آن وآن؛ قال: فإذا كان ذلك فعرِّفني.

وقال المأمون لأبي عليّ المعروف بأبي يعلى المِنقري: بلغني أنك أُمِّي، وأنك لا تُقيم الشِّعر، وأنك تَلْحَن في كلامك؛ فقال: ياأمير المؤمنين، أمّا اللَّحن فربما سَبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمِّية وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أُميا وكان لا يُنشد الشعر؛ قال المأمون: سألتُك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني عيباً رابعاً، وهو الجهل،

---

(١) تزجى: تسوق. والأغن من الظباء: ما في صوته غنة: والروق: القرن.

ياجاهل، إن ذلك في النبي ﷺ فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما مُنع ذلك النبي ﷺ لنفي الظِّنَّة عنه، لا لعيب في الشعر والكتاب، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وما كنت تَتْلُو من قبْلِه من كتاب ولا تخُطُّه بيمينِكَ إذاً لارتَابَ المُبطلُون﴾[1].

وقال عبدالملك بن مروان: الإعراب جمالٌ للوضيع، واللَّحن هُجْنَةٌ على الشريف.

وقال: تَعلموا النحو كما تتعلمون السُّنن والفرائض.

وقال رجل للحسن: إن لنا إماماً يَلْحَن؛ قال: أمِيطوه عنكم، فإن الإعراب حِلية الكلام.

وقال الشاعر:

النَّحوُ يَبسُط من لسان الألكن ... والمرءُ تُكْرِمُه إذا لم يَلحَن
فإذا طلبتَ من العُلوم أجلَّها ... فأجلُّها منها مُقِيمُ الألسُنِ

وقال آخر:

النَّحوُ صَعبٌ وطويلٌ سُلَّمه ... إذا ارتَقَى فيه الذي لا يعْلمُه
زَلَّت به إلى الحَضِيض قَدَمُه ... يُريدُ أن يُعرِبَهُ فيُعْجِمُه

وقال رجل للحسن: يا أبو سعيد؛ فقال: أحسَبُ أنّ الدَّوانِق[2] شَغَلتك عن أن تقول: ياأبا سعيد.

وكان عمرُ بن عبد العزيز جالساً عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لحَّاناً، فقال: ياغلام، ادْعُ لي صالح؛ فقال الغلام: ياصالحا؛ قال له الوليد: انقُص ألفاً. فقال عمر: وأنت ياأمير المؤمنين فزد ألفاً.

ودخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشراف قُريش، فقال له الوليد: من خَتَنك؟ قال له: فلانٌ اليهودي؛ فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما تسأل عن خَتَني[3] ياأمير المؤمنين، هو فلان بن فلان.

وقال عبدالملك بن مروان: أضرّ بنا في الوليد حُبُّنا له، فلم نُلزمه البادية.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٨.

(٢) الدوانق: جمع دانق (بفتح النون وكسرها): سُدْس الدينار والدرهم. انظر لسان العرب مادة (دنق).

(٣) الختَن بالتحريك: الصِّهْر أو كل من كان من قِبَل المرأة كالأب والأخ.

وقد يَستثقل الإعرابُ في بعض المواضع كما يُسْتَخَفّ اللحنُ في بعضها.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة الفَزاري:

منطقٌ بارعٌ وتَلْحَنُ أحيا ناً وخيرُ الحديث ما كانَ لَحْنا

وذلك أنه من حَكى نادرةٍ مضحكة، وأراد أن يُوفي حروفها حظَّها من الإعراب، طمس حُسنها، وأخرجها عن مقدارها، ألا ترى أن مُزبداً المديني أكل طعاماً فكظَّه، فقيل له: ألا تَقي؟ قال: وما أَقي؟ خبز نقي ولحم طَري؟ مَرَتي طالق، لو وَجدت هذا فيئاً لأكلته.

قال: وكذلك يُستقبح الإعراب في غير موضعه كما استُقبح من عيسى بن عمر إذ قال وابن هُبيرة يَضربه بالسياط: والله إن كانت إلا أُثَيَّاباً في أُسَيْفاط قَبضها عَشَّاروك[1].

وقال رجل لشُريح: ما تقول في رجل تُوفي وترك أباه وأخيه؟ فقال له: أباه وأخاه؛ فقال: كم لأباه وأخاه؟ قال لأبيه وأخيه؛ قال: أنت علَّمتني فما أصنَع؟

بابٌ في اللَّحْن والتَّصْحيف

وكان أبو حنيفة لحاناً، على أنه كان في الفُتيا ولُطف النَّظر واحد زمانه. وسأله رجلٌ يوماً فقال له: ما تقول في رجل تناول صَخرة فضرب بها رأسَ رَجُلٍ فقتله، أتُقِيْدُه به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قُبيس[2].

وكان بِشر المريسي يقول لجلسائه: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه

---

(١) أثياب: تصغير أثواب. وأسيفاط: تصغير أسفاط. وأسفاط: جمع سَفَط (بالتحريك) وهو الذي يُعَبّى فيه الطيب وما أشبه من أدوات النساء. وعَشَّاروك: جمع عَشَّار. والعَشَّار: من يقبض عُشْر الأموال ويجبيها.

(٢) لا يصح ذلك عن أبي حنيفة رحمه الله ويكفينا ماأورده الذهبي في السير عن أبي يوسف قال: كان ابو حنيفة ربعة، من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقاً، وأعذبهم نغمة وأبينهم عما في نفسه. سير أعلام النبلاء ٦/٣٩٩.

وأهنؤها. فسمع قاسم التَّمار يضحكون، فقال: هذا كما قال الشاعر:

إنّ سُلَيْمَى والله يَكلؤها ضنَّت بشيء ما كان يرزؤها

وبِشر المريسي رأسٌ في الرأي، وقاسم التَّمار متقدم في أصحاب الكلام، واحتجاجه لبِشر أعجبُ من لحن بِشر.

ودخل شَبيب بن شيبة على إسحاق بن عيسى يُعزيه عن طفل أصيب به، فقال في بعض كلامه: أصلح الله الأمير، إن الطفل لايزال مُحبنظياً على باب الجنة يقول: لا أدخل حتى يَدخل أبواي، قال إسحاق بن عيسى: سبحان الله! ماذا جئتَ به؟ إنما هو محبنطي، أما سمعت قول الراجز:

إنـي إذا أنشدتُ لا أحْبَنطي ولا أُحِبُّ كثرة التمطِّي

قال شبيب: أَلي يقال مثل هذا وما بين لا بَتِيْهَا أعلمُ مني بها؟ فقال له إسحاق: وهذه أيضاً، أللبصرة لا بتان يالُكع؟ فأبان بتقريعه عَوَاره، فأخجله فسكت.

قوله المُحبنطي: المُمتنع امتناع طلب لا امتناع إباء، وهو بالطاء غير معجمة، ورواه شبيب بالظاء المعجمة. وقوله ما بين لا بَتَيْهَا، خطأ، إذ ليس للبصرة لابتَان، وإنما اللابة للمدينة والكوفة. واللَّابَة: الحَرَّة، وهي الأرض ذات الحجارة السُّود.

نـوادر من الكـلام

يقال: ماء نُقاخ، للماء العذب؛ وماء فُرات، وهو أعذب العذب؛ وماء قُعَاع، وهو شديد المُلوحة؛ وماء حُراق، وهو الذي يَحرق من مُلوحته؛ وماء شَرُوب، وهو دون العَذب قليلا؛ وماء مَسُوس، وهو دون الشَّرُوب؛ وماء شَرِيب، وهو العذب.

اجتمع المُفضَّل الضبيّ وعبد الملك بن قريب الأصمعي، فأنشد المُفضَّل:

تُصْمِتُ بالمـاء تَولباً جَذَعا[1]

---

(١) التولب: الجحش، ويستعمل للإنسان. وهذا عجز بيت لأوس بن حجر، يصف صبياً، وصدره:

وذات هـدم عـار نـواشـرها

والهدم (بالكسر): الثوب الخَلَقُ المرقَّع. والنواشر: عصب الذراع من داخل.

فقال له الأصمعي: تولباً جَدِعاً، والجَدع: السيِّء الغذاء. فضَجَّ المفضل وأكثر؛ فقال له الأصمعي: لو نفخت في الشبور[١] ما نفعك، تكلم بكلام النَّمل وأصِبْ.

وقال مروان بن أبي حفصة في قوم من رُواة الشعر لا يعلمون ما هو على كثرة استكثارهم من روايته:

زَواملْ[٢] للأشعار لا علمَ عندَهم ... بجيِّدها إلَّا كعِلم الأباعر
لَعَمْرُك ما يدرى البعيرُ إذا غدا ... بأوسَاقِه أو راحَ ما في الغَرائر

بابُ نوادر من النحو

قال الخليل بن أحمد: أنشدني أعرابي:

وإنَّ كِلَاباً هذه عَشْرُ أبطُنٍ ... وأنت بَريءٌ من قَبائلها العَشْرِ[٣]

قال: فجعلتُ أعجب من قوله عَشرَ أبطُن [حيث أنث، لأنه عَنَى القبيلة][٤]، فلما رأى عَجبي، قال: أليس هكذا قولُ الآخر[٥]:

وكان مجَني دونَ من كنتُ أتَّقي ... ثلاثُ شُخُوْصٍ: كاعِبَانِ ومُعْصرُ

وقال أبو زيد قلت للخليل: لم قالوا في تَصغير واصل: أويصل، ولم يقولوا: وُوَيصل؟ قال: كرهوا أن يُشَبَّه كلامُهم بنبح الكلاب.

وقال أبو الأسود الدُّؤلي: من العرب من يقول: لولاي لكان كذا وكذا[٦]. وقال الشاعر[٧]:

---

(١) الشبور (كتنور): البوق.

(٢) الزوامل: جمع زاملة، وهي ما يحمل عليها من الإبل.

(٣) البيت للنواح، أحد بني كلاب. (انظر خزانة الأدب للبغدادي ج٤ ص٤٨٤).

(٤) التكملة عن عيون الأخبار (ج٢ ص١٥٨).

(٥) هو عمر بن أبي ربيعة.

(٦) كان ذلك في الجاهلية، وجاء الإسلام وحرم قول ذلك.

(٧) الشاعر هو يزيد بن الحكم الثقفي، وهو ممن أسلم مع ثقيف يوم فتح الطائف، وهذا البيت من شعر له يعاتب به ابن عمه.

وكم مَوْطنٍ لولاي طِحْتَ كما هَوى بأجرامه من قُنَّة النِّيق[١] مُنْهوِى

وكذلكَ لولا أنتم ولولاكم، ابتداءٌ وخبره محذوف.

وقال أبو زيد: وراء وقُدَّام لا يُصْرَفَان لأنهما مؤنثان، وتصغير قدَّام قُدَّيدمه، وتصغير وراء وُرَيِّئة، وقُدَّام خمسة أحرف، لأن الدال مشدَّدة: فأسقطوا الألف لأنها زائدة، ولئلا يُصغر اسم على خمسة أحرف.

أبو حاتم قال: يقال أمٌّ بيِّنة الأمومة: وعمٌّ بَيِّن العمومة. ويقال: مَأموم، إذا شُج أم رأسه[٢]. ورجل مَمُوم: إذا أصابه المُوم[٣].

وقال المازنيّ: يقال في حَسَب الرجل أُرْفَة[٤] ووَصْمَة وأُبنة، وكذلك يقال للعصا إذا كان فيها عيب. ويقال: قَذِيَتْ عينُهُ، إذا أصابها الرَّمد. وقد يقال في التقديم والتأخير مثلُ قول الشاعر:

شَرَّ يومَيْها وأغْوَاه[٥] لها رَكِبَتْ عَنزٌ[٦] بحِدْج[٧] جَملا

يريد: ركبت عَنز بحدج جملا في شرِّ يوميها: نصب لأنه ظرف.

وقد يُسمى الشيء باسم الشيء إذا جاوره. قال الفرزدق:

أخَذْنَا بآفاق السَّماء عليكمُ لنَا قَمراهَا والنجومُ الطَّوالعُ

قوله: لنا قَمراها: يريد الشمس والقمر.

---

(١) النيق: أعلى الجبل.

(٢) في بعض الأصول: «مأمومة» مكان: «أم رأسه» ولعل صواب العبارة: «شجت مأمومته». والمأمومة: أم الدماغ، كما قال المبرد.

(٣) الموم: الحمى. وقيل هو الجدري الكثير المتراكب.

(٤) الأرفة: العقدة.

(٥) كذا في اللسان (مادتي: حدج وعنز): والذي في الأصول: «وأخراه».

(٦) كذا في اللسان وعنز: امرأة من طسم أُخذت سَبيّة فحملوها في هودج وألطفوها بالقول والفعل، فعند ذلك قالت هذا البيت، وقيل غير ذلك. (انظر اللسان مادة عنز). والذي في الأصول: «هند».

(٧) الحدج (بالكسر): مركب من مراكب النساء نحو الهودج.

وكذلك قولُ الناس في العُمرين: أبي بكر وعمر.

قال أبو عُبيدة: المَعْيُون الذي ليس له منظر ولا مخبر، والمَعين: الذي قد أصيب بالعين. والمعين: الماء الظاهر.

الأصمعي قال: لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر. فقال له: كيف رَحلك؟ قال: ما تزداد إلا مثَالة؛ قال: فما هذه المعيوراء التي تَركض، يريد ما هذه الحمير التي تَركب.

يقال: مَعْيوراء ومَشيوخاء ومَعْبُوداء.

قال الأصمعي: إنما يُقال: اقْرأ عليه السلام. وأنشد:

اقرأ على عَصر الشَّباب تحية ... وإذا لقيتَ دَدَاً فَقَطْني من دَدِ[1]

وقال الفرزدق:

وما سُبق القيسيُّ من ضَعف عَقله ... ولكن طَفَت عَلماء قُلْفة خالدِ

[أراد: على الماء، فحذف]. وهذا آخر كتاب سيبويه. وقال بعض الورَّاقين:

رأيتُ يا حمَّاد في الصَّيد ... أرانباً تُؤخَذُ بالأيدِي
إن ذوي النَّحو لهم أنفسٌ ... مَعروفة بالمَكر والكيد
يَضرب عبدُ الله زيداً وما ... يُريد عَبْدُ الله من زَيْد؟

وأنشد أبو زيد الأنصاري[2]:

يا قُرطَ قُرطَ[3] حُيَيّ لا أبَالكُمْ ... يا قُرطُ إني عليكم خائفٌ حَذرُ
قُلتُم له اهْجُ تَميماً لا أبَالكُمُ ... في فَم قائل هذا التُّربُ والحَجَرُ
فإنَّ بيتَ تميم ذُو سَمِعْتَ به ... بيتٌ به رَأَست في عِزِّها مُضرُ

ذو هنا في مكان الذي، لا يتغيّر عن حاله في جميع الإعراب. وهذه لغة طيء تجعل ذو في مكان الذي.

---

(١) الدد: اللهو واللعب.

(٢) الشعر لرجل من طيء. انظر الكامل للمبرد.

(٣) يريد: يابني قرط. وهو قرط بن أبي حارثة بن حيي، من بني ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء.

وقال الحسن بن هانيء:

حُبُّ المُدَامة ذو سمَعْتَ به ... لم يُبْقِ فيّ لغيرها فَضْلاً

وبعضُ العرب يقول: لا أباك في مكان لا أبا لك، [ولأن أبا لك] مضاف. لذلك بقيت الألف، ولو كانت غير مُعربة لقلت: لا أبَ لك، بغير ألف: وليس في الإضافة شيء يُشبه هذا لأنه حالَ بين المُضاف والمضاف إليه وقال الشاعر(١):

أبالموتِ الذي لابُدَّ أني ... مُلاقٍ لا أُباكِ تُخوفيْني

وقال آخر:

وقد مات شَمَّاخٌ ومات مُزَرِّد(٢) ... وأي كريم لا أباكِ يُخلَدُ

وأنشد الفرَّاء لابن(٣) مالك العُقيليّ:

إذا أنا لم أُمَنْ عليك ولم يَكُن ... لقاؤُك إلا من وراءُ وراءُ

هذا مثل قولهم: بين بين.

وقال الفرزدق:

وإذا الرّجال رأوا يزيدَ رأيتهم ... خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصارِ

قال أبو العبّاس محمد بن يزيد النّحوي: في هذا البيت شيء مُستطرف عند أهل النَّحو. وذلك أنه جمع فاعل على فواعل، وإذا كان هكذا لم يكن بين المُذكر والمُؤنث فَرْق، لأنك تقول: ضاربة وضوارب، ولا يقال في المذكّر فواعل إلا في موضعين، وذلك قولهم: فوارس وهوالك، ولكنّه اضطُر في الشّعر فأخرجه عن الأصل ولولا الضرورة ما جاز له.

وقال أبو غَسَّان [رَفيع بن سَلَمة] تلميذ أبي عُبيدة [المعروف بدَمَاذ، يخاطب أبا عثمان النحويَّ المازنيّ]:

تَفكَّرتُ في النَّحو حتى مَلِلتُ ... وأتعبتُ نفسي له والبَدن

---

(١) هو أبو حية النميري. انظر لسان العرب (مادة أبو).

(٢) هو مزرد بن ضرار، أخو الشماخ.

(٣) هو عتي بن مالك. انظر لسان العرب مادة وري.

وأتعبْت بَكراً[١] وأصحابَه ... بكل المَسائل في كُلّ فَن
سِوَى أنَّ باباً عليه العَفا ... ءُ لِلفاء يا ليتَهُ لم يَكُن
فكنتُ بظاهره عالماً ... وكنتُ بباطِنه ذا فَطَن
ولولاو بابٌ إلى جَنْبه ... من المَقْت أحسبُهُ قد لُعن
إذا قلتُ هاتُوا لماذا يُقا ... ل: لستُ بآتيك أو تَأتِيَنْ
أجيبُوا لما قِيلَ هذا كذا ... على النَّصب قالُوا لإضمار أن
وما إن رأيتُ لها مَوضعاً ... فأعرفَ ما قِيلَ إلَّا بفَن
فقد خِفتُ يابَكْرُ من طُولِ ما ... أُفكِّر في أمْر «أنْ» أو أُجَن

بابٌ في الغريب والتَّقْعيب[٢]

دخل أبو عَلقمة على أَعْيَنَ الطبيب، فقال: أصلحك الله، أكلتُ من لُحُوم هذه الجَوازل[٣] وطَسِئت[٤] طَسْأَة فأصابني وَجَعٌ بين الوابلة[٥] ودأية[٦] العُنق، فلم يزل يَنمو ويَربُو حتى خالَطَ الخِلْبَ والشَّراسيف[٧]، فهل عندك دواء؟ قال: نعم، خذ خَرْبَقاً[٨] وسَلْفَقاً وشِبرِقاً[٩] فزَهزِقْهُ وَزَقْرِقْهُ[١٠] واغسله بماء ذَؤب[١١] واشربه؛ فقال له أبو

(١) يعنى ببكر: أبا عثمان المازني. فبلغ ذلك المازني فقال: والله ما أحسب أنه سألني قط فكيف أتعبني.
(٢) تقعيب الكلام وتقعيره: بلوغ غوره.
(٣) الجوازل: فراخ الحمام. وورد في المحاسن والمساويء للبيهقي (ج٣ ص٤٧٠): «الجوازىء». والجوازىء: البقر والظباء التي جزأت بالرطب عن الماء.
(٤) طسىء: تخم من الطعام.
(٥) الوابلة: طرف العضد في الكتف.
(٦) الدأية: فقرة العنق.
(٧) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو رأس الضلع مما يلي البطن.
(٨) الخربق (كجعفر): ضرب من الأدوية، ونبت كالسم يُغشيَّ على آكله ولا يقتله.
(٩) الشبرق (كزبرج): نبت من جنس الشوك، فإذا كان رطباً فهو الشبرق، وإذا يلبس فهو الضريع.
(١٠) الزهزقة والزقزقة: ترقيص الأم للصبي. ولعله يريد هنا حركة الغربال ونحوه بما يوضع فيه لغربلته.
(١١) الذوب: العسل، أو ما في أبيات النحل، أو ما خلص من شمعه.

عَلقمة: لم أفهمك؛ فقال: ما أفهمتُك إلاَّ كما أفهمتني.

ودعا أبو علقمة بحَجَّام يَحجمُه فقال له: أنْق غَسْل المحَاجم، واشدُد قَصب المَلازم[١]، وأرهف ظُبَات المشَارط، وأسرع الوضعَ، وعجِّل النَّزع، وليكُن شرطُك وَخْزاً، ومَصَّك نَهزاً، ولا تَرُدَّن آتياً، ولا تُكْرِهَنَّ آبياً. فوضع الحجَّام محاجمه في جُونته[٢] ومضى عنه.

وسَمع أعرابيٌّ أبا المَكنون النَّحوي في حَلقته وهو يقول في دعاء الاستسقاء: اللهم ربَّنا وإلهنا ومولانا فَصَلِّ على محمد نبيّنا، اللهم ومن أراد بنا سُوءاً فأحِطْ ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد، ثم أَرْسَخْهُ على هامَته، كرسُوخ السِّجِّيل[٣] على هام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غَيثاً مُغيثاً مَريئاً مَريعاً مُجلجلا[٤] مُسْحَنفرا[٥] هَزجاً[٦] سَحًّا سَفُوحاً طَبَقاً[٧] غَدقاً[٨] مُثعَنْجِراً[٩]، نَافعاً لعَامَّتنا، وغيرَ ضار لخاصَّتنا. فقَال الأعرابيّ:

يا خليفة نُوح هذا الطُّوفان وربِّ الكعبة، دعني حتى آوي إلى جَبَل يَعصمني من الماء.

وسمعه مرة أخرى يقول في يوم برد: إن هذا يوم بلّة[١٠] عَصَبصب[١١] بارد هِلَّوف[١٢]، فارتعد الأعرابي وقال: والله هذا مما يَزيدني برداً.

وخطب أبو بكر المَنكور فأغرب في خُطبته وتقَعَّر في كلامه، وعند أصل المِنبر رجلٌ

---

(١) الملازم: جمع ملزم (بكسر الميم): خشبتان مشدود أوساطهما بحديد تجعل في طرفها قُنّاحة (مفتاح معوج طويل) فتلزم ما فيها لزوماً شديداً، تكون مع الصياقلة والأبّارين ومجلدي الكتب وغيرهم.

(٢) الجونة (بضم الجيم): سَلَّة مغشاة أدماً تكون مع العطارين.

(٣) السجيل: حجارة كالمدر.

(٤) المجلجل من السحاب: الذي فيه صوت الرعد.

(٥) المسحنفر: الكثير الصب الواسع.

(٦) الهزج: الذي به صوت.

(٧) طبقاً: عاماً واسعاً.

(٨) الغدق: الكثير.

(٩) المثعنجر: السحاب الممتلىء.

(١٠) البلة (بالكسر وبالضم): الندوة. والبلة (بالفتح): البلل.

(١١) عصبصب: شديد.

(١٢) الهلُّوف: الثقيل البطيء.

من أهل الكوفة يقال له حَنَش، فقال لرجل إلى جَنبه: إني لأبغض الخطيب يكون فَصيحا بليغاً مُتقعِّرا. وسمعه أبو بكر المنكور الخطيبُ، فقال له: ما أحوجك ياحَنش إلى مُدَحْرج[1] مَفتول ليِّن الجلاز[2] لَدْن المَهزّة، عظيم الثّمرة[3]، تُؤخذ به من مَغرز العُنق إلى عَجب الذَّنب[4] فتُعلَى به فتَكثُر له رقصاتُك من غير جَذل.

وقال حبيب الطائي:

فما لك بالغريب يدٌ ولكن ... تَعاطيكَ الغَريبَ من الغَريب
أَمَا لو أَنَّ جهلك عاد عِلماً ... إذاً لرسَخْتَ في عِلم الغُيوبَ

ومن قولنا نَمدح رجلا باستسهال اللفظ وحُسن الكلام:

قَولٌ كأنّ فَريْده ... سِحْرٌ على ذِهْن اللَّبيب
لا يَشمئز على اللسا ... نِ ولا يَشِذّ عن القُلوب
لم يَغْلُ في شَنِع اللُّغا ... تِ ولا توَحّشَ بالغريب
سَيفٌ تَقَلّدَ مثْلَهُ ... عَطْفَ القَضيب على القَضيبَ
هذا تُجَذّ بهِ الرِّقا ... بُ وَذا تُجَذّ به الخُطُوب

---

(١) المدحرج: المدور، يصف سوطاً.
(٢) الجلاز: العقب المشدود في طرف السوط.
(٣) ثمرة السوط: طرفه.
(٤) مغرز العنق وعجب الذنب: أصلاهما.

باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه

قالوا: ليس الفِقْه بالتفقُّه، ولا الفَصاحة بالتفصُّح، لأنه لا يَزيد مُتَزيّد في كلام إلا لنَقص يجده في نَفْسه. ومما اتفقت عليه العربُ والعجمُ قولهم: الطَّبع أمْلك. وقال حَفْص بنُ النُّعمان: المَرْء يَصْنع نَفْسه، فمتى ما تَبْلُهُ يَنْزِع إلى العِرْق.

وقال العَرْجيّ:

يا أيها المُتحلِّي غيرَ شِيمَته ... ومن شَمائله التَّبديلُ والمَلَقُ
ارْجع إلى خِيْمِك[1] المَعروفُ دَيْدَنُهُ ... إنَّ التخلّق يأتي دُونه الخُلُق

وقال آخر[2]:

ومن يَبتدع ما لَيس مِن خِيْمِ نَفْسِهِ ... يَدَعْه ويَغْلِبه على النَّفس خِيمُها

وقال آخر:

كلُّ امريءٍ راجِعٌ يوماً لِشِيمَته ... وإنْ تَخَلَّقَ أخلاقاً إلى حِينِ[3]

وقال الخَريمي:

يُلَامُ أبو الفَضْل في جُودِه ... وهَلْ يَمْلِك البَحرُ ألّا يَفِيضَا

وقال أبوالأسود الدُّؤَلي:

ولائمةٍ لامَتْكَ يا فَيْضُ في النَّدَى ... فقُلْتُ لها هل يَقْدَحُ اللَّوْمُ في البَحْرِ
أَرَادَتْ لتَثْني الفَيْضَ عن عادة النَّدَى ... ومَن ذا الذي يَثْني السحابَ عن القَطْرِ

وقال حَبيب:

تَعَوَّد بَسْط الكفِّ حتى لَوَ انه ... ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أَنامِلُه

---

(١) الخيم: الطبيعة. انظر لسان العرب مادة (خيم).

(٢) جاء هذا البيت منسوباً إلى كثير. انظر عيون الأخبار ج٢ ص٥.

(٣) نسب هذا البيت في عيون الأخبار لذي الإصبع العدواني.

وقال آخر:

وقَفَّعَ[١] أطرافَهُم قَبْضُها فإنْ طَلبُوا بَسْطَها تَنْكَسِرْ

وقالوا: إن مَلِكاً من ملوك فارس كان له وزير حازم مُجرِّب، فكان يُصْدِر عن رأيه، ويَتعرَّف اليُمْن في مَشُورته، ثم إنّه هَلَك ذلك الملكُ، وقام بعده ولدٌ له مُعجَب بنفسه مُستبدٌّ برأيه، فلم يُنزل ذلك الوزيرَ منزلته، ولا اهْتَبل[٢] رأيه ومشورته، فقيل له: إن أباك كان لا يَقطع أمراً دونه؛ فقال: كان يَغْلَط فيه وسأمتحنه بنَفْسي. فأرسل إليه، فقال له: أيّهما أغْلبُ على الرجل: الأدبُ أو الطبيعة؟ فقال له الوزير: الطبيعةُ أغلبُ، لأنها أصلٌ والأدب فَرْعٌ، وكلُّ فَرْع يَرْجع إلى أصله. فدعا الملكُ بسُفْرته، فلما وُضِعت أقبلت سَنانيرُ بأيديها الشَّمعُ، فوقفت حول السُّفرة، فقال للوزير: اعتبر خَطَأَك وضَعْف مَذْهبك، متى كان أبو هذه السنانير شَماعا. فسكت عنه الوزير، وقال: أمْهلني في الجواب إلى الليلة المُقبلة؛ فقال: ذلك لك فخَرج الوزيرُ، فدعا بغُلام له، فقال: الْتَمِسْ لي فأراً وارْبُطه في خَيط وجئْني به، فأتاه به الغلامُ، فعقده في سَبَنِيَّة[٣] وطرحه في كُمّه، ثم راح من الغد إلى الملك، فلما حضرت سُفرته أقبلت السنانير بالشّمع حتى حَفّت بها، فحلّ الوزيرُ الفأرَ من سَبنيّته، ثم ألقاه إليها، فاستبقت السنانيرُ إليه ورَمت الشمعَ حتى كاد البيتُ يضطرم عليهم ناراً. فقال الوزيرُ: كيف رأيتَ غَلَبة الطَّبيعة على الأدب، ورُجوعَ الفَرْع إلى أصله؟ قال: صدقتَ، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه. فإنما مَدار كل شيء على طبعه، والتكلُّف مَذْموم من كل وجه. قال الله تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ: قل يا محمد: ﴿**وما أنا من المتكلِّفين**﴾[٤]. وقالوا: من تَطبّع بغير طبعه نَزَعَتْهُ العادةُ حتى تردَّه إلى طَبْعه، كما أن الماء إذا أُسْخِنته ثم تركته ساعة عاد إلى طَبعه من البُرودة، والشجرةَ المُرّة لو طليتها بالعسل لا تُثمر إلا مُرًّا.

---

(١) قفع: قبض. (٢) اهتبل: اغتنم.

(٣) السبنية: ضرب من الثياب تتخذ من مشاقة الكتان. يريد قطعة من هذا النوع من الثياب.

(٤) سورة ص، الآية: ٨٦.

باب في ترك المشاراة والمماراة

دخل السّائب بن صَيْفيّ على النبيّ ﷺ، فقال: أتعرفني يارسول الله؟ قال: وكيف لا أعرف شَريكي في الجاهليّة الذي كان لا يُشارى ولا يُمارى[1]. وقال ابن المُقفّع: المُشاراة والمُماراة يُفْسدان الصَّداقة القديمة، ويَحُلّان العقدة الوثيقة، وأيسر ما فيهما أنهما ذَريعة إلى المُنافسة والمُغالبة. وقال عبدُالرحمن بنُ أبي لَيْلى: لا تُمارِ أخاك فإمّا أن تُغْضبه وإما أن تَكْذِبه.

وقال الشاعر:

فإيَّاك إيَّاك المِرَاءَ فإنه ... إلى السَّبّ دَعّاءٌ وللصَّرْم جالبُ

وقال عبدُالله بن عبّاس: لا تُمار فقيهاً ولا سَفيهاً، فإنّ الفقيه يَغلبك والسَّفيه يُؤْذيك. وقال ﷺ: «**سِبَابُ المُؤْمن فُسوقٌ وقِتالهُ كُفْر**»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٥ عن السائب بن عبدالله، وأبوداود / كتاب الأدب ـ باب في كراهية المراء ٤٨١٥ عن السائب، والحاكم في المستدرك / كتاب البيوع عن السائب بن السائب. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص صحيح، وأخرجه ابن ماجه / كتاب التجارات ـ باب الشركة والمضاربة، عن السائب [٢٢٨٧] وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح ابن ماجة. وأخرجه ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن السائب / كتاب الصمت [١٤٥]. والزيلعي عن السائب ابن السائب / نصب الراية ـ كتاب الشركة. وقد اختلفت المصادر فيمن كان شريك النبي ﷺ انظر ابن حجر / الإصابة ٣/٢٣٨ وابن عبدالبر / الاستيعاب ٢/٥٧٢، والسهيلي / الروض الأنف ٥/٣٤٨.

(٢) متفق عليه بلفظ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**».

باب في سوء الأدب

دخل عُرْوة بن مَسعود الثَّقفيّ على النبي ﷺ، فجعل يُحدِّثه ويُشير بيده إليه حتى تَمسّ لحيته، والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله ﷺ بيده السيفُ، فقال له: اقبض يدك عن لِحْيَة رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك. فقبض عُروة يدَه[1]. وعُروة هذا هو عظيم القريتين الذي قالت فيه قريش: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. ويقال إنه الوليد بن المغيرة المخزومي. ولما قَدِم وفدُ تميم على النبي ﷺ ناداه رجل منهم من وراءِ الجدار: يا محمد، اخرج إلينا. فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الذينَ يُنَادُونَكَ مِن ورَاء الحُجُراتِ أكثرُهم لا يَعْقِلُون﴾[2]. وأنزل الله في ذلك: ﴿لا تجعلوا دُعَاءَ الرسول بينكُم كدُعَاءِ بعضِكُم بَعْضاً﴾[3].

ونظر أبوبكر الصِّديق (رضي الله عنه) إلى رجل يَبيع ثَوْباً، فقال له: أتبيع الثوبَ؟ قال: لا عافاك الله؛ قال: لقد علمتم لو تتعلّمون! قل: لا وعافاك الله.

وخطب الحسن في دَم. فأجابه صاحبُ الدم، فقال: قد وضعتُ ذلك الدم لله ولوجُوهكم. قال له الحسن: ألا قلت: قد وضعتُ ذلك لله خالصاً؟

وذكر أعرابيّ رجلاً بسوء الأدب فقال: إن حدّثْتَهُ سابقَك إلى ذلك الحديث، وإن تركتَه أخذ في التُّرَّهات. ودخل بعضُ الرُّوَاة على المَهديّ، فقال له. أنشدني قولَ زُهير:

* لمن الدِّيار بقُنَّة الحِجْر *

فأنشدها حتى أتى على آخرها. فقال له المهديُّ: ذَهب والله مَن كان يقول هذا؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما / كتاب الشروط، كما أوردها ابن سيد الناس بتوسع. انظر عيون الأثر ٢/١٦٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

فقال له: كما ذَهب والله من يُقال فيه. فاستجهله واستَحمقَه.

ودخل أبوالنَّجْم على هشام بن عبدالملك بأرجوزته التي أوّلها:

* الحمد لله الوَهُوب المُجْزِل *

وهي من أجود شِعْره. فاستحسنها هشام وأصغى إليها. فلما أتى على قوله:

* والشمسُ في الجوِّ كعَيْنِ الأحْول *

غضب هشامٌ وكان أحولَ، فأمر بصَفْع قَفاه وإخراجه.

ودخل كُثَيِّر عزَّة على عبدالعزيز بن مروان فأنشده مدحَته التي يقول فيها:

وأنتَ فلا تُفْقَدْ ولازال مَنْكُمُ ... إمامٌ يُحيَّا في حِجَاب مُسَدَّنِ[1]
أَشَمُّ منَ الغادين في كُلِّ حُلَّة ... يَميسون في صَبْغ من العَصْب مُتْقن[2]
لهُم أُزُرٌ حُمْرُ الحَواشي يَطَوْنَها ... بأقدامِهم في الحَضْرميّ المُلَسَّن[3]

فاستحسنها وقال له: سَلْ حاجَتك؛ فقال: تُولِّيني مكانَ ابن رُمَّانة كاتبك. فقال له: ويلك! ذا كاتبٌ وأنت شاعر، فكيف تَقوم مَقامه وتَسدُّ مَسدَّه؟ فلما خرج من عنده ندم وقال:

عَجِبتُ لأخذِي خُطَّة العَجْز بعدما ... تَبيَّنَ من عبدالعزيز قَبُولُها
لئن عاد لي عبدُالعزيز بمثْلها ... وأمْكنني منها إذاً لا أقولها

ووقف الأحنف بن قيس ومحمدُ بن الأشعث بباب معاوية، فأذِن للأحنف ثم لمحمد بن الأشعث، فأسرع محمدٌ في مشْيته حتى دَخل قبل الأحنف. فلما رآه مُعاوية قال له: والله إنِّي ما أذنتُ له قبلَك وأنا أُريد أن تَدْخل قبلَه، وإنّا كما نَلي أُموركم كذلك نلي أدبكم، ولا يزيد مُتَزَيِّد في أمره إلا لنقْص يجده في نَفْسه. وقال عبدُالملك ابن مروان: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يَستخِفَّ بهم: العُلماء والسُّلطان والإخْوان.

---

(١) مسدن: مرسل.

(٢) العَصْب: ضرب من برود اليمن، سمي عَصْباً، لأن غزله يُعْصَب، أي يدرج ثم يصبغ ثم يحاك.

(٣) يطونها، أي يطؤونها. ووطي يطي، لغة في وطيء يطأ. والحضرمي: نعل تنسب إلى حضر موت تتخذ بها. والملسن من التعلل: ما فيه طول ولطافة على هيئة اللسان.

فمن استخفَّ بالعُلماء أفسد دينه، ومَن استخفَّ بالسُّلطان أفسد دُنياه، ومن استخفَّ بالإخوان أفسد مروءته.

وقال أبو الزِّناد: كنتُ كاتباً لعُمر بن عبدالعزيز، فكان يكتب إلى عبدالحميد[1] عامله على المدينة في المَظالم فيُراجعه فيها، فكتَب إليه: إنه يُخيّل إليَّ أنِّي لو كتبتُ إليك أن تُعطِي رجلاً شاة، لكتبتَ إليّ: أضأناً أم مَعزاً؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إليَّ: أذكراً أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبت: أصغيراً أم كبيراً؟ فإذا كتبتُ إليك في مَظلْمة فنَفِّذ أمري ولا تراجعني فيها. وكتب أبوجعفر إلى سَلْم بن قُتيبة، يأمره بهدْم دُور مَن خَرج مع إبراهيم بن عبدالله، وعَقْر نخلهم، فكتب إليه: بأيّ ذلك تبدأ، بالدُّور أو بالنَّخل؟ فكتب إليه أبوجعفر: إنِّي لو أمرتك بإفساد تَمرهم، لكتبتَ: بأيّ ذلك نبدأ؟ بالصَّيْحانيّ[2] أم بالبَرْنيّ[3]؟ وعَزله وولّى محمد بن سليمان.

ولمحمود الورّاق:

كم قد رأيتَ مَساءةً ... من حيثُ تَطْمعُ أنْ تُسرّا
ولربما طَلب الفَتى ... لأخيه مَنْفعةً فَضرَّا

ودخل عَدِي بن أرطأة على شُرَيح القاضي، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: اسمع منِّي. قال: قُلْ نَسْمَعْ. قال: إني رَجل من أهل الشام. قال: مكانٌ سَحيق. قال: وتزوّجتُ عندكم. قال: بالرِّفاء والبنين. قال: وأردتُ أن أُرَحِّلَها. قال: الرَّجلُ أحقُّ بأهله. قال: وشرَطتُ لها دارها. قال: الشَّرْطُ أَمْلك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلتُ. قال: فعلى مَن حكمتَ؟ قال: على ابن أمّك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك ـ أراد شُريك إقرارَه على نفسه بالشَّرْطِ ـ وكان شريح صاحب تعريض عويص.

---

(١) هو عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، ولي المدينة لعمر بن عبدالعزيز.

(٢) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة.

(٣) البرني: ضرب من التمر أصفر مدور، وهو من التمور الجيدة. وفي الحديث المرفوع: «خير تمراتكم البرني يذهب بالداء ولا داء فيه» وصححه الألباني بمجموع شواهده. انظر الصحيحة ١٨٤٤.

وكان فتىً يُجالس الشَّعْبيّ، وكان كثيرَ الصَّمت، فالتفت إلى الشَّعبيّ، فقال له: إني لأجد في قَفاي حكَّة أفتأمُرني بالحِجامة؟ فقال الشَّعبيُّ: الحمدُ لله الذي حَوّلنا من الفِقْه إلى الحِجامة. قال: وأتى أحمد بن الخصيب بعضَ المتظلّمين يوماً، فأخرج رجْلَه من الرِّكاب فرَكله بها. فقال فيه الشاعر:

قُلْ للخليفَةِ يا ابن عمِّ محمدٍ ... اشْكُل وزيرَك إنَّه ركَّالُ

باب في تحنك الفتى

قِيلَ لعُمَر بن الخطَّاب: إنَّ فُلاناً لا يَعْرف الشَّر. قال: ذلك أَحْرَى أن يَقع فيه. وقال سُفْيان الثَّوريّ: من لم يُحْسن أن يتَفتَّى لم يُحسن أن يَتَقَرَّى[1]. وقال عمرو بن العاص[2]: ليس العاقلُ الذي يعرف الخيرَ من الشَّر، إنما العاقلُ الذي يَعرف خيرَ الشَّرَّيْن. ومثل ذلك قول الشاعر:

رَضيتُ ببعضِ الذُّل خوفَ جَميعه ... كذلك بعضُ الشّر أهونُ من بعضِ

وسُئِل المُغيرةَ بن شُعبة عن عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقال: كان والله له فَضْلٌ يمنعه من أن يَخدع، وعَقلٌ يَمنعه من أن يَنْخَدع. قال إياس[3]: لستُ بِخَبّ والخَبُّ لا يَخْدَعُني. وتجادَل إياس والحَسنُ ـ وكان الحسن يرى كلَّ مسلم جائز الشهادة حتى تظَهر عليه سَقطةٌ أو يُجَرِّحه المشهود عليه، وكان إياسٌ لا يَرى ذلك ـ فأقبل رجلٌ إلى الحسن، فقال: إنَّ إياساً رَدّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه، فقال: أبا وائلة، لِمَ رددت شهادة هذا المُسلم؟ فقد قال ﷺ: «من **صلَّى إلى قبلتنا فهو**

---

(١) التفتي: عمل يعمله الفتيان. والتقرؤ: النسك.

(٢) هذا من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أيضاً هذا من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المُسلم، له مالنا وعليه ماعلينا»[١] فقال له إياسٌ: ياأباسعيد، يقول الله تعالى: ﴿ممن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء﴾[٢] وهذا ممن لا نرضاه.

وكان عامرُ بن عبدالله بن الزُّبير في غاية الفَضْل والدِّين، وكان لا يَعْرف الشرّ، فبينا هو جالسٌ في المَسْجد، إذ أُتي بعطَائه، فقام إلى مَنْزله فنَسيه. فلما صار في بَيته ذَكَره، فقال لخادمه: اذهبْ إلى المَسجد فائْتني بعطائي. فقال له: وأين نجده؟ قال: سبحان الله! أوبَقي أحدٌ يأخذُ ما ليس له؟ وقال أيُّوب: مِنْ أَصحابي من أرتجي بركةَ دُعائه ولا أقْبل شهادَته. وذُكرتْ فاطمةُ بنت الحسين رضي الله عنهما عند عُمر بن عبدالعزيز وكان لها مُعظِّما، فقيل إنها لا تَعْرِف الشَّرَّ. فقال عُمر: عدم معرفتها بالشر جَنَّبها الشر.

وكان يستحسنون الحُنْكة للفَتى والصَّبْوة للحَدَث، ويكرهون الشَّيب قبل أوانه، ويُشَبِّهون ذلك بيُبوس الثَّمرة قبل نُضْجها، وأن ذلك لا يَكُون إلا من ضَرر فيها. فأنفع الإخوان مجلساً، وأكرمهم عشرةً، وأشدُّهم حِذقا، وأنبههم نفساً، مَن لم يكن بالشَّاطِر المُتفَتِّك، ولا الزَّاهِد المُتنَسِّك، ولا الماجن المتَظرِّف، ولا العابد المُتقَشِّف، ولكن كما قال الشاعر:

يا هِنْدُ هل لك في شيخٍ فتىً أبداً ... وقد يكونُ شبابُ غَيْرُ فِتْيانِ

وقال آخر:

وفتى وهو قد أنافَ على الخَمْـ ... ـسِينَ يَلْقاكَ في ثيابِ غُلامِ

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ولفظ البخاري: «**من صَلَّى صَلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته**». انظر كتاب الصلاة / باب فضل استقبال القبلة. وعند النسائي / كتاب الإيمان وشرائعه / صفة المسلم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

وقال حبيب:

كَهْلُ الأناةِ فتى الشَّذاة[١] إذا عَدا ... للرَّوْعِ كان القَشْعَمَ الغِطْرِيفَا[٢]

ومن قولنا في هذا المعنى:

إذا جالسَ الفِتْيانَ ألفيتَه فتىً ... وجالسَ كَهْلَ الناسِ ألفيتَه كهْلَا

ونظيرهُ قول ابن حِطّان:

يوماً يمانٍ لاقيتَ ذا يَمَنٍ ... وإن لَقِيتَ مَعَدِّياً فَعَدْنانِي

وقولُ عمران بن حِطّان هذا يحتمل غير هذا المعنى، إلا أن هذا أقربُ إليه وأشبهُ به، لأنه أراد أنه مع اليماني يمانيّ، ومع العدناني عدناني، فيُحتمل أن ذلك لخوف منه أو مُساعدة، وكل ذلك داخلٌ في باب الحُنْكة والحِذْق والتَّجربة.

وقالوا: اصحب البَرَّ للتأسِّي به، والفاجرَ لتتحنَّك به. وقالوا: مَن لم يَصْحب البَرّ والفاجرَ ولم يؤدّبه الرَّخاء والشِّدة مَرَّة، ولم يَخْرج من الظّل إلى الشَّمس مَرَّة فلا تَرْجُه. ومن هذا قولهم: حَلب فلانٌ الدهرَ أَشْطُره، وشَرِبَ أفاويقَه، إذ فَهِمَ خيرَه وشَرَّه، فإذا نَزَلَ به الغِنَى عَرَفه ولم يُبْطره، وإذا نَزَل به البلاء صَبَر له ولم يُنكِره. وقال هُدْبة العُذْري:

ولستُ بمفراحٍ إذا الدَّهرُ سَرَّني ... ولا جازعٍ مِنْ صَرْفه المُتَقَلِّب

ولا أتمنى الشَّرَّ والشرُّ تاركي ... ولكن متى أُحْمَلْ على الشَّرِّ أَرْكَب

وقال عبد العزيز بن زُرارةَ في هذا المعنى:

قد عِشْتُ في الدَّهر أطواراً على طُرُقٍ ... شَتَّى فصادفتُ منه اللِّينَ والفَظَعَا[٣]

كُلًّا بَلوتُ فلا النَّعماء تُبْطِرني ... ولا تخشَّعتُ من لأوائِه جَزَعا

---

(١) الشذاة: الحدة.

(٢) القشعم: الأسد. والغطريف: السيد الشريف.

(٣) رواية هذا البيت في اللسان (مادة فظع):

قد عشت في الناس أطواراً على خلق ... شتى وقاسيت فيه اللين والفظعا

لا يملأ الأمرُ صَدْري قبلَ وَقْعَتهِ ... ولا أَضِيقُ به ذَرْعاً إذا وَقَعا

وقال آخر[١]:

فإن تَهْدِمُوا بالغَدْرِ داري فإنّها ... تُراثُ كَريمٍ لا يَخافُ العَواقِبَا
إذا هَمَّ ألقَى بين عَيْنيه عَزْمَه ... وأضْرَبَ عن ذِكْرِ العَواقب جانِبا
ولم يَسْتشِر في أمره غيرَ نَفْسه ... ولم يَرْضَ إلا قائمَ السَّيف صاحِبا
سأغسِلُ عنّي العارَ بالسَّيف جالباً ... عَلَيَّ قضاءُ الله ما كان جَالِبا

وسُئِلت هند عن معاوية، فقالت: والله لو جُمعت قريشٌ من أقطارها ثم رُمي به في وسطها لخرج من أي أعراضها شاء. وهذا نظير قول الشاعر:

برئت إلى الرحمن مِنْ كل صاحب ... أُصَاحِبُه إلا عِراكَ بن نائلِ
وعِلْمي به بين السِّماطين أنَّه ... سينجو بحقٍّ أو سينجو بباطل

وقال آخر:

لئنْ كنتُ محتاجاً إلى الحِلْم إنّني ... إلى الجَهْلِ في بَعض الأحايين أَحْوَجُ
وما كنتُ أرضَى الجهلَ خِدْناً وصاحباً ... ولكنني أرضَى به حين أُحْرَجُ
فإن قال قومٌ إنّ فيه سماجةً ... فقد صَدَقوا والذُّلّ بالحُرِّ أَسْمَجُ
ولي فَرَسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَمٌ ... ولي فَرس للجَهْل بالجهل مُسْرَجُ
فمن شاء تَقْويمي فإني مُقَوَّمٌ ... ومن شاء تَعويجي فإني مُعْوَجُّ

وقال معاوية في سفيان بن عوف الغامدي: هذا الذي لا يُكَفكف من عجلة، ولا يُدْفع في ظَهْره من بُطء، ولا يُضْرَب على الأمور ضرْب الجَمل الثَّفال[٢]. وقال الحسنُ ابن هانيء:

---

(١) هو سعد بن ناشب، من بني مازن بن عمرو بن تميم، وكان أصاب دماً فهدم بلال داره.

(٢) الثفال: البطيء.

مَن للجِذَاع إذا المَيدانُ ماطَلَها[١] بشأو[٢] مُطَّلع الغايات قد قَرَحَا[٣]
من لا يُغَضغضُ[٤] منه البُؤسُ أُنْمُلةً ولا يُصَعِّد[٥] أطرافَ الرُّبَى[٦] فَرَحَاً

وقال جرير:

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ[٧]

باب في الرجل النفاع الضرار

يقال: إنه لخرَّاج وَلاّج، وإنه لحُوَّلُ قُلَّبْ، إذا كان مُتصرِّفاً في أموره، نَفّاعاً لأوليائه، ضرَّاراً لأعدائه. وإذا كان على غير ذلك، قيل: مايُحْلِي ولا يُمِرّ، ولا يُعدّ في العِير ولا في النَّفير، ومافيه خَير يُرْجَى ولا شرٌّ يُتَّقى.

وقال حبيب:

ولم أر نَفْعاً عند من ليس ضَائِراً ولم أرَ ضَرًّا عند مَن ليس يَنْفَعُ

وسمع أعرابيٌّ رجلاً يقول: ما أتى فلانٌ بيوم خيرٍ قطُّ. فقال: إنْ لا يكُن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر. وقال الشاعر:

وما فعلت بنو ذُبيانَ خيراً ولا فعلت بنو ذُبيان شرًّا

---

(١) الجذاع: جمع جَذَع (بالتحريك)، وهو الفرس إذا استتم سنتين ودخل في الثالثة. وماطلها الميدان، أي طال عليها.

(٢) كذا في ديوان أبي نواس. والشأو: السبق. والذي في الأصول: «بكل».

(٣) القارح: الفرس إذا تمت أسنانه، وإنما تتم في خمس سنين.

(٤) يغضغض: ينقص.

(٥) يصعد: يرتقي. وفي رواية «يصدع».

(٦) يريد أنه لا يغيره البؤس كما لا يبطره الغنى.

(٧) ابن اللبون: هو من الإبل ما أتى عليه سنتان ودخل في الثالثة فصارت أمه لبوناً، أي ذات لبن، لأنها تكون قد حملت حملاً آخر ووضعته. ولز في قرن: شد به وضيق عليه. والبازل من الإبل: الذي استكمل الثامنة ودخل في التاسعة، وفطر نابه. والقناعيس: جمع قنعاس (بالكسر)، وهو العظيم من الإبل.

وقال آخر(١):

قَبَح الإلهُ عَداوةً لا تُتَّقَى ... وقَرابةً يُدْلَى بها لا تَنفَعُ

وفخر رجل فقال: أبي الذي قتل الملوك، وغَصَب المنابر، وفعل وفعل. فقال له رجل: لكنه أُسِر وقُتل وصُلب. فقال: دَعْني من أسره وقَتْله وصَلْبه، أبوك هل حدّث نفسَه بشيء من هذا قطُّ.

وقال رجل من العرب يذُمّ قومه وأغارت بنو شَيبان على إبله فاستنجدهم، فلم يُنجدوه، فقال فيهم:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلي ... بنُو اللّقيطة من ذُهْلِ بن شَيْبانَا
إذاً لقام بنَصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عند الحفيظة إن ذو لُوثة لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجِذَيه لهم ... طارُوا إليه زَرافات ووُحْدانا
لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبهم ... في النَّائبات على ما قال بُرْهانا
لكنَّ قَوْمي وإن كانُوا ذَوِي عَددٍ ... ليسُوا من الشرِّ في شيء وإنْ هانا
يَجْزُون من ظُلْم أهل الظُّلم مَغْفِرَةً ... ومن إساءة أَهْل السُّوءِ إحسانا
كأن ربَّك لم يَخْلُقْ لِخَشْيَته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهمُ قوماً إذا رَكِبُوا ... شَنُّوا الإغارَة فُرْساناً ورُكْبانا

ولم يُرد بهذا أنه وَصفهم بالحِلْم ولا بالخشْية لله، وإنما أراد به الذُلَّ والعجز، وكل من نفع في شيء فقد ضرَّ في شيء. وكذلك قول أشجع بن عمرو:

يَصْطاد أعناقاً بِمُنْصُله(١) ... ويَفُكُّ أعْناقاً من الرِّقِّ

وقال آخر:

وليس فَتَى الفِتْيانِ مَن راحَ واغْتَدَى ... لشُرْبِ صَبُوحٍ أو لِشُرْبِ غَبُوقِ(٢)
ولَكِنْ فَتَى الفِتْيانِ مَن راح واغتَدَى ... لِضَرٍّ عدوٍّ أو لِنَفْعِ صَدِيقِ

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي.

(٢) المنصل: السيف.

(٣) الصبوح: ما شرب بالغداة فما دون القائلة. والغبوق: ما شرب بالعشي.

باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم

في كتاب للهِنْد: من لم يركب الأهوال لم يَنل الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلّه أن ينال منه حاجَتَه مخافةَ ما لعلّه يُوقَّاه فليس ببالغٍ جَسيماً، وإن الرجل ذا المُروءة ليكون خاملَ الذِّكْر خافض المنزلة، فتأبى مُروءتُه إلّا أن يَسْتَعلي ويَرْتفع، كالشُّعلة من النار التي يَصُونها صاحبها وتأبَى إلا ارتفاعاً. وذو الفضل لا يخفى فضله، وإن أخفاه، كالمِسْك الذي يُختم عليه ثم لا يَمْنَع ذلك رِيحَه من التذكي والظُّهور، ومن قولنا في هذا المعنى:

خُتِمتْ فأرةُ مسك[1] ... فأبَتْ إلا التَّذكِّي
ليس يخفى فضل ذي الفضـ ... ـل بزُورٍ وبإفْك
والذي بَرَّز في الفضـ ... ـل غنيٌّ عن مُزكِّي
رُبَّما غُمَّ هلالُ الـ ... ـفطر في ليلة شكّ
ثم جَلَّى وجهه النُّو ... رُ فجلَّى كلَّ حَلْك[2]
إنَّ ظَهْر اليَمِّ لا تَرْ ... كَبُهُ من غير فُلْك
ونِظامَ الدُّر لا تَعْـ ... ـقِدُهُ من غير سِلْك
ليسَ يَصْفُو الذَّهب الإبْـ ... ـريزُ إلا بعد سَبْك
هذه جُملة أمْثا ... لٍ فمن شاء فَيَحْكي
أبطلتْ كلَّ يمانيٍّ وشاميٍّ ومكّي
ليس ذا من صَوغ عَيْـ ... ـنيّ ولا مِن نَسْج عَكِّي[3]

(١) فأرة المسك: وعاؤه. (٢) الحلك (بفتحتين، وسَكَّنَ للشِّعر): شدة السواد.

(٣) عيني، يريد أبا إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي الشاعر العيني، نسبة إلى عين التمر، وأكثر شعره حكم وأمثال، وكانت وفاته سنة ١٥٥هـ. (انظر الأنساب للسمعاني). وعَكِّي: نسبة إلى عك، بلد باليمن، ولليمن شهرتها القديمة بنسج الثياب. والظاهر أنه يريد شاعراً يلقب بالعكي.

وقال حبيبٌ الطائي:

أعاذِلَتي ما أخشنَ اللَّيلَ مَرْكباً ... وأخشن منه في المُلِمَّات راكِبُهْ
ذريني وأهوال الزَّمان أُقاسِها ... فأهوالُه العُظْمَى تَليها رغائبُه

وقال كعب بن زهير:

وليس لمن لم يركب الهول بُغْيةٌ ... وليس لرَحْل حطَّهُ الله حامِلُ
إذا أنت لم تُعْرِضْ عن الجهل والخَنَا ... أصبْتَ حَليماً أو أصابَكَ جاهل

وقال الشَّمَّاخ:

فَتىً ليس بالرَّاضي بأدنى معيشةٍ ... ولا في بيوت الحيِّ بالمُتَولِّج
فتىً يملأ الشِّيزَي ويُرْوي سِنانَه ... ويَضْرِبُ في رأس الكَميِّ المدَجَّج[1]

وقال امرؤ القَيْس:

فلو أن ما أَسْعَى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّل ... وقد يُدْرِك المجدَ المُؤَثَّل أمثالي

وقال آخر:

لولا شماتةُ أعداء ذَوَيْ حَسَدٍ ... أو أن أنالَ بنفعي من يُرَجِّيني
لما خَطبتُ من الدُّنْيا مَطالبَها ... ولا بذلتُ لها عِرْضي ولا ديني
لكن منافسة الأكفاء تحملني ... على أمورٍ أراها سوف تُرْديني
وكيف لا كيف أنْ أرضى بمنزلة ... لا دينَ عندي ولا دُنْيا تُواتيني

وقال الحُطَيئة في هجائه الزِّبْرقان بن بَدْر:

دَعِ المكارمَ لا ترحل لبُغْيتها ... واقعُدْ فإنَّك أنت الطَّاعِمُ الكاسي

فاستعْدَى عليه عمر بن الخطاب وأسمعه الشعر. فقال: ما أرى مما قال بأساً. قال: والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قطُّ أشدَّ عليَّ منه. فأرسل إلى حَسَّان

---

(١) الشيزي: جفان تسوى من خشب الجوز أو الأبنوس. والكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه، لأنه كمي نفسه، أي سترها بالدرع والبيضة.

فسأله: هل هجاه؟ فقال: ما هجاه، ولكنه سَلَح عليه. وقد أخذ هذا المعنى من الحُطيئة بعضُ المُحدثين فقال:

إني وجدتُ من المكارم حَسْبُكُمْ ... أن تَلْبَسُوا خَزَّ الثِّياب وتَشْبَعُوا
فإذا تُذوكرت المكارمُ مَرّة ... في مجلس أنتم به فتقَنَّعُوا

وقالوا: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن طلب العظائم خاطرَ بعظيمته[1]. وقال يزيدُ بن عبدالملك لما أُتي برأس يزيد بن المُهلّب فنال منه بعضُ جلسائه، فقال: إن يزيد ركبَ عظيماً، وطلب جسيماً، ومات كريماً. وقال بعض الشعراء:

لا تَقْنَعَنَّ ومَطْلبٌ لك مُمْكِنٌ ... فإذا تضايقت المطالبُ فاقْنعِ

ومما جُبل عليه الحُرُّ الكريم، أن لا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملاً فيما هو أسنى منه درجةً وأرفعُ منزلةً؛ ولذلك قال عمر بن عبدالعزيز لدُكين الراجز: إن لي نفساً توّاقة، فإذا بلغك أنّي صِرْتُ إلى أشرفَ من منزلتي هذه، فبعَيْنٍ ما أَرَيتُك ـ قال له ذلك وهو عامل المدينة لسليمان بن عبدالملك ـ فلما صارت إليه الخلافة قَدِم عليه دُكين، فقال له: أنا كما أعلمتُك أن لي نفساً توّاقة، وإنَّ نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدُّنيا، فلما بلغتها وجدتُّها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة. ومن الشاهد لهذا المعنى، أن موسى صلوات الله عليه ـ لما كلمه الله عز وجل تكليماً ـ سأله النظر إليه، إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرفَ من المنزلة التي نالها، فانبسط أملُه إلى ما لا سبيلَ إليه، ليُستدلّ بذلك على أن الحرّ الكريم لا يَقْنع بمنزلةٍ إذا رأى ما هو أشرفُ منها. ومن قولنا في هذا المعنى:

والحُرُّ لا يَكْتفي من نَيْل مكْرُمةٍ ... حتى يَرومَ التي من دُونها العَطَبُ
يَسْعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفَّه رَهَبٌ يَسْتَدْعِه رَغَب
لذاك ما سالَ مُوسى ربّه أرِني ... أنْظُرْ إليكَ وفي تَسْآله عَجَب

---

(١) نسب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ: «من طلب عظيماً خاطر بعظيمته» وأشار إلى رأسه.

يَبْغي التزيّدَ فيما نال من كرم ... وَهْو النَّجيُّ لديه الوَحْيُ والكُتُبُ

وقال تأبّط شرًّا في ابن عمّ له يَصفه برُكوب الأهوال وبَذْل الأموال:

وإني لَمُهْدٍ من ثنائي فقاصدٌ ... به لابن عم الصِّدْق شُمْس بن مالك
أَهُزُّ به في نَدْوَة الحيّ عِطْفَهُ ... كما هَزّ عطفي بالهِجَان الأوارك(١)
قليلُ التَّشكّي للمُهِمّ يُصيبُه ... كثيرُ النَّوى شَتَّى الهَوَى والمسالك
يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسي بغَيرها ... وحيداً ويعْروري ظُهورَ المهالك(٢)
ويَسْبق وفْدَ الرِّيح من حيثُ يَنْتحي ... بمُنْخَرِق من شَدِّه المُتَدارك(٣)
إذا خاط عينَيْه كَرَى النَّوْم لم يزل ... له كالِئٌ من قلب شَيْحانَ فاتك(٤)
ويجعل عينيه ربيئةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من جَفْن أخلَقَ باتك(٥)
إذا هَزَّه في عَظْم قِرْنٍ تَهلَّلت ... نَواجذُ أفواه المَنايا الضّواحك(٦)

وقال غيرُه من الشعراء [بل هي له]:

إذا المرءُ لم يَحْتل وقد جَدَّ جِدُّه ... أضاعَ وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الخطبُ إلا وَهْوَ للقَصْد مبْصِر
فذاك قَريعُ الدّهر ما عاش حُوَّلٌ ... إذا سُدّ منه مِنْخرٌ جاشَ مِنْخرُ(٧)

---

(١) الهجان من الإبل: البيض الكرام. والأوراك: التي اعتادت أكل الأراك.

(٢) الموماة: المفازة. ويعروري: يركب.

(٣) وفد الريح: أولها. والمنخرق: السريع، والشد: العدو. والمتدارك: المتلاحق. يصفه بالخفة والنشاط.

(٤) خاط عينيه الكرى، أي أطبق جفنيه أحدهما على الآخر. والشيحان: الحازم. يصفه بأنه متيقظ حتى إنه إذا نامت عينه لا ينام قلبه.

(٥) ربيئة، أي رقيباً. والسلة: المرة من سلّ السيف، إذا جرّده. والأخلق: الأملس. والباتك: القاطع.

(٦) التهلل: الضحك.

(٧) قريع الدهر: المجرب للأمور. والحوّل: البصير بتحويل الأمور.

باب في الحركة والسكون

شَاوَرَ عُتبة بن ربيعة أخاه شيبة بن ربيعة في النُّجْعَة، وقال: إني قد أجْدِبْتُ، ومن أجدب انتجع. فذهبت مثلاً. قال له شيبة: ليس من العزِّ أن تتعرَّض للذل. فذهبت مثلاً. فقال له عتبة: لن يَفرِس الليثُ الطُّلا[1] وهو رابض. فذهبت مثلاً، أخذه حبيب فقال:

أراد بأن يَحْوي الغِنَى وهو وادعٌ ... ولن يَفْرِس الليثُ الطُّلا وهو رابضُ

وقيل لأعشى بكر: إلى كم هذه النُّجعة والاغتراب، ما تَرضى بالخَفْض والدَّعة؟ فقال: لو دامت الشمسُ عليكم لمللتُموها. أخذه حبيبٌ فقال:

وطولُ مُقَامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيه فاغْتَرِب تتجدد
فإني رأيتُ الشمس زِيْدَت محبةً ... إلى الناسْ إذ ليسَتْ عليهم بسَرْمَدِ

قال أبوسعيد أحمد بن عبدالله المكي: سمعت الشافعي يقول: قلت بيتين من الشعر، وأنشدنا:

إني أرى نفسي تتوق إلى مِصْرٍ ... ومن دونها خوض المهامِهِ والقَفْرِ
فوالله ما أدري أللخفض والغِنَى ... أقاد إليها أم أقاد إلى قَبْرِي

فدخل مصر فمات. وقال موسى بن عمران عليه السلام: لا تذُمُّوا السفر، فإني أدركت فيه ما لم يُدْرِك أحدٌ. يريد أن الله عز وجل كلَّمه فيه تكليماً.

وقال المأمون: لا شيء ألذُّ من سفر في كفاية، لأنك في كل يوم تَحُل محلة لم تَحُلَّها، وتُعاشر قوماً لم تُعاشرهم. وقال الشاعر:

لا يَمنعنَّك خَفْضُ العيش في دَعَةٍ ... من أن تُبدِّل أوطاناً بأوطانِ[2]

---

(١) الطلا: الأعناق. ويفرسها: يدقها.

(٢) رواية هذا البيت في عيون الأخبار (ج١ ص٢٣٤):

لا يمنعنك خفض العيش تطلبه ... نزاع شوق إلى أهل وأوطان

تَلْقى بكلّ بلادٍ إنْ حَللْتَ بها ... أهلاً بأهْلٍ وإخواناً بإخوان

مع أن المُقام بالمقام الواحد يُورث المَلالة.

وقال النبيُّ ﷺ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»(١). وقالت الحكماء: لا تُنَال الراحة إلا بالتَّعب، ولا تُدْرك الدَّعة إلا بالنَّصَبْ. وقال حبيب:

بَصُرْتَ بالراحة الكُبرى فلم ترها ... تُنَالُ إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

وقال أيضاً:

على أنَّني لم أَحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً(٢) ... قَرَرْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ

ولم تُعْطِني الأيامُ نوماً مُسَكِّناً ... ألَذُّ به إلا بنَوْمٍ مُشَرَّدِ

وقال أيضاً:

وركْبٌ كأطْراف الأسِنَّةِ عرّسُوا(٣) ... على مثلها والليل تَسْطُوا غياهبُه

لأمرٍ عليهم أن تَتِمّ صُدُورُه ... وليس عليهم أنْ تتمّ عواقبُه

وبعدُ؛ فهل يجوز في وَهْم، أو يتمثَّل في عَقْل، أو يصحُّ في قياس، أن يُحصد زَرْع بغير بَذْر، أو تُجْنى ثمرة بغير غَرْس، أو يُورَى زَنْدٌ بغير قَدْح، أو يُثْمِر مال بغير طَلَب. ولهذا قال الخليلُ بن أحمد: لا تصل إلى ما تحتاجُ إليه إلاّ بالوُقوف على ما لا تحتاجُ إليه؛ فقال له أبو شَمِر المتكلِّم: فقد احتجتَ إذاً إلى ما لا تحتاج إليه، إذ كنتَ لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا به؛ قال له الخليلُ وَيحك! وهل يَقْطَع السَّيف الحُسامُ إلا بالضَّرْب، أو يَجْري الجَوَادُ إلا بالرَّكْض، أو هل تُنال نهايةٌ أو تُدْرَك غايةٌ إلا بالسعي إليها، والإبضاع نحوَها، وقد يكون الإكْداء مع الكدّ، والخَيْبة مع الهَيْبة.

---

(١) قال السيوطي في الدرر المنتثرة [٢٤٦] رواه البزار والبيهقي في حديث أبي هريرة، وضعفاه. والديلمي من حديث ابن عمر، ورواه ابن عدي في أربعة عشر موضعا من الكامل وضعفها كلها. وقال السخاوي بمجموعها يتقوى الحديث انظر المقاصد الحسنة [٥٣٧] وصححه الألباني انظر صحيح الجامع [٣٥٦٨].

(٢) الوفر: المال الكثير.

(٣) عرسوا: نزلوا ليلا.

وقال الشاعر:

وما زلْتُ أقطع عَرْضَ البلادِ ... من المشرقين إلى المغْربينِ
وأدَّرِعُ الخَوْفَ تحت الدُّجَى ... وأستَصْحِبُ الجَدْيَ والفَرْقَدَيْنِ
وأَطْوي وأنشُرُ ثوْبَ الهُموم ... إلى أن رجعتُ بخُفَّيْ حُنَينْ
إلى كم أكونُ على حالةٍ ... مُقلاً من المال صِفْرَ اليَدَين
فَقيرَ الصَّديق غنيّ العدوّ ... قليل الجَدَاء[1] عن الوالدين

ومثلُ هذا قليل في كثير، وإنما يُحكم بالأعمّ والأغلب، والنُّجْح مع الطّلب، والحِرمان للعجز أصحب. وقد شرح حبيبٌ هذا المعنى، فقال:

هِمَم الفتى في الأرض أغْصانُ الغِنى ... غُرِست وليستْ كُلَّ حينٍ تُورِقُ

باب التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد

قال النبيُّ ﷺ: «**العائد على أهله وولده كالمُجاهد المُرابط في سبيل الله**»[2]. وقال ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ [بنفسك ثم] بمن تعول**»[3]. وقال

(١) الجداء: الغناء.

(٢) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ. وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار**».
وعن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «**نفقة الرجل على أهله صدقة**» أخرجه البخاري / كتاب النفقات، والترمذي / كتاب البر والصلة.
وعن ثوبان أن النبي قال: «**أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله**». قال أبوقلابة: بدأ بالعيال ثم قال أبوقلابة وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم. أخرجه مسلم واللفظ له / كتاب الزكاة. والإمام أحمد، والترمذي / كتاب البر والصلة. والنسائي / كتاب الزكاة [١٩٦٦].

(٣) رواه الإمام أحمد والطبراني بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه الإمام أحمد والبخاري بنحوه عن حكيم بن حزام.

عمر بن الخطاب: لا يَقْعُدْ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، وتلا قول الله جل وعلا: ﴿**فإذا قُضِيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فَضْلِ الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾[١]. وقال محمد بن إدريس الشافعي: احْرِص على ما ينفعك ودَعْ كلام الناس، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة. ومثله قول مالك بن دينار: من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه. وقال طاهر بن عبدالعزيز: أخبرنا عليُّ بن عبدالعزيز، قال: أنشدنا أبوعُبيد القاسم ابن سلّام:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما ساق من خير إلى عياله

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يامعشر القُرَّاء، التمسوا الرزق، ولا تكونوا عالة على الناس[٢]. وقال أكثم بن صيفي: من ضيع زاده اتكل على زاد غيره. وقال النبي ﷺ: «**خيركُمْ من لم يَدَعْ آخرته لدنياه ولا دُنْيَاهُ لآخرته**»[٣] وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً[٤].

وقد جعل الله طلب الرزق مفروضاً على الخلق كله، من الإنس والجن والطير والهوام، منهم بتَعْليم، ومنهم بإلهام، وأهل التحصيل والنظر من الناس يَطْلبونه بأحسن وُجوهه من التصرّف والتحرز، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السُّؤال والاتكال والخِلابة[٥] والاحتيال.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٢) رواه الهندي بنحوه وقال: رواه العسكري في المواعظ / كنز العمال ١٦/١٥٨ [٤٤٢٠٠].

(٣) أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: هذا حديث لا يصح ٢/٥٨٩ [٩٦٧]. وقال الألباني: موضوع. انظر الضعيفة [٥٠١] وتكملة نص الحديث «**ولم يكن كلًّا على الناس**».

(٤) ينسب هذا الكلام لابنه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخراك كأنك تموت غداً» وقال الشيخ الألباني: لا أصل له مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وإن اشتهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة. انظر الضعيفة [٨].

(٥) الخلابة: الخداع.

باب في فضل المال

قال الله تعالى: ﴿المالُ والبَنُونَ زينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عند ربِّك ثَواباً وخيرٌ أملاً﴾[١]. وقال النبي ﷺ للمُجاشعي: «إن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك خُلُق فلك مُروءة، وإن كان لك دين فلك كَرم»[٢]. وقال عمر بن الخطاب: حَسَبُ الرجل مالُه، وكرَمُهُ دينه، ومُروءتُهُ خُلُقه[٣].

وفي كتاب الأدب للجاحظ: اعلم أن تَثْمير المال آلةٌ للمكارم، وعَوْنٌ على الدِّين، وتأليفٌ للإخوان، وأن من فقد المال قَلَّت الرَّغبةُ إليه والرَّهبة منه، ومَن لم يكن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) أورد ابن حجر في الفتح حديثاً عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «الحسب المال، والكرم التقوى» قال ابن حجر: أخرجه أحمد والترمذي وصححه هو والحاكم. فتح الباري ٩/١٣٥ كتاب النكاح.

وأورد السخاوي حديث محمد بن سلام قال: «بينما عمر بن الخطاب يمشي ورجل يخطر بين يديه ويقول: أنا ابن بطحاء مكه كديها فكداها، فقال عمر: إن يكن لك دين فلك كرم وإن يكن لك عقل فلك مروءة وإن يكن لك مال فلك شرف وإلا فأنت والحمار سواء».

رواه العسكري والخرائطي قاله السخاوي انظر المقاصد الحسنة [٧٩٨].

(٣) أورده ابن الجوزي عن عمر بلفظ «حَسَبُ الرجل دينه» غريب الحديث ١/٢١٢ وابن عبدالبر في بهجة المجالس ٢/٦٤٢.

وقال السخاوي: وهو في الموطأ عن عمر من قوله. وكذا هو عند العسكري من حديث حسان بن فائد عن عمر أنه قال: الكرم التقوى والحسب المال لست بخير من فارسي ولا نبطي إلا بتقوى.. المقاصد الحسنة [٧٩٨].

وقال العجلوني: ولابن أبي الدنيا في العقل عن عمر بن الخطاب أنه ذكر عنده الحسب فقال: حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه. انظر كشف الخفا [١٩٢٤].

بمَوْضع رَغْبة ولا رَهْبة استهان الناسُ به، فاجهد جهدك كلَّه في أن تكون القلوب مُعَلَّقة منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا. وقال حكيم لابنه: يا بُنيّ، عليك بطلب المال، فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذلٌّ في قلب عدوك لكفى.

وقال عبدالله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال. وكان سعد بن عبادة يقول: اللهم ارزقني جدّاً ومجداً، فإنه لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. وقالت الحكماء: لا خير فيمن لا يجمع المال يصُون به عرْضه، ويَحْمى به مُروءته، ويصل به رحمه. وقال عبدالرحمن ابن عوف: يا حَبَّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي. وقال سفيان الثوري المال سلاح المؤمن في هذا الزمان.

وقال النبي ﷺ: «**نعم العون على طاعة الله الغِنَى، ونعم السُّلَّم إلى طاعة الله الغنى**» وتلا: ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجُلهم**﴾»[1]، وقوله: ﴿**فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفّاراً يُرسل السَّماءَ عليكم مِدْرَاراً، ويُمْدِدْكم بأموالٍ وبنين**﴾»[2].

وقال خالد بن صَفوان لابنه: يا بُنَيَّ، أوصيك باثنتين، لن تزال بخَيْر ما تمسَّكت بهما: دِرْهمك لمعاشك، ودِينك لمعادك. وقال عُروة بن الوَرْد:

ذَريني للغِنَى أَسْعَى فإنّي ... رأيتُ النَّاس شرُّهُمُ الفقيرُ
وأَحقَرُهُمْ وأهونُهم عليهم ... وإن أمْسَى له حَسَبٌ وخَيْر

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٦٦.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ولكن بلفظ: «نعم العون على تقوى الله المال» قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر، ورواه أبوالقاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلاً. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين [٣٣٨٩]. وروى الإمام أحمد (٤/٢٠٢) والحاكم (٢/٢) وغيرهما عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا عمرو نعِمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح**» قال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الألباني إسناده صحيح [المشكاة ٣٧٥٦].

يُباعِدُهُ القريبُ وتزْدَريه ... حليلتُه وينهرُهُ الصَّغير
وتُلْفي ذا الغنى وله جَلالٌ ... يكادُ فؤاد صاحبه يَطير
قليلٌ ذَنْبُه والذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غفور

وقال آخر:

سأكْسِبُ مالاً أو أموتَ ببَلدة ... يَقِلُّ بها قَطْرُ الدُّموع على قَبْري

وقال آخر:

سأعمل نصَّ العيس[1] حتى يَكُفَّني ... غِنَى المال يوماً أو غِنَى الحَدَثانِ
فَلَلْمَوتُ خيرٌ من حياة يُرى بها ... على المَرْء بالإقلال وسْمُ هَوانِ
إذا قال لم يُسْمع لِحُسْن مَقالِه ... وإن لم يَقُل قالوا عَديمُ بَيانِ
كأن الغِنَى عن أَهْله ـ بُورك الغِنَى ـ ... بغَيْرِ لِسانٍ ناطقٌ بلسانِ

الرِّياشي قال: أنشدنا أبوبكر بن عَيَّاش:

حَيْرانَ يَعلم أنّ المالَ ساقَ له ... ما لم يَسُقْهُ له دينٌ ولا خُلقُ
لولا ثلاثون ألفاً سُقْتها بدَراً ... إلى ثلاثين ألفاً ضاقت الطُّرق
فمن يَكُن عن كرام الناس يَسْألني ... فأكْرمُ الناس مَن كانت له وَرِق

وقال آخر:

أجَلّكَ قومٌ حين صِرْتَ إلى الغِنَى ... وكلُّ غَنيٍّ في العُيون جَليلُ
ولو كُنْتَ ذا عقل[2] ولم تُؤْتَ ثروةً ... ذَلَلْت لدَيهم والفقيرُ ذليل

وقال محمودٌ الورَّاق:

أرى كلَّ ذي مالٍ يُبَرُّ لماله ... وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فَضْلُ
فشرِّف ذَوي الأموال حيثُ لقيتَهُم ... فقولهم قولٌ وفعْلُهُمُ فِعْلُ

---

(١) نص العيس: أقصى ما عندها من سير.

(٢) في الأصول «فقر». والتصويب عن عيون الأخبار.

وأنشد أبو مُحَلِّم لرجل من ولد طَلِبَة بن قَيس بن عاصم:

وكنتُ إذا خاصمتُ خَصْماً كَبَبْتُه ... على الوَجْه حتى خاصَمَتْني الدَّراهمُ
فلما تنازعنا الخصومة غُلِّبت ... عليّ وقالوا: قُمْ فإنك ظالم

وأنشد الرِّياشي:

لم يبق من طَلَب الغِنَى ... إلا التعرُّض للحُتُوف
فلأقْذِفَنَّ بمهجتي ... بين الأسنَّة والسُّيوف
ولأطْلُبَنَّ ولو رأيـ ... ـتُ الموت يلمعُ في الصُّفوف

وكان لأحيحة بن الجُلَاح بالزَّوْراء[1] ثلثمائة ناضح[2]، فدخل بستاناً له، فمرَّ بتمرة فلقطها فعُوتب في ذلك، فقال: تمرة إلى تمرة تمرات، وجمل إلى جمل ذَوْد[3]. ثم أنشأ يقول:

إني مُقيمٌ على الزَّوْراء أعْمُرُها ... إن الحبيب إلى[4] الإخوان ذو المالِ
فلا يَغُرَّنْكَ ذو قُرْبى وذو نَسبٍ ... من ابن عمّ ومن عمّ ومن خال
كلُّ النداء إذا ناديتُ يَخْذُلني ... إلا نِدَائي إذا ناديتُ يا مالي

ومن قولنا في هذا المعنى:

دَعْني أَصُنْ حُرَّ وَجْهي عن إذالته ... وإن تَغرَّبتُ عن أهلي وعن وَلَدِي
قالوا نأيتَ عن الإخوان قلتُ لهم ... مالي أخٌ غير ما تُطْوَى عليه يَدِي

كان الرُّمَاحِس بن حَفْصة بن قَيْس وابنُ عمٍّ له يُدْعى رَبيعة بن الوَرْد يَسْكُنان الأُردُن، وكان رَبيعة بن الوَرْد مُوسِراً، والرُّمَاحِسُ مُعْسِراً كثيراً ما يَشْكوا إليه الحاجة ويَعْطف عليه ربيعة بعض العَطْف، فلما أكثر عليه كَتب إليه:

إذا المَرْء لم يَطْلُب معاشاً لنَفْسه ... شكا الفَقْرَ أَوْ لامَ الصَّدِيق فأكْثرا

---

(١) الزوراء: أرض لأحيحة هذا سميت ببئر كانت فيها.

(٢) الناضح: البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

(٣) الذود: الإبل من الثلاث إلى التسع؛ وقيل غير ذلك.

(٤) كذا في معجم البلدان: عند الكلام على الزوراء. والذي في سائر الأصول: «إنَّ الكريم على».

وصار عَلَى الأَدْنَيْنِ كَلاًّ وأَوْشَكت ... صِلاتُ ذَوي القُرْبَى له أن تَنَكَّرا
فَسِرْ في بِلَاد الله والْتَمس الغِنَى ... تَعِشْ ذا يَسَارٍ أو تموتَ فَتُعْذَرا
فما طالبُ الحاجات مِنْ حيثُ تُبتغى ... من المال إلاَّ مَنْ أَجَدَّ وشَمَّرا
ولا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بدونٍ ولا تَنَمْ ... وكيف يَنامِ الليلَ من كان مُعْسرا

وقال بعض الحُكماء: المالُ يُوَقِّر الدَّنِيء والفَقْر يُذِلُّ السَّنِي. وأنْشد:

أَرَى ذا الغِنَى في النَّاس يَسْعَون حولَه ... فإنْ قال قولاً تابَعُوه وصَدَّقُوا
فذلك دَأْبُ النَّاسِ ما كان ذا غِنىً ... فإنْ زال عنه المالُ يوماً تَفَرَّقوا

وأنشد:

ما النَّاس إلا مع الدُّنيا وصاحبها ... فحيثُما انقلبتْ يوماً به انقلَبُوا
يُعَظِّمون أخا الدُّنيا فإن وَثَبتْ ... يوماً عليه بما لا يَشْتَهي وَثَبُوا

صنوف المال

قال مُعاوية لصَعْصَعة بن صُوحان: إنما أنت هاتف بلسانك لا تَنْظُر في أَوَد الكلام ولا في استقامته، فإن كنت تَنْظُر في ذلك فأَخْبرني عن أفضل المال. فقال: والله يا أمير المؤمنين إني لأدع الكلامَ حتى يَخْتمر في صَدْري، فما أُرْهف به[1] ولا أتَلَهَّق[2] فيه، حتى أُقيم أَوَده، وأُحَرِّر مَتْنه. وإن أفضلَ المال لَبُرَّة[3] سَمْراء في تُرْبة غَبْراء، أو نَعْجَة صَفْراء في رَوْضة خضراء، أو عَيْن خَرَّارة في أرض خَوَّارة[4]. قال معاوية: لله أنت! فأين الذَّهب والفِضَّة؟ قال: حَجَران

(١) أرهف به، أي لا أركب البديهة ولا أقطع بشيء قبل أن أتأمله وأروى فيه. انظر لسان العرب مادة رهف.

(٢) التلهق في الكلام: التقعر فيه.

(٣) البرة: واحدة البر، وهو الحنطة.

(٤) أرض خوارة: لينة سهلة.

يَصْطكان، إن أقبلتَ عليهما نَفدا، وإن تركتَهما لم يزيدا. وقيل لأعْرابيَّة: ما تَقُولين في مائة من المَعز؟ قالت: قُنىً؛ قيل لها: فمائة من الضّأن؟ قالت: غِنىً؟ قيل لها: فمائة من الإبل؟ قالت: مُنىً. وقال عبدالله بن الحسن: غَلّةُ الدُّور مسألة، وغَلّة النَّخل كَفاف، وغَلة الحبّ مِلْك.

وفي الحديث: «**أفضل أموالكم فرسٌ في بطنها فرس يَتْبعها فرس، [وعَيْنٌ ساهرة لعَيْن نائمة]**»[1]. وأنشد فَرج بن سلّام لبعض العراقيين:

ولقد أقولُ لحاجب نُصْحاً له ... خَلِّ العُروض وبِعْ لنا أرْضا
إني رأيتُ الأرض يَبقى نَفْعُها ... والمال يأكل بعضه بعضا
واحذَرْ أُناساً يُظْهرون محبَّة ... وعُيونُهم وقُلوبُهم مَرْضَى
حتى إذا أمكنتَهم من فُرْصة ... تركوا الخداع وأظهروا البُغْضا

تدبير المال

قالوا: لا مالَ لأخرَق، ولا عَيْلة على مُصلح، وخيرُ المال ما أطعمك لا ما أطعمتَه. وقال صاحبُ كليلة ودِمْنة: لِيُنْفق ذو المال مالَه في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد الآخرة، وفي مُصانعة السُّلطان إن أراد الذِّكْر، وفي النِّساء إن أراد نعيم العيش. وقال: إنَّ صاحب الدنيا يَطْلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة؛ فأما الثلاثة التي تُطْلَب: فالسَّعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد إلى الآخرة. وأما الأربعة التي تُدرك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وُجوهه، وحُسْن القيام عليه، ثم التَّثْمير له، ثم إنْفاقه فيما يُصْلح المَعيشة

---

(١) أول الحديث لم أقف عليه. وما بين القوسين أورده ابن الأثير بلفظ: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة». أراد عين الماء التي تجري ولا تنقطع ليلاً ونهاراً وعين صاحبها نائمة، فجعل السهر مثلاً لجريها. والله أعلم. انظر ابن الأثير / النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٣١، وانظر الماوردي / أدب الدنيا والدين. وانظر ابن الجوزي / صفة الصفوة ١/ ٢٠٥.

ويُرضي الأهل والإخوان ويعود في الآخرة نفعه؛ فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يُدْرِك شيئاً من هذه الثلاثة؛ إن لم يَكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يُحسن القيام عليه يوشك أن يفْنى ويبقى بلا مال، وإن هو أنفقه ولم يثمِّره لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سرعة النفاد، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغُبَار، ثم هو مع ذلك سريعٌ نفاده؛ وإن هو اكتسب وأصلح وثمَّر ولم يُنفق الأموال في أبوابها كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك مالَه من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء في الموضع الذي تنضَب فيه المياه، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه مَصَلَ وسَالَ من نواحيه، فيذهب المال ضياعاً. وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَامَا**﴾[1] وقوله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كل البَسْطِ فتقعُدَ مَلُوماً محسُوراً**﴾[2].

ونظر عبدالله بن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال له: إنه ليس لك حتى يخرُج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى ينفقه ويستفيد غيره مكانه.

وقال الحطيئة:

مُفِيدٌ ومِتْلَافٌ إذا ماسألتَه ... تَهلَّل وأهتزّ أهتزازَ المُهَنَّدِ

وقال مُسْلِم بن الوَليد:

لا يعرف المال إلا رَيْث يُنْفقه ... أو يومَ يجمعه للنَّهب والبَدَدِ

وقال آخر:

*** مُهْلِكُ مالٍ ومُفيدُ مال ***

وقال سُفيان الثَّوري: من كان في يده شيءٌ فليُصْلِحْه، فإنه في زمان إن احتاج فيه، كان أولَ ما يَبْذُله دينُه. وقال المُتلمِّس:

وحَبْسُ المالِ أيْسَرُ من بُغَاهُ ... وضَربٍ في البلاد بغَيْرِ زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه ... ولا يبقى الكثيرُ مع الفسَاد

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

سَعْد القَصِير قال: وَلاّني عُتْبة أموالَه بالحِجاز، فلما ودّعته، قال لي: يا سعد، تعاهد صغير مالي فيكثُر، ولا تُضيِّع كثيره فيصَغُر، فإنه ليس يشغلني كثير مالي عن إصلاحِ قليله، ولا يمنعني قليلُ ما في يدي عن الصَّبر على كثير مما ينُوبني. قال: فقَدِمْت المدينة فحدّثت بها رجالاتِ قريش، ففرَّقوا بها الكُتب على الوُكلاء.

الإقلال

قال أرِسْطاليس: الغِنَى في الغُرْبة وَطن، والمقِلُّ في أهله غريب. أخذه الشاعرُ فقال:

لَعَمْرُك ما الغريبُ بذي التنائي ... ولكنّ المُقِلَّ هو الغريبُ
إذا ما المرءُ أعْوزَ ضاقَ ذَرْعاً ... بحاجته وأبعدَهُ القريب

وقال إبراهيم الشَّيباني: رأيتُ في جدار من جُدُر بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذَّهب:

وكُلّ مُقلٍّ حين يَغْدو لحاجةٍ ... إلى كُلِّ مَن يَلْقى من الناس مُذْنِبُ
وكل بَنُو عَمِّي يقولون مرحباً ... فلما رأَوْني مُقْتِراً ماتَ مَرْحَبُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

أعاذِلَ قد آلمتِ وَيكِ فلُومي ... وما بَلَغ الإشْراكُ ذَنْبَ عَديمِ
لقد أسقَطَتْ حقي عليك صبابتي ... كما أسقط الإفْلاسُ حقَّ غَريم
وأعْذَرُ ما أدْمى الجُفُونَ من البُكا ... كريمٌ رأى الدُّنيا بكفِّ لَئيم[1]
أرى كل فَدْمٍ[2] قد تَبَحْبَح في الغنى ... وذو الظَّرف لا تَلْقاه غيرَ عَديم[3]

---

(١) يقول: إن رؤية الكريم الدنيا يملكها اللئيم، هو أقوى ما يعتذر به عن حزنه وبكائه.

(٢) الفِدْم: العيي الأحمق.

(٣) في الشعر عيب وهو الإيطاء، وهو تكرير القافية لفظاً ومعنى.

وقال الحسن بن هانيء:

الحمدُ لله ليس لي نَشَبٌ ... فَخَفَّ ظَهْري ومَلَّني وَلَدي
من نَظَرتْ عينهُ إليَّ فَقَد ... أحاطَ عِلْماً بما حَوَته يَدي

وكان أبو الشَّمَقْمق الشاعر أديباً ظَريفاً مُحارَفاً[1] صُعْلوكاً مُتبرِّماً، قد لَزم بيتَه في أطْمار مَسْحوقة، وكان إذا استَفْتح عليه أحدٌ بابَه خرج فَنَظر من فُرَج الباب، فإن أعجبه الواقفُ فَتح له، وإلاَّ سَكَت عنه. فأقبل إليه بعضُ إخوانه فدخل عليه، فلما رأى سُوء حاله، قال له: أبْشر أباالشَّمَقْمق، فإنّا رَوَينا في بَعض الحديث أنّ العارين في الدنيا هم الكاسُون يومَ القيامة[2]. قال: إن كان والله ما تقول حقًّا لأكونَنَّ بَزَّازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول:

أنا في حالٍ تعالى اللـ ... ـهُ ربي أيّ حالِ
ولقد أهزلتُ حتى ... محت الشَّمسُ خَيالي
مَن رَأى شَيْئاً مُحالاً ... فأنا عَيْنُ المُحال
ليس لي شيء إذا قيـ ... ـل لِمَنْ ذا قلتُ ذا لي
ولقدَ أفلستُ حتّى ... حَلَّ أكْلي لعيَالي
لو أرَى في النَّاس حُرًّا ... لَمْ أكن في ذا المِثال

وقال أيضاً:

أتُراني أُرَى من الدَّهر يوماً ... ليَ فيه مَطيَّةٌ غيرُ رِجْلي
كُلّما كُنتُ في جميع فقالوا ... قَرِّبُوا للرَّحيل قَرَّبتُ نَعْلي
حيثُما كنتُ لا أُخَلِّف رَحْلا ... مَن رآني فقد رآني ورَحْلي

وقال أيضاً:

لو قد رأيتَ سرَيري كنتَ تَرْحمني ... الله يَعلم مالي فيه تَلْبيسُ[3]

---

(١) المحارف: المحدود المحروم، وقيل هو الذي لا يصيب خيراً من وجه توجه له.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تلبيس، أي ليس عنده شيء مما يكسو به السرير ويلبسه إياه، كالملاءة والحشية ونحوهما.

والله يَعلم مالي فيه شابكةٌ ... إلا الحصيرة والأطْمار والدِّيْسُ[١]

وقال أيضاً:

بَرَزتُ من المَنازل والقِباب ... فلم يَعْسرُ على أحدٍ حِجَابي
فمنزليَ الفضاءُ وسقفُ بَيْتي ... سماءُ الله أو قِطَع السَّحاب
فأنتَ إذا أردتَ دَخلتَ بَيتي ... عليّ مُسَلماً من غَيْر باب
لأنِّي لم أجد مِصْرَاعَ باب ... يكونُ من السَّحاب إلى التُّراب
ولا انشَقَّ الثَّرَى عن عُود تَخْتٍ[٢] ... أؤمِّل أنْ أشُدّ به ثِيابي
ولا خِفتُ الإبَاقَ على عَبيدي ... ولا خَفْتُ الهلاك على دَوَابي
ولا حاسبْتُ يوماً قَهْرماناً ... مُحاسبةً فأغْلَظ في حسابي
وفي ذا راحةٌ وفَراغُ بالٍ ... فَدابُ الدَّهرِ ذا أبداً ودَابي

وفي كتاب للهِنْد[٣]: ما التَّبَع والإخوان والأهلُ والأصدقاء والأعوان والحَشم إلا مع المال، وما أرى المُروءة يُظهرها إلا المال، ولا الرَّأيَ والقُوّة إلا بالمال، ووجدتُ مَن لا مالَ له إذا أراد أن يَتناول أمراً قَعد به العُدْم، فيبقى مُقَصِّراً عما أراد، كالماء الذي يَبْقى في الأوْدية من مَطر الصَّيف فلا يَجْرى إلى بحر ولا نهر، بل يَبْقى مكانَه حتى تَنشَفَه الأرضُ؛ ووجدتُ مَن لا إخوانَ له لا أهلَ له، ومَن لا وَلد له لا ذِكر له، ومن لا عَقْل له لا دُنيا له ولا آخرةَ له، ومَن لا مال له لا شيءَ له؛ لأن الرجل إذا افتقر رَفَضَه إخوانُه وقَطعه ذوو رَحمه، وربما اضطرتْه الحاجةُ لِنفْسه وعياله إلى التماس الرِّزق بما يُغَرِّر فيه بدينه ودنُياه، فإذا هو قد خَسِر الدُّنيا والآخرةَ، فلا شيء أشدُّ من الفقر. والشَّجَرةُ النابتة على الطريق المأكولة من كلِّ جانب أمْثَلُ حالاً من الفقير المُحتاج إلى ما في أيْدِي الناس، والفَقْرُ داعٍ صاحِبَه إلى مقْت الناس، ومُتْلِفٌ للعَقل والمُروءة، ومُذْهِب للعِلْمِ والأدب، ومَعْدنٌ للتُّهمة، ومَجْمَعٌ للبَلايا. ووجدتُ الرجلَ إذا افتقر

---

(١) شابكة، أي شيء مضموم بعضه إلى بعض. والديس: هو المعروف في مصر «بالسمار».

(٢) التخت: وعاء تصان فيه الثياب. أو لعله «نحت»، أي منحوت مُسَوّى.

(٣) انظر كليلة ودمنة (ص ١٣٤ طبعة شيخو).

أساء به الظنَّ من كان له مُؤْتمناً، وليس من خَصْلة هي للغنيِّ مَدْح وزَيْن إلا وهي للفَقِير ذَمٌّ وشَيْن، فإن كان شُجاعاً قيل أهْوج، وإن كان جَواداً قيل مُفْسد، وإن كان حَليماً قيل ضَعيف؛ وإن كان وَقُوراً قيل بليد، وإن كان صَمُوتاً قيل عَيِيّ، وإن كان بليغاً قيل مِهْذار. فالموت أهونُ من الفقر الذي يَضْطر صاحبَه إلى المسألة، ولاسيَّما مسألة اللئام؛ فإنَّ الكريم لو كُلِّف أن يُدخل يده في فَم تِنِّين ويُخرجَ منه سُمًّا فيَبْتَلِعَه، كان أخفَّ عليه من مسألة البَخيل اللئيم.

السـؤال

قال النبيُّ ﷺ: «**لأنْ يأخُذ أحدُكم أَحْبُلَه فيَحْتطب بها على ظَهره أهونُ عليه من أن يأتي رجلاً أعطاهُ الله من فضله فيسألَه، أعْطاهُ أو مَنَعَه**»(١). وقال: «**من فَتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر**»(٢). وقال أكثمُ بن صيفي: كلُّ سؤال وإن قَلَّ أكثر من كُلِّ نَوال وإنْ جلَّ. ورأى عليُّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه رجلاً يسأل بعرفات فقَنَّعَه بالسَّوط، وقال: ويلك! أفي مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله؟(٣).

وقال عبدالله بن عباس: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يَشْهَدُون جِنازةً، ولا يَحضُرُون جُمعة، وإذا اجتمع الناسُ في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما في أيديهم. وقال النُّعمان بن المنذر: من سأل فوق حقِّه استحقَّ الحِرمان، ومن ألحف في مسألته استحقَّ المطل، والرِّفق يُمْن، والخُرْق شُؤْم، وخير السَّخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو مع المقدرة. وقال شريح: من سأل حاجة

---

(١) الحديث بمعناه في الصحيحين. ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يحتطب الرجل على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل**» كتاب الزكاة.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) رواه رزين. قاله الخطيب التبريزي / مشكاة المصابيح [١٨٥٥].

فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها المسئول استعبده بها، وإن ردَّه عنها رجَع كلاهما ذليلاً: هذا بذُلِّ البُخْل، وذاك بذُلِّ الرَّد. وقال حبيب:

ذُلّ السُّؤال شَجَىً في الحَلْق مُعْترضٌ ... من دونه شَرَقٌ من تحته[1] جَرضُ[2]
ما ماءُ كفِّك إن جَادَتْ وإن بَخِلَتْ ... من مَاءِ وَجْهِيَ إن أفنيْتُه عِوَضُ

الخُشَني قال: قال أبوغَسّان: أخبرني أبوزيد قال: سأل سائلٌ بمسجد الكوفة وقتَ الظهر فلم يُعْطَ شيئاً، فقال: اللهم إنّك بحاجتي عالم لا تُعَلَّم، أنت الذي لا يُعْوزك نائل، ولا يُحفيك[3] سائل، ولا يَبْلغ مَدْحَك قائل، أسألك صبراً جميلاً، وفَرَجاً قريباً، وبصَراً بالهُدى، وقُوَّة فيما تُحب وتَرْضى. فتبادَروا إليه يُعْطونه، فقال: والله لارَزأتكم الليلةَ شيئاً، وقد رفَعْتُ حاجتي إلى الله، ثم أنشأ يقول:

ما نالَ باذلُ وَجْهه بسُؤاله ... عِوَضاً ولسو نال الغِنى بسُؤالِ
وإذا النَّوَالَ مع السُّؤالِ وَزَنْتَه ... رجَحَ السؤالُ وشَالَ كلُّ نَوالِ

وقال مُسْلم بنُ الوليد:

سلِ الناسَ إني سائلُ الله وَحدَه ... وصائنُ عِرْضي عن فُلانٍ وعن فُلِ[4]

وقال عَبيْد بن الأبرص:

مَنْ يسْأل الناس يَحْرِموه ... وسائلُ الله لا يَخيبُ

وقال ابن أبي حازم:

لَطَيُّ يسومٍ ولَيْلتَيْنِ ... ولُبْس ثَوْبين باليَيْنِ
إني وإن كنتُ ذا عيَالٍ ... قَليلَ مالٍ كثيرَ دَيْنِ
لأحمَدُ الله حين صارتْ ... حوائجي بَيْنَهُ وبَيْني

ومن قولنا في هذا المعنى:

سؤالُ الناس مِفْتَاحُ عتيدُ ... لِبَاب الفَقْرِ فالطُف في السُّؤالِ

---

(١) كذا في ديوان أبي تمام. والذي في سائر الأصول: «خلفه». مكان «تحته».

(٢) الجرض: ابتلاع الريق بجهد.

(٣) يقال: أحفى فلان فلاناً، إذا برح به في الإلحاف عليه وأجهده.

(٤) فل: أي فلان.

ورَوَى أشعبُ الطَّمَّاع عن عبدالله بن عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَحْشُرُ الله عز وجل يوم القيامة قوماً عاريةً وجوههم قد أذهب حياءَها كثرةُ السؤال**»(١).

سؤال السائل من السائل

مدح أبو الشَّمَقْمق مروان بن أبي حفصة، فقال له: أبا الشَّمقمق، أنت شاعرٌ وأنا شاعر، وغايتنا كلّنا السؤال. وذكر أعرابيٌّ رجلاً بالسُّؤال، فقال: إنه أسألُ من ذي عَصَوَين. وقال حبيب:

لم يَخْلُق الرحمنُ أحمقَ لِحْيةً ... من سائلٍ يَرْجو الغِنَى من سائلِ

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر النّحويّ قال: قَدِمْتُ من سَفر، فدخل عليّ ذو الرُّمة الشاعر، فعرضتُ أن أُعطيه شيئاً، فقال: كلا أنا وأنتَ نأخذ ولا نُعْطي.

الشيب

قال قيسُ بن عاصم: الشيبُ خِطَامُ المَنيَّة. وقال غيرُه: الشيبُ نذيرُ الموت. وقال النُّميريّ: الشيبُ عُنوانُ الكِبَر. وقال المُعْتَمر بن سُليمان: الشيبُ مَوت الشَّعَر، ومَوت الشَّعَر عِلّة لِموت البَشر. وقال أعرابيّ: كنتُ أُنكِر البَيْضاء فصِرْتُ أُنكِر السَّوداء، فيا خَيرَ مَبْدول ويا شرَّ بَذَل(٢).

وقيل للنبيّ ﷺ: عَجِل عليك الشّيبُ يارسولَ الله! قال: «**شَيَّبَتْني هُود**

---

(١) ذكر الخطيب البغدادي أن أشعب قال: أتيت سالم بن عبدالله أسأله، فأشرف عليَّ من خوخة له فقال لي: ويلك يا أشعب لا تسَلْ، فإن أبي حدثني عن رسول الله ﷺ قال: «**ليجيئن أقوام يوم القيامة ليس في وجوههم مزعة لحم**» انظر تاريخ بغداد ٧/ ٣٩ وأورد ابن حجر أن الأزدي قال عن أشعب: لا يُكتب حديثه. انظر ميزان الاعتدال ١/ ٦٦.

(٢) في عيون الأخبار: «فيا خير بدل ويا شر مبدول».

وأخواتُها»[١]. وقيل لعبدالملك بن مروان: عَجِل عليك الشيبُ يا أميرَ المؤمنين! قال: شَيَّبني ارتقاء المنابر وتَوَقُّع اللحن. وقيل لرجل من الشُّعراء: عَجِل عليك الشَّيبُ! فقال: وكيف لا يَعْجَل وأنا أَعْصُر قَلْبي في عمل لا يُرْجَى ثَوابُه، ولا يُؤْمَن عِقابُه.

وقال حبيبُ الطائي:

غَدَا الشَّيْبُ مُخْتَطًّا بفَوْدَيَ خُطَّةً ... طريقُ الرَّدَى منها إلى النَّفْس مَهْيَعُ[٢]
هُو الزَّوْرُ[٣] يُجْفَى والمُعاشر يُجْتوى ... وذو الإلْف يُقْلَى والجديدُ يَرَقَّعُ
له مَنْظر في العَيْنِ أبيضُ ناصعٌ ... ولكنه في القَلْب أَسْود أَسْفَع

وقال محمود الورّاق:

بَكيتُ لُقرْب الأجلْ ... وبُعْدِ فَواتِ الأملْ
ووَافَد شَيْب طَرَا ... بعَقْب شباب رَحَلْ
شَبَابٌ كأنْ لمْ يَكُن ... وشَيْبٌ كأنْ لم يزَل
طَواك بَشِيرُ البَقا ... وجاء بَشِيرُ الأجَل

وقال آخر:

صَدَّت أُمامةُ لَمَّا جئتُ زائرَها ... عنِّي بمَطْروفةٍ إنسانُها غَرِقُ[٤]
وراعها الشيبُ في رأسي فقلتُ لها ... كذاك يَصفرُّ بعد الخُضْرة الوَرَق

وقال العَلويّ:

عَيَّرتْني بشَيْب رَأْسي نَوارُ ... يا بنةَ العمِّ ليس في الشّيب عارُ
إنما العارُ في الفِرار من الزَّحْف ... فإذا قِيلَ أينَ أينَ الفِرار

ومن قولنا في الشّيب:

بَدا وضحُ المَشيب على عِذَارِي ... وهل ليلٌ يكونُ بلا نَهارِ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٧/ ٤٠. وصححه الشيخ الألباني انظر الصحيحة [٩٥٣] وصحيح الجامع [٣٦١٥]. وقال الشيخ الحوت: له عدة طرق منها مرسل ومنها مرفوع فهو حسن. انظر أسنى المطالب [٧٩٧].

(٢) مهيع، أي واضح. (٣) الزور: أي الزائر.

(٤) المطروفة: العين أصابها شيء فدمعت. والإنسان: المثال يرى في سواد العين.

وألْبسني النُّهى ثوباً جديداً ... وجَرَّدني من الثَّوْب المُعار
شَرَيتُ سوادَ ذا ببياض هذا ... فبَدَّلتُ العِمامةَ بالخِمار
وما بِعْتُ الهوَى بَيْعاً بشَرط ... ولا استثنيتُ فيه بالخِيَار

ومن قولنا فيه:

قالوا شَبابُك قد وَلَّى فقلتُ لهم ... هل من جديدٍ على كَرِّ الجَديدَيْن
صِلْ من هَويتَ وإن أبدى مُعاتبةً ... فأطيبُ العَيْش وصلٌ بين إلْفَين
واقطَعْ حَبَائلَ خِدْنٍ لا تُلائمهُ ... فربَّما ضاقتِ الدُّنيا على اثنين

ومن قولنا فيه:

جارَ المَشيبُ على رَأسي فغَيَّره ... لَمَّا رَأى عندنا الحُكَّامَ قد جارُوا
كأنَّما جُنَّ ليلٌ في مَفارقه ... فاعتاقَه[1] من بَياض الصُّبْح إسفار

ومن قولنا فيه:

سَوادُ المَرْء تُنْفِدُه اللَّيالي ... وإنْ كانت تَصير إلى نَفَادِ
فأسودُه يعود إلى بَياض ... وأبيضُه يَعود إلى سَواد

ومن قولنا أيضاً:

أطلالُ لَهْوك قد أقْوَتْ مَغانيها ... لم يَبْق من عَهدها إلا أثافيها
هذي المَفارقُ قد قامت شواهدُها ... على فَنائك والدُّنيا تُزكّيها
الشَّيبُ سُفْتَجة فيها مُعَنْونة ... لم يَبْق للموتِ إلّا أن يُسحِّيها[2]

ومن قولنا أيضاً:

نُجومٌ في المَفارق ما تَغُور ... ولا يَجْري بها فلكٌ يَدُورُ
كأنّ سَواد لِمَّته ظَلامٌ ... أغارَ من المَشيب عليه نُور
ألا إن القَتيرَ وَعيدُ صِدْق ... لنا لو كان يَزْجُرنا القَتير[3]

---

(١) اعتاقه: عاقه.

(٢) يقال: سحى القرطاس، إذا أخذ منه سحاءة، والسحاءة: ما يقشعر عنه.

(٣) القتير: رؤوس مسامير حلق الدروع، يشبه به الشيب إذا نقب في سواد الشعر.

نذيرُ الموت أرسلَه إلينا ... فكذَّبنا بما جاء النّذير
وقُلنا للنُّفوس لعلَّ عُمْراً ... يطول بنا وأطولُه قَصير
متى كُذبتْ مواعدُها وخانت ... فأوَّلُها وآخرُها غُرور
لقد كان السُلُوُّ يُميت شَوْقي ... ولكِنْ قَلّما فُطِمَ الكبير
كأني لم أرُق بل لم تَرُقْني ... شُموسٌ في الأكِلَّة أو بدُور
ولم ألقَ المُنَى في ظلِّ لَهْوٍ ... بأقمارٍ سحائبُها السُّتور

ولآخر:

والشّيبُ تَنْغيصُ الصِّبا ... فاقضِ اللبابةَ في الشَّبابْ

وقال ابن عبّاس: الدنيا الصحّة والشباب. ولبعضهم:

في كل يومٍ أرى بيضاء قد طَلَعت ... كأنما طَلعت في ناظِر[1] البَصرِ
لَئن قَصَصْتُكِ بالمِقْراضِ عن نَظري ... لَما قَصَصْتُكِ عن هَمِّي ولا فِكَري

ولابن المُعتزّ:

جاء المَشيب فما تَعِسْتُ به ... ومَضى الشَّباب فما بُكايَ عليْه

وقال أيضاً:

ماذا تُريدين من جَهْلي وقد غَبَرت ... سِنُوُّ شَبابي وهذا الشَّيبُ قد وَخَطَا
أُرفِّع الشَّعرةَ البَيْضاءَ مُلْتقطاً ... فيُصْبِح الشَّيبُ للسوداء مُلتقطا
وسوف ـ لا شك ـ يُعييني فأتْركه ... فطالما أعْمِل المِقْراضَ والمُشُطا

الشباب والصحة

قال أبوعمرو بن العَلاء: ما بَكت العربُ شيئاً ما بكت الشباب، وما بلغت به ما يستحقه. وقال الأصمعي: أحسن أنماط الشِّعر المراثي والبُكاء على الشباب. وقيل لكُثَيِّر عَزَّة: ما لك لا تقول الشعر؟ قال: ذهب الشبابُ فما أطرب، ومات عبدُالعزيز

(١) الناظر: النقطة السوداء التي في العين. ونُسِبَ هذا الشعر لأبي دلف.

فما أرْغب. وقال عبدُالله بن عباس: الدُّنيا العافية، والشّباب الصحة. وقال محمود الورّاق:

أليس عجيباً بأن الفتى ... يُصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ له مُوجَع ... وبين مُعَزٍّ مُغذٍّ[1] إليه
ويَسْلُبه الشيبُ شَرْخ الشبا ... ب فليس يُعزِّيه خَلْقٌ عليه

وقال ابن أبي حازم:

ولَّى الشَّبابُ فخَلِّ الدَّمعَ ينْهملُ ... فَقْدُ الشَّباب بَفقْدِ الرُّوح مُتَّصلُ
لا تُكْذَبنَّ فما الدُّنيا بأجمعها ... منَ الشَّباب بيومٍ واحدٍ بَدَل

وقال جرير:

وليَّ الشبابُ حَميدةً أيامُه ... لو كان ذلك يُشْترى أو يُرْجَعُ

وقال صريعُ الغواني:

واهاً لأيام الصِّبا وزمانه ... لو كان أَسْعفَ بالمُقام قليلاَ
سَلْ عيشَ دَهْرٍ قد مَضتْ أيامُه ... هل يَسْتطيعُ إلى الرُّجوع سَبيلاَ؟!

وقال الحسنُ بن هانيء:

وأراني إذ ذاك في طاعة الجَهْـ ... ـل وَفَوْقي من الصِّبا أُمراء
تِرْبَ عَبْث لرَيْطتي فَضْلُ ذَيْل ... ولرأسي ذُؤابةٌ فَرْعاءُ
بقناعٍ من الشَّباب جديدٍ ... لم تُرَقِّعه بالخِضاب النِّساء
قبل أنْ يَلْبَس المَشيبَ عِذاري ... وتُبلَّى عمامتي السَّوداءُ

وقال أعرابيّ:

لله أيامُ الشباب وعَصره ... لو يُستعار جديدُه فيُعارُ
ما كان أقصرَ ليلَه ونَهارَه ... وكذاك أيامُ السُّرور قِصارُ

ومن قولنا في الشباب:

ولّى الشبابُ وكنتَ تَسْكُنُ ظِلّه ... فانظُر لنفسك أيَّ ظلٍّ تَسكنُ

---

(١) مغذ، من الإغذاذ، وهو الإسراع. وقد نسبت هذه الأبيات في الشهاب لابن أبي حازم.

ونَهى المَشيبُ عن الصِّبا لو أنّه ... يُدْلي بحُجَّته إلى مَنْ يَلْقن[١]

ومن قولنا فيه:

قالوا شبابُك قد مضتْ أيامُه ... بالعيش قلتُ وقد مضت أيّامي
لله! أيَّةُ نعمةٍ كان الصّبا ... لو أنها وُصلت بطول دوام
حَسَرَ المشيبُ قِناعَه عن رأسه ... وصَحَا العواذلُ بعد طول مَلَام
فكأنّ ذاك العيشَ ظلُّ غمامةٍ ... وكأنّ ذاك اللهوَ طيفُ منام

ومن قولنا فيه:

ولو شئتُ راهنتُ الصَّبابةَ والهوَى ... وأجريتُ في اللّذات من مائتين[٢]
وأسبلتُ من ثَوْب الشّباب وللصّبا ... عَلَيَّ رداءٌ مُعْلَم الطرَفَيْن[٣]

وقال آخر:

إن شرْخَ الشّبابِ والشّعر الأسْـ ... وَد ما لم يُعاصَ كان جُنونا[٤]

وقال آخر:

قالت عَهدتُكَ مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشّبابَ جُنونٌ بُرؤُه الكِبَرُ[٥]

ومن قولنا في الشباب:

كنتُ إلْفَ الصِّبا فَوَدَّعني ... وَداعَ مَن بانَ غيرَ مُنْصَرِفِ
أيامُ لَهْوي كظِلِّ إسْحَلة ... وذا شَبابي كروضة أُنُف[٦]

ومن قولنا فيه:

شبابي كيف صِرْتَ إلى نَفَاد ... ويُدِّلتَ البياضَ منَ السَّوادِ

---

(١) اللقن: سرعة الفهم. والذي في اليتيمة: «يفطن».

(٢) من مائتين، يريد من مسافة بعيدة.

(٣) أسبل الثوب: أرخاه. وإعلام الثوب: رسمه وترقيمه.

(٤) شرخ الشباب: أوله. ويعاصي: يعصي. وهذا البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٥) نسب هذا البيت في المستطرف (ج٢ ص٤٠) للعتبي.

(٦) الإسحلة: واحدة الإسحل، وهو شجر يستاك به؛ وقيل هو شجر يشبه الأثل ويغلظ حتى تتخذ منه الرحال. وروضة أنف: لم ترع.

وما أَبْقى الحوادثُ منك إلاَّ ... كما أبقَت من القَمر الدَّآدي[١]
فِراقُك عَرَّفَ الأحزانَ قلبي ... وفَرّق بين جَفْني والرُّقاد
فيا لِنَعيم عَيْشٍ قد تَوَلّى ... ويا لغليل حُزْنٍ مُسْتفاد
كأني مِنْك لم أرْبَعْ بربْع[٢] ... ولم أرْتَدْ به أحْلَى مُراد
سَقى ذاك الثَّرَى ويْلُ الثُريّا ... وغادَى نَبْتَهُ صَوْبُ الغوادِي[٣]
فكم لي من غَليلٍ فيه خافٍ ... وكم لي مِن عَويلٍ فيه بادِي
زمانٌ كان فيه الرُّشد غَيًّا ... وكان الغَيُّ فيه من الرَّشاد
يُقبِّلني بدَلٍ من قَبُول ... ويُسْعدني بوَصْل من سُعاد
وأَجْنُبه فيُعْطِيني قياداً ... ويَجْنُبني فأُعْطيه قِيَادي[٤]

الخضاب

قال النبي ﷺ: «**غيِّرُوا هذا الشّيب، وجنِّبوه السَّواد**»[٥]. **وكان أبوبكر يخضب بالحنّاء والكَتَم**[٦]. وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريته: قُومِي اخضبِي رأسي ولحيتي، فقالت: دَعْني، قد عَييت بها أُرقِّعك. فقال مالك بن أسماء:

(١) الدآدي (بالهمز وسُهِّل للشعر): ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وقيل إنها هي؛ الواحدة: دأداءة.
(٢) الربع: الدار. وربع بها، أي تقلب فيها حيث شاء.
(٣) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة، أو هي مطر الغداة.
(٤) أجنبه: أقوده وهو إلى جنبي.
(٥) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما عن جابر بن عبدالله.
(٦) أخرجه مسلم من حديث أنس: «**أن أبابكر خضب لحيته بالحناء والكتم. وأن عمر خضب لحيته بالحناء بحتاً وبحتاً**»: أي صرفاً. وأخرجه الصنعاني عن عائشة في المصنف [٢٠١٧٨]. وروى النسائي عن أبي ذر وعن عبدالله بن بريدة رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم**» كتاب الزينة (١٦) وأخرجه الترمذي عن أبي ذر وصححه. والكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر. كما يستخدم مداداً للكتابة إذا طبخ بالماء. وقال الحافظ ابن حجر: الكتم نبات باليمن يخرج الصبغ أسود يميل إلى الحمرة، وصبغ الحناء أحمر، فالصبغ بهما يخرج بين السواد والحمرة (الفتح ١٠/٣٧٦).

عَيَّرْتني خَلَقاً أبليتُ جِدَّته ... وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً

ودخل أبوالأسود الدُّؤلي على معاوية وقد خضب، فقال: لقد أصبحت ياأبا الأسود جميلاً، فلو عَلَّقت تميمة. فأنشأ أبوالأسود يقول:

أفْنى الشّبابَ الذي فارقتُ بهجته ... مَرُّ الجديدين[1] من آتٍ ومُنْطلق

لم يُبْقيا لي في طُول اختلافهما ... شيئاً يُخاف عليه لذْعةُ الحَدَق

وذُكر عن الأصمعي قال: بلغني عن بعض العرب فصاحةٌ، فأتيتُه فوجدتُه يخضب، فقال: يابن أخي، ما الذي أقصدك إليَّ؟ قلت: الاستئناس بك والاستماع من حديثك، قال: يابن أخي، قصدتني وأنا أخضب، والخضاب من مقدمات الضعف، ولطالما فَزَّعْتُ الوحوش، وقُدْت الجيوش، ورَوَيْتُ السَّيف، وقَرَيت الضَّيف؛ وحَميتُ الجارَ، وأبيتُ العَار؛ وشربت الرَّاح، وجالست المِلاح، وعاديت القُروم[2]، وعَلَوتُ للخُصوم؛ واليوم يابن أخي الكِبَرُ وضعفُ البصر، تَركا من بعد الصفو الكدر، وأنشأ يقول:

شَيْبٌ نُعَلِّله كيما نُسرّ به ... كهيئة الثَّوب مَطْويًّا على خِرَق

فكنتُ كالغُصْن يَرْتاح الفؤادُ به ... فصرْتُ عُوداً بلا ماء ولا وَرق

صبْراً على الدَّهر إن الدهر ذو غِيَرٍ ... وأَهْلُه منه بين الصَّفو والرَّنَق[3]

وقال محمود الورّاق في الخِضَاب:

للضَّيف أن يُقْرَى ويُعْرفَ حقُّه ... والشَّيبُ ضيفُك فاقْره بخِضَاب

وافَى بأكذَب شاهِدٍ ولربَّما ... وافَى المَشيبُ بشاهِدٍ كذّاب

فافْسَح شهادتَه عليك بخَضْبه ... تَنْفي الظُّنون به عن المُرْتاب

فإذا دنا وَقْتُ المَشيب فخلِّه ... والشّيبَ يذهبُ فيه كلَّ ذَهاب

وقال غيره:

بَكَرتْ تُحسِّن لي سوادَ خِضابي ... لكأنَّ ذاك يُعيدني لشَبابي

---

(١) الجديدان: الليل والنهار.

(٢) القروم: السادة؛ الواحد: قرم (بالفتح).

(٣) يقال: رنق الماء رنقاً (من باب فرح)، إذا كدر.

وإذا أَدِيمُ الوَجْه أَخْلَقه البِلَى ... لم يُنْتَفَع فيه بحُسْن خِضاب
ماذا تُرَى يُجْدِي عليك سوادُه ... وخلافُ ما يُرْضيك تحت ثِيابي
ما الشَّيبُ عندي والخضاب لواصِفٍ ... إلا كَشَمس جُلِّلت بسَحاب
تَخْفَى قليلاً ثم تَقْشَعُه الصَّبا[1] ... فيصيرُ ما سُتِرَت به لِذَهاب

ومن قولنا في هذا المعنى:

أَصَمَّمَ في الغَواية أم أنابا ... وشَيبُ الرّأس قد خَلَس الشَّبَابا
إذا نَصَلَ الخِضابُ بَكى عليه ... ويضحك كلما وَصَل الخضابا
كأن حمامةً بيضاءَ ظَلَّت ... تُقاتل في مَفارقه غُرابا

فضيلة الشيب

قال النبي ﷺ: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نُوراً يومَ القيامة»[2]. وقال ابنُ أبي شَيبة: نهى رسولُ الله ﷺ عن نَتْف الشَّيب، وقال: «هو نُور المؤمن»[3]. وقالوا: أوَّل من رأى الشيب إبراهيم خليل الرحمن فقال: يارب، ما هذا؟ قال له: هذا الوقار؛ قال: ربِّ زدني وقاراً.

وقال أبونُواس:

يقولون في الشَّيب الوقارُ لأهْلِه ... وشَيبي بحمد الله غيرُ وَقارِ

---

(١) تقشعه: أي السحاب.

(٢) رواه النسائي / كتاب الجهاد (٢٦) والترمذي / باب ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله (١٦٣٤) عن كعب بن مرة.

(٣) رواه الإمام أحمد [٢/٢٠١] والنسائي / كتاب الزينة (١٣) بنحوه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وقال العراقي: أخرجه أبوداود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣٤٨).

وقال غيرُه:

يقولون هل بعد الثلاثينَ مَلْعبٌ ... فقلت وهل قَبْلَ الثلاثين مَلْعَبُ
لقد جلَّ قدر الشيب إنْ[1] كان كُلّما ... بَدت شَيْبةٌ يعرَى من اللَّهو مَرْكبُ

وقال محمود الوراق:

وعَائبٌ عابني بشَيْبٍ ... لم يَعْدُ، لمَّا ألَمَّ وقْتُه
فقلت للعائبي بشيبي ... يا عائبَ الشَّيب لا بَلغتَه

أنشدني أبو عبدالله الإسكندراني، معلِّم الإخْوة:

وممّا زادَ في طُول اكتئابي ... طلائعُ شَيْبَتين ألَمَّتا بي
فأمّا شَيبَةٌ ففزعتُ فيها ... إلى المِقْراض من حُبِّ التَّصابي
وأما شَيْبةٌ فَعَفَوتُ عنها ... لتَشْهد بالبَرَاء من الخِضابَ

كبر السن

قيل لأعرابي قد أخذته كَبْرة السِّن: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ تُقيِّدني الشَّعرةُ، وأعثُر بالبَعْرة، قد أقام الدهرُ صَعَري[2]، بعد أن أقمتُ صَعَره. وقال آخر: لقد كنتُ أُنْكِر البيضاء، فصِرْت أُنْكِر السوداء، فيا خير مَبْدول ويا شرَّ بَدَل. ودخل[3] المُسْتَوْغِر بن ربيعة على معاوية بن أبي سفيان وهو ابنُ ثلثمائة سنة، فقال: كيف تَجدك يا مُسْتَوغر؟ فقال: أجدني يا أميرَ المؤمنين، قد لان مِنّي ما كنتُ أحِبُّ أن يشتد، واشتدّ منّي ما كنتُ أُحبُّ أن يَلين، وأبيضّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يسوّد، واسوَدّ مني ما كنتُ أحبّ أن يَبْيضّ، ثم أنشأ يقول:

سلْني أنَبِّئكَ بآياتِ الكِبَرْ ... نومُ العِشَاءِ وسُعالٌ بالسَّحَرْ

---

(١) يجوز في همزة «إن» هذه الفتح على أن تكون مصدرية والكسر على أن تكون شرطية.

(٢) الصعر: إمالة الخد تكبراً.

(٣) ذكر هذا الخبر في عيون الأخبار (ج٢ ص٣٢١) بين عبدالملك بن مروان والعريان بن الهيثم.

وقلة النَّوم إذا الليلُ اعْتَكر ... وقلة الطُّعم إذا الزَّاد حَضرَ
وسُرْعة الطَّرف وتَحْميجُ[١] النَّظَر ... وتَرْكُكَ الحسناء في قُبْل الطُّهُر[٢]
والناسُ يَبْلَوْن كما يَبْلى الشَّجَر

وقال أعرابي:

أشْكو إليك وَجعاً بركبتي ... وهَدَجاناً[٣] لم يَكُن في مِشْيتي
كهدجان الرَّأل خَلْف الهَيْقَتِ[٤]

وقال آخر[٥]:

ولِلكبير رَثَياتٌ[٦] أرْبَعُ ... الرُّكَبتان والنَّسا والأخْدع[٧]

وقال جرير:

تَحِنُّ العِظام الرَّاجِفَاتُ من البِلَى ... ولَيْس لداء الرُّكْبتين طبيبُ

ودخل الشعبي على عبدالملك بن مَرْوَان، فوجده قد كبا مُهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: يا شَعبيّ، ذكرتُ قولَ زُهير[٨]:

كأنّي وقد جاوزتُ سبعين حجَّةً ... خلعتُ بها عنّي عِذَارَ لجامي[٩]
رَمَتني بناتُ الدَّهر[١٠] من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمى وليس بَرَامي

---

(١) التحميج: تصغير العين لتمكينها من النظر.
(٢) قبل الطهر، أي أوله.
(٣) الهدجان: مشي رويد في ضعف.
(٤) الهيقة: أنثى النعام. وصيرّ هاء التأنيث تاء في المرور عليها، أي للروي. والرأل: ولدها.
(٥) هو جواس بن نعيم، أحد بني الهجيم بن عمرو بن تميم، ويعرف بابن أم نهار، وأم نهار هي أم أبيه.
(٦) الرثيات: جمع رثية، وهي ضعف، وقيل داء يعرض في المفاصل.
(٧) النسا: عرق من الورك إلى الكعب. والأخدع: أحد عرقين في جانبي العنق قد خفيا. وقد جاء في اللسان بعد هذا البيت:

ولا يزال رأسه يُصَدَّعُ ... وكل شيء بعد ذاك يَيْجَعُ

(٨) القائل هو عمرو بن قميئة لا زهير. انظر الشعر والشعراء في ترجمة عمرو بن قميئة.
(٩) عذار اللجام: السيران اللذان يجتمعان عند القفا، وقيل هو ما سال منه على خد الفرس. وخَلْعُ عذار اللجام عن الفرس لا يكون إلا مع ضعفه وذهاب فتوته وحين يقدر عليه بغير العذار.
(١٠) بنات الدهر: حوادثه وصروفه ومصائبه.

فلو أنني أُرْمَى بِنبْلٍ رأيتها ... ولكنَّني أُرْمَى بغير سِهام
على الراحتين تارةً وعلى العصا ... أُنوءُ ثلاثاً بعدهنَّ قيامي

قال له الشَّعبيُّ: ليس كذلك يا أميرَ المؤمنين، ولكن كما قال لَبِيدُ بن ربيعة، وقد بلغ سبعين سنة:

كأني وقد جاوزتُ سَبْعينَ حجَّةً ... خلعتُ بها عن مَنْكِبَيَّ رِدَائياً

فلما بلغ سبعاً وسبعين قال:

باتت تشكَّى إليَّ النفسُ مُجهشةً[1] ... وقد حملتُكِ سبعاً بعد سَبْعيناً
فإن تُزَادِي ثلاثاً تَبْلُغني أملاً ... وفي الثلاثِ وفاءٌ للثَّمانينا

فلما بلغ مائة سنة قال:

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولها ... وسؤال هذا الخَلْق كيف لَبِيدُ

فلما بلغ مائة سنةٍ وعشراً قال:

أليس في مائةٍ قد عاشها رجُلٌ ... وفي تكامُل عَشْرٍ بعدها عُمُرُ

فلما بلغ ثلاثينَ ومائةً وقد حضرَتْه الوفاة قال:

تمنَّى ابنتاي أن يَعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من رَبيعةَ أو مُضَرْ
فقوما وقُولا بالذي تَعْلمانه ... ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تَحْلِقا شَعَر
وقولا هو المرءُ الذي لا صَديقَهُ ... أضاعَ ولا خانَ الخليلَ ولا غَدر
إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذَر

قال الشعبي: فلقد رأيتُ السرورَ في وجه عبدالملك طمعاً أن يعيشها.

وقال لبيدٌ أيضاً:

أليسَ ورائي إن تراختْ مَنيَّتي ... لزوم العصا تُحْنَى عليها الأصابعُ
أُخَبِّرُ أخبارَ القُرون التي مَضت ... أَدِبُّ كأنّي كلما قمتُ راكِعُ
فأصبحتُ مثلَ السيفِ أَخْلقَ جَفْنَه ... تَقادمُ عهد القَين[2] والنَّصلُ قاطعُ

---

(١) مجهشة، أي فزعة تريد البكاء.

(٢) القين: الحداد؛ أي أنه مر على صنعه أمدٌ بعيد.

وقالوا: مكتوبٌ في الزّبور: من بلغ السَّبعين اشتكى من غير عِلَّة. وقال محمد بن حسَّان النبطي: لا تسأل نفسك العامَ ما أعطتك في العام الماضي. وقال معاوية لما أسنَّ: ما مرَّ شيءٌ كنتُ أستلذّه وأنا شاب فأجده اليوم كما أجده إلا اللبن والحديث الحسن. عاش ضرارُ بن عمرو حتى ولد له ثلاثة عشر ذكراً، فقال: من سَرَّه بنوه ساءته نفسه. وقال ابن أبي فَنن[1]:

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدَّتَهُ ... وخانَه ثِقَتاه السَّمْعُ والبصرُ
قالت عَهِدتُك مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشبابَ جنونٌ بُرْؤُه الكِبَر

قال أبوعبيدة: قيل لشيخ: مابقي منك؟ قال: يسبقني مَنْ بين يدي[2] ويُدركني مَنْ خلفي، أذكر القديم، وأنسى الحديث، وأنْعس في الملا، وأسهر في الخَلا، وإذا قمتُ قربتِ الأرض مني، وإذا قَعْدتُ تباعدت عني.

قال حميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد صحَّةٍ ... وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسْلَما

وقال آخر[3]:

كانت قناتي لا تلِينُ لغامزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمساء
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ... ليصحَّني فإذا السلامةُ داء

وقال أبوالعتاهية [ويروى للقَطُامي]:

*** أسْرَع في نَقْصِ امريء تمامُه ***

وقالت الحكماء: ما زاد شيءٌ إلا نَقَص، ولا قام إلا شَخَص[4]. وقال بعض المحدثين:

---

(١) كذا في عيون الأخبار (ج٢ ص٣٢٠). ونهاية الأرب (ج٣ ص٩٣). وهو أحمد بن صالح بن أبي معشر، مولى المنصور. والذي في أ، ي: «ابن أبي قيس» والذي في سائر الأصول: «ابن أبي متى».

(٢) كذا في عيون الأخبار. والذي في الأصول «أمامي» مكان «بين يدي».

(٣) هو عمرو بن قميئة كما في زهر الآداب.

(٤) شَخَص، أي ذهب وانتقل.

ألَسْتَ تَرى أن الزمان طواني ... وبدَّل عقلي كله ويَراني
تَحَيَّفَني[١] عُضْواً فعُضْواً فلم يَدَعْ ... سوى اسمي صحيحاً وحدَه ولساني
ولو كانت الأسماء يَدْخلها البلىٰ ... إذاً بَلِيَ اسمي لامتدادِ زماني
وما لِيَ لا أَبْلَى لِسَبْعينَ حِجَّةً ... وسَبْعٍ أتَتْ من بعدها سنتان
إذا عَنَّ لي شيءٌ تخيَّل دونه ... شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخان

وقال الغزَّال:

أصبحتُ والله مَحْسوداً على أَمدٍ ... مِنَ الحياة قَصيرٍ غيرِ مُمتَدِّ
حتى بقيتُ بحمد الله في خَلَفٍ ... كأنّني بينهم من وَحْشَةٍ وَحْدي
وما أُفارق يوماً من أُفارقه ... إلا حَسِبْتُ فِراقي آخرَ العَهْد

وقال آخر:

يا مَن لشيخٍ قد تَخَدَّد[٢] لحمُهُ ... أَفَنى ثلاثَ عمائمٍ ألواناً
سوداءَ حالكةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ[٣] ... وأجدَّ لوناً بعد ذاك هِجَانَا[٤]
قَصرَ الليالي خَطْوَهُ فَتَدَاني ... وحَنَيْنَ قائم صُلبه فتحانَى
والموتُ يأتي بعد ذلك كلِّه ... وكأنما يُعْنَى بذاك سِوَانا

وقال سُفيان الثّوري في مَدْح كِبَره:

إنِّي وإن كان مَسَّني كِبرٌ ... على ماقد تَرَيْن من كِبرى
أَعرفُ من قبل أن تُفارِقَني ... موقعَ سَهْمِي والسهمُ في الوتَر

---

(١) تحيَّفه: تنقصه من حيفه، أي نواحيه.

(٢) تَخَدَّد لحمه: هزل ونقص.

(٣) السَّحْق: الثوب البالي. والمُفَوَّفُ من البرود ما فيه خُطُوط بيض، يُشَبِّه به شعر الرأس حين يخالط سواده بياض الشيب أول ما يبدو.

(٤) الهجان: الخالص البياض.

من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه

كان حراثةُ بن بدر الغُدَانيّ[١] فارسَ بني تميم، وكان شاعراً أديباً ظريفاً، وكان يُعاقر الشَّرابَ ويصحب زياداً، فقيل لزياد: إنك تصحب هذا الرجل وليس من شاكلتك، إنه يُعاقر الشراب. فقال: كيف لا أصحبه، ولم أسأله عن شيء قطُّ إلا وجدتُ عنده منه علماً، ولا مشي أمامي فاضطرَّني أن أناديَه، ولا مشي خلفي فاضطرَّني أن أَلتفتَ إليه، ولا رَاكَبَني فمسَّتْ رُكْبتي رُكْبَتَه[٢]. فلما هلك زيادٌ قال حارثُة بن بَدْر يَرْثيه:

أبا المُغيرَةِ والدُّنيا مُغَرِّرَةٌ ... وإنَّ مَن غَرَّت الدُّنيا لَمَغْرورُ
قد كان عِنْدك للمَعْروف مَعْرِفَةٌ ... وكان عندك للتَّنْكير تَنْكير
لو خَلَّدَ الخيرُ والإسْلامُ ذَا قِدَمٍ ... إذاً لخلّدَك الإسلامُ والخيْر

وتمامُ هذه الأبيات قد وقعتْ في الكتاب الذي أفْردناه للمَرَاثي. وكان زياد لا يُدَاعب أحداً في مجلسه ولا يَضْحَك، فاختصم إليه بنو راسِب وبنو الطُّفَاوَة في غُلام أثْبته هؤلاء وهؤلاء، فتَحَيَّر زيادٌ في الحُكم. فقال له حارثةُ ابن بدر: عِنْدي أكرمَ الله الأميرَ في هذا الغلام أمرٌ، إن أَذِن الأميرُ تكلّمت به فيه؟ قال: وما عندك فيه؟ قال: أرى أن يُلْقَى في دِجْلة فإن رَسَب فهو لِبَني راسِب، وإن طفا فهو لبني الطُّفَاوَة، فتبسَّم زياد وأَخَذَ نَعْليه ودخل، ثم خَرج، فقال لحارثة: ما حَمَلك على الدُّعابة في مَجلسي؟ قال: طيِّبَةٌ حضرتني أبقى الله الأمير خِفْت أن تَفُوتني. قال: لا تعُدْ إلى مثلها.

وكان ابن الوليد البَجَليّ، وهو ابنُ أخت خالد بن عبدالله القَسْرِيّ، وَلي

---

(١) كذا في معجم البلدان وعيون الأخبار والأغاني. والذي في الأصول: العدواني، وهو تحريف.

(٢) لا يحتج بفعل زياد لأنه مخالف للنهج الذي سار عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فالخليفة عمر رضي الله عنه يعزل أحد عماله لقوله شعراً يصف فيه لذة الخمر، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقيد أبامحجن الثقفي ويحبسه عن الجهاد عندما لم يمتنع عن معاقرة الشراب.

أصبهان، وكان رجلاً مُتَسَمِّتاً[١] مُتَصَلحاً، فقدمَ عليه حمزةُ بن بيض بن عوف راغباً في صُحْبته، فقيل له: إن مثل حمزة لا يَصْحب مثلَك، لأنه صاحبُ كلاب ولهو، فبعث إليه ثلاثة آلاف دِرْهم وأمره بالانصراف. فقال فيه:

يابنَ الوليد المُرْتَجَى سَيْبُهُ ... ومن يَجَلِّي الحَدَث الحالِكَا
سبيلُ معروفك منِّي علَى ... بالٍ فما بالي عَلَى بالِكا
حَشْوُ قميصي شاعرٌ مُفْلِقٌ ... والجودُ أَمْسى حَشْو سِرْبالِكا
يلومك النَّاسُ على صُحْبتي ... والمِسْكُ قد يستصحب الرامِكا[٢]
إن كنت لا تصحب إلا فتىً ... مثلك لن تؤْتَي بأمثالِكا
إني امرؤ جئتُ أريد الهُدَى ... فعُد على جهلي بإسلامِكا

قال له: صدقتَ، وقرَّبه وحَسُنت منزلته عنده.

قولهم في القرآن

كتب المريسي إلى أبي يحيى منصور بن محمد: اكتب إليَّ: القرآنُ خالق أو مخلوق؟ فكتب إليه: عافانا الله وإيَّاك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهل السُّنة، وممن لا يرغب بنفسه عن الجماعة، فإنه إن تفعل فأعْظِمْ بها منَّة، وإن لا تفعل فهي الهَلَكة، ونحن نقول: إن الكلامَ في القرآن بدعة، يتكلَّف المُجيبُ ما ليس عليه، ويتعاطى السائل ما ليس له، وما نعلم خالقاً إلا الله، وما سِوى الله فمخلوق، والقرآن كلام الله، فانْتَه بنفسك إلى أسمائه التي سمَّاه الله بها فتكونَ من المُهتدين، ولا تُسَمِّ القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون.

---

(١) متسمتاً: أي متعبداً.

(٢) الرامك (كصاحب ويفتح): شيء أسود يخلط بالمسك.

آخر كتاب الياقوتة الأولى في العلم والأدب وهو تمام الجزء الأول، يتلوه الجزء الثاني وأوله كتاب الجوهرة الأولى في الأمثال. ولله الحمد والمنة.

obeikandl.com

obeikandl.com

* فهـرس الموضوعـات

الموضوع	الصفحة
تقـــديم	٥
مقدمـة	٧
ترجمة ابن عبد ربه الاندلسي	١١
مقدمـة الكتاب	٢٣
كتاب اللؤلؤة في السلطان	٢٩
نصيحة السلطان ولزوم طاعته	٣١
مايصحب به السلطان	٣٣
اختيار السلطان لأهل عمله	٣٥
حسن السياسة واقامة المملكة	٣٨
بسط المعدلة ورد المظالم	٤٠
صلاح الرعية بصلاح الإمام	٤٣
قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه	٤٤
صفة الإمام العادل	٤٥
هيبة الإمام في تواضعه	٤٦
حسن السيرة والرفق بالرعية	٤٨
ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم	٥٠
التعرض للسلطان والرد عليه	٥٦
تحكم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه	٥٧

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
المشورة	٦٢
حفظ الأسرار	٦٤
الإذن	٦٦
الحجاب	٦٧
باب من الوفاء والغدر	٧١
الولاية والعزل	٧٢
باب من أحكام القضاة	٧٣
كتاب الفريدة في الحروب	٧٩
صفة الحروب	٧٩
العمل في الحروب	٨٢
الصبر والإقدام في الحرب	٨٤
فرسان العرب في الجاهلية والإسلام	٩٦
المكيدة في الحرب	١٠٠
وصايا أمراء الجيوش	١٠٣
المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير	١٠٨
الجبن والفرار	١١٠
فضائل الخيل	١١٨
صفة جياد الخيل	١١٨
سوابق الخيل	١٢٨
الحلبة والرهان	١٣٧
وصف السلاح	١٣٩
النزع بالقوس	١٤٣
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خرسان	١٤٦

obeikandi.com

الموضوع | الصفحة

باب في مداراة العدو ١٦٣
التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة ١٦٤
كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد ١٦٧
مدح الكرم وذم البخل ١٦٨
الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف ١٧٢
الجود مع الإقلال ١٧٤
العطية قبل السؤال ١٧٦
استنجاح الحوائج ١٧٨
استنجاز المواعيد ١٨١
لطيف الاستمناح ١٨٧
الأخذ من الأمراء ١٩٦
تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء ١٩٨
شكر النعمـــــــة ١٩٩
قلة الكرام في كثرة اللئام ٢٠١
من جاد أولاً وضنَّ آخراً ٢٠٢
من ضنَّ أولاً ثم جاد آخراً ٢٠٣
من مدح أميراً فخيبه ٢٠٤
أجواد أهل الجاهلية ٢٠٦
أجواد أهل الإسلام ٢٠٩
فمن جود عبيد الله بن عباس ٢١٠
جود عبد الله بن جعفر ٢١٢
جود سعيد بن العاص ٢١٣
جود عبيد الله بن أبي بكرة ٢١٥

obeikandi.com

الموضوع | الصفحة

جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي ٢١٥
الطبقة الثانية من الأجواد / فمنهم الحكم بن حنطب ٢١٦
ومنهم معن بن زائدة ٢١٧
ومنهم يزيد بن المهلب ٢١٧
ومنهم يزيد بن حاتم ٢١٩
ومنهم أبو دُلَف ٢٢٠
ومن أخبار معن بن زائدة ٢٢٠
ومنهم خالد بن عبد الله القسري ٢٢١
ومنهم عدي بن حاتم ٢٢١
أصفاد الملوك على المدح ٢٢٢
كتاب الجمانة في الوفود ٢٢٩
وفود همدان على النبي - ﷺ - ٢٣٠
وفود النخع على النبي - ﷺ - ٢٣١
وفود ثقيف على النبي - ﷺ - ٢٣٢
وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي - ﷺ - ٢٣٢
كتاب رسول الله - ﷺ - لأكيدر دُومة ٢٣٣
وفود نابغة بني جعدة على النبي - ﷺ - ٢٣٣
وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٣٤
وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٣٥
وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٣٧
وفود عمرو بن معد يركب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٣٨
وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٣٨
وفود عمرو بن معد يكرب على مجاشع بن مسعود ٢٣٩

obeikandi.com

الموضوع | الصفحة

وفود الحسن بن على رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه ٢٣٩
وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رضي الله عنه ٢٤٠
وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان ٢٤١
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان ٢٤٢
وفود جرير على عبد الملك بن مروان ٢٤٤
وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ٢٤٥
وفود دُكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ٢٤٥
وفود كثير والأحوص على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ٢٤٧
وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ٢٥٠
وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى ٢٥٣
وفود أبي عثمان المازني على الواثق ٢٥٤
كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ٢٥٥
البيـــــــان ٢٥٥
تبجيل الملوك وتعظيمهم ٢٥٦
قبلة اليـــــد ٢٥٧
من كره من الملوك تقبيل اليد ٢٥٨
حسن التوفيق في مخاطبة الملوك ٢٥٩
مدح الملوك والتزلف إليهم ٢٦٠
التنصل والاعتذار ٢٦٣
الاستعطاف والاعتراف ٢٦٦
تذكير الملوك بذمام متقدم ٢٧٣
حسن التخلص من السلطان ٢٧٤

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
فضيلة العفو والترغيب فيه	٢٧٨
بعد الهمة وشرف النفس	٢٨٠
مراسلات الملوك	٢٨١
كتاب الياقوته في العلم والأدب	٢٨٥
فنون العلم	٢٨٦
الحض على طلب العلم	٢٨٧
فضيلة العلم	٢٩٠
ضبط العلم والتثبت فيه	٢٩٣
انتحال العلم	٢٩٤
شرائط العلم وما يصلح له	٢٩٦
حفظ العلم واستعماله	٢٩٧
رفع العلم وقولهم فيه	٢٩٨
تحامل الجاهل على العالم	٢٩٨
تبجيل العلماء وتعظيمهم	٢٩٩
عويص المسائل	٣٠٠
التصحيف	٣٠١
طلب العلم لغير الله	٣٠١
باب من أخبار العلماء والأدباء	٣٠٢
قولهم في حملة القرآن	٣٠٦
العقل	٣٠٧
الحكمة	٣١٦
نوادر من الحكمة	٣١٧
البلاغة وصفتها	٣٢٠

obeikandi.com

الموضوع | الصفحة

وجوه البلاغـــــــة ٣٢٢
فصول من البلاغـــــــة ٣٢٤
آفات البلاغـــــــة ٣٢٧
باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة ٣٢٨
صفة الحلم ومايصلح له ٣٢٩
باب الســـــــودد ٣٣٥
ســـــودد الرجل بنفسه ٣٣٨
المـــــروءة ٣٣٩
طبقـــات الرجال ٣٤٠
الغوغـــــاء ٣٤١
الثقـــــلاء ٣٤١
التفاؤل بالأسمـاء ٣٤٢
باب الطيـــرة ٣٤٣
اتخاذ الإخوان ومايجب لهم ٣٤٤
أصنـاف الإخوان ٣٤٦
معاتبة الصديق واستبقاء مودته ٣٤٧
ومما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة ٣٤٨
فضل الصداقة على القرابة ٣٥٠
التحبب إلى الناس ٣٥١
مواصلتك لمن كان يواصل أباك ٣٥٢
الحســـــد ٣٥٣
محاســـدة الأقارب ٣٥٧
المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه ٣٥٧

obeikandi.com

الموضوع	الصفحة
السعايـــــة والبغي	٣٥٨
الغيبـــــــــة	٣٦٠
مداراة أهل الشـــــر	٣٦١
ذم الزمـــــان	٣٦٢
فســـــاد الإخوان	٣٦٣
باب في الكِبْـــــــر	٣٦٥
التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة	٣٦٧
ماجاء في ذم الحمق والجهل	٣٦٧
باب في التواضـــــــع	٣٦٨
الرفق والأناة	٣٦٩
استراحة الرجل بمكنون سرّه إلى صديقه	٣٧٠
الاستدلال باللحظ على الضمير	٣٧١
الاستدلال بالضمير على الضمير	٣٧١
الإصابـــــــــة بالظن	٣٧٢
تقديم القرابة وتفضيل المعارف	٣٧٢
فضـــل العشيـــــرة	٣٧٣
الـــديـن	٣٧٤
مجانبة الخُلف والكذب	٣٧٥
التنزه عن استماع الخنا والقول به	٣٧٦
باب في الغُلُوِّ في الدين	٣٧٦
القول في القدر	٣٨١
رد المأمون على الملحدين وأهل الأهواء	٣٨٧
باب من أخبار الخوارج	٣٩٠

obeikandi.com

الموضوع | الصفحة

رد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه على شوذب الخارجي ٣٩٣
القول في أصحاب الأهواء ٣٩٥
الرافضـــة ٣٩٦
باب في الحياء ٤٠١
باب جامع الآداب أدب الله لنبيه ﷺ ٤٠٣
باب أدب النبي ﷺ لأمته ٤٠٤
باب في آداب الحكماء والعلماء منه في فضيلة الأدب ٤٠٩
وفي رقة الأدب ٤١٢
الأدب في الحديث والاستماع ٤١٤
الأدب في المجالســـة ٤١٥
الأدب في المماشاة ٤١٨
باب الســـلام والإذْن ٤٢٠
باب في تأديب الصغير ٤٢٢
باب في حُب الولد ٤٢٣
باب الاعتضاد بالولد ٤٢٦
باب في التجارب والتأدب بالزمان ٤٢٧
باب في صحبة الأيام بالموادعة ٤٢٧
باب التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلاً ٤٢٩
باب الأدب في تشميت العاطس ٤٣٠
باب الإذن في القُبلة ٤٣١
باب الأدب في العيادة ٤٣٢
باب الأدب في الاعتناق ٤٣٥
باب الأدب في إصلاح المعيشة ٤٣٦

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
باب الأدب في المؤاكلة	٤٣٧
أدب الملوك	٤٣٨
باب الكناية والتعريض	٤٣٩
الكناية يُورى بها عن الكذب والكفر	٤٤١
الكناية عن الكذب في طريق المدح	٤٤٢
باب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة	٤٤٣
باب في الصمت	٤٤٤
باب في المنطق	٤٤٦
باب في الفصاحة	٤٤٧
آفات المنطق	٤٤٨
باب في الإعراب واللَّحن	٤٥٠
باب في اللَّحن والتصَّحيف	٤٥٢
نوادر من الكلام	٤٥٣
باب نوادر من النحو	٤٥٤
باب في الغريب والتقعيب	٤٥٨
باب في تكليف الرجل ماليس من طبعه	٤٦١
باب في ترك المشاراة والمماراة	٤٦٣
باب في سوء الأدب	٤٦٤
باب في تحنك الفتى	٤٦٧
باب في الرجل النفاع والضرار	٤٧١
باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم	٤٧٣
باب في الحركة والسكون	٤٧٧
باب في التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد	٤٧٩

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
باب في فضل المال	٤٨١
صنوف المال	٤٨٥
تدبير المال	٤٨٦
الإقـــلال	٤٨٨
الســـؤال	٤٩١
سؤال السائل من السائل	٤٩٣
الشـــيب	٤٩٣
الشباب والصحـــة	٤٩٦
الخضـــاب	٤٩٩
فضيلـــة الشيب	٥٠١
كبـــر السن	٥٠٢
من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه	٥٠٧
قولهم في القرآن	٥٠٨
فهرس الموضوعات	٥١١

obeikandl.com

obeikandl.com

الجمع التصويري والإخراج ـ *الفرقان*
هاتف ٤٠٤٣٧٣٢ فاكس ٤٠٤٣٧٨٧
الرياض ١١٤٧٥ ـ المملكة العربية السعودية